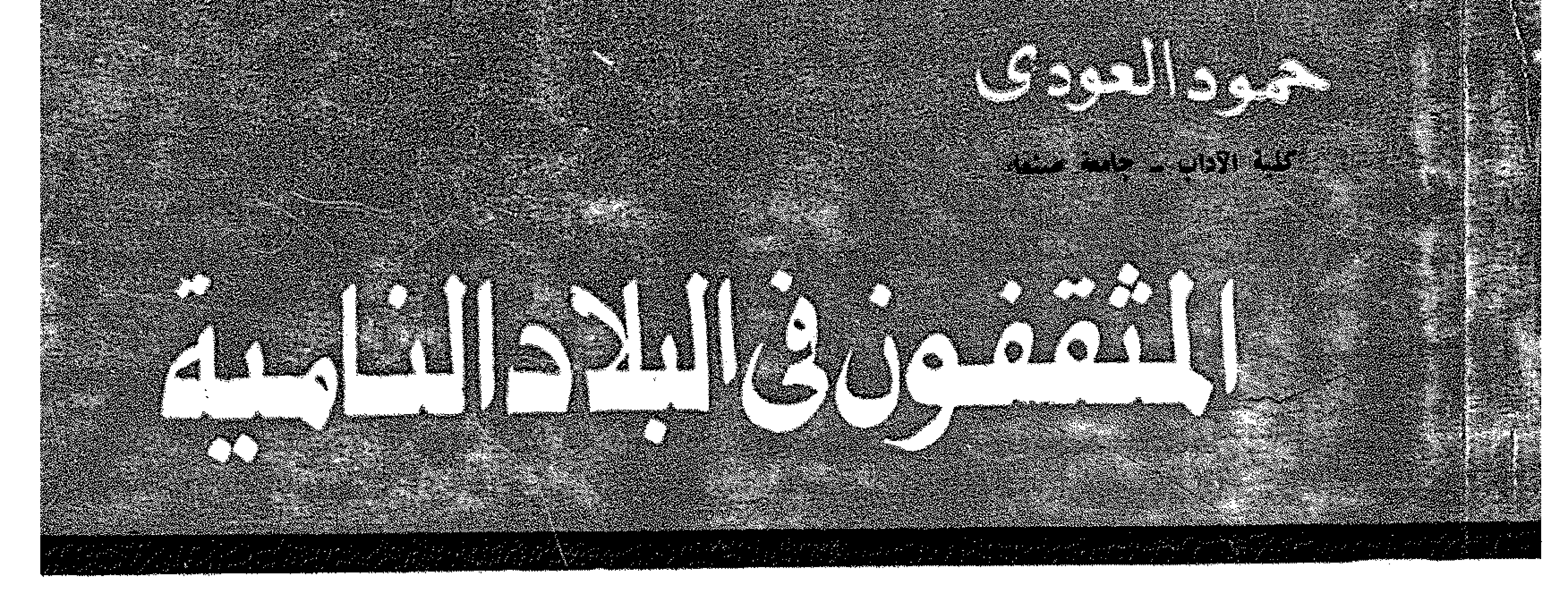


(بحث فى الفئات والعلاقات الطبقية)

مع دراسة اجتماعية تطبيقية عن المجتمع اليمنى

الناشر


الكتاب الثامن من
سلسلة كتاب ألف

المثقفون فى البلاد النامية

(بحث فى الفئات والعلاقات الطبقية)

مع دراسة اجتماعية تطبيقية عن المجتمع اليمنى

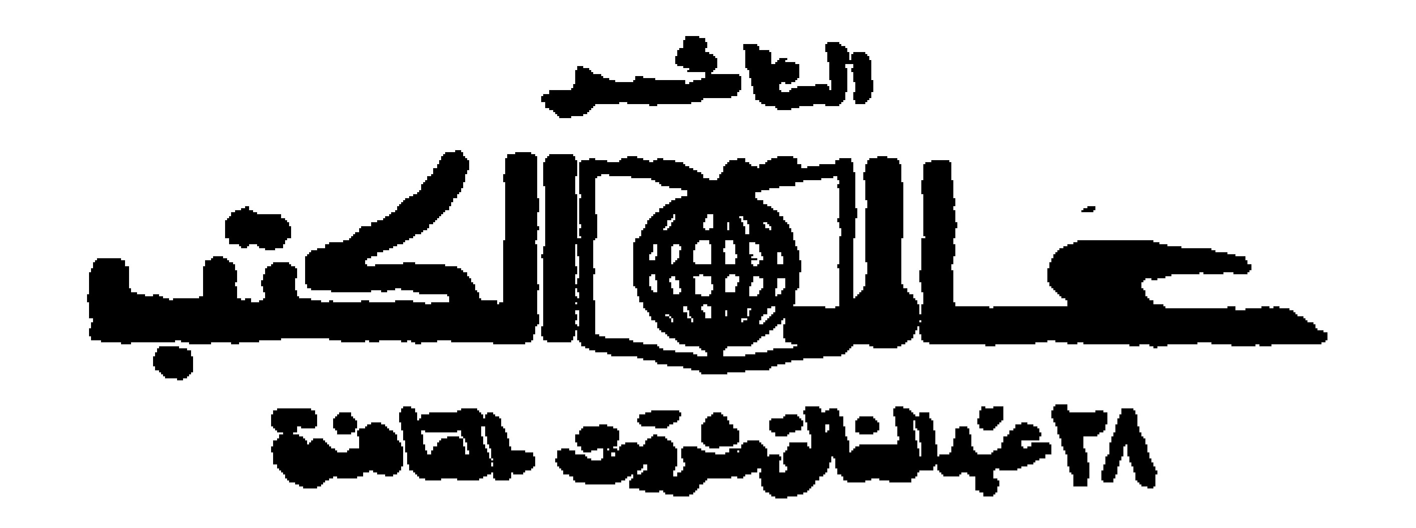
تأليف

حمود العودى

كلية الآداب - جامعة صنعاء

الطبعة الأولى
١٩٨٠

الناشر



٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

إهـــداء

الى استاذى العزيز الأستاذ الدكتور محمد الجوهرى ،
عرفانا وتقـــديرا لـكل ما قدمه من عطـــاء علمى ،
وما يبذله وزملاؤه من جهـد فى خدمة علم الاجتمـاع
المعاصر ، ووفاء ببعض ما وعدت به ...

حمودى العودى

المقدمة

لقد برزت قضية البلدان النامية والمتخلفة فى الثلاثة عقود الأخيرة ابتداء من مطلع الخمسينات وحتى الوقت الحاضر فى بداية الثمانينات ، وأصبحت محور كل الاهتمامات وموطن أبرز الوقائع والأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية الدولية ، وستظل كذلك فى المستقبل القريب والبعيد ، وبوسائل أكثر حدة وأهمية • وذلك بعد أن كانت هذه البلدان طوال أكثر من ثلاثة قرون مضت من السيطرة الاستعمارية مجرد مساحات جغرافية من الأرض والبشر التى لا تذكر الا باعتبارها متاعا خاصا لهذه الدولة الاستعمارية أو تلك •

ولقد تجسدت مراحل وتطورات هذه القضية ابتداء بمرحلة التحرر السياسى والقومى من الاحتلال الأجنبى التى بدأت من أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات وحتى منتصف الستينات تقريبا ، مرورا بمرحلة التحرر الاقتصادى والاجتماعى من التبعية الأجنبية والاستعمار الجديد فى الخارج ، وكل أشكال القوى الطبقية الاقطاعية القديمة والكمبرادورية الجديدة المتحالفة مع الاستعمار فى الداخل • حيث باشرت هذه الشعوب والمجتمعات النامية الدخول فى هذه المرحلة منذ أواخر الستينات وبداية السبعينات ، والتى ماتزال وقائعها مستمرة حتى الآن فى أكثر من منطقة من مناطق البلاد النامية على امتداد القارة الآسيوية والأفريقية وأمريكا اللاتينية ، ابتداء بثورة الشعب الايرانى والأفغانى فى آسيا ، مرورا بانتصار ونضال شعب « زيمبابوى » ـ روديسيا سابقا ـ فى أفريقيا ، وصولا الى حركات النضال الثورى المتصاعد فى نيكاراجوا ، والسلفادور وغيرها من بلاد أمريكا اللاتينية • وذلك وصولا الى الدخول فى مرحلة جديدة فى المستقبل القريب ، هى مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية ، والتى لم تباشر الدخول فيها الا أقطار محدودة حتى الآن ، كفيتنام واليمن الديمقراطية فى آسيا ، وأثيوبيا وأنجولا وموزامبيق فى أفريقيا ، وكوبا فى أمريكا اللاتينية •

وعبر كل هذه المنعطفات التاريخية الهامة فى حياة هذه الشعوب ظلت تختفى فى الأعماق حينا وتبرز على السطح أحيانا أخرى ، الكثير من

القضايا والمسائل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الجوهرية التى تعثرت ازائها وبسببها مقاييس الأداء المثالى المطلوب للحركة الوطنية فى هذه الشعوب حتى الآن ، نظرا لافتقارها الى الرؤية التاريخية والعلمية الواضحة والمواقف النظرية والعملية الناجزة تجاه مثل هذه القضايا والمسائل الجوهرية ، ابتداء برؤية الحل الصحيح لمشكلة الأرض الزراعية والسلطة السياسية فى ضوء مبدأ الصراع الطبقى ، وانتهاء بتشخيص ومعرفة كل المميزات والخصوصيات القومية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية أيضا فى كل مجتمع على حده ، والانطلاق من خلالها برؤية علمية وتاريخية جدلية واعية ومتعمقة ٠

ولقد كانت فئة المثقفين فى هذه المجتمعات النامية ولا تزال تشكل واحدة من أهم وأبرز هذه المسائل الجوهرية وأتعسها حظا فى الفهم العلمى الصحيح من جهة ، وأجدرها بالبحث والدراسة قبل غيرها من جهة أخرى ؛ نظرا لما لهذه الفئة الاجتماعية من الأهمية الثقافية والسياسية والاجتماعية المرتبطة جدليا بمجمل المسار الوطنى فى هذه الشعوب ومجمل البناء والتركيب الاجتماعى والطبقى بصفة عامة ، باعتبار أن هذه الفئة وبحكم طبيعتها تشكل القاسم المشترك بين مختلف الطبقات والفئات فى أى مجتمع ، ووسيلة التعبير المباشر وغير المباشر عن كل طموحاتها ومصالحها المتعارضة والمتناقضة باستمرار ٠

وبالرغم من التعاسة المتناهية لقدرة هذه الفئة فى البلاد النامية على فهم نفسها وطبيعة دورها والوعى به وعيا علميا وتاريخيا صحيحا طوال نصف القرن المنصرم ومجاراة المجتمع القومى لها فى هذا الفهم التعيس الى حد ما ، بحكم تخلفه المزمن ، الا أنها قد ظلت جدليا وبوعى منها أو بدونه تلعب دورا فعالا فى مختلف الأحداث ، وبصورة مليئة بالتشوهات النظرية والعملية منذ البدايات الأولى لمرحلة التحرر السياسى فى الأربعينات وحتى بداية السبعينات ، وما يزال معظمها كذلك حتى الآن فى أكثر من مجتمع من المجتمعات الناميةوالمتخلفة على امتداد القارة الآسيوية والأفريقية وأمريكا اللاتينية ٠

ومن واقع الاحساس العميق والشعور المقلق بمشكلة هذه الفئة الاجتماعية ذات الدور الاستراتيجى فى حياة كل المجتمعات نبعت فكرة هذه الدراسة وتبلور موضوعها فى ذهن الباحث منذ سنوات ٠٠ ويحدونى الآن الأمل الكبير وأنا أنقل أحاسيسى وملاحظاتى وفهمى لهذه المشكلة الى

القارىء العزيز من خلال هذه الدراسة ، يحدونى عظيم الأمل أن أوفق فى تشخيص كل المعالم والدلالات الاجتماعية الانتقائية المشوهة لنشأة هـــذه الفئة من المثقفين المعاصرين فى البلاد النامية بصفة عامة وفى المجتمع اليمنى بصفة خاصة ، وكذلك طبيعة الأدوار الســـياسية والاجتماعية الغامضـة والمشوهة أيضا التى ظلت تمارسـها هذه الفئات من المثقفين تجـاه نفسها وتجاه الواقع الاجتماعى من حولها طوال خمسين عاما مضت تقريبـا وحتى الآن ، وصولا الى تحديد طبيعة التكوين الطبقى والدور التاريخى الصحيح الذى يتوجب على هذه الفئات أن تقوم به بحكم طبيعة وجودها وتكوينهـا نفسه ، والذى تشير معظم الوقائع والتطورات اللاحقة فى نهاية السبعينات وبداية الثمانينات الى أن هذه الفئات قد بدأت فعلا تتخلى عن لعب أدوارها المشوهة القديمة وتباشر مهام دورها الصحيح فى أكثر من مكان على امتداد البلاد النامية والمتخلفة وفى المجتمـــع اليمنى بالذات ، وبخطا أكثر نضجا وثباتا من ذى قبل ، خصوصا ما يتعلق بفئة المثقفين التقدميين والثوريين بالذات ٠

واننى أؤمن بلا حـــدود بأن ما أقدمه فى هـــذه الدراســـة من آراء ومفاهيم وملاحظات لا أقدم الصعب الممتنع أو الحل الجامع المانع على الاطلاق ، وان أقصى ما أطمع فيه هو أن أقوى من خلال هذا الجهد على وضـــع اشارة واحدة مضيئة وموضع قدم واحد صحيح على هـــذا الطريق الذى مايزال بحاجة الى المزيد من البحث والتقصى ، خصوصا فيمـــا يتعلق بمجتمعنـا اليمنى بالذات ٠

يونيه ١٩٨٠

المؤلف

القسم الأول

مثقفو البلدان الشامية

النشأة والتطور

الفصل الأول

الدلالات والمفـاهيم النظـرية

معنى الثقـــافة :

ربما يكون من الأهمية بمكان فى بداية هـــذا البحث أن نحدد ماهية الثقـــافة والمثقف وخواص كل منهما وعلاقته بالآخر ، وذلـك حتى لا تتوه بقارئنا العزيز من أول خطوة فى متاهات المفاهيم الشائعة والسطحية لمعنى الثقـــافة والمثقف ، والبعيدة عن العرف المعـاصر للدراسة والبحث العلمى ومناهجه المنطورة فى علم الاجتماع والعلوم الانسانية بصفة عامة ٠

فالثقافة ليست هى ما تقوله وتنشره أجهـزة الاعلام والنشر الرسمية والتجارية ، أو هى ما يكتبه المثقفون ٠ وليست مفهوما مرادفا لهؤلاء المثقفين ومشروطا وجودها بوجودهم ، بحيث يجيز البعض لأنفسهم الحكم بأن أى مجتمع أو جماعة لا تتوفر لديها جماعة راقية من المثقفين والمتعلمين ووسائل الطباعة والنشر والتثقيف والتعبير الراقى من شعر ومسرح ومقـالة ونحوها فانه مجتمع أو جماعة تعيش بلا ثقـــافة والعكس بالعكس ، كما هو المفهوم الشائع الى درجة الظن الساذج بأنه لا ثقافة بغير مثقفين ٠ واذا جاز القول بأن ما يصدر عن تلك الأجهزة وما يكتبه ويفهمه هؤلاء المثقفون هو جـــزء من الثقافة وتعبير عنها بشكل ما ، الا أن ذلك لم يكن قط هو مفهوم الثقافة أو الثقافة نفسهـــا كما يظن الكثيرون بأى حال من الأحوال ٠ ان الثقـــافة الحقيقية ــ كما يقول لينين ــ لم تنبثق من مكان مجهول ولم يخترعها الناس الذين يقولون عن أنفسهم أنهم اختصاصيون فى ميدان الثقافة البروليتارية ، كل ذلك سخف وهراء ، ينبغى أن تكون الثقـافة البروليتارية هى التطور المنطقى لمجمل المعارف التى صاغتها الانســانية تحت نير المجتمع الرأسمالى ، ومجتمع الملاكين العقاريين(١) ٠

---

(١) فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم ، موسكو ، ص ١٢٢ ٠ لاحظ أيضـــا ان كلمة بروليتاريا فى النص لا تحد قط بمضمونها السياسى من المفهوم الشامل لمعنى الثقافة ، فهى الى جانب مدلولها السياسى الذى عرفت به كثيرا تحمل مدلولا اجتماعيا عميق الدلالة ، لأنها توازى كلمة (شعبى) تماما ، ولذلك فان مدلول الثقافة البروليتارية تعنى ثقافة الشعب الأكثر عمومية وشمولا ، وهى الثقافة الحقيقية وليس ثقافة فئة أو طبقة اجتماعية بعينها ٠

فالثقافة بمفهومها الأكثر شمولا ووفقا للمفهوم العلمى وبأبسط تعبير محدد هى الصورة الأكثر صدقا وارتقاء للواقع فى ذهن الانسان وأداة تنظيمه وتطويره • أو هى كما يؤكد قادة الفكر العلمى عامة ، الانعكاس الذهنى لتعامل الانسان مع الطبيعة والمادة عبر تاريخه الطويل •

وهناك الكثير من المفاهيم والتعاريف الكلاسيكية السابقة لهذا التعريف العلمى الشامل كانت تصدرها الكثير من الشعوب والأمم المعاصرة كتعبير عن العواطف القومية والتاريخية وبدافع الحماس لها ، بل وأحيانا كمبررات لممارسة التسلط الاستعمارى والعنصرى وادعاء التفوق النازى • أو كمحاولات أولية باهتة لتحديد ماهية هذه القضية الهامة المتعلقة بمعنى الثقافة منذ وقت طويل •

فالانجليز مثلا يقولون على لسان ممثلهم تايلور Taylor فى تعريفه الكلاسيكى القديم للثقافة بأنها ذلك الكل المعقد الذى يتضمن المعرفة والمعتقدات والقانون والأخلاق والعادات وأى قدرات وعادات يكتسبها الانسان كعضو فى المجتمع • وتلك محاولة مبكرة لتحديد معنى الثقافة • أما الألمان فانهم قد اتجهوا بدافع من الاحساس القومى بالتفوق والعراقة التاريخية التى افترضها مفكروهم لأنفسهم ولشعبهم ، اتجهوا الى تعريف الثقافة بأنها مظهر روحى أصيل وحر للتجمع البشرى مجسدا فى شعبهم فقط ، وذلك خلاف ما يراه الأمريكان الذين لا يملكون تاريخا يتجاوز المائتين عام حيث يعرفون الثقافة والحضارة بأنها هى ما نحن it is us فى الوقت الحاضر وأن المدنية هى ما نستعمله what we use كما يقول ماكيفر • ويرى الفرنسيون بزعامة دور كايم أن الثقافة هى ظاهرة اجتماعية محلية غير قادرة بطبيعتها على الحركة والانتقال دون أن تتغير • ويمثل وجهة النظر العربية الأكثر قدما وكلاسيكية بالنسبة لكل ما سبق العلامة ابن خلدون حيث يعرف الثقافة والحضارة بأنها الحالة المقابلة للبداوة واللاحقة لها وهى آتية من التحضر ، أى الاقامة فى الحضر(٢) •

والثقافة بالمفهوم الأكثر جدة ومعاصرة فى نطاق العلم الاجتماعى ، وكامتداد متطور للمفهوم العلمى الشامل للثقافة السابق ذكره وبتفصيل

---

(٢) انظر حمود العودى : المتطور العلمى للثقافة ، دراسة خاصة عن المجتمع اليمنى ، طبعة القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١١ و ١٢ •

أكثر ، هي مفهوم ذي شقين رئيسيين : فهى من جهة تشكل مجموع ما يباشره الفرد أو الجماعة من فعاليات وممارسات تجاه الطبيعة والواقع المادى بحكم وجوده فيه ، وما يقوم به من عملية تحويل حضارى فى تشكيل هذا الواقع واعادة صنعه في شكل منجزات وأدوات مختلفة ، وهي من جهة أخرى أو في جانبها الآخر تشكل مجموعة المقاييس الذهنية والنظم والمعايير الاقتصادية والأدبية والأخلاقية في ذهن الانسان الناجمة عن مجموع تلك الفعاليات والممارسات والمنظمة لها فى الوقت نفسه ٠

الأمر الذى قد نختلف فيه فى هذا الشأن مع بعض الباحثين الاجتماعيين والأنثروبولوجيين بالذات الذين ما يزالون يفصلون فصلا حادا فى تعريفهم للثقافة ، بين الجانب المادى والجانب الذهنى الى حد افتراض وجود ثقافتين مادية ولا مادية ، وذلك بناء على رأى برجوازى قديم صاغه (أوجبرن) فى هذا الشأن لم يعد صالحا بالضرورة ، ونحن لا نرى أهمية لهذا الفصل الا باعتباره تصنيفا فنيا ومنهجيا وليس تقسيما موضوعيا ، الأمر الذى يؤكده الدكتور محمد الجوهرى بقوله : ان هذه التقسيمات بين العناصر المادية وغير المادية تقسيم مصطنع لا يستهدف سوى تيسير البحث العلمى ، وذلك أن الثقافة كما نعلم هى كيان واحد تربط أجزائه علاقات تفاعل كثيفة لا تسمح بهذا الفصل الا للأغراض النظرية فقط(٣) ٠

فاذا كان من الجائز اعتبار تشكيل الانسان للمادة واعادة صنعها فى شكل أدوات مختلفة كتعبير وترجمة لمفاهيمه الذهنية شكل من أشكال الثقافة أو جانب منها ، الا أنه لا يمكن اعتبار المادة نفسها ثقافة قائمة بذاتها فنجزم بوجود ثقافة مادية وأخرى لا مادية ، فالمادة والفكر أو الواقع المادى والذهنى أو النظر والعمل أو الواقع والفكر ، كلها قضايا لم تعد قابلة للتجزئة ، ذلك أن النشاط الذهنى للانسان لا يبدأ من فراغ ولا يقوم بافناء المادة أو خلقها من العدم ، ولكنه يعكسها ويعبر عنها بصورة أرقى ٠

فالثقافة من وجهة النظر الاشتراكية العلمية والتاريخية أيضا هى النهوض الروحي الكامل للشعب فى مختلف مجالات الفكر والفن والأدب وكل ما أنتجه الانسان من خيرات مادية ، وهى تتحقق على

(٣) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف المصرية – الطبعة الأولى ١٩٧٨ ص ١٠٦ ٠

أساس النهوض المـادى للشعب ، ولا يمكن الفصل بين النهوض الروحى والمادى فكلاهما يكملان بعض ويشكلان بنـاء واحدا لمجتمع راق تكون فيه القوى المنتجة فى وضع يمكنها من الجمع المتناسق بين تلبية حاجاتها المادية وحاجاتها الروحية(٤) ٠

وهذا التعبير والارتقاء هو ما يدل على معنى الثقافة والفكر بصفة عامة ، فالناس أثناء تطوير انتاجهم المادى انما يغيرون وجودهم الحقيقى وأساليب تفكيرهم وكل ما ينتج عن هذا التفكير ، فليس وعى الناس هو الذى يحـدد وجودهم ولكن وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم(٥) ٠

فالمزارع حينما يباشر لأول مرة استصلاح قطعة من الأرض فانه يقوم بمباشرة عملية ممارسة فى الواقع المـادى ممثـلا فى قطعة الأرض ، وحينما يقتطع بعض الأخشاب المتينة ويصنع منها محراثا لزراعة الآرض بعد تمهيدها ويزرعها بالفعل ويقيم له مسكنا بالقرب منها ويربى الحيوانات التى يحصل منها على اللبن والجبن والأثاث ٠٠ الخ ، فان هذا الانسـان الى جانب كونه يقوم من خلال كل ذلك بممارسات وفعاليات عملية تجاه الواقع المادى بحكم الضرورة والحاجة الى البقاء ، فانه يقوم فى الوقت نفسه بعملية تحويل هذا الواقع تحويلا حضاريا وثقافيا(٦)٠ واعادة صنعه بشكل أكثر فائدة وجمالا ، وبطريقة أكثر ارتقاء وتقدما بالنسبة له ٠

وهو حينما يحدد نوع المحصول الذى يزرعه فى الأرض وطريقة طبخه وتناوله ، وحينما يختار نوع المواد الطبيعية المناسبة لبناء مسكنه « أحجار ـ

---

(٤) عبدالفتاح اسماعيل : فى كتاب مناقشات حول الثقـافة اليمنية ، دار بن خلدون بيروت ١٩٧٥ ص ١٦ « شارك فيها عدد من المثقفين اليمنيين » ٠

(٥) راجع د٠ محمد على محمد : القيم الثقـافية والتنمية فى كتاب دراسـات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ ص ٣٥٨ ٠

(٦) التحويل الحضارى للواقع من قبل الانسان يشير الى المعنى الأكثر شمولا وعمومية لعلاقة الانسان بالطبيعة والمجتمع منذ وجد ، وهو المعنى الدال على الحضارة نفسها باعتبارها تشكل مجموع كل مظاهر تدخل الانسان فى الطبيعة وفكرته عنها والمتراكمة منذ القدم وحتى الآن ، بغض النظر عن كونها ما تزال ذات طبيعة فعالة فى حياته الحاضرة أم لم تعد كذلك ٠ بينما يشكل التحويل الثقافى للواقع أو الثقـافة نفسها الجانب الحى والفعال من الحضـارة فى حيـاة الناس الراهنة والمنظم لها ، سـواء كان موروثا من المـاضى أو ممـا يضيفونه هم أو يصنعونه فى الحـاضر ، وسنتناول الدلالات المختلفة لـكل من الحضارة والثقـافة والمدنية فى الصفحات التالية بشىء من التفصيل ٠

أخشاب ـ طين ـ أشجار ٠٠ الخ »(٧) وكيفية بناءه وتوزيع مرافقه وحينما ينظم علاقته مع من يعيشون ويعملون معه من أفراد أسرته أو جماعته فيما بينهم أو تجاه الغير وفق مقاييس ومعايير اجتماعية معينة « تزاوج ـ عمل ـ حب ـ حقوق ـ واجبات ـ جزاءات ـ عقوبة ٠٠ الخ » ٠ وحينما يعبر عن نجاحاته واخفاقاته وطموحاته وآماله في كل هذا الخضم الواسع من الفعل ورد الفعل بكثير من المعـــاني والمفاهيم الدالة على النجـاح والفشل والصح والخطأ والحسن والقبح والتفـاؤل والتشاؤم ٠٠ الخ ، ويصيغها جميعـــا في شكل حقائق ومعارف مادية وعملية حينا ومفاهيم أدبية وأخلاقية وفنية ودينية أحيـانا كثيرة انما هو يقوم من خـــلال كل ذلك بعملية تجريد عقلي وذهني بطريقة ما لمجمـــوع ممارساته وفعاليـاته الواقعية ووضع المقاييس الذهنية النـاجمة عن مجمـوع تلك الفعاليات والممارسات وخبرة الانسـان المتراكمة عنهـا والمنظمة لفعله وسلوكه وتصرفاته نحوها في الوقت نفسه ، ضمن سياق تاريخي وجدلي دائم الحركة والتغيير والتطور بلا توقف ٠

وعلى عكس ما تقوله المفاهيم المثالية والتي تريد أن تعزل الثقافة عن الواقع المادي ، فان انتاج الخيرات المادية ـ كما يقول علي باذيب ـ هو الذي يشكل قاعدة ومصدر الثقافة الروحية(٨) ٠ ويمكن اعتبار التعريف المقتضب والمحدد الذي صاغه الدكتور محمد الجوهري حديثـا هو أكثـر التعريفات دلالة على المعنى العلمي للثقـافة ، فقـد حددها من وجهة نظر الانثروبلوجيا الثقافية وعلم الاجتماع المعاصر بأنها : هي البيئة الثـــانوية التي من صنع الانسان ، أي كل ما صنعه الانسان للتعامل مع البيئة الطبيعية (التي تعـد البيئة الأولية) من عناصر مادية وروحية على السواء(٩) ٠

نخلص من كل ذلك الى أن الثقافة بالمعنى الشامل والمحدد هي : الفعل المباشر للانسان في الواقع وما ينجم عنه من أداة أو فكرة تعمل مباشرة على تنظيم هذا الفعل والوعي به وزيادة نموه أكثر فأكثر في الوقت الحاضر ٠

المدلول العلمي للحضارة والثقافة والمدنية :

وبعـد أن انتهينا من مســـألة ايضاح تعريف ومدلول المعنى العلمي

---

(٧) د٠ دورسون : نظريات في الفولكلور المعاصر ، ترجمة الدكتور محمد الجوهري ، والدكتور حسن الشامي ، دار الكتب الجامعية القاهرة ١٩٧٢ ص ٢٠ ٠

(٨) علي باذيب : في كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ١٩٧٥ ص ١٠٥ ٠

(٩) د٠ محمد الجوهري : علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث ١٩٧٨ ص٨٩ ٠

للثقافة في حدود ما يسمح به حيز هـذا البحث ويحقق غرضه ، نجد أنه من الضرورة توضيح مدلول مصطلحات أخرى ذات علاقة جوهرية بمصطلح الثقـــافة وهما مصطلحي الحضارة والمدنية ، وذلك قبل الدخول فى صميم موضوع هـذا البحث الذى سيدور أساسا حول ظاهرة المثقفين فى البلدان النامية والمتخلفة ٠

ونظرا لمـا هو معروف عن هذه المصطلحات مجتمعة من مفاهيم ومذاهب ووجها نظر فلسفية واجتماعية وتاريخية شديدة التعقيد والتشعب والتباين الى هذا الحد أو ذاك وعلى نحو لا يسمح باستعراضها أو حتى مجرد الاشارة اليها هنا ، والذى قد يكون القيام بشيء من هذا القبيل لا يعدو مجرد كونه فعل من قبل تحصيل حاصل بل هو تصرف قد يخرج في جوهره عن موضوع هذا البحث وهدفه الأساسى ٠ الا أن ما نحرص عليه فى نطاق خدمة موضوع بحثنا وتحقيق تكامله النظرى والموضوعى من جهة ، ويساعد القارىء العزيز على تفهم كل أبعاده بوضوح من جهة أخرى ، هو أننا سنقوم فى هذه الفقرة بتقديم لمحة سريعة ومركزة عن مدلول مصطلحى الحضارة والمدنية وعلاقتهما بمصطلح الثقافة الذى سبق تحليله ، وذلك فى ضوء مجمل المفاهيم والمذاهب ووجهات النظر الفلسفية والاجتماعية والتاريخية الشائعة فى هذا الصدد ، وبرؤية أكثر حداثة لا تخلو من الاجتهاد والاضـافة الجديدة ، دون اللجوء الى التفاصيل والمقـــدمات وعرض وجهـات النظر التقليدية التى لا يطيقها موضوع بحثنا كما سبقت الاشـارة ، والتى يستطيع القــارىء أن يجدها فى عشرات ومئات المجلدات الخاصة بهـذا الأمر ، عوضا عن كونها بالرغم من ذلك لم تقدم بعد حلا علميا ناجزا لهذه المسائل المعقدة فى حياة الانسان وتاريخه وفكره ٠

(أ) الحضـارة

اذا جاز لنا القول بتعريف محدد لمعنى « الحضارة » بـكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى فى ضـوء ما قيل أو كتب أو ما يقودنا اليه جهـــدنا الذهنى والعقلى من خـلال ما يفعل أو يقال أيضـــا فهو القول : بأن معنى الحضارة ومدلولها الواسع يتجسد فى كل مظاهر تدخل الانسان فى الطبيعة وتحويلها عبر التاريخ ، وما ينجم عن هذا التدخل والتحويل من فكر ومعرفة متجددة بلا انقطاع ، انها امتـــداد وجود الانسان خارج ذاته فى كل زمان ومكان ٠

وبذلك فان الحضارة تشكل الاطار الأكثر شمولا واستيعابا لنشاط الانسان وانجازاته المادية والذهنية منذ فجر التاريخ القديم ، وما يحدثه في الوقت الحاضر ، وما قد يحدثه في المستقبل أيضا • فاشعال النار وزرع البذور واستئناس الحيوان وركوب البحر منذ فجر التاريخ قد شكلت البدايات الأولى لمظاهر تدخل الانسان في الطبيعة ومحاولة تحويلها لأجله منذ القدم ، كما أن كل مجموع أفكاره الصحيحة والخاطئة عنها هي انعكاس لفعله وتدخله فيها من جهة وتعبير عن رغبته العميقة في تفسيرها وتحويلها لأجله بطريقة ما من جهة أخرى • وانسان الحاضر لا يختلف كثيرا عن انسان الماضي الا في حدود نسبية ، حيث أنه بالرغم من زيادة فاعلية تدخله في الطبيعة وتحويلها لأجله وزيادة نموه وتراكم أفكاره الصحيحة عنها ، الا أنه ما تزال له طموحاته غير المحدودة في التدخل في شئونها وتحويلها لأجله أكثر فأكثر ، وما يزال عليه أن يكتشف الكثير من أفكاره الخاطئة عنها ويصححها ويضيف اليها أفكارا جديدة ، كما أن انسان المستقبل سوف لن يخرج كثيرا عن هذا المسار الا بحدود نسبية •

ومن بين مجموع هذه التراكمات والتحولات والاضافات يتجسد المدلول الحضاري لتاريخ الانسان ووجوده الحضاري أيضا الممتد خارج ذاته والمستمر في كل زمان ومكان ، والذي يتفرد به عن بقية الكائنات الأخرى بمقاييس لا تدرك أو تجاري بسهولة •

والحقيقة أن المدلول السابق لمصطلح (الحضارة) بقدر ما أنه يوحي بالشمول شبه المطلق لممارسات الانسان وتفكيره ووجوده الا أنه شديد الوضوح وبارز الدلالة من الناحية الموضوعية واللغوية معا ، أكثر من أي تعريف أو مدلول آخر عن هذه القضية ، كما أن البحث عن أي جانب من جوانب حياة الانسان في نطاق هذا المدلول الحضاري ، كالحب أو الجمال أو العلم بما في ذلك الثقافة والمدنية يصير أمرا بديهيا وأكثر قبولا ، فكون الانسان يبحث عن أي شيء أو يصنع أي شيء أو يفكر في انجاز أي شيء في نطاق مدلول وجوده الحضاري الشامل هو الأمر الذي يبدو أكثر بداهة وقبولا ، موضوعيا ولغويا مما لو أراد أن يصنف كل ذلك أو بعضه ويمارسه في نطاق السياسة أو الدين أو مجرد تشابه الأحداث التاريخية وحدها •

فاذا كان المدلول السابق لكلمة « حضارة » قد تميز بهذا الشمول والعمومية لمظاهر نشاط الانسان العملي والذهني الى هذا الحد في الماضي والحاضر والمستقبل وفيما يشبه عملية الاستيعاب المطلق لمدلول وجوده

فما الذى سيبقى اذن للحديث عنه كثقافة أو مدنية في حياة هـذا الانسان وتأريخه ؟؟ خصوصا اذا ما تذكرنا بأنه من الملاحظ أن المدلول الاصطلاحى لكل من الثقافة والمدنية هما من أشد جوانب حياة الانسان اقترابا وتشابها بالدلول الموضوعى والاصطلاحى السابق لكلمة « حضارة » الى حد التداخل الشديد واحلال أى من هذه المصطلحات الثـلاثة محل الآخر لدى أوساط عديدة من المفـكرين والفلاسـفة ، أو الاستغناء بأحدهم للدلالة على البقية ، الى حد انعـدام القـدرة على التمييز بين دلالة كل منهم على حدة فى كثـير من الأحيان(١٠) ٠

لذلك فقط رغبنا جادين فى هذا الجزء من هذه الدراسة فى التركيز على محاولة تبيـان المدلولات الاصطلاحية والموضوعية لمصطلحات الثقـافة والمدنية ، وعلاقة كل منهما بالآخر وبمصطلح الحضارة السابق تحليله ٠

(ب) الثقـافة

فالثقافة فى ضوء المدلول السابق للحضارة يمكن النظر اليها باعتبارها الجانب الحى والفعال من الحضارة والذى لم يفقد وظائفه المباشرة بعد ، والممثلة فى مختلف أنماط الفعل والسلوك والتفكير السائد بين الناس حاليا ، والمنظم لحياتهم والحـائز على درجة معقولة من التقبل من جانبهم ٠ وحتى نوضح بسهولة دلالة هذا التعريف لمصطلح الثقافة باعتبارها الجانب الأكثر فعالية من الحضارة فى الوقت الحاضر ، فى مقابل الجوانب الأقل فعالية وتأثيرا فى حياة الانسـان الحـاضرة والتى تتضمن المعنى الأكثـر دلالة واتسـاعا لمعنى الحضارة ، فاننـا سوف نضرب مثالا حيا لتوضيح هـذه القضية من خلال المقارنة بين الهرم الأكبر ومعبـد الكرنك من جهة ، والمسجد أو الكنيسة من جهة أخرى ، كرموز للسلوك الدينى وأماكن بنيت أساسا لممارسة هذا السلوك وأداء شعائره المختلفة ، حيث يمثل المسجد والكنيسة مثلا ظاهرة ذات دلالة ثقافية بالمعنى المشـار اليه سابقا فى نطـاق الوجود الحضارى الشامل للانسان ، باعتبـار أن المسجد والكنيسة يمارس كل منهما وظيفته المادية والمعنوية المباشرة التى بنى من أجلها ، ويتميز سلوك الانسان نحوهما بالجدية والالتزام ، باعتبـاره سلطة قائمة تستوجب الطاعة والاذعان لما تقضى به هذه الرموز الدينية ، وذلك على خلاف الهرم أو معبد الكرنك الذى كان يمارس مثل هذه الوظيفة والفاعلية المباشرة فى حياة الانسان فى يوم

---

(١٠) راجع ما سبق ٠

من الأيام ولا تقل أهميته ولا تختلف شكلا ومضمونا عن المسجد أو الكنيسة في الوقت الحاضر الا في حدود نسبية ، الا أنه « أي الهرم » قد فقد كل تلك الوظائف والفعاليات المباشرة تماما وصارت علاقتنا به اليوم هامشية الى أبعد الحدود « مجرد مكان للنزهة واسترجاع ذكريات التاريخ وقراءة أحداثه » فالمسجد والكنيسة والنادي والسينما ونظام المرور ظواهر ثقافية ، واهرام مصر ومعابدها القديمة وبرج بابل وسد مأرب وقصر الحمراء وأخبار غرناطة ، ظواهر أكثر التصاقا بالمضمون الحضاري التراكمي الأكثر شمولا والتي لم يعد لها أي تأثير مباشر في حياتنا الا بصورة غير مباشرة في أحسن الأحوال ٠

وقس على ذلك السفن الشراعية القديمة بسفن البحار الحديثة ، وايقاد شعلة الحطب للاضاءة في الماضي ، بمصابيح الكهرباء في الوقت الحاضر ، وعربة الخيل بالسيارة والطيارة ٠٠ الخ ، الى ما لا نهاية ٠ وهكذا أشياء وجدت منذ وجود الانسان ولعبت أدوارا ووظائف هامة في حياته ثم تخلت عن تلك الوظائف المباشرة لتشكل البعد التراكمي الغير مباشر في تاريخ الانسان ووجوده الحضاري الأكثر شمولا ، وحلت محلها أشياء جديدة في الوقت الحاضر أكثر تطورا ، وتمارس فعاليات ووظائف أكثر تعقيدا في حياة الانسان وسلوكه لتشكل ما نقصده بالجانب الثقافي من الحضارة أو الثقافة نفسها في اطار المفهوم الحضاري ، وهذه الأشياء قد تتخلى حتما عن دورها هذا ووظيفتها هذه في المستقبل ، لتأخذ مكانها على هامش الحياة مفسحة المجال أمام أشياء أكثر جدة وتطورا وفعالية في حياة الانسان ، ضمن عملية ديالكتيكية جدلية مستمرة لا تتوقف ٠

(جـ) المدنيـة

يمكن النظر الى المدنية في نطاق المدلول الحضاري الشامل أيضا باعتبارها « المسافة التي تشكل نقاط التفاعل والاحتكاك المتجدد بين الابداع الانساني الجديد والاتباع الثقافي السائد في مرحلة زمنية وتاريخية معينة » والتي تبدأ باحداث الأشياء الجديدة لأول مرة من جهة والمحاولات الأولى لتطبيق مدى صلاحيتها ومدى تقبل الواقع الاجتماعي لها وقدرته على التكيف معها من عدمه ، انها مرحلة التهجين الأولى لاحداث الأشياء الجديدة من خلال تطوير الأشياء القديمة أو الاضافة اليها ، واجراء التعديلات وعمليات الاختبار والتجارب الأولى لمدى صلاحيتها في الواقع المادي وتناسبها مع الواقع الاجتماعي وتقبله لها من جهة أخرى ، وبمجرد أن تثبت هذه الأشياء أو بعضها

ـ مادية كانت أو معنوية ـ صلاحيتها فى الواقع وقبولها من قبل أفراد المجتمع واستقرارها فى تفكيرهم وتطبيقها فى سلوكهم وممارستهم فانها تكون بذلك قد تحولت من عناصر مدنية الى عناصر ثقافية ملزمة اجتماعيا ٠

فارتداء البنطلون وحلاقة شعر الذقن عند الرجال والميكرو جيب عند النساء وحتى خروجهن سافرات الى العمل والحياة العامة كلها كانت وحتى مرحلة ليست بالبعيدة أبدا فى واقعنا العربى مثلا ، أمورا ذات حساسية بالغة ، ودار حولها الجدل المرير على مستوى الواقع والفكر ابتداء من أشد المواقف رفضا مرورا بأكثرها ميلا الى مجرد التردد والحذر والمحاكمة الذهنية وحتى أشدها تطرفا بوعى وبدون وعى ٠ وتلك هى فترة أو مرحلة ما نقصده بتيار المدنية أو بالمدنية نفسها بالنسبة لوجود الأشياء وتطورها ، أو ما يعرف « بالموضة » بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، أو الصدمة الأولى للمدنية حيث ما تلبث مثل هذه الأمور أن تشق طريقها نحو الاستقرار والتقبل أكثر فأكثر فى صميم الحياة الاجتماعية والثقافية بعد أن تتعرض لبعض التعديلات من مجتمع لآخر الى هذا الحد أو ذاك ، ويصبح الخروج عليها هو الأمر الذى يستحق العقوبة الاجتماعية ٠ وقس على ذلك استخدام ساعة اليد وأنبوبة البوتاجاز وتناول الطعام على السفرة قعودا على الكراسى والميكروفونات فى المساجد ٠٠٠ الخ ٠

العلاقة الجدلية بين مدلول كل من الحضارة والثقافة والمدنية :

فى ضوء ما سبق يمكن أن نلاحظ بوضوح أن المدنية هى الحيز أو المسافة الممتدة بين ما يبدعه الانسان وينتجه أو يقدم اليه لأول مرة لكى يتعرف عليه ويلتزم به فى حياته الجديدة كمدنية ، وبين ما هو يعرفه ويلتزم به أصلا « كثقافة » ٠ وأن الثقافة هى الحيز أو المسافة التى تبدأ من هذه النقطة « نقطة الاعتراف بالأشياء وتقبلها والالتزام بها كاطار منظم للفكر والسلوك والعمل » ، وتنتهى عند البدء بالتخلى عن الالتزام المباشر بالوظائف المباشرة لهذه الأشياء والظواهر فى حياة الفرد والمجتمع عند تطويرها أو استبدالها بأشياء جديدة بعد نقلها الى مواقع هامشية فى حياة الانسان وتاريخه ، وأن الحضارة بأكثر دلالالتها شمولا واتساعا بقدر ما أنها تشكل الاطار الذى يحدث الانسان فى نطاقه كل هذا ، فهى من باب أولى تشكل البعد التراكمى الهائل الذى يجسد كل ما يحدثه أو أحدثه الانسان عبر تاريخه الطويل والاحتفاظ به كبعد اجتماعى وثقافى غير مباشر ، خصوصا ما يتصل من ذلك بالأشياء والظواهر التى تفقد وظائفها المباشرة فى اطار المدلول الثقافى الراهن للمجتمع وتشكل المذخور التاريخى والروحى والوجدانى العميق غير المباشر لوجود الانسان وتصرفاته المباشرة ٠

فالذى فكر فى ايقاد أول مصباح زيتى لمكافحة الظلمة من حوله قد باشر حدثا حضاريا من حيث كونه قد تدخل فى شئون الطبيعة الأصلية ، الا أن هذا الفعل فى تلك اللحظة كان ما يزال أيضا يشكل ظاهرة مدنية من حيث كونه شيئا جديدا كان ما يزال على مخترعه وكل من حوله أن يقيم هـذا الفعل ويفكر فى مدى جدواه من عدمه بالنسبة لهم ، فاذا ما قبلوا به فانهم ملزمون بتعلم بعض المعارف الأساسية عن تكوينه وكيفية استخدامه والتعامل معه (كيف يشعلونه ، ومتى ، وما هى المخاطر المترتبة على سوء الاستخدام ٠٠ الخ) وبذلك يتحول من ظاهرة مدنية خاضعة للتجربة والعرض والطلب جائزة القبول والرفض الى ظاهرة ثقافية واجتماعية ملزمة وجزء لا يتجزأ من التنظيم الاجتماعى وضروراته ٠

وحينما جاء المصباح الكهربائى كشكل أكثر تطورا فى تدخل الانسان فى شئون الطبيعة واكتشاف قوانينها لأجله فانه قد مر بنفس الخطوات التى مر بها المصباح الزيتى منذ البداية حتى صار ما نعيشه اليوم ظاهرة حضارية فى الأساس وثقافية فى الوظيفة والفاعلية المباشرة فى حياة الناس فى الوقت الحاضر وجزء لا يتجزأ من التنظيم الاجتماعى وضرورات وجوده الملحة ٠

وبينما كان مصباحنا الكهربائى الجديد هذا آخذ فى التحول من ظاهرة مدنية الى ظاهرة ثقافية كان مصباحنا الزيتى القديم ذاك آخذ فى التخلى عن مهامه ووظائفه وفعالياته المباشرة فى حياة الناس فيما يشبه عملية تناسب عكسى منظم ودقيق ، حتى صار اليوم على هامش الحياة الاجتماعية تماما ، بعد أن كان فى نقطة ارتكازها ، وصار اضافة جديدة فى المذخور التراكمى الهائل لتاريخ الانسان ووجوده الحضارى والروحى الممتد فى الماضى وغير المباشر فى الحاضر ، هناك حيث سفينة الشراع والفأس الحجرى والتقاط الثمار وعبودية الأرض والانسان ، وعلى هذا فقس كل الماضى وما هو آت ٠

ومن خلال كل هذا وبرؤية هادئة ومتعمقة نستطيع القول بأن المصطلحات الثلاثة « الحضارة والثقافة والمدنية » هى ذات دلالات موضوعية فى الواقع وممكن القبول بها نظريا وعمليا وليست مجرد مصطلحات لغوية يمكن احلال بعضها محل البعض الآخر أو الاستغناء ببعضها عن بعض أو تحميلها من المعانى والدلالات ما لا صلة لها به ، انسياقا وراء توجهات ايديولوجية أو قومية أو سياسية وعنصرية مغرضة بعيدة عن العلم ، كما كان شائعا فى الماضى وما يزال ٠

هذا من جهة ومن جهة أخرى فان العلاقة التى تربط بين هذه القضايا الأساسية هى علاقة ديالكتيكية وجدلية مترابطة وشديدة الوضـوح وبالغة الدلالة تاريخيا وعلميا • ولنتتبع الحركة الجدلية للأشياء والظواهر فى هذا الصدد وهى تعبر من الواقع الى ذهن الانســان حيث تتشكل بصورة أرقى وتتجسد بفعـله فى الواقع من جـديد فى شكل أشـياء وأفكار جديدة هى ما نطلق عليه المدنية أو مرحلة المدنية للأشياء ، حينما تقـدم للمجتمع لأول مرة لكى يتعرف عليها ويتذوقها ويختار منها ما يناسبه كأطر ومقاييس جديدة لحيــاة جديدة بدلا عن أشـياء قديمه ينبغي عليــه التخلى عنها ، ثم ما تلبث هذه الأشياء الجديدة نفسها التى قبل بها المجتمع كأطر ومقاييس جديدة لحياة جديدة أن تشكل الاطار والمدلول الثقافى للمجتمع بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى سبقت الاشــارة اليه • ونظرا لأن عمليات انعكاس الواقع فى فـكر الانســان بصورة أرقى وتجسيد هـذا الفـكر فى الواقع من خلال عمليات الابداع والانتــاج بما نطلق عليه حاضر الأشـياء المدنية أو مرحلة المدنية للأشياء التى يتحول النافع منها أيضــا الى اطار الثقــافة أو مرحلة الثقافة للأشياء ، هى عمليات ديالكتيكية وجدلية مستمرة ومتجددة لا تتوقف ، نظرا لكل ذلك فان عناصر الثقافة أو الأشياء فى مرحلة الثقافة لم تكن قط بمنجى من عملية التحول التاريخى والجدلى هذه ، حيث يضطر بعضها أو مجموعها الى التخلى عن دوره الثقافى المباشر فى تنظيم وتقنين حياة المجتمع طال الوقت أم قصر مفسحة الطريق أمام عناصر ثقــافية جديدة ، وتتحول بدورها الى موقع التراكم الهامشى الهــائل غير المباشر فى حيــاة الانســان وتاريخه ، والذى يـكون ما نعنيه بالمدلول الأكثـر شمولا لمعنى الحضارة والبعد التاريخى والروحى والوجدانى العميق لوجود المجتمع غير المبــاشر فى الوقت الحــاضر ، والذى يظل بدوره يسهم اسهاما جوهريا فى تطوير وابداع أشياء وأفكار جديدة بطريقة مباشرة وغير مباشرة فى أغلب الأحيان •

وهكذا يظل كل شىء يدور فى دائرة ديالكتيكية وجدلية حية ابتـداء من الأفكار الأولية التى يعكسها الواقع فى ذهن الانسان بشكل أرقى ويجسدها فى انتاج أشياء وأفكار جديدة (المدنية) ثم ما تلبث هذه الأشياء والأفكار أن تصير ذات وظيفة وفعالية مباشرة وأساسية فى حياة المجتمع وتنظيم شئونه (الثقافة) ، وحينما توجد بدائلها أو نقائضها الجديدة الأكثر تطورا فانهــا ما تلبث أن تزيحهــا وتحل محلها وتؤول هى الى هامش الواقع الاجتمــاعى المتراكم عبر التاريخ (الحضارة بأوسع دلالتها) وتظل تسهم اسهاما حيويا

بالطرق المباشرة وغير المباشرة فى اثارة أفكار جديدة تؤدى بدورها الى انتاج أشياء جديدة وهكذا وهكذا ٠

وهذه الدائرة الحية لم تكن حركتها سلبية (مغلقة) كما تجمع على ذلك كل الفلسفات المثالية والبرجوازية والرجعية بشكل أو بآخر ، والتى يمكن تلخيص محتواها من خلال التذكير بالمعادلات السابقة التى تقول بأن كل شىء يسير وفقا لمبدأ « الولادة ثم الحياة فالموت ثم الحياة من جديد » على الطريقة البوذية والبرهمانية الهندية ، أو أن كل شىء قد سبق فعله فى عالم الغيب واننا نقوم بعملية احساس وتذكر لما يسمح به لنا عالم الغيب هذا من الأشياء التى نحتاجها فنجسدها بشكل مؤقت فى شكل أشياء ملموسة نستعملها حيث ما تلبث بعد وقت قصير حينما تنتهى صلاحية استعمالها أن تعود الى عالمها الغيبى حيث توجد ضمانات وجودها الحقيقى كمجرد احساسات غيبية ، وتفارق تجسداتها المادية المؤقتة لنقوم نحن بعملية تذكرها من جديد اذا ما سمح لنا بذلك وبشكل ما ، وذلك على حد تعبير « باركلى » كبير المثاليين ورائد فلسفتهم الذى ألغى وجود الموضوع واكتفى بالاحساس والتذكر من قبل القوى الغيبية كهوية للوجود برمته ٠ (١٠)

كما ان هذه الدائرة الحية لحركة الأشياء ليست كما تدعى الفلسفات الرأسمالية والبرجوازية الوسيطة والمعاصرة مجرد حركة تلقائية وعشوائية للأشياء غير محددة الاتجاه أو الهدف كما يقول الوضعيون والوظيفيون ، والتى ان جاز للانسان التعرف على قوانين حركتها الطبيعية والاجتماعية الا انه ليس من حقه أن يتدخل فى شئونها أو تنظيمها وتوجيهها ، لأنها بحكم طبيعتها أقدر منه على تنظيم شئون نفسها بنفسها ولأن ذلك يتجاوز قدرة الانسان وامكانياته ٠ مفسحة بذلك مكانا للغيب والميتافيزيقا من جهة والفوضاء والظلم والاستغلال من جهة أخرى ، فالحروب والأمراض والعقم ـ كما يقول مالتوس ـ تحل مشكلة زيادة السكان ، والاستغلال والظلم والمراباه تحل مشكلة توزيع الثروة ٠٠ الخ ٠

(١٠ مكرر) راجع باركلى : سلسلة أعلام الفكر الغربى ، دار المعارف بمصر ٠

وهذه الحركة ليست أيضـــا كما يفسرها البرجـــوازيون والوظيفيون المعاصرون ، مجرد أشياء تتحرك بانتظام لأداء وظائف محددة فى دائرة مغلقة وثابتة الايقاع والتوازن تلقائيـا ، كما هى عليه فى الوقت الحـاضر ودون حاجة الى تغيـير ، وأنه اذا ما حدث أى تأزم أو اختلال أو انهيار فى هـــذا التوازن الوظيفى المزعوم ، فانه ما يلبث أن يفرز العوامل الكفيلة باعادة هذا التوازن من جديد كما هو ، واذا جاز للانسان أن يتدخل فى كل هـذا فهو تدخل من أجـل المحافظة على أدائهـا الوظيفى وزيادة فعاليته وحفظ توازنه واستمراره وليس من أجل تغييره ٠

فالأزمات الاقتصـادية والحروب الدولية التى يتسبب فيهـا النظـام الرأسمالى والتفكير البرجوازى والنازى ويختل معها توازن الواقع القـــائم هى مجرد حالات عارضة ومؤقتة ما تلبث أن تزول ويستعيد توازنه الوظيفى من جديد ، كما أن الدعـــوة الى انهاء السـيطرة الاستعمارية واســـتغلال الاحتكارات الدولية الرأسمالية للمجتمعات النامية والمتخلفة وتحقيق تحررها الاقتصـــادى والاجتماعى هو فى نظر هـــذه الفلسفة عمل تخريبى للنظام الوظيفى القـائم للعـالم وافسـاد توازنه واستقراره ، بينما يـكون الفعل المعاكس الذى يعمل على المحافظة عليـــه وزيادة تنشيطه وفعاليته هو الذى من المفروض أن يتم باعتبـــار أن هـذا التنظيم (المشوه) لم يكن كما ترى هذه الفلسفات الرأسمالية والاستعمارية مجرد تنظيم اقتصـادى واجتماعى فحسب ولكنه نظام الطبيعة الأمثل الذى أهدته السماء الى الأرض ٠

ولقد أبدى كل من دوركايم ، وماكس فيبر ، وهيدل برج ، وبارسونز وباريتو ، وسمارت ، وغيرهم اهتماما بالغـا بدراسة النســـق الرأسمالى فى نظرياتهم السوسيولوجية فى محاولة منهم للتصدى للاشتراكية العلمية وتبرير الأوضاع القائمة فى المجتمعات الغربية من خلال التركيز على مفاهيم النظام والنزعة الوضعية والتساند الوظيفى(١١) ٠

وأخيرا نلتقى بأكثر نمـاذج الفلسفات البرجوازية انحطاطا وسـذاجة والتى لا ترى فى كل مظاهر نشاط الانسان وفعـاليته فى الواقع والطبيعة أكثر من مجرد المحافظة على البقاء والبحث المستميت عن مصـلحته وفائدته وربحه بصفته « فردا » فكل شىء مفيد ومربح هو حيقة تستحق العمل بهـا والدفاع عنهـا ، حتى « الكذب » والقتل والخرافة والشـعوذة ، قد يرقى

---

(١١) د٠ محمد نبيل السمالوطى : علم اجتماع التنمية ، دراسة فى اجتماعيات العـالم الثالث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ١٩٧٤ ، ص ١٧٢ ٠

كل منها الى مصاف الحقـــائق المقدسة طالما وأن في مقـدورها تحقيق ربحا أو مصلحة فردية أو طبقية بذاتها حتى ولو كانت هذه المصلحة على حســاب الغير وعلى أنقاض بقائهم نفسه ، وهذا هو منطق الفلسفة البرجماتية السائدة في الولايات المتحدة الامريكية والتي لا تخفى مقاصدها(١١) ٠

وعلى خلاف كل هذه الفلسفات الرجعية والبرجوازية الرأسمالية معـا ترى النظرية العـــلمية والتاريخية أن مجمـــوع حركة الأشياء في الطبيعة والمجتمع لم تكن قط عمـــلية « تناسخ وحلول » كما يـرى الرجعيـون ، ولا احساسات خيالية وميتافيزيقية كما يرى المثاليون ، ولا هي مجرد حركة عشوائية في دائرة مغلقة أو مجرد كائنات وظيفية سلبية تقوم بتنظيم وادارة واقع انساني واجتمـاعي غير قابل للتغيير ، أو مجرد تعبير عن فكرة منحطة وسلبية لمعنى الفـــائدة والربح الفردي كما ترى كل الفلسفات البرجوازية والاستعمارية المشار اليها آنفا من وضعية ووظيفية وبرجماتية ٠

فعلى خلاف كل هذا ترى المادية التاريخية أن مجموع حركة الأشـياء في الطبيعة والمجتمع تشـكل عملية تغيـير وتطوير وتحـــول جدلي مستمر لا يتوقف وفي اتجاه صاعد ومتجدد على الدوام ، وأن دور الانسان وموقعه في هذه العملية هو دور ايجابي وحاسم الى أبعد الحدود ، ومن خلاله وبفعله تتحول حركة الأشياء في الطبيعة من حركة تلقائية بطيئة ولا واعية الى حركة واعية وأكثر سرعة وفائدة لأجله ٠

فحركة الأشياء من الواقع الى ذهن الانسان بشكل معين ثم اعادتها الى الواقع ليست مجـــرد حركة سلبية ، ذلـك أنه بالرغم من وجود الأشـياء وقوانينها في الطبيعة ولم تكن بحاجة الى ذهن الانسان أو الى أي قوة غيبية لكي توجد أو تستمر في وجودها وحركتها وتطورها المستمر ، الا أن ادراك ذهن الانســـان لها واكتشافها والوعي بهـا شيئا فشيئا وتدخله المبـاشر في شئونها وفرض نفسه كحلقة جديدة في عملية التحول التاريخي ، بعد أن حقق هـــذا الذهن الانساني درجة عالية من التطور والارتقـاء بالقياس الى بقية الحيوانات الأخرى ، هـــذا التطور الهائل قد أحدث ثورة كبـــيرة في حياة الانسان والطبيعة معا ، فحركة الأشياء وقوانينها في الطبيعة صارت بفضل ذلك تعمل بمقاييس أكثر سرعة وانتظاما وحيوية نتيجة وعي الانسان بها وتحويلها من حركة تلقائية بطيئة لا واعية الى حركة واعية وأكثر سرعة وتنظيما وفائدة لأجله أكثر فأكثر ٠

(١١ مكرر) راجع حمود العودي : التراث الشعبي وعلاقته بالتنمية في البلاد النامية ، وبالذات الفصل الثاني بصفة عامة ، مركز الدراسات اليمنية ، ١٩٨٠ ٠

وفى نطاق هذا المفهوم النظرى والعلمى والمنهجي الواسع لفهم الأشياء وتفسيرها وبفضله أيضا كانت محاولتنا السابقة لتفسير معنى ومدلول كل من الحضارة والثقـــافة والمدنية ومحاولة الخروج بهـــذه المصطلحات ذات الدلالات الهامة فى حياة المجتمع من دائرة الميتافيزيقا والاجتهادات العشوائية الغامضة والمتناقضة والتى ما تزال تفسد الوعى بها بطريقة صحيحة حتى الآن فى كثير من الأحيان الى دائرة العلم والفهم التاريخى والجدلى الصحيح ٠

وبالرغم من الحيز الكبير نسبيا الذى شغله الحديث فى هذه القضية التى لا تدخل مباشرة فى صميم هذه الدراسة ، الا أننى راض كل الرضـــا عن هذا الفعل نظرا لما لهذا الأمر من أهمية قائمة بذاتها وذات صلة مباشرة بموضوع هذا البحث ، وذلك حتى تتاح فرصة أكبر لتناول هـذه القضية فى دراسة قائمة بذاتها وبتحليل أكثر عمقا وشمولا لهذا الموضوع ٠

المدلول العلمى والطبقى لفئة المثقفين :

لقد سبق وأن ذكرنا بأن الثقافة ليست هى ما تقوله أو تنشره أجهزة الاعلام والنشر الرسمية والتجارية أو ما يقـرأه ويكتبه المثقفون ، واشتراط وجودها بوجودهم وبينا المفهـــوم الحقيقى والعلمى لمعنى وماهية الثقـــافة وعلاقتها بالحضـــارة والمدنية ٠ لـكن من هم المثقفون ومن هو المثقف نفسه وما هى علاقته بالمفهوم السابق للثقافة ؟؟

ربما يكون من باب التيسير للوصول الى تحديد معنى وماهية المثقف على أساس موضوعى وعلمى لو قمنا فى البـــداية بعملية « تسطيح » أفقى لهـذا المفهوم قياسا على غيره من المفـاهيم المماثلة وشبه المماثلة ، كالطبيب والمهندس والفنان ٠٠٠ الخ ٠ فاذا كان الطبيب هو من تتوافر لديه معلومات أكثر من الطب وقدرة أفضل على مكافحة المرض فى حيـاته وحياة الآخرين ، وأن المهندس هو أيضـــا من تتوفر لديه معلومات أكثـر عن علم الهنـدسة ومهارات أكثـــر فى تصميم واقامة المبـانى وغيرها ، الا أن الطبيب ليس هو الطب نفسه وليس هو المريض أو المرض أبدا ، انه فقط يعرف عن هــذه الأشياء أفضل من غيره بحد نسبى لا أكثر ، وبما يتجـاوز حدود احتياجه المباشر اليها ، أو هو على الأصح مثقف فيهـــا أكثر من غيره ٠ والأمر كذلك بالنسبة للمهندس والفنان وراعى الأغنام ٠٠ الخ ٠

والمثقف بالمعنى الاجتماعى والسـياسى الشـامل هو ضرب من هـذا القبيل ، هو شخص أو أشخاص تتوفر لديهم معـــلومات ومفاهيم نظـــرية

مجردة عن حياة الناس وعاداتهم وعلاقتهم وتاريخهم وأنشطتهم المكونة لثقافة المجتمع الحقيقية ، وبحـــدود نسبية أيضـــا ربما أكثر من النـــاس أنفسهم وبصورة أكثر تنظيما وتعقلا الى حد ما ، الا أنهم « أى هؤلاء المثقفين » ليسوا هم النـــاس أنفسهم ولا عاداتهم وتقـــاليدهم وعلاقاتهم وطموحاتهم وكل يا يفعلونه أبدا ، انهم مجرد صورة جزئية لهـــا وتعبير هامشى مجرد عنهـــا بشكل ما ، انهم مثقفون فى الثقافة وليسوا هم الثقافة نفسها ٠

فاذا كان من أهم وأبرز خواص الثقافة كونها تشكل المقاييس والأطر المرجعية المختلفة لفعل الفـــرد والواجبة الالتزام والمراعاة فى سلوكه ضمن جماعة فان المثقف بالرغم من ادراكه نسبيا لمجموعها ومعلوماته عنها الا أنه وكل ما يدركه أو يعيه من ثقـــافة أفراد المجتمع لا يشكل قط فى مجموعه مصـــدر الزام واجب المراعاة بالنسبة له فى سلوكه وتصرفاته وأفعـــاله الا فى حدود ما يتطلبه وجوده المباشر ضمن جماعة كأى فرد آخر عادى وغير مثقف فيها وبفوارق نسبية بسيطة ، سواء ان كانت هـــذه الجماعة تشكل فئة أو طبقة قائمة بذاتها داخل المجتمع بحكم انتمائه اليها ٠

فالمثقف البرجوازى فى الولايات المتحـــدة الأمريـــكية مثلا قد تجـــده شغوفا ومهتما بقراءة الفلسفة الماركسية ، لكنها لا تشكل بالنسبة له مصدر الزام يذكر فى فعله وسلوكه اذا ما قيست بمصادر ثقافته الحقيقية فى نطاق مجتمعه أو طبقته ، بل ان اهتمامه ذاك قد تـــكون له دوافع عكسية تماما ، وهو الاهتمام بقصد الرفض وامتلاك القدرة على المواجهة المضادة ، تماما كما يفعل المتخاصمون فى الحرب الساخنة ، أو رجال المخابرات وأجهزة القمع والارهاب السياسى فى كل مكان ، حيث يهتمون جـــدا بالاطلاع العـــام على شئون الغير ومعـــرفة دقائق أسرارهم الشخصية والفـــكرية بقصد التمكن من احبـــاطها اذا كانت لا تنسجم مع ميولهم وليس بقصـــد تبنيهـــا كاطار لأفعالهم وسلوكهم ٠ كما أن الرجل المسلم قد يقرأ ويتثقف كثيرا فى الديانة المسيحية أو اليهودية أو البوذية ويكتب ويحاضر عنها فى الجامعات ومعاهد التعـــليم لكنها لا تعنيه فى شىء من النـــاحية العمـــلية والتطبيقية والعكس صحيح ٠

والأكثر من كل هـــذا أنه حتى فى حدود الأمة الواحدة أو المجتمع الواحد نجـــد أن المثقف قد يلم ويضيف الى معلوماته الـــكثير من المفـــاهيم والنماذج الثقافية المختلفة أو المتناقضة فى مجتمعه ، فيقرأ عن ثقافة الفقراء والأغنياء ورجال الدين واللصوص وعن العـــدل والظلم والفن ٠٠ الخ ٠

بصفته مثقفا فحسب وبغض النظر عن كونه ينتمي اجتماعيا وطبقيا لأي من هذه النماذج أو لا ينتمي ، حيث يكون قد حدد سلفا نوع الجماعة أو الطبقة التي ينتمي اليها جوهريا ويلتزم بثقافتها وفكرها كاطار لسلوكه وتصرفاته العملية ، وذلك اما بحكم الوراثة والمولد والظروف المحيطة بمراحل تكوين حياته الأولى ، أو من خلال قناعات لاحقة سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية • فالشرائح الاجتماعية أو الفئات الاجتماعية بهذا المفهوم بما فيهم المثقفون هم - كما يقول الدكتور الجوهري - عبارة عن تجمعات داخل طبقات معينة فعلا ولكن حجمها يتجاوز حدود تلك الطبقة ، ومن الممكن أن ينتمي أبناء شريحة معينة الى طبقات مختلفة ، أي أن علاقتهم بوسائل الانتاج ليست واحدة • وهذه الشرائح لا تلعب دورا مستقلا في الصراع الطبقي الدائر في المجتمع ، ولا تكون لها أي فاعلية الا بالتعاون مع الطبقات الرئيسية الأخرى في المجتمع(١٢) •

فحينما يكون الأصل الاجتماعي والطبقي للشخص فلاحا مثلا أو عاملا أو اقطاعيا أو رأسماليا أو غير ذلك من الجماعات الهامشية في المجتمع بحكم الوراثة والمولد والتربية في نطاق هذه الطبقة أو الجماعة أو تلك(١٣) • فانه يكتفي في الظروف العادية اضافة الى هذا الموروث بالقيام بعملية اندماج وتمثل ثقافي وفكري عميق لثقافة الطبقة أو الفئة التي وجد نفسه فيها وارتبطت مصالحه ووجوده بها ، والتي تشكل اطاره ومرجعه الاجتماعي

---

(١٢) د• محمد الجوهري : علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث ، ١٩٧٨ ، ص ٢٢٥ •

(١٣) ان الفرق بين الطبقة والفئة أو الطبقات الأساسية والفئات الهامشية في المجتمع هو فرق أو فروق بقدر ما أنها ثانوية وجزئية الا أنها مهمة ومن الضروري ادراكها • فالطبقة هي الوجود لاجتماعي لقطاع أفقي معين من الناس في المجتمع يتميز ويختلف عن قطاع أفقي آخر من حيث المضمون الاقتصادي بالدرجة الأولى وما ينجم عنه من مميزات أخرى ثقافية وفكرية وسياسية وسلوكية ، كطبقة العمال والفلاحين والرأسماليين والبرجوازية • أما الفئات الاجتماعية فهي عبارة عن جماعات هامشية موزعة رأسيا بين مختلف الطبقات ولا تتميز بالقدرة على البقاء والاستقلال بذاتها كالطبقات الأساسية ، وهي اما فئات وجماعات مؤقتة كالطلبة والجنود « تحت الخدمة العسكرية » أو جماعات تعيش على هامش الطبقات الأخرى أو ملحقة بها بصورة مباشرة وغير مباشرة ، مثل الأطباء والمهندسين والمعلمين والمثقفين أنفسهم ، ورجال الدين ، وكذلك جماعات اللصوص والمجرمين والمنحرفين •• الخ • أنظر في ذلك تفاصيل أكثر في كتاب دراسات في التنمية الاجتماعية د• محمد الجوهري وآخرون - دار المعارف المصرية - الطبعة الثالثة ١٩٧٧م ص ٢٢٦ الى ٢٢٩ • كما أننا سنتناول هذه النقطة بتفصيل أكثر في أماكن لاحقة من هذه الدراسة •

الخق ، وهو لا يتجاوز باهتماماته حدود ثقافة هذه الطبقة الا حينما تتاح له فرصة أكثر فى التعليم ويوسع اهتماماته واطلاعاته الاجتماعية والسياسية بصفته مثقفا ، اما بقصد الاطلاع والتثقف الشخصى وفقا للمثل القائل « العلم بالشىء خير من جهله » أو بدافع التعرف على ما عند الغير والافادة منه فى الدفاع عن ثقافته الحقيقية وزيادة نموها فى مواجهة الأطر والثقافات الأخرى التى قد تتعارض وتتناقض مع ثقافته وتكوينه الطبقى ، وهذه هى القاعدة العامة فى علاقة المثقفين بطبقاتهم الاجتماعية وغيرها من الطبقات الأخرى فى المجتمع ٠

أما الاستثناء فهو أن المثقف من أى طبقة أو جماعة ومن خلال ما يقوم به من عملية تجاوز وقفز مستمر خارج نطاق طبقته وثقافته الأصلية قد يتأثر بمضمون ومحتوى نموذج ثقافى آخر غير نموذجه الأصلى الذى وجد فيه لأى سبب من الأسباب ، كما يفعل بعض أفراد الطبقة البرجوازية والأرستقراطية حينما يتبنون مواقف الطبقة العاملة وفكرها ، أو طبقة الفلاحين ويدافعون عنها بصدق الى هذا الحد أو ذاك ، أو حينما يحدث العكس تماما ، خصوصا فى نطاق البلدان النامية والمتخلفة وحديثة التكوين المعاصر ، حيث نجد — كما يقول عدد من الباحثين السوفييت — أن الوسط الاجتماعى الواحد فى البلد النامى يفرز رجالا يتبنون الماركسية ويدافعون عنها كما يفرز زعماء لمنظمات رجعية عاتية(١٤) ٠ حيث ينسلخ المثقف عن هذا النموذج الطبقى أو ذاك ويحاول دمج نفسه فى نموذج آخر ، وهو قد ينجح وقد لا ينجح ، وقد يتنقل ويجرب أكثر من نموذج على هذا النحو ٠

وعلى العكس من ذلك فانه يكاد يكون من المستحيل والنادر جدا أن نجد حالة اجتماعية واحدة من غير هؤلاء المثقفين تقوى على انتشال نفسها دفعة واحدة من واقعها الاجتماعى والطبقى الأصلى الى واقع اجتماعى وطبقى آخر باختيارها تحت أى ظرف من الظروف وبنفس الطريقة ما لم تجبر على ذلك بالقوة الثورية التى تلغى وجودها الاقتصادى كخطوة أولى للقضاء على وجودها الاجتماعى والثقافى بمرور الوقت أو الاحتياج الى زمن أطول للقيام بعملية عكسية ، لأن ذلك لو حدث فرضا فانه سيكون أشبه باختيار سمكة البحر لأن تغادر المياه دفعة واحدة لتحيا فى سلام مع حيوانات اليابسة ٠

---

(١٤) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ترجمة الدكتور داوود حيدو ومصطفى الدباس ، الطبعة الثانية ، منشورات وزارة الثقافة — دمشق ١٩٧٤ ، ص ٣٥٨ ٠

فنحن لا نستطيع أن ننتظر من فلاح أمي بسيط أو عامل منجم مسحوق أن يتمثل ويمارس الحيـــاة الأرستقراطية وثقافتهـــا فورا وبغـير مقدمات طويلة ، أو أن ، ننتظر العكس أيضـــا ، كما يفعل المثقفون من كلا الطرفين بسهولة أكثر • وهكذا لا تنتهى سوء الرؤية وعـدم الوضوح الذى يتحدث عنــه « بوتو مورو » فى هذا الصـــدد وعما اذا كان المثقفون هم أقل تأثرا من الصفوات الأخرى بأصولهم الطبقية والاجتماعية نتيجة لطبيعة نشاطاتهم وأسلوبهم فى الحياة كما يقول فحسب(١٥) بل وأكثر من غيرهم بما لا يقاس على الانتقال من طبقة لأخرى •

نخرج من كل هذا الى حقيقة أن المثقف والمثقفين بصفة عامة هم بالنسبة للطبقات والفئات التى ينتمون اليهـا أشبه ما يكونوا بالأجرام الخـارجية الدائرة فى محيطها ، ويشكلون نقاط التماس وقنوات الاتصال بين هـــذه الطبقات وبعضها ، واذا ما اضطرت طبقة ما الى افتقاد بعض مثقفيها من جراء عملية التساقط الى طبقات أخرى — كحالات استثنائية كما سبقت الاشارة — فانهـا قد تعوض هذا الخسران بعلمية جذب ممـاثلة • وهكذا ننتهى الى أن المثقفين ليسوا طبقة أو طليعة مستقلة كما يقـــال عنهم فى أحسن الأحوال بقدر ما أنهم تعبير هامشى عن كل الطبقات والمصالح المتعارضة أو المتناقضة فى المجتمع ، انهم — كما يقول لينين — يجسدون ويعبرون عن تطور المصالح الطبقية والتكتلات السياسية فى المجتمع بأسره ، وذلك بأوعى وأحزم وأدق شكل ممكن للتجسيد والتعبير(١٦) •

واذا كانت قليلة هى الكتابات والدراسات العلمية التى تناولت فئة المثقفين بصفة عامة حتى الآن فان الأكثر ندرة هو التحليل الجدلى والموضوعى المتعمق لهذه الفئة الاجتماعية الهامة على هـــذا النحو ، خصوصا ما يتعلق بمثقفى البلدان النامية والمتخلفة بالذات •

فكثير من الكتبات الحديثة الجيـدة التى تتنـاول الطبقات والفئـات الاجتماعية بصفة عامة لا تسقط من حسابها فئة المثقفين بل تتناولهم بصفة جزئية وهامشية وبأسلوب التحليل الوصفى لا أكثر ، فمجموعة من العلماء السوفييت يقدمون لنا فى مصنف جيد وذا أهمية علمية كبيرة عن التركيب

---

(١٥) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتـور محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ٩١ •

(١٦) لينين : المؤلفات ، المجلد السابع ، ص ٣٤٣ •

الطبقي للبلدان النامية ، يقدمون لنا وصفا تحليليا لفئة المثقفين فى هـــذه البلدان هو فى تقديرنا أفضل ما كتب عن هذه الفئة الاجتماعية حتى الآن وفى هـــذه البلدان بالذات فى المرحلة الراهنة ، من حيث نشأتهم ودورهم فى النضـــال الوطني وتذبذب مواقفهم الاجتمـــاعية والطبقية من مرحلة لأخرى ٠٠ الخ ٠ الا أنهم لم يحددوا بدقة طبيعة القوانين الاجتماعية والجدلية التى تتحكم فى طبيعة تكوين هذه الفئة طبقيا وتاريخيا ٠ فهم يقولون مثلا : ليس هناك ضرورة لأن يعكس المثقفون مصالح الطبقة التى خرجوا منها ٠٠ وان مستوى ثورية المثقفين لم يكن دائمـا متمـاثلا ٠٠ وان الدور القيـادي للمثقفين فى الثـــورة الوطنيـــة الديمقراطية ذو طـابع مؤقت ومحـــدود تاريخيا ٠٠ الخ ، الا أنهم لم يحددوا لنـــا بدقة لمـاذا يحدث كل هـذا ؟؟ وكيف؟؟(١٧) أما بعض الكتابات البرجوازية الأوربية فانها تذهب الى موقف أكثر تعاسة وتشويها لمعنى ووظيفة هذه الفئة وغيرها من الفئات الاجتماعية كالصفوات والجمـــاعات العسكرية الأولجاركية والأرستقراطيـات المختلفة ومحاولة أحلالها محل الطبقات فى تفسير المجتمع وتطوره التـاريخي وذلك فى مواجهة التفسير العلمى للبقطات(١٨) ٠

وفى ضوء كل ما سبق واضافة اليه نستطيع أن نحدد الخواص والمميزات العلمية الخاصة بالمثقفين وطبيعة دورهم فى :

١ ـ ان المثقفين بصفة عـامة يكونون فئة أو شريحة اجتماعية موزعة رأسيا أو عموديا بين مختلف الطبقات الأساسية فى المجتمع ، وليسوا طبقة أو ممثلى طبقة بذاتها ، وهم أقل الفئات الاجتماعية انسجاما وتماسكا ، بحكم المهنة أو الظـروف أو المرحلة كما هى الحـــال بالنسبة للطلبة والمجنـدين أو الأطباء ورجال الدين والمهندسين ٠٠ الخ(١٩) ٠

٢ ـ ان المثقفين بالرغم من أنهم يشـــكلون لســـان حال كل الطبقـات والمصالح المتفقة أو المتعارضة والمتناقضة فى المجتمع ويعبرون عنهـا دائما ، الا أنهم ليسوا أكثر قدرة من هـذه الطبقات نفسها على الصمود والتضحية

---

(١٧) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبـــلدان النـامية ، ١٩٧٤ ، ص ٣٥٨ و ٣٩٧ و ٤٠٤ ٠

(١٨) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور الجوهرى وآخرون ـ طبعة ١٩٧٨ ، ص ٣٥ ٠

(١٩) المرجع السابق ص ٩١ ٠

في سبيل مصالحها الحقيقية والدفاع عنها الى ما لا نهـاية أو الانابة عنها ، فهم غير جديرين بمثل هذه المهمة نظرا لأن ثقافتهم ووعيهم هو أشبه ما يكون بالخبـــرة المهنية والوظيفية وأبعـــد ما يـكون عن الحس والوعى الطبقى السليم(٢٠) ٠

٣ — ان عملية التســاقط التلقائى التى تحـــدث بين مثقفى الطبقات المختلفة هبوطا أو صـعودا ، وبالرغم من أهميتهـا الـكبيرة ، الا أنها تظل هى الاستثناء وليس القاعدة ، والتى لابد من تحديد ملامحها بدقة والتعامل معها بحذر ٠

٤ — ان أهم دور ايجابي بالنسبة لمثقفى أى طبقة سواء كانوا من أفرادها أو ممن تجتذبهم من أوساط الطبقات الأخرى هو أن يساعدوا هـذه الطبقة على تنمية حسها ووعيها الطبقى ويجعلونها — بحكم ثقافتهم — تعى مصالحه جيدا وتقوم بتنمية وتطوير هـــذه المصــالح والدفاع عنها بنفسها بطريقة أفضل ، وليس ادعاء القيام بكل ذلك نيابة عنها كما يحدث غالبا ٠

العلاقة الجدلية بين الفئات والطبقات الاجتماعية :

لم تكن فئة المثقفين هى الفئة أو الشريحة الوحيدة التى تتميز طبيعتها وعلاقتها ببقية الطبقات الرئيسية فى المجتمع على نحو ما سبق تحليله ، ذلك أنه بالرغم من المميزات الجوهرية التى تحدد العـلاقة المتميزة لفئة المثقفين ببقية الطبقات الرئيسية الا أنها ليست هى الفئة الوحيدة التى تربطها مثل هذه العـلاقات والصلات المتميزة ٠ فهنــاك الكثير من الفئــات والشرائح الاجتماعية الأخرى التى تعيش على هامش التركيب الطبقى للمجتمع وترتبط معه بروابط جوهرية متميزة أيضــا ، وليست متماثلة بالضرورة مع ذلك النمط من الصلات والعلاقات التى تربط المثقفين مع هـذا التركيب الأصلى للمجتمع بل انها قد تكون على النقيض منها فى معظم الأحيان ٠

---

(٢٠) هناك فرق جوهرى وأساسى بين معنى التعلم والتثقف من جهة وبين الحس والوعى الطبقى من جهة أخرى ، فالتعلم والتثقف الذى يتجسد من خلال فئة المثقفين كما رأينـــا هو بالرغم من أهميته يظل قضية هامشية وأداة قابلة للتداول٠ بينما يكون الحس والوعى الطبقى حينما يزدهر ويتقدم لا يشكل التعبيـــر الملزم مصيريا بمصالح الطبقـــات فى المجتمع والذى لا ينفصل عنها فحسب ، بل انه الانعكاس الذهنى والمعنوى للوجود الفعلى للطبقـات وممارستها العملية ، وسنتناول هذه النقطة بتفصيل أكثر فى مكان لاحق من هذا البحث ٠

ولما كانت هذه الدراسة تتركز أساسا حول فئة المثقفين الا أننا سوف نتناول فى هذه الفقرة نماذج من الفئات والشرائح الاجتماعية الأخرى وصلتها بالأوضاع الطبقية فى المجتمع بايجاز • فاذا ما حاولنا النظر الى هذه الفئات من حيث الكم نجد أنها تتسع وتتعدد بل وتتفرع الى حد كبير وفقا لطبيعة الظروف التاريخية والاقتصادية التى يمر بها التطور الاجتماعى فى هذا المجتمع أو ذاك (مجتمعات متخلفة - نامية - متقدمة) حيث توجد فى كل نمط من هذه الأنماط الاجتماعية نماذج من الفئات والشرائح الهامشية التى تتناسب وطبيعة المرحلة ونوع تركيبها السياسى والاقتصادى، ففى المجتمعات النامية والمتخلفة مثلا تبرز الفئات الدينية والقبلية والسلالية والعشائرية والأرستقراطيات العسكرية والسياسية ، وفى المجتمعات المتقدمة والتى هى فى طريقها الى التقدم تبرز الفئات المهنية والجماهيرية ، كالأطباء والمهندسين والحقوقيين والمثقفين والطلبة والجنود تحت الخدمة العسكرية ، وغير ذلك من المؤسسات المهنية والجماهيرية والنقابية • وهذا لا يعنى اقتصار النمط الأول من هذه الفئات على المجتمعات المتخلفة والنمط الثانى على المجتمعات المتقدمة أو التى هى فى طريقها الى التقدم ، بل ان نماذج هذه الفئات والشرائح الهامشية فى المجتمع غالبا ما تتواجد متداخلة فى كلا المستويين ، والفروق هنا هى فروق نسبية فقط حيث يبرز النمط الأول من هذه الفئات فى المجتمعات المتخلفة بشكل أقوى وأكثر فعالية ، الى درجة تضعف وتضمر معها العلاقات الطبقية الحقيقية فى المجتمع الى حد الظن الخاطىء من قبل التفسيرات البرجوازية والمثالية بعدم وجود نظام طبقى فى مثل هذه المجتمعات وأن هذه الفئات السائدة على سطح الحياة السياسية والاقتصادية هى التعبير الوحيد للعلاقات الاجتماعية والتاريخية فى المجتمع • ومما يساعد على الترويج لمثل هذه الرؤية اللا علمية هو التدنى الشديد لنمط الانتاج الزراعى وانعدام الانتاج الصناعى فى مثل هذه المجتمعات والذى ينجم عنه بالتالى تدنى أكثر فى العلاقات الانتاجية وتشويه للعلاقات الاجتماعية والثقافية بصفة عامة •

كما أن النمط الثانى من هذه الفئات والشرائح الاجتماعية (أطباء ، مهندسين ، مثقفين ، جنود ، طلبة ، حقوقيين ، صحفيين •• الخ) هو أكثر ارتباطا وبروزا فى المجتمعات السائرة فى طريق التنمية أو التى حققت نموها بالفعل فى المجتمعات المتقدمة مع الاحتفاظ بنماذج أكثر هامشية وأقل فعالية لبقايا ورواسب فئات وشرائح النمط الأول فى مجتمع تسوده علاقات طبقية أكثر وضوحا ، كتعبير عن حالة القوى الاجتماعية الأكثر تقدما •

التفسير التاريخي لوجود وتطور الفئات الاجتماعية :

وتبقى مسألة التفسير التاريخي لنشأة وتطور هذه الفئات ، خصوصا ما يتعلق منها بذلك الطـــراز أو النمط المتخلف (القبلية ـ العشائرية ـ السلالية ـ الدينية الوثنية ـ والأرستقراطيات القديمة ..الخ) فهذه الفئات السلالية ـ الدينية ـ الوثنية ـ والأرستقراطية القديمة ..الخ) فهذه الفئات المنتشرة فى المجتمعات النامية والمتخلفة أكثر من غيرها يطغى وجودها على سطح الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصـادية أيضا وتفرض علاقتها ووجودها الهامشى المشــوه وكما لو كان هو التفسير الوحيــد لماضى وحاضر ومستقبل المجتمعات التى تعيش فيها ، فى مواجهة أى تفسير جدلى وتاريخى آخر لأوضاع المجتمع وعلاقاته الطبقية ، هذه الفئات فى مجموعها ووفقــا للتفسير العلمى لا تخرج عن كونها تعبير عن بقايا ورواسب طبقــات وايدلوجيات قديمة فى الماضى ، أو تجسيد لعلاقات طبقية متخلفة سائدة فى الوقت الحاضر .

فكل الذين ينتمون من هذه الفئات الى السلطة السياسية ويمسكون بزمامها من مجاميع الأولجاركيات العســكرية والأرستقراطيات السياسية ، أو يفرضون سيطرتهم وملكيتهم للأرض الزراعية ومن عليها باعتبارها المصدر الأساسى للبناء الاقتصـــادى وغيرها من مصــادر الثروة القومية للمجتمع من تجارة وموارد طبيعية وغيرها والذين قد يجمعون عادة بين كل من هــذه الامتيازات فى آن واحد (السلطة والقوة والملكية) هؤلاء جميعــا يجسدون حقيقة تحالف الطبقة الاقطاعية المتسلطة فى المجتمع المتخلف بكل مضامينها وأبعادها مهما قال عنهم غيرهم أو ادعوا لأنفسهم غير هذا ، واذا كان الدكتور الجوهرى يؤكد بأن هذه النظرة الماركسية تمثل أساس كل دراسة علمية لموضوع الطبقات فان ماركس يؤكد بقوة على الأساس الاقتصــادى للطبقات وفكرة الصراع فيما بينها الناشىء عن تضارب مصالحها(٢١) . كما أن كل الفئات الأخرى ممن قد لا ينتمون أو لا يتمتعون بالسلطة أو الثروة أو بهما معا ويمثلون مواقع اجتماعية أكثر هامشية وأقل فعــالية وتأثيرا فى مجرى الحياة السياسية والاقتصـادية الراهنة كرجال الدين فى بعض المجتمعــات وبعض الجمــاعات السلالية والعــرقية والعشائرية والمذهبية ذات الأبعــاد الايدلوجية المتميزة ، ليست فى مجموعها أكثر من مجرد تعبير مشوه لبقايا ورواسب أوضــاع طبقية وسياسية واجتماعية قديمة منهارة ذات طموحات

---

(٢١) د. محمد الجوهرى وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية ، ص ٢١٢ و ٢١٣ .

ضعيفة ومتخلفة فى الوقت الحاضر ، أو مجرد الميل الى المحافظة على وجودها الحالى وبقاءها كما هى أمام المتغيرات الحديثة(٢٢) •

فالفئات الاجتماعية بصفة عامة هى فى المجتمعات المتخلفة والأكثر تخلفا اما تجسيدا مشوها لأوضاع طبقية اقطاعية متخلفة فى الوقت الحاضر ، أو تعبيرا عن بقايا ورواسب أوضاع طبقية وسياسية وايدلوجية قديمة منهارة • أما فى المجتمعات السائرة فى طريق النمو أو التى حققت نموها بالفعل حيث تسود العلاقات الطبقية الأكثر وضوحا فان الفئات الاجتماعية هى مجرد تعبير هامشى عن العلاقات الاقتصادية والطبقية السائدة بصفة عامة وبشكل ما ، قد تختلف طبيعة هذا التعبير من فئة لأخرى ، فكما هى الحال بالنسبة للمثقفين السياسيين فى مجتمع نامى أو متقدم حينما يعبرون عن مختلف المصالح الطبقية المتعارضة والمتناقضة ـ كما سبقت الاشارة ـ نجد المهندسين أو الحقوقيين أو الأطباء الذين قد تضمهم رابطة مهنية واحدة الا أنهم لا يعبرون من خلالها عن قضية مستقلة قائمة بذاتها بقدر ما يعبرون من خلالها عن أصولهم الطبقية وانتماءاتهم السياسية والايدلوجية التى تعكسها • وينسحب الأمر كذلك على الفئات الأخرى من الكتاب والمفكرين والأدباء والفنانين والصحفيين •• الخ ، مع الفوارق النسبية الواضحة من حيث الدرجة والفاعلية والحدة حيث يأتى المثقفون السياسيون والكتاب والمفكرون فى مقدمة المجتمع •

نخلص من هذه النقطة الى أن أى مجتمع لابد وأن يتضمن بجانب طبقاته الرئيسية نماذج لطبقات فرعية قديمة ، كنماذج الاقطاع المتبقى فى ظل مجتمع رأسمالى ، أو فئات طبقية هامشية للطبقات السائدة كالمثقفين والمحامين والأطباء والمهندسين ، أو بذور لنشوء طبقات جديدة كتجمعات العمال والبرجوازية الصغيرة فى ظل مجتمع اقطاعى ، وهو الأمر الذى قد يعترض عليه بعض الماركسيين المتزمتين ممن لا يعرفون سوى تقييم المجتمع الى طبقتين متصارعتين ، الأمر الذى لا يتفق حقيقة والفهم الماركسى العلمى الصحيح للطبقات والذى يؤكد وجود طبقات فرعية بجانب الطبقات الرئيسية ، فغير صحيح ـ كما يقول الدكتور الجوهرى ـ ما يذهب اليه بعض الماركسيين من أن الماركسية لا تعرف سوى تقسيم المجتمع الى طبقتين متصارعتين ، اذ نجد من أمثلة تلك الطبقات الفرعية ملاك الأرض أو الفلاحين

---

(٢٢) المرجع السابق ص ٢١٩ •

فى ظل المجتمع الرأسمالى ٠٠ ويضيف الجوهرى قائلا : ان تلك الطبقات الفرعية بصفة عامة تمثل اما رواسب طبقات رئيسية عفا عليها الزمن ، أو خمائر لطبقات رئيسية سوف تتضح ملامحها وشخصيتها فى المستقبل(٢٣) ٠

الرؤية اللاعلمية للفئات والطبقات الاجتماعية :

فى الوقت الذى تحدد فيه الرؤية التاريخية العلمية مفهومها للفئات والشرائح الاجتماعية على نحو ما سبق نجد بالمقابل أن الرؤية المثالية اللاعنمية تتلخص فى هذا الشأن جملة وتفصيلا فى كل ما صاغه وتصيغه النظريات والمذاهب المعادية للاتجاه التاريخى العلمى فى تفسير المجتمع وعلاقاته الطبقية(٢٤) هى رؤية برجوازية فى مبادئها رأسمالية استغلالية فى أهدافها وأغراضها رجعية ولا علمية فى مضمونها وحيقتها ٠

فلقد وجدت البرجوازية الأوربية والمجتمع الرأسمالى بصفة عامة فى هذه الفئات والشرائح الاجتماعية بمختلف أنماطها ضالتها المنشودة فى خضم الصراع والعداء المستحكم للنظرية التاريخية العلمية وتفسيرها الطبقى للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك لكى تحل هذه الفئات والشرائح محل الطبقات فى تفسير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع وقراءة تاريخها بطريقة عشوائية وغير منظمة تحكمها الصدفة والنبوءات القديمة ، بدلا من القانون التاريخى للمجتمع ٠ فهذه الرؤية مثلا تحل الصفوة أو النخبة السياسية محل الطبقة الحاكمة وتفصلها عن المؤسسة العسكرية ورجال الأعمال المهيمنين على الثروة فى مجتمع رأسمالى كالولايات المتحدة الأمريكية ، باعتبار أن كلا منهم يشكل فئة أو صفوة و نخبة مستقلة أو شبه مستقلة عن الأخرى ، بدلا من كونهم جميعا يشكلون تحالف الطبقة الرأسمالية المسيطرة ٠

كما تنظر هذه الرؤية أيضا الى كل التجمعات والنقابات المهنية والفنية بما فيها العمال والفلاحين باعتبار أن كل ذلك لا يعدو كونه مجرد فئات

---

(٢٣) د٠ محمد الجوهرى وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية ص ٢٢٦ و ٢٢٧ ٠
وانظر فى ذلك أيضا مختارات ماركس ولينين وانجلز الطبعة الألمانية — المجلد ٢٩ ص ٥٠٨ ٠

(٢٤) راجع تفاصيل أكثر فى هذا الشأن ، بوتومودو : الصفوة والمجتمع دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، ١٩٧٨ ، ص ٣٥ وما بعدها ٠

وشرائح اجتماعية قائمة بذاتها ، ويقوم كلا منهـا بمهام وظيفية محـددة فى نطاق البناء الاجتماعى السائد ، لا من أجل تغييره وتطويره بل من أجل المحافظة عليه وزيادة فعالية نظامه القائم وحفظ توازنه كما هو عليـه الآن بصفة دائمة ونهائية وحمايته من الانهيار ، وبتعبير أوضح حفظ توازن النظام الرأسمالى القائم وزيادة فعـالية علاقاته الاستغلالية السـائدة فى الداخل والاستعمارية فى الخارج وحمايته من السقوط .

فالطبقات الاجتماعية تختزل وفقـا لهذه الرؤية الى مجـرد صفوات وعبقريات فردية خارقة ، والنظم المتغيرة هى مجرد أنساق وعادات اجتماعية ثابتة لا تتغير ، والصراع الطبقى هو مجرد أزمات عارضة ما يلبث المجتمع أن يتجاوزها ويستعيد توازنه السـابق ، وحركة أفراد المجتمع ونشاطهم اليومى هو مجرد وظائف يؤدونها من أجل استمرار المحافظة على توازن هذا الواقع وحمايته من السقوط ، وفقـا للمفهوم الوظيفى . كما أن الحقيقة الوحيدة فى هذا العالم هى - كما يرى البرجماتيون - ما يحقق ربحا أفضل حتى القتل والكذب والخرافة ، أما التفكير فى المستقبل وفى ما وراء الواقع المعطى فهو - كما يرى الوجوديون - العدم الذى ينبغى الخوف منه .

فكل أصحاب هذه الفلسفات البرجوازية والرجعية المعاصرة من وضعية وبرجماتية ووظيفية ووجودية وغيرها والذين يتبنون هذه الرؤية فى تفسير العلاقات الاجتماعية والطبقية ويدافعون عنها ، هم كلهم سوية - كما يقول جارودى - يعلنون أو يتظاهرون بتجاهل المادية التى كانت فى القرن الثامن عشر كبرياء البرجوازية الصاعدة وأصبح يجرى كل شىء وكما لو كانت هذه الطبقـة قد استخدمت المـادية للاستيلاء على السلطة واستخدمت المثـالية للاحتفاظ بهذه السلطة(٢٥) .

فالقضية الرئيسية التى تدور حولها كتابات الوظيفيين - كمـا يقول نيقولا تيماشيف - يمكن تحديدها على النحو التـالى : ان النسق الاجتماعى (وهو اصطلاح يستخدمه الوظيفيون غالبا) يمثل نسقا حقيقيـا فيه تؤدى أجزاءه وظائف أساسية لتـأكيد الـكل وتثبيته ، وأحيانا اتسـاع نطاقه وتقويته(٢٦) كما أن المشاكل والأزمات الاجتماعية - على حد تعبير بارسونز

---

(٢٥) روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، ص ٤٠٢ .

(٢٦) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتمـاع نشأتها وتطورها ، ترجمة د. محمود عودة وآخرون - دار المعارف المصرية ، ص ٣٤١ .

Parson ·زعيم الوظيفية المعاصرة هي مجرد ردود أفعال لحالات مرضية عارضة تزول بزوال هذه الحالات(٢٧) ولقد جهدت الوجودية ـ كما يقول جارودي أيضا ـ لأن تجعل الخوف من المستقبل « الخوف الخاص بالبرجوازية » يشمل البشرية كلها ، فالانسان يقف وجها لوجه أمام العدم والقلق والتشاؤم هما النمط المشترك بين هذه الفلسفات جميعا(٢٨) ·

هذا فيما يتعلق بتفسير الرؤية الوظيفية والبرجماتية المعاصرة وغيرها من الفلسفات البرجوازية في المجتمعات الرأسمالية الكبرى ورؤيتها للواقع الاجتماعي ، بما فيه الفئات والشرائح الاجتماعية الهامشية واحلالها محل الطبقات ·

أما اذا طلب من هذه الرؤية تفسير الأوضاع السياسية والاقتصادية الغير متكافئة بين هذه الفئات والتي صارت تشمل شعوبا وأمما بأسرها والتي تجعل القلة المهيمنة أو الصفوة كما يقول عنها « باريتو وموسكا » تملك كل شيء من مصادر القوة والسلطة والثروة في مقابل حرمان الأغلبية ممن يشكلون قاعدة الهرم الاجتماعي داخل المجتمع المحلي من جهة ، ومجموعة الشعوب النامية والمتخلفة التابعة والملحقة بهذه النظم المركزية للرأسمالية والامبريالية العالمية من جهة أخرى ، فانها تستند في ردها على نقطتين رئيسيتين لا تخلوان من الخبث والسذاجة في آن واحد ، الأولى ان النظام الاجتماعي القائم قد تشكل تلقائيا وبصفة نهائية بفعل قوانين اقتصادية واجتماعية وقدرية أيضا ، ولم يكن أحد من البشر قد تدخل في الغالب ولا يجوز له أن يتدخل حتى ولو لمس في نفسه القدرة على ذلك ، وقد انتهى في تشكله هذا الى ما يشبه درجات سلم الصعود أو كراسي السينما أو مقاعد الأوتوبيس أو طابور الصباح في المدرسة أو المعسكر ، وما على فئات وأفراد المجتمع الا أن يتنافسوا على مواقع المقدمات أو الوسط والمؤخرة على الأقل ، ومن لم يظفر منهم بأي من هذه المقاعد أو الدرجات أو الصفوف المتراصة أو لا يستطيع دفع ثمن ما يريده منها على الأصح فلينتظر قليلا حتى تصنع

---

(٢٧)
Talcott Parsons: Social structure and personality, Copyright (c) 1964 by the free press of Glencoe, U.S.A. P. 112.

وانظر تفاصيل أكثر حول نقد الوظيفية في كتاب التراث الشعبي وعلاقته بالتنمية في البلاد التابعة ، حمود العودي ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ١٩٨٠ ، وبالذات الفصل الثاني بصفة عامة ·

(٢٨) روجيه جارودي : النظرية المادية في المعرفة ، ص ٤٤٣ ·

مقاعد اضافية أو تتوفر مقاعد شاغرة أو يتوفر لديه الثمن اللازم . ومن لم يقتنع بدرجة أو مقعد المؤخرة أو الوسط فليناضل للحصول على مقعد أفضل فى المقدمة أو على مقربة منها(١٩) !!٠

ذلك أن كل هذه السلالم والمقاعد والطوابير والمصاعد ٠٠ الخ هى مفتوحة أمام الجميع وليست حكرا على أحد ، حتى بالنسبة لمن وأتتهم الفرصة للتربع على رأسها أو مقدمتها فانهم قد يتركونها مختارين أو غير مختارين اذا ما وجد من هو أقوى وأفضل وأسعد حظا منهم ، وأكثر كفاءة وقدرة وعبقرية من غيرهم ٠

ولقد كان « باريتو » وتلاميذه من أصحاب نظرية النخبات أو الصفوات الحاكمة ودوراتها السياسية كبديل عن الطبقات فى سبيل مواجهة النظرية العلمية لماركس هم أكثر المجتهدين تشيعا لهذه الآراء الخاصة بالفئات والصفوات ودوراتها فى السلطة والدفاع عنها ، فالتاريخ « هو مقبرة الأرستقراطيات » بهذه العبارة الأدبية الشاعرة بدأ باريتو يصوغ واحدة من أهم أفكاره السياسية وهى « دورة الصفوة » على أن المتأمل لتحليل باريتو — كما يقول بوتومور — لهذه الظاهرة يتبين على الفور أن هذا التحليل لم يصل فى روعته روعة أسلوبه وطريقته فى الكتابة(٣٠) ٠

ففى مؤلفه « الأنظمة الاشتراكية » نجده (أى بارتو) يقول : قد يؤدى الهبوط التدريجي للدورة « أى الأفراد » الى تفشى عناصر الانحلال فى الطبقات الحاكمة ، كما قد يؤدى الى بروز عناصر التفوق لدى الطبقات الخاضعة ٠ وفى مثل هذه الحالة يصبح التوازن الاجتماعى غير مستقر ، بل ان أبسط حركة كفيلة بتحطيمه وقد تؤدى الهزيمة أو الثورة الى انقلابات معززة بذلك صفوة جديدة ٠ ومؤسسة أيضا نوعا آخر من التوازن جديد ٠

كما أن تلميذته « ميرى كولابينسكا » M. Kola Binska قد ميزت بين ثلاثة أنماط لدورة الصفوة هى : اما أفراد من المستويات الدنيا ينجحون

---

(٢٩) راجع تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع فى كتاب س٠ى٠ بوبوف : نقد علم الاجتماع البرجوازى المعاصر ، ترجمة نزار عيون السود ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ١٢٠ وما بعدها ٠

(٣٠) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور الجوهرى وآخرون ، دار المعارف المصرية — الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ٦٥ ٠

فى الانضمام الى الصفوة القائمة ، أو أفراد من مستويات دنيا أيضا يشكلون صفوات جديدة تدخل فى صراع القوة مع الصفوة القائمة ، أو حدوث العمليتين معا(٣١) . فباريتو ـ كما يقول بوتومورو ـ يكرس كل اهتمامه لدراسة دورة الأفراد بين الصفوة واللاصفوة ، ومن ثم نجد أن اهتمامه يتحدد مباشرة نتيجة لاختياره لمشكلة « التوازن الاجتماعى » بوصفها الموضوع الأساسى لبحثه ، شأنه فى ذلك شأن الوظيفيين المحدثين(٣٢) .

وهكذا يقوم الفهم الرأسمالى لعلم الاجتماع البرجوازى بمسخ المفهوم العلمى للطبقات الى مجرد فكرة للحراك الاجتماعى والمصاعد الاجتماعية والشرائح الاجتماعية .. الخ(٣٣) .

ولكى تدلل هذه الرؤية التبسيطية على منطقها المضلل هذا فانها لا تكل ولا تمل عن النفخ فى أساطير « هيلتون » صبى بار الجعة المتشرد فى الولايات المتحدة الأمريكية الذى أصبح يملك أضخم شركة فنادق فى أنحاء العالم وتحمل اسمه . أو « أوناسيس » الصبى ماسح السيارات الذى أصبح ملك أساطيل النقل البحرى وصاحب الجزر الأسطورية فى الحسن والجمال . وماسح الأحذية الذى أصبح مليونيرا ، والذى تحدث عنه لينين مبينا حقيقة هذه التبسيطات الساذجة والمضللة فى تفسير التاريخ والعلاقات الاجتماعية ، وافساد معرفتها معرفة علمية صحيحة ، وربما يكون عثمان أحمد عثمان صبى الجراج فى مصر جديرا بأن يقدم لهذه التفسيرات السطحية مثالا حيا اذا كانت الأمثلة السابقة قد غادرتنا الى حياة ما بعد الموت !!

ذلك أن الشىء الهام فى هذا الموضوع كما يؤكد بوتومورو هو معرفة نسبة أعضاء الصفوة الذين أتوا من المستويات الدنيا ونسبة القادرين من أفراد المستويات الدنيا على تحقيق صعودا اجتماعيا ، فواقع الأمر أن ما يقدمه هذا النوع من المنهج التاريخى لا يعدو أن يكون تضخيما فى حجم

---

(٣١) المرجع السابق ص ٦٦ .

(٣٢) نفس المرجع السابق ص ٧٥ .

(٣٣) راجع د. محمد الجوهرى : دراسات فى التنمية الاجتماعية ، ص ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٢٧ و ٢٢٨ .

ومـدى الـدورة فى المجتمع(٣٤) • ولقـد ناقش « سى•بى•بوبوف » C.B. Bobof فكرة الحراك الاجتماعى الرائجة فى علم الاجتماع البرجوازى بصورة ساخرة ومعبرة اذ يقول : ان نظرية الحراك الاجتماعى معـدة لكى توحى للساخطين الموجودين فى الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعى بفكرة امكانية الصعود الى الدرجات الأعلى والنفـاذ الى الطبقات الأعلى •• ونتيجة لذلك هناك فرص حقيقة أمـام كل عامل فى تنظيف الأحذية لكى يصبح مليونيرا ، وكل جندى يحمل فى حقيبته عصا المرشالية!(٣٥) •

فلقد اتضح من خلال الدراسات الحديثة ـ دحضا لهـذه الأكذوبة ـ ان كبار الموظفين والمديرين يرتبطون ارتباطا وثيقا بالطبقات العليا فى المجتمع الرأسمالى ، حيث أوضحت دراسة حديثة لبوتومورو فى بريطانيا عن كبار موظفى الخدمة المدنية أن ٨٤٪ منهم ينتمون الى عائلات الطبقة العليا والوسطى العليا الذين لا يتجاوز عددهم ثلاثة فى المائة من مجموع السكان ، وأن أقل من ١٪ ينتمون الى عائلات العمال الصناعيين أو الزراعيين(٣٦) • كما أن « وليم ميلر » W. Miller قد كشف فى بحث عميـق عن الأصـول الاجتماعية لمـائة وتسعين من كبار رجال الأعمـال الأمريكيين خـلال العشر سنوات الأولى من القرن الحالى كشف فيه أن الفكرة القائلة بأن رجل الأعمال النموذجى الناجح يأتى من الطبقات الدنيا فى المجتمع هى فكرة بالية ، ذلك أن أقل من ١٠٪ من الفئة التى درسها قد ولدوا خارج حدود الولايات المتحدة وأن ١٪ فقط يمكن اعتبارهم من « فقراء المهـاجرين » وأن ٨٠٪ منهم أتوا من عائلات أمريـكية قديمة تزاول أعمـالا فنية عليا أو هم أبناء أصحاب الأعمال(٣٧) • والرأى عنـدنا ـ كما يقول الدكتور الجوهرى ـ هو أن دراسات علم الاجتماع البرجوازى تحاول تزييف الصورة عن طريق المبالغة فى تقدير مدى هذا الحراك ودوره(٣٨) •

---

(٣٤) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ١٩٧٨ ، ص ٧٧ •

(٣٥) انظر س•ى• بوبوف : نقد علم الاجتماع البرجوازى ، ترجمة نزار عيون السود ، تقديم د• طيب تيزينى منشور فى سلسلة الأفكار ، عن دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٧٣ ـ ص ١١٣ وما بعدها ، وبالذات ص ١٢٠ •

(٣٦) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، مرجع سابق ص ١٠١ •

(٣٧) نفس المرجع السابق ص ٩٥ •

(٣٨) د• محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثـالث ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ، دار المعارف المصرية ـ ص ٢١٠ •

واذا ما سؤلت هذه الرؤية أيضا عن سبب ضرورة اقتصار مقاعد المقدمة في السلطة والثروة على قلة أو صفوة محدودة من الناس على حد تعبير « موسكا » بينما تقف الغالبية الساحقة من الفئات والمجتمعات الأخرى[٣٩] اما وقوفا بلا مقاعد أو جلوسا على المقاعد الخلفية الرديئة في أحسن الأحوال ، حيث لا رؤية جيدة ولا طعام شهي ، بلا تغيير حقيقي يذكر رغم تعاقب الأجيال والقرون ، فان هذه الرؤية عموما تستند في ردها على مبدأين شهيرين في الفلسفة البرجوازية والرأسمالية لا يخلوان من الخبث والسذاجة معا ، فالقانون البرجوازي المقدس للعرض والطلب وغيره من الفلسفات الرأسمالية يطل برأسه في هذه اللحظة ليقدم التبرير المشوه لواقع مشوه أيضا ، وهو أن فرص العرض بالنسبة للملكية الاقتصادية المطلقة ومراكز السلطة السياسية محدودة جدا بطبيعتها الى درجة يكفي معها وجود طبقة أو فئة قليلة لكي تمتلك كل شيء وفئة أخرى تحكم كل شيء ، أو فئة واحدة فقط تملك وتحكم في آن واحد ، وربما يكفي شخص واحد للقيام بهذه المهمة وتلك هي قوانين الطبيعة والاقتصاد عند المتقدمين الرأسماليين وارادة القدر والغيب عند المتخلفين الاقطاعيين ، وكل ذلك في مقابل الطلب المتعاظم عليها بغير حدود والذي يستحيل تلبيته بأي حال من الأحوال ، وهذا هو المبدأ الأول ٠

أما اذا سؤلت عن الأسباب التي جعلت من هذه الفئة أو القلة بالذات تفوز بامتياز القوة والسلطة والثروة هكذا دون غيرها والى ما لا نهاية ، فان المغالطات المضحكة والمقولات الساذجة لمحاولة نفي هذه الحقيقة والتي من طراز الحديث عن أوناسيس الأسطورة أو هيلتون أو ٠٠ أو ٠٠ الخ اذا ما افتضح أمرها أمام الحقائق العلمية والتاريخية المشار اليها سابقا ، فان هذه الرؤية لا تتردد عن اصدار النظريات والفتاوى النازية والعنصرية القبيحة لكي تتحدث من خلالها عن مبررات بيولوجية وعنصرية وسلالية خاطئة من أجل الدفاع عن هذا التنظيم السياسي والاقتصادي الدولي المشوه الذي تعاني منه معظم شعوب العالم في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ٠

---

(٣٩) لابد من ملاحظة أننا لا نفرق بين الطبقات والفئات الاجتماعية الواقعة في أسفل السلم الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، وبين شعوب وأمم بأكملها في البلدان النامية والمتخلفة تعاني من الاستغلال والتبعية للطبقات الرأسمالية في الغرب من خلال الاحتكارات الدولية والتقسيم الامبريالي لمناطق النفوذ في العالم المتخلف ، حيث صار الكل في ظل المتغيرات الدولية والتقنية الحديثة يرتبطون بقوانين اقتصادية على الأقل شبه موحدة وممركزة جوهريا في عواصم الميتروبول الرأسمالية وتحت اشرافها ٠

حيث تعمد هذه النظريات والفتاوى الاستعمارية القديمة الجديدة الى القول : بأن الطبيعة التى وهبت الانسان قانون العرض والطلب لكى يوازن احتياجاته الضرورية والكمالية التى لا يمكن الحصول عليها بأنصبة متساوية لكل الناس أو حتى متقاربة ، ولكى يؤدى هـذا القـانون مفعوله بانسجام وبصورة مقبـولة وعادلة للجميع فانها « أى الطبيعة أيضا » قد جعلت من الأفراد والشعوب والأمم أناسا ذوى قدرات ومواهب متفاوتة الى حد كبير ، وبما يتناسب عادة وفرص التدرج الاقتصادى والاجتماعى ، بحيث أن عوامل النـدرة الزائدة فى مراكز السلطة السياسية والملكية الاقتصـادية المطلقة مثلا ، تقابلها عوامل ندرة مماثلة تقريبا فى المواهب والعبقريات البشرية المناسبة لها والعكس بالعكس صحيح ·

فاذا كانت قد وجدت قلة أو فئة من الناس فى هذا المجتمع أو ذاك تملك كل شىء وتتحكم فى كل شىء فان ذلك لم يكن بمحض ارادتها فحسب ولـكنه قدرها أيضـا ، لأن الطبيعة قد منحتهـا دون سواها كل المؤهلات والقدرات العقلية والبيولوجية الخاصة بذلك بحدود لا تتوفر لسواها ·

واذا كان يوجد عشرات الملايين من الناس والشعوب ممن لا يملكون شيئا أو لم يعد يوجد هنـاك شىء لكى يمنكوه على الأصح ، أو لا يملكون الا الفتات فى أحسن الأحـوال ، فان ذلـك هو قدرهم أيضا وما يتناسب وقدراتهم العقلية والفكرية والانتاجية ، فهناك شعوب وأمم هى وحدها التى تستطيع أن تبدع الحضارة الحديثة وتبنيها ، وشعوب وأمم أخرى قد تقوى على المشاركة فى البناء الى هـذا الحد أو ذاك بينما لا يعجـز غالبية البشر فى الشعوب النامية والمتخلفة عن صنع الحضارة الحديثة أو حتى المشاركة فى صنعها فحسب بل انهم عاجزون حتى عن ادارة شئون أنفسهم سياسيا واقتصـاديا وأنهم قد يسيئون الى حضـارة العصر ويفسدونها لو تركوا وشأنهم ·

بل ان هناك من الشعوب والمجتمعات من اعتبر مجرد الابقاء على حياتهم عائقا كبيرا أمام بنـاء الحضارة الانسانية والمجتمعات العظيمة كما يسمونها فى الولايات المتحدة الأمريكية· ولقد لخص موريس دوفرجيه الفكرة المشتركة لمجمل هذه النظريات العنصرية والنازية فى القول : بأنه من العسير مثـلا أن يتجاوز السود البنيات القبلية البـدائية ، أما الصفر فيمكن أن يرتقوا الى مستوى الدول المعقدة ولكنهم لا يستطيعون أن يعطوها صورة ديمقراطية ، ولكن ما يقدرون عليـه فى أحسن الظن هو أن يبلغوا المستوى الذى كانت

عليه الأمم الأوربية فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، أما الهنود ، وهم يمتازون بذكاء واضح ويتمتعون بمواهب في التجارة وأعمال المصارف والنقد « الهدام » ، فانهم عاجزون عن ممارسة وظائف الحكم والقيادة ، وعن تنظيم سلطة سياسية ناجحة ، ولن يقدر على انشاء دول حديثة تسير سيرا ملائما الا العرق الأبيض غير الهندى(٤٠) ٠

وهذه الرؤية لا تختلف فى مقدماتها ونتائجها عن الأساطير المصرية القديمة التى كانت ـ كما يقول الدكتر أحمد الخشاب ـ تصور حكام مصر الفراعنة الأقدمين على أنهم من طبيعة مقدسة ٠٠ ويضيف . انه ما من شك أن هذا التصور كان يهدف الى حماية النظام العبودى الذى كان يتألف من المجتمع المصرى القديم(٤١) كما يؤكد أيضا بأن الغزو والسيطرة السياسية والقهر الاجتماعى والطبقى هى الأبعاد التاريخية الحقيقية لمختلف مظاهر التفرقة العنصرية والطائفية والدينية وغيرها(٤١) ٠ كما يؤكد بوتومورو أيضا بقوله : ان التفاوت الاجتماعى يتعلق أساسا بالناتج الاجتماعى الذى تخلقه وتصونه نظم الملكية والارث للثروة والقوة السياسية والعسكرية ، تلك التى تلقى سندا وعونا من معتقدات ومذاهب معينة حتى ولو واجهت مقاومة ومعارضة طموح أفراد بارزين(٤٣) ٠ ويشير الدكتور الجوهرى أيضا بقوله : بأن طائفة غير قليلة من المفكرين ترجع فكرة التفرقة العنصرية الى عوامل تاريخية واجتماعية نشأت عن هجرة أجناس واستقرارها أو اغتصابها لبلاد تسكنها أجناس أخرى ، فالذى يحدث عادة أن الجنس الذى يتولى الحكم فيها ويفرض سلطانه على سكانها الأصليين يحتكر لنفسه أسباب التقدم الحضارى ويحرم منها الأقوام المغلوبة على أمرها بكافة القيود التى يغلها بها ، ومن ثم تتحسن وتتقدم الظروف الاقتصادية والاجتماعية للعنصر القاهر فى الوقت الذى يتردى فيه السكان الأصليون فى الحضيض(٤٤) ٠

---

(٤٠) موريس دوفرجيه : مدخل الى علم السياسة ، ترجمة جمال الأتاسى وسامى الدروبى ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٦٧ ، ص ١٩ وما بعدها ٠

(٤١) د٠ أحمد الخشاب : مقال فى المجلة الاجتماعية القومية بمصر ، عدد سبتمبر ١٩٧١ ص ٧ الى ٤٢ (عدد خاص عن التفرقة والتمييز العنصرى) ٠

(٤٢) المرجع السابق ص ١٩ ٠

(٤٣) بوتومورو : الصفوة والمجتمع مرجع سابق ص ١٤٢ ٠

(٤٤) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ـ دار المعارف المصرية ١٩٧٨ ، ص ٢١٦ ٠

وأخيرا وحينما تعجز هـذه الرؤية عن الدفاع عن نفسها أو الصمود ويصير أولى بها أن تقر بهذه الحقائق وتعترف بهـا بحس علمي متواضع ومحايد فانها تضطر الى عملية الاعتراف بوجود النظـام الطبقي فى المجتمع فعلا ولكن بطريقة مشوهة جدا وبأسلوب فيه من الافساد لحقائق اجتماعية واقتصادية أخرى أكثر أهمية من مجرد نظام الطبقات وحدها ٠

ذلك أن هـذه الرؤية الرأسمالية والامبريالية في الوقت الذى تصر فيه دائما على خلو مجتمعاتها من الطبقات تقـدم فى الوقت نفسه اعترافا ضمنيا وغير مباشر من خلال حملاتها المحمومة على النظام الاشتراكي ، باعتبار أنه ما يزال هو أيضـا مجتمعا طبقيـا ويحكم بواسطة طبقة خاصـة من البيروقراطيين السياسيين ـ كما يقول دوجلاس ـ Dijilas أحد النقاد اليوغوسلافيين للشيوعية ـ تتضمن كل خصائص الطبقات الحاكمة القديمة ، فالدليل على أنها طبقة خاصة يكمن فى ملكيتها وعلاقاتها المتميزة بالطبقـات الأخـرى ٠٠ ان البيروقراطية السياسية الشـيوعية ـ كما يقول دوجلاس أيضا ـ تستخدم الملكية القومية وتستمتع بها وتتصرف بها(٤٥) ٠

ولقد عقب بوتومورو على هذا الطرح قائلا : ان ذلك فى رأيى تحليل مضلل جدا للصفوات فى المجتمع السوفيتي ، انهـا ليست بيروقراطية على الاطلاق طالما أن أولئك الذين يكونونها « قادة الحزب » ليسوا بيروقراطيين اذا ما قورنوا مثـلا بمديرى الصناعة كبيروقراطيين ٠ ويضيف مورو فى الصفحة التالية قوله : من الخطـأ أن نفترض أن الحزب يحكم لأنه يراقب وسائل الانتاج ، لأن الأمر بخلاف ذلك ، فهو يراقب وسائل الانتاج لأن لديه قوة سياسية ٠٠ ولست أقصد القول بأن كبار موظفى الدولة فى الاتحـاد السوفيتي وغيره من الدول الشيوعية ليس لديه نفـوذ انهم فقط ليسوا طبقة(٤٦) ٠

كما أن بوتومورو كان واضحا فى تقييمه الذى أنهى به مناقشة الآراء الماركسية وضـد الماركسية فى طبيعة الطبقـات الاجتماعية حيث يقول : ان الانتقادات التى وجهت الى النظرية الماركسية والآراء البديلة التى عرضت

---

(٤٥) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ـ ص ٩٨ ٠

(٤٦) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وآخرون ـ دار المعارف المصرية ، ص ٩٨ و ٩٩ ٠

والتي تعتمد أساسا على تمييز ماكس فيبر Max Weber بين التدرج الطبقي والتدرج على أساس الهيبة ، لا ترقى جميعها الى أن تكون نظرية جديدة شاملة تستطيع أن تحل محل نظرية ماركس ، وانما هى تقدم لنا حصرا يتفاوت فى درجة منهجيته للمشكلات البارزة(٤٧) .

نخلص من كل هذا الاستطراد التفصيلى لهذه الرؤية البرجوازية والرأسمالية الاستعمارية فى أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية فى تفسير الطبقات والفئات الاجتماعية داخل المجتمع الأوربى وخارجه وتاريخها وعلاقاتها الاقتصادية والسياسية ، نخلص الى ثلاث نتائج رئيسية بالنسبة لهذه الرؤية وهى : انها رؤية مضللة ولا علمية من جهة واستعمارية استغلالية من جهة ثانية ورجعية متخلفة من جهة ثالثة .

● فهى أولا مضللة ولا علمية لأنها تتجاهل القوانين الاجتماعية للطبقات فى المجتمع وتشوهها ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، وتحاول احلال الفئات والشرائح الهامشية فى المجتمع محل الطبقات الرئيسية ، محولة بذلك القاعدة الى استثناء والاستثناء الى قاعدة فى التفسير العلمى والتاريخى الجدلى للمجتمع وطبقاته وعلاقاته الاجتماعية والانتاجية .

● وهى ثانيا رؤية استعمارية واستغلالية واضحة لأنها تهدف بالدرجة الأولى من وراء هذا التشويه التاريخى والعلمى المضلل للواقع الى المحافظة على المصالح السياسية والاقتصادية الموروثة للطبقات الرأسمالية الأوروبية والأمريكية المسيطرة داخل شعوبها وخارج هذه الشعوب على امتداد المجتمعات النامية والمتخلفة كلها ، والقائمة على أساس المزيد من استغلال وافقار هذه الشعوب واستمرار تخلفها من أجل المزيد من قوة واشباع هذه الطبقات والمجتمعات الرأسمالية الامبريالية .

● وهى ثالثا رؤية رجعية متخلفة لأنها تريد تثبيت الواقع حيث هو الآن وكما هو بلا تغيير أو اضافة ، أو تنتهى به على الأصح حيث انتهت اليه أعلى درجات مصالحها فى الوقت الحاضر ، واذا لم تسعفها النظريات والفتاوى البرجوازية والعنصرية الفاسدة اللازمة لذلك أمام حقائق التاريخ وقوانين التطور ، فان الكذب والخرافة والشعوذة ومختلف أنواع الدعاوى

---

(٤٧) د. محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا لتنمية فى العالم الثالث ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ — دار المعارف المصرية — ص ٢١٥ .

الغيبية والميتافيزيقية المنحطة أصبحت اليوم من الأمور المستحبة لدى هذه الرؤيا اذا ما وجد أنها تستطيع أن تمد من آجال أصحابها ومصالحهم ولو الى بعض حين ، حيث تتجلى أبعاد هـــذه الرؤية الرأسمالية الرجعية والمتخلفة أيضا من خلال تحالفها المعاصر مع كل الطبقات الرجعية والاقطاعية فى البلاد النامية والمتخلفة ودفاعها عنها فى الوقت الحاضر بلا حدود ٠

ولنعد الآن الى صميم موضوعنا فى هـــذه الدراسة حول فئة المثقفين بصفة عامة والمثقفين فى البلدان النامية والمتخلفة بصفة خاصة حيث سيتضح لنا من خلال كل الفصول والصفحات التالية من هذه الدراسة لا مجرد الفهم العلمى لحقيقة هـــذه الفئة ودورها المتميز فى المجتمعات النامية والمتخلفة فحسب بل وصدق كل المقولات والبديهيات التى سبق الحديث عنها حول الثقافة والمثقفين والفئات والطبقات الاجتماعية بصفة عامة وما قيل ويقـال عنها من أفكار ونظريات مختلفة ٠

الفصل الثانى

مثقفــــو البـــلدان النـــامية

نشـــأتهم وتطـــورهم

مثقفو البلدان النامية والبداية الخاطئة :

اذا كان قد سبق لنا وأن ناقشـــنا فى مطلع الفصل السابق المفهوم الأكثر شمولا وعمومية لمعنى الثقـــافة والمثقفين فان موضوعنا المباشر هنـــا هو الحديث عن الثقافة ومثقفى البلدان النامية وما يتميزون به من الخصوصيات والسمات المحلية والاقليمية والقومية التى رافقت النشأة الحديثة للمثقفين المعاصرين لهذه البلدان وأسهمت جوهريا فى تشكيلها بطريقة ما قد تغـــاير الأسس الموضوعية والعـــلمية لتكوين المثقف ودوره الطبقى بصفة عامة الى حد ما والتى سبق الحديث عنها •

فاذا كان المثقفون فى المجتمعات غير المتحضرة – كما يقول بوتوموزو – هم السحرة والكهان والشعراء والفنانين والملمين بأمور الأنساب •• الخ • فان هذه الفئة تضم فى المجتمعات المتحضرة الفلاسفة والشـــعراء والفنانين والموظفين والمحـــامين والسياسيين[١] •• فانه يمكن اعتبار فترة البدايات الأولى لحركة الغزو والسيطرة الاستعمارية المباشرة للبلدان النامية والمتخلفة حاليا أو ما صار يعرف فى نظر البعض ببلدان العـــالم الثالث[٢] هى مرحلة

---

(١) بوتوموزو : الصفوة والمجتمع – مرجع سابق ص ٨٧ •

(٢) نحن لا نميل الى استخدام مصطلح « العـــالم الثالث » كتعريف لمجموعة الشعوب والمجتمعات النامية والمتخلفة شكلا وموضوعا ، فبغض النظر عن كون هذه التسمية قد أطلقتها مجموعة الدول الاستعمارية والرأسمالية الكبرى على هذه الشعوب غداة حصولها على الاستقلال السياسى فى محاولة مباشرة وغير مباشرة للبعد بهـــا عن مجموعة المنظومة الاشتراكية والتقارب والتعاون معها ، فان هذه التسمية رغم ما قد حظيت به من شيوع واستخدام حسن النية من قبل الكثير من البـــاحثين دون مناقشة فانه لا يتضمن أية دلالة لغوية أو موضوعية سليمة ، اذا كان هذا هو العالم الثالث فأين الأول وأين الثانى وأين الرابع الخ !! واذا كان المفهوم الضمنى للعالم الأول والثانى هما المنظومة الاشتراكية والمنظومة الرأسمالية فأيهما الرقم الأول =

التكوين الجنينى الأول لشرائح المثقفين وأنصاف المثقفين المعاصرين فى هذه البلدان حديثا ، وأن البدايات الأولى لمرحلة النضال من أجل التحرر الوطنى والخلاص من السيطرة السياسية الاستعمارية المباشرة منذ ما قبل منتصف القرن الحالى هى بمثابة الميلاد الحقيقى لهـــذه الشرائح التى ساهمت كل الطبقات والفئات الاجتماعية على اختلاف نزعاتها فى عملية الحمل والولادة • هذا مع ملاحظة أن الطبقات والفئات الغنية والموسرة التى استطاعت بفضل ذلك أن تحصل على فرص أفضل لتعليم وتثيف أبنائها قد قـدمت الاسهام الأكبر فى تكوين عدد المثقفين بالقياس الى الطبقات والفئات الفقيرة فى ظل الســـيطرة الاستعمارية ، الا أن تحليـــل المثقفين بالاستناد الى منشـأهم الاجتماعى وحده لا يمكن بحد ذاته أن يؤدى الى أية استنتاجات حول المواقف السياسية للمثقفين ، ففى غالبية البلدان النامية خـرج من الوسط الاجتماعى الواحد رجـال يمثلون الماركسية وكذلك زعماء لمنظمات رجعية عاتية(٣) •

ولقد كانت طبيعة الظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية بشكل عام التى أحاطت بتكوين وميلاد هذه الشرائح من المثقفين فى البلدان النامية والمتخلفة قبيل وأثناء مرحلة النضـــال من أجل التحرر الســياسى كانت وما تزال هى أشد العوامل حسما وفاعلية فى تكوين وبلورة شخصية هذه الشرائح ومحتواها الفكرى وممارساتها العملية حتى اليـــوم ، الأمر الذى يستوجب الاشارة الى طبيعة هذه الظروف بتفصيل أكثر •

طبيعة الظروف التى تكون ونشأ فى ظلها مثقفو البلدان النامية :

وحتى نتوصل الى تحديد علمى وموضوعى لملامح وأبعاد هذه الشخصية الاجتماعية لمثقفى هـــذه البـــلدان وبلورة محتواهـــا ومواقفهـــا العملية

وأيهما الثانى ؟؟ وما هو المحتوى الضمنى للعالم الثالث ؟؟ ثم هل انتهى تقسيم الكرة الأرضية الى ثلاثة عوالم أم أن المستقبل يعد بأرقام عوالم جديدة (رابع وخامس •• الخ) • هـــذا بالاضافة الى انعدام الصلة المنطقية واللغوية بين الأرقام والمسميات ، حيث يمكن الحاق الرقم أو ربطه بأى اسم ، ولا يمكن تحويل الرقم نفسه الى اسم ، لأن الأسماء مفاهيم نسبية متغيرة والأرقام نظرية مطلقة ، وهكذا تتأكد ركاكة وخطأ استخدام هذا المفهوم الشائع باسم « العالم الثالث » كما يتضح أيضا أن تعبير البلدان النـــامية أو المتخلفة أو هما معا هو الأقرب الى الموضوعية ، رغم أن هذا المفهوم ما يزال هو الآخر بحاجة الى مناقشة •

(٣) مجمـــوعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبـلدان النامية — ص ٣٥٨ مرجع سابق •

الناجمة عن ذلك لابد وأن نشخص أولا طبيعـــة البيئة والظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية التى تكونت ونشأت فى ظلها هذه الشرائح كمدخل تاريخى وجدلى لابد منه لتحديد أبعاد هذه الشخصية من جهة وتأكيدا لحقيقة أن البيئة الاجتماعية والظروف الطبيعية المحيطة اذا كانت هى التى تشكل العـــامل الحاسم فى خلق وتشكيل الكائن الحى نفسه فانها من باب أولى تعتبر أكثر العوامل حسما فى أيجاد وتشكيل الظواهر الاجتماعية عامة بما فيها شرائح المثقفين المعاصرين فى البلدان النامية والمتخلفة فى الوقت الحاضر كواحدة من أبرز الظواهر المعاصرة • ويمكن تحـديد الملامح الأساسية لتلك المرحلة داخليا وخارجيا فى :

(أ) حالة شـاملة من الركود والاستسلام لأشـــد المفاهيم الاقطاعية تخلفا ابتداء من انتشار الأمية والخرافة والجهل والعـزلة مرورا بانحطاط المشاعر القـــومية والانتماء الوطنى(٤) وانتهاء بأبشع مظاهر القهر الطبقى والسياسى والظلم الاجتماعى للطبقات الاقطـاعية المتسلطة والأرستقراطيات العشائرية والدينية والقبلية الدائرة فى فلكها ضد الطبقات الأخرى من عامة الشعب من فلاحين وعمال وتجار صغار (أصحاب ورش ودكاكين) وغيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى ممن لا تنسجم أو تتكامل مصالحهم مع مصالح الطبقات والفئات المسيطرة (جنود ـ مثقفين مستنيرين ـ جماعات سياسية معارضة •• الخ) •

---

(٤) المعروف دائما عن المجتمعـــات والجماعات الاقطـــاعية وشبه الاقطاعية هو تغليبهـا المستمر لمشاعر الانتماء الأسرى والعشـــائرى والاقليمى على حساب مشـــاعر الانتمـاء الوطنى والاجتماعى والوحدة الوطنية والدولة المركزية بصفة عامة بل وتعارضها دائما ، وفى مقـابل الطبقات الاقطاعية التى كان هذا شأنها فى المجتمع الأوربى القديم وما يزال كذلك فى الوقت الحاضر بالنسبة للمجتمعات النامية والمتخلفة تبرز اليوم فى هذه المجتمعات المتخلفة فئة جديدة أكثر خطورة على السيادة والوحدة الوطنية وهى فئة الكمبرادور (الوسطاء التجاريين الدوليين) التى لا تميل الى اضعاف الوحدة الوطنية وعرقلة التنمية عن طريق تغليب الاعتبارات الأسرية والعشائرية والاقليمية على الولاء الوطنى كما يفعل الاقطاع ، بقدر ما أنها تميل الى التحلل شبه النهائى من الانتمـاء الى الوطن واحترام حق المواطنة بأى شـكل من الأشكال وتحولهم الى مضاربين دوليين لصالح الاحتكارات العالمية وتوزيع منتجاتها ، ولا ينظرون الى حق المواطنـة فى وطنهم الأصلى أو يحتاجون اليها الا باعتبارها امتيـــازا تجاريا لهم يستخدمونها من أجل المزيد من نشاط الاستيراد والتوزيع لمنتجات الاحتكارات الرأسمالية الدولية وازالة أية عوائق فى طريقها ، والتى ينتمون اليها كمتطفلين على فتـــات موائدها أكثر من انتمائهم الى موطنهم بـكثير •

(ب) غزو استعمارى مباشر يعمل بلا تردد على تكسير وتحطيم هـذه الأوضاع بحدة وشراسة لا هوادة فيها ، لكى ينفرد بكل الامتيازات السياسية والاقتصادية القائمة من جهة ويعيد ترتيب أوضاعها وتكييفها من جديد بما يتوافق وطبيعة مصالحه الدولية ومضامينها السياسية والاقتصادية المغايرة جذريا لكل ما هو موجود من جهة أخـرى وفى ضـوء مفاهيم وطموحات البرجوازية الأوربية ومضامينها العقلية والتقنية الحديثة(٥) .

(جـ) وأمام هذا المتغير الأوربى الاستعمارى الحـاد الذى أمسك بزمام المبادرة فى كل شىء تقريبا ومن خلال التعامل معه بغير تكافؤ وبمرور الوقت حدثت عمـلية استرجاع واجترار تاريخى عميق بطريقة غامضة وباهتـة للماضى التاريخى والحضارى لهـذه الشعوب من كل الفئـات والطبقـات فى المجتمع بلا استثناء فى محاولة سلبية لمواجهة الواقع المتداعى من تحت أرجلهم جميعا قطعة قطعة ، وأشبه ما تكون بعملية البحث عن تعويض معنوى غامض أو « افاقة الموت » كما يقـال أنها تحدث للمحتضر قبـل لحظات الاحتضار الأخيرة .

(د) واذا كانت عملية الاجترار الغامض للماضى بهذا الشكل قد عجزت بطبيعة الحال عن رأب الواقع الاقتصـادى والاجتماعى المتصدع والمنهـار أو المحافظة عليـه ، الا أنهـا قد أفرزت بمرور الوقت — ولو بطـريقة غير مباشرة — مجموعة من النتائج الهامة والجوهرية الأخرى وأهمها نمو المشاعر القومية من جهـة والرغبـة الوطنية للتخلص من السـيطرة السـياسية الاستعمارية المباشرة من جهة أخرى ، باعتبار أنها تشكل التجسيد الوحيد لا لمجرد السيطرة الأجنبية على السلطة فحسب بل ولكل المشاكل الداخلية أيضا ، وبزواله تزول كل المتاعب والمشاكل ويسترد الاعتبار القومى والوطنى المهان تحت السيطرة الأجنبية المباشرة . ولقد شاركت كل الطبقات والفئات

---

(٥) يمكن تلخيص أهم النقاط التى ارتكز عليها النشاط الاستعمارى المبكر فى :
١ — تعديل النظم الاقطاعية القديمة بتحويلها من أنظمة اقليمية وعشائرية معـزولة الى نظام ممركز الى حد ما . ٢ — تحطم نمط الانتاج والاستهلاك الاقطاعى القديم المرتبط بالداخل وصولا الى خلق سوق رأسمالية ممركزة تقـوم على أساس تحطيم كل أشكال الانتـاج المصنع محليا وتصدير كل ما يمكن انتاجه من مواد خام واسـتيراد كل ما يحتاجه المجتمع من سلع الاستهلاك . ٣ — ثم اقامة شبكات هائلة من وسائل النقل والمواصلات التجـارية من موانىء ومطارات وسكك حديدية .. الخ . تمكن وتسهل انجاح المهام السـابقة والذى يراجع تاريخ مصر والهند فى هذا الشأن يجد أفضل مثل على ذلك .

الأساسية فى المجتمع تقريبا فى صنع هـــذا الموقف والنضال من أجله مع بعض الفروق النسبية فى طبيعة الأدوار ونوع الأداة وتغـــاير الأهداف والمقاصد حتى تحقق التحرر السياسى فعلا بعد زمن طـــويل من السيطرة الأجنبية المباشرة ٠

النشـــأة الانتقائية للمثقفين :

والآن وبعد هذا الاستعراض السريع لفترة ما قبل وأثناء مرحلة التحرر السياسى فى البلدان النامية سيكون فى مقدورنا أن نحدد فى ضوئها طبيعة المنشأ والتـــكوين الحقيقى لشرائح المثقفين فى هـــذه المجتمعات وما لعبته من أدوار مختلفة حتى الآن ٠ فلقد كان الاحساس العميق بحـــاجة الطبقات الاقطاعية المتسلطة فى المجتمع ، وكذلك الجماعات الأولجاركية (الديكتاتوريات العسكرية) والأرستقراطيات المختلفة الى الدفاع عن نفسها والتعبير عن قلقها وخوفها تجاه واقعها المنهار ، مع عجزها ـ بحكم التقادم ـ عن امتلاك الأدوات والقدرات التعبيرية والتكتيكية المناســـبة لذلك من داخلها ، كان كل ذلك يدفعها بطريقة مبـــاشرة وغير مبـــاشرة الى افراز مجاميع واســـعة من أبنائها والدفع بهم الى مجال التعليم والتثقيف الحديث الذى أتيح فى ظل السيطرة الاستعمارية استعدادا منها للقيام بتلك المهمة فى تصورها ، والتى كانت تحس هى بالعجز عن القيام بها بامكانياتها التقليدية ، أو من أجل الحصول على امتيازات أكثر فى ظل السيطرة الاستعمارية على الأقل ٠

كما أن بقية الطبقات والفئـــات الأخرى الواقعة فى أسفل الســـلم الاجتماعى من فلاحين وعمال وتجـــار صغار وحرفيين وغيرهم من الفئـــات الهامشية الأخرى قد فعلت نفس الشىء وبحماس أكثر من خلال بعض الفرص الضيقة التى حصلت عليها فى ظل نفس الظروف ٠ ومن المفارقات العجيبة أن يلتقى هذا النزوع والرغبة شبه الجماعية من كل فئـــات وطبقات المجتمع مع رغبة مماثلة من قبـــل السلطات الاستعمارية المباشرة التى ظلت ترغب دائما فى الحصـــول على المستخدمين والكتبة والجنـــود والشرطة المحليين المؤهلين الذين لا غنى عنهم كجانب محلى تابع ومكمل للادارة الاســـتعمارية الجديدة[٦] ٠

---

(٦) راجع على باذيب : ثقافتنا الوطنية وآفاق تطورها ، فى كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ، دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٠٨ الى ١١٤ ٠

وهنا ومن هـذا المنطلق تتضح النشأة الانتقائية للمثقفين فى هـذه المجتمعات منذ البداية فى ضوء مفاهيم قومية انتقـائية ، وليس على أسس ايدلوجية وطبقية ، حيث كان هؤلاء المثقفون لا يعبرون عن طبقاتهم بقـدر ما يعبرون عن الحمارس والمشاعر القومية المشتركة لـكل الطبقات والانتماء الوطنى المشترك • فمنذ الفصول الأولى للدراسة فى الجامعات والمعـاهد ــ كما يذكر مجموعة من الباحثين السوفييت ــ كان الطلاب كفئة مثقفة بما يمتـازون به من سرعة الاستيعاب يتمثلون الأفكار القـومية ويتعرفون الى طبيعة الأشياء فى العالم الخارجى والى طراز الحياة الاجتماعية فى الغـرب ويتحولون بأكثريتهم الى أنصار للتغييرات الحاسمة والاصلاحات الجبرية(٧)•

ومن الأمور والعوامل الحـاسمة التى دفعت بهـذه البـداية والنشأة الانتقائية الخاطئة لمثقفى البلدان النامية والمتخلفة الى أقصى مدى ممكن وأجل من اكتشـاف خطئها ، هو أنه حينما بدأت مرحلة النضـال من أجـل التحرر السياسى كانت هذه العناصر المتساقطة أو المنتقاة من مختلف الفئات والطبقات فى المجتمع قد نمت واتسع حجمها أفقيا ورأسيا وصار لها فكرها وثقافتها شـبه المتميزة عن فكر وثقـافة أصولها الطبقية التقـليدية ، وهى عبارة عن مزيج من الخبرة المهنية الوظيفية والمفاهيم الثقافية الغـربية التى جلبها الاستعمار وسمح بنشرها وتداولها كعامل أسـاسى فى تكوينهم الفكرى من جهة والشعور القومى والوطنى غير الواضح وغير المبلور من جهة أخرى ، ووجد من بين أوساطهم من تجاوزوا فى اتجاههم الرأسى مجرد كونهم كتبة وموظفين مهرة ضمن الادارة الاستعمارية أو خارجها الى تأكيد وجودهم كأصحاب وعى وثقافة أكثر نضجا وارتقـاء بالنسبة لأبناء وطنهم بعـامة ، من شعراء وأدباء وكتاب صحافة وقادة نقابيين نشطين بل وزعمـاء حركات ومنظمات سياسية أيضـا ، واضطلعوا بالعبء الأكبر فى اثارة المشـاعر القومية والوطنية وقيادة النضال الوطنى لكل الطبقات والفئات الأخرى ضد المحتل الأجنبى فى مرحلة التحرر السياسى ، ومن أوساطهم أيضـا تبلور التكوين والولادة الحقيقية لمـا نعنيه هنا بمثقفى البلدان النامية منـذ مطلع هذا القرن الحالى وحتى الآن •

فلقد اكتسب المثقفون ــ كما يقول بوتومورو ــ مكانة رائدة فى الحركات الراديكالية ، ولا يزال دورهم واضحا كما أظهرت ذلك أحداث بولندا والمجر عام ١٩٥٦ وثورة كوبا والحركات المناهضة للاستعمار فى بلاد كثيرة(٨) •

---

(٧) مجموعة من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ص ٣٩٢ •

(٨) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ٨٩ •

الاتفـاق العلني والتناقض الخفي بين الفئـات والطبقـــات في مرحلة التحرر الســـياسي :

لقد كانت حرارة الحماس القومي للنضـــال الوطني ضـد الاستعمار من أجل التحرر السياسي تشكل في مرحلة ما قبل الاستقلال مباشرة ما يشبه دور القاسم المشترك بين مختلف الفئـات والطبقات الاجتماعية ، والعـامل الحاسم في تكوين وعيها السياسي ، وفي مقدمة الجميع هؤلاء المثقفين الذين اضطلعوا بدور القيادة السياسية والعسكرية للنضال وتشبعوا حتى الثمالة بفكرة الطموح والحماس القومي والوطني للاستقلال السياسي ، لا باعتبـاره مجرد انتـــزاع للادارة والسـلطة من المستعمر فحسب بل وغـاية في حد ذاته — كما كان الـكل يتصور — لتحقيق الاستقلال الاقتصـادي والسـيادة الوطنية وبنـــاء مجتمع حديث ومتطور فورا وبصورة شـبه تلقائية وبدون مقدمات واضحة أو شروط موضـوعية محــددة ، فغالبا ما شـكل المثقفون في المجتمعات النامية صفوة راديكالية متماسكة لعبت دورا هاما في الحياة السياسية في مرحلة التحرر السياسي والقومي(٩) ٠

وهكذا ففي الوقت الذي ساعدت هـــذه الظروف على تنمية الشـعور القومي الذي أدى الى الاجماع شـــبه الكامل على مقـــاومة السلطة الأجنبية والحصول على الاستقلال ، الا أنه قد عمـــل في الوقت نفسه على تكريس مجموعة من الثغرات ونقاط الضعف الخطيرة في حياة هذه المجتمعات حالت دون تحررها الاقتصادي والاجتماعي الكامل والحقيقي حتى اليـوم ، والتي لم يبدأ اكتشافها الا غـــداة الاســتقلال الشكلي « الكسيح » ٠ وكانت فئة أو شريحة المثقفين التي كانت تطرح نفسها على أنهـــا الأكثر وعيا وادراكا لمجريات الأمور وتحتل بموجب ذلك موقع رأس الحربة المتقـدمة في عملية النضال من أجل التحرر السياسي ، هذه الفئة كانت هي أكثر الباقين جميعا جهلا بهذه الثغرات ذات الأبعاد الاجتماعية والطبقية والتاريخية في المجتمع ، وذلـك بحـكم تكوينهم الانتقائي الخـــاطيء وطبيعتهم اللاطبقية وتفكيرهم اللاتاريخي واللاجدلي ، ولأن لديهم دائما — كما يقول بوتومورو — ميل نحو طرح مشكلات مجردة بدرجات متفاوتة من الأخلاص ، وهم غالبا ما يوسعون من نطاق هذه المشكلات بمقدرة عالية ، لكن هـــذا الاتجاه أو الميل يتضمن أنهم غالبا ما يقترحون حلولا غير واقعية ، وأنهم أيضا يتمسكون بالفرعيات ويهملون المسائل الرئيسية وعدم الاتفاق فيما بينهم(١٠) ٠

---

(٩) نفس المرجع السابق ص ٩٢ ٠

(١٠) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ٩٠ و ٩١ ٠

ويأتى فى مقدمة هذه الثغرات ونقاط الضعف تحييد واضعاف بروز العلاقات الطبقية السائدة فى المجتمع والوعى الطبقى المعبر عنها ، وازاحة كل ذلك من ساحة النضال ضد الاستعمار القادم من الخارج والخصوم الطبقيين المتخلفين فى الداخل ، والذين أثبتت التجارب أن أى منهما (الاستعمار والاحتكارات الدولية فى الخارج والطبقات الاقطاعية والبرجوازية والكبرادورية فى الداخل) يستطيع أن يقوم بنفس المهمة فى حالة غياب الآخر أو الانابة عنه فى أداء نفس المهمة المشتركة والتى لا خلاف حولها من الناحية الاستراتيجية وهى المحافظة على الأوضاع والمصالح التقليدية المجسدة لحالة التخلف كما هى وعدم السماح بأى تحديث ايجابى معاصر الا فى حدود ما يضمن تقوية وتدعيم هذه الأوضاع وتكريها أكثر فأكثر فى الداخل من جهة ، وزيادة نصيب القوى الاستعمارية والامبريالية والاحتكارات الدولية فى الخارج من المصالح الاقتصادية والسياسية المباشرة وغير المباشرة فى هذه الأوضاع نفسها من جهة أخرى .

ولقد ذهب بول باران الى تأكيد هذه الحقيقة بالقول : بأن الطبقات الحاكمة فى الغرب لديها مصالح خاصة فى استمرار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الراهنة فى البلاد النامية .. وهى تتبنى استراتيجية لضمان استمرار تخلف الدول المتخلفة تقوم على تأييد ودعم « الجماعات المحافظة والرجعية » فى الدول الأخيرة بما تقدمه لها من مساعدات اقتصادية وعسكرية(١١) .

كما أنه قد اتضح مؤخرا وبما لايدع مجالا للشك أن المشاركة الهامشية لتلك الطبقات وتعاطفها فى النضال من أجل الحصول على الاستقلال السياسى لم يكن فى حقيقته أكثر من مجرد رغبة فى استعادة ما أخذته منها سلطة المستعمر الأجنبى من الامتيازات السياسية والاقتصادية وانفرادها بها من جديد ، أو تقاسمها معه على الأقل ، وتنسيق مصالحهما معا فى المستقبل، وهو الأمر الذى حدث بالفعل بعد تحقيق الاستقلال السياسى المزيف ، ولم تكن مشاركتها وتعاطفها هو بقصد تحقيق استقلال سياسى واقتصادى واجتماعى ناجز وايجاد تحولات اجتماعية جذرية على طريق بناء مجتمع متطور جديد ومتقدم كما كانت تظن مجاميع المثقفين وغيرهم من الجماعات الليبرالية والشعبية الأخرى فى المجتمع .

---

(١١) د. السيد الحسينى وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية - ص ١٢٦ و ١٢٧

فالبرجوازية الكمبرادورية مرتبطة بشكل وثيق بالرأسماليين الأجانب والاقطاعيين المحليين وهي تشكل مع العناصر الاقطاعية ونصف الاقطاعية الركيزة الاجتماعية الرئيسية للامبريالية فى البلدان المستعمرة والمتخلفة(١٢).

فلقد كان الكل فيما قبل مرحلة الاستقلال يعمل من أجل الحصول عليه علنا ، والكل سرا وبطريقة غير مباشرة يعتقد بأنه صاحب الحق فى قيادة مرحلة ما بعد الاستقلال مباشرة والاستئثار بمنافعها دون أن يكون بحاجة حتى لمجرد اعلان هذه الرغبة أو اشعار الآخرين بها على الأقل . فالطبقات الاقطاعية والأرستقراطيات المسيطرة فى الماضى افترضت بأن الاستقلال هو مجرد استرداد حق تاريخي سلب منها أصلا ، والبرجوازية الصغيرة التجارية والكمبرادورية التى ازدهرت فى ظل السلطة الاستعمارية اعتقدت أيضا أنها صاحبة المستقبل الحقيقى بكل ما تحمله من معانى التجديد والتطوير الحديث الشكلى القائم على أساس التكامل والتبعية للاحتكارات الاقتصادية فى الخارج والاكتفاء بالتعيش الطفيلى على هامشها فى الداخل .

فلقد اضطرت البرجوازية — كما يؤكد مجموعة من العلماء السوفييت — بسبب معاناتها من اضطهاد الاحتكارات الامبريالية ومن تضييقها لمصالحها الطبقية الى مقاومة توسع نفوذ الاحتكارات والى مساندة حركة التحرر الوطنى ولكنها تحاول بالمقابل وبنفس الحماس أن تقيم الحواجز فى وجه الأفكار الاشتراكية والتقدمية التى أخذت تغزو البلدان المتحررة . فالحياة تدفع البرجوازية المتوسطة الى مجابهة الاحتكارات الأجنبية والطبقات القديمة ورأس المال الوطنى الكبير من جهة والى مجابهة البروليتاريا وكل الشغيلة من جهة أخرى(١٣) .

أما بقية الطبقات والفئات الأخرى فى المجتمع ذات التوجه الوطنى والديمقراطى بطبيعتها من عمال وفلاحين وجنود ومثقفين وطنيين .. الخ ، وذات التركيب والمضمون المضاد جملة وتفصيلا لما سبق ، فهى اما بعيدة نسبيا عن حلبة الصراع المباشر ولم تفصح بعد عن مصالحها ومطالبها الطبقية فى تلك المرحلة بالذات مثل طبقة الفلاحين التى تشكل القاعدة العريضة للهرم الاجتماعى فى البلدان النامية والمتخلفة حتى الآن ، واما أنها ما تزال

---

(١٢) راجع مجموعة الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ص ٤٨ (أنظر من الصفحة الهامش) .

(١٣) المرجع السابق — ص ٢١٨ و ٢٨٨ .

ضعيفة التكوين نسبيا مثل طبقة العمال ، رغم أنهـا ظلت تشكل بمواقفها ومطالبها الوطنية حالة حضور مستمر طوال مرحلة النضال من أجل التحرر السياسي من خلال قياداتهم ومؤسساتهم النقابية والسياسية المختلفة ٠

والفئة الاجتماعية التي شكلت أكثر المواقف حـــدة وفعالية فى هذا الشأن هي فئة المثقفين التى كانت نقطة الارتكاز فى العملية بكاملها بالتنسيق مع كل الطبقات السابقة وبعض الفئات الاجتمـاعية الآخرى ، مثل الجنود والطلبة وبعض أصحاب المهن كالأطباء والمهندسين وصغار التجار « أصحاب الدكاكين » فهؤلاء المثقفين الذين شكلوا همزة الوصل أو ما يشبه القـاسم المشترك بين كل الطبقات والفئات الاجتماعية فى عملية النضـال من أجل التحرر السياسى قد افترضوا من جانبهم أيضـا أن الاستقلال قضية قومية بالدرجة الأولى ووطنية بشكل ما فى الدرجة الثانية ، ولم يكن لديهم بحكم طبيعتهم الانتقائية والهامشية أى تصور محدد وجرىء لكيفية تشكيل مرحلة ما بعـد الاستقلال من النـاحية الاقتصـادية والاجتماعية على غرار ما كانت تضمره وتعتقده طبقـات الارستقراطيات الاقطـاعية القديمـة والتطلعات البرجوازية والكمبرادورية الجديدة على نحو ما سبق ذكره ٠

ولقد جاءت كل النتائج اللاحقة غداة الاستقلال كافراز جدلى وطبيعى لكل تلك المقدمات السابقة سواء كان الكل يشعر ويعى ذلك بطريقة صحيحة أو خاطئة ، فلقد اصطدمت رغبة هذه الصفوة الجديدة (المثقفون) ـ كما يقول الدكتور الجوهرى ـ فى الحصول على الاسقلال السياسى الفورى وتأسيس حكومة وطنيـــة منظمة ومركزية قوية برغبـة ومصلحة الصفوة القـديمة فى الحفاظ على الظروف التى تؤمن لهم امتيازاتهم التقليدية فى ظل الدولة المستعمرة ، خاصة وأن هـــذا الاستقلال المطلوب سوف يرفع قبضتهم عن المنـــاطق التى كانوا يسيطرون عليهـا أو القبـائل أو الجمـاعات الدينية المختلفة(١٤) ٠

فالاستقلال السياسى رغم قوة الحماس القومى والشعبى له وما توفر له من امكانيات غير عادية تتيح بسهولة امكانية تحول اجتماعى واقتصـادى شامل ، الا أنه لم يستطع رغم شعاراته العريضة وحماسه الرنان أن يحقق

---

(١٤) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف المصرية ١٩٧٨ ، الطبعة الأولى ص ٢٦١ ٠

أكثر من مجرد استقلال سياسى ناقص وشكلى تماما ، لا يتجاوز فى معظم الأحيان مجرد تلحين السلام الوطنى ورفع الأعلام الدالة عليه وما شابه ذلك ٠

ذلك أن الاقطاع القديم والنشوء البرجوازى والكمبرادورى الجديد الذى تسلم السلطة الحقيقية كان حتى فى مرحلة النضال من أجل الحصول على الاستقلال يرفض العنف المسلح ضد المستعمر واشراك جماهير الشعب فيه ويكتفى بالعنف السياسى والدبلوماسى الناعم ، فهو لم يدعو قط الى العنف الثورى المسلح ضد الاستعمار ومخلفاته لأنه لم يكن يهدف قط الى قلب الأوضاع التى أنشأها الاستعمار رأسا على عقب ولا يطمع فى أكثر من استلام مقاليد الحكم من يد المستعمر واعادة توزيع المصالح بين الطرفين بصورة أكثر ميلا الى تأكيد مصالح هذه الطبقات والاعتراف بها من قبل المستعمر(١٥) بل لقد بلغ الحال بمثل هذه الطبقات الرجعية المتخلفة أن خافت من رحيل المستعمر نفسه ورفضت الاستقلال فى بعض الحالات حينما كانت تشتم أبسط المفاهيم الوطنية والتقدمية المرافقة لهذا الاستقلال٠ ولقد بدت هذه الهوة أوضح ما تكون ـ كما يقول الدكتور الجوهرى ـ فى نتيجة « الاستفتاء » الذى أجرته حكومة روديسيا الجنوبية فى شهر أكتوبر ١٩٦٤ ، وشمل حوالى ستمائة من زعماء القبائل هناك الذين طالبوا فى الاستفتاء بالانفصال عن بريطانيا والحصول على دستور تحكم من خلاله حكومة « من البيض » وعارضوا أفكار الاستقلال الوطنى والمساواة التى كان يطالب بها الزعماء الافريقيون الوطنيون من بنى جنسيتهم(١٦) ٠

حقيقة الوضع الهامشى للمثقفين :

ووسط كل هذه التحولات ومن خلالها كان ـ كما لاحظنا سابقا ـ ميلاد فئة المثقفين كافراز نشط لكل الطبقات والفئات الأخرى فى المجتمع من ناحية واضطلاعها بدور رأس الحربة المتقدمة فى اثارة الوعى القومى وتصعيد النضال ضد المستعمر والحصول على الاستقلال السياسى مع بقية الفئات والطبقات الأخرى فى المجتمع من ناحية ثانية ، واعتقادها الجازم بأنها ستظل كذلك فى موقع الصدارة بلا منازع بعد الاستقلال ووفق ما تشبعت به من مفاهيم قومية ووطنية غامضة ومثالية من ناحية ثالثة ٠

---

(١٥) د٠ السيد الحسينى : دراسات فى التنمية الاجتماعية ، ص ١٣٨ ٠

(١٦) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ص ٢٦١ ٠

الا أنه ومنذ صباح اليوم التالى للاستقلال « الكسيح » بدأت الطبقات الاقطــاعية والأرستقراطيات القــديمة من جهة والبرجوازية الكمبرادورية الجديدة من جهة أخرى يعبر كل منها عن مصالحه الطبقية الحقيقية ويدعمها من خلال التنافس السياسى حينا أو الاقتتال الدموى أحيــانا كثيرة من أجل الاستيلاء على السلطة السياسية كاطار ضرورى لحماية المصالح الاقتصــادية والطبقية وتطويرها • حيث بدأت هاتين الطبقتين تتقاسمان السلطة بعــد رحيل الشكل الســياسى للاستعمار من بلد لآخر ، أو يتناوبان الاستيلاء عليها بالقوة من خلال انقلابات متتالية داخل البلد الواحد •

ولو أننا قمنا بعملية مراجعة سريعة لخارطة الوطن العربى مثلا فى تلك المرحلة التى ما تــزال امتداداتها قائمة حتى اليــوم لوجدنا أفضل نموذج لما جرت عليه الأمور حتى اليوم فى الوطن العربى والبلدان النامية والمتخلفة بصفة عامة • حيث يمكن تقسيم أقطـــار الوطن العربى الى ثلاث مجموعات رئيسية . المجموعة الأولى وتتمثل فى كل من مصر والعـــراق والصــومال وليبيا ، وفيها تسلم الاستقلال أولا الطبقة الاقطاعية وكان استقلالا سياسيا هزيلا تحت السيطرة الاستعمارية المبــاشرة وغير المباشرة (الأنظمة الملــكية فاروق فى مصـــر وعبدالاله ونور السعيد فى بغـــداد وادريس السنوسى فى ليبيا) وما لبثت البرجوازية أن انتزعت منها هذا الاستقلال بالقوة تحت شعار القومية العربية والوحدة العــربية الذى كان له أبلغ الأثر فى حسم المعركة لصـــالح البرجوازية من خـــلال ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر و ١٤ توز ١٩٥٤ فى العراق والفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ فى ليبيــا ، والتى أعطت الاستقلال بعدا وطنيا جديدا هو أكثر عمقا ودلالة بالنسبة لما قبله ، ثم ما لبثت الشــعارات القومية التى استخدمتها البرجوازية كأداة تكتيكية وانخدع بها المثقفون الذين راهنوا عليهــا كأداة استراتيجية ضمن مفــاهيم سطحية ما لبثت أن ســـارت فى تناسب عكسى مع ما يحـــدث فى الواقع من توطيد وتطوير لمصــالح البرجوازية والكمبرادورية من جهة وتقهقر المد القومى الوطنى والتقدمى الحقيقى من جهة أخرى ، حيث يمكن ملاحظة كل ذلك بوضوح من خلال تتبع خط عبدالناصر فى الوطن العــربى وما انتهى اليه هذا الخط داخل مصر بالذات فى الوقت الحاضر ، ومثله خط نهرو فى الهند وسوكرنو فى جنوب شرق آسيا ونكروما فى أفريقيا •

أما المجموعة الثــانية فهى عبــارة عن أقطـــار عربية تسلمت فيهــا البرجوازية الوطنية الســلطة من المستعمر مبــاشرة وسارت فى نفس الخط الذى سارت فيه المجموعة الأولى ، وتتمثل هذه المجموعة فى كل من ســوريا

ولبنان وتونس والجزائر والشطر الجنوبى من اليمن(١٧) • أما المجموعة الثالثة وتتمثل فى المغرب والأردن والسعودية والشطر الشمالى من اليمن ، وفى هذه الأقطار نلاحظ أن الاقطاع اما أنه قد قام بتسلم السلطة من المحتل الأجنبى وما يزال يحافظ عليها وفقا لمفهومه كما هى الحال فى المغرب والأردن أو أنه كان يحكم أصلا بعيدا عن الشكل المباشر للادارة الاستعمارية مكتفيا بالتعاون والتحالف معها والخضوع غير المباشر لها ، كما هى الحال فى حالة السعودية والشطر الشمالى من اليمن قبل عام١٩٦٢ ، والذى دخلت فيه البرجوازية مع الاقطاع فى صراع مرير من أجل الاستيلاء على السلطة منذ عام ١٩٦٢ والذى لم يحسم بعد تاريخيا حتى هذه اللحظة •

فالقادة الوطنيون لمرحلة ما بعد الاستقلال لم يكونوا ـ كما يقول بوتومورو ـ من المثقفين أو الثوريين فهم فى الهند (مثلا) لا ينتمون لأى من الفريقين كما أن تأثيرهم (أى المثقفين الثوريين) لم يستمر لفترة طويلة اذ واجهه بعد فترة تأثير القادة السياسيين الذين ينتمون لجماعات مهنية أو لقطاع الأعمال فضلا عن المذاهب الأخلاقية والاجتماعية التى صاغها غاندى واستقاها من الفكر الدينى التقليدى ، وما يصدق على الهند نجد له نماذج أخرى كثيرة فى المجتمعات النامية والمتخلفة(١٨) •

وهكذا لم يفاجأ المثقفون السياسيون بالذات فى هذه المرحلة (غداة الاستقلال وما بعدها) أنهم مبعدون عن مركز القيادة السياسية فحسب بل صاروا هم أشد حلقات السلسلة ضعفا وأقلها قدرة على الاتزان والتماسك وذلك حينما فاجأتهم هول الحقيقة التى ما يزالون يعانون من العجز عن ادراكها حتى الآن ، حقيقة أنهم فى مجموعهم وبحكم طبيعة تكوينهم ونشأتهم الانتقائية الخاطئة منذ البداية ليسوا طبقة ولا جديرين بالدفاع عن مصالح طبقة معينة أو التحالف معها فى مجموعهم ، سواء ان كانت فى قمة السلطة أو خارجها ، وان الخيوط الرفيعة التى ألفت فيما بينهم فى الماضى لا تعدوا كونها مجرد

---

(١٧) لابد من ملاحظة أن الفئة البرجوازية الوطنية التى تسلمت السلطة من الاستعمار البريطانى فى جنوب اليمن قد دخلت فى صراع مرير منذ اليوم التالى للاستقلال مع خط اليسار الثورى الذى قاد النضال المسلح فى محاولة لاقصائه عن السلطة والواقع الاجتماعى برمته ، الا أن الأمور قد حسمت بعد ثلاث سنوات من الاستقلال عام ١٩٦٧ لصالح اليسار الثورى نهائيا وسارت الأمور فى غير صالح لخط البرجوازى فى هذه المنطقة من الوطن العربى والتى يمكن أن تشكل الحالة الاستثنائية الوحيدة حتى الآن الى جانب الجزائر الى حد ما ، الأمر الذى سيتضح آكثر فى الفصول القادمة من هذه الدراسة •

احياء وتنشيط لمشاعر « المواطنة » والانتماء القومي التي تجمع فى نطاقها أشد المصالح تناقضا فى أى مجتمع تجاه الخطر الخارجى أو أى تهديد للمصير القومى ، وأنهم قد أخطأوا فى تحميلهم لهذه الحقيقة التاريخية أكثر مما تحتمله طبيعتها حينما ظنوا — بأحساس طفولى مراهق — أنها قادرة أيضا على حل القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتناقضاتها الذاتية فى المجتمع وبأساليب مثالية مغرقة فى السذاجة ٠

بل لقد تصدى الكثير منهم بشراسة لفكرة الحل الاجتماعى والصراع الطبقى من خلال المفهوم الجدلى والتاريخى العلمى للعلاقات الاجتماعية بين الطبقات واعادة ترتيب هذه العلاقات جذريا بما يحقق الحل الاجتماعى الجذرى أيضا لمشكلة القهر والظلم والتخلف الاجتماعى بشكل عام ، وذلك كتعبير عن اعتقادهم الطوباوى المريض بأن ذلك سيشكل تهديدا للوحدة الوطنية والوجود الوطنى نفسه الذى حقق الاستقلال السياسى وسيحقق الحل الاجتماعى أيضا بطريقة ما ٠

دور المسألة القومية

ولقد كان هذا الفهم الخاطىء للقضية القومية هو أشد نقاط الضعف خطورة وأكثرها مدعاة للضياع المحقق ليس بالنسبة للمثقفين فى البلدان النامية وفى الوطن العربى بالذات فحسب بل وبالنسبة لمبدأ الفهم العلمى والتاريخى السليم لحركة التاريخ وقوانين المجتمع بصفة عامة ، وذلك بالنظر الى هذه القضية باعتبارها المدخل والحل الحاسم للقضية الاقتصادية والاجتماعية بنفس القدر الذى كانت فيه هى المدخل والأداة للحصول على الاستقلال السياسى من السيطرة الأجنبية ٠

ذلك أن المسألة القومية فى حقيقتها ترتبط جوهريا بقضية الوجود التاريخى والقومى للمجتمع برمته وبكل تناقضاته ومهما كانت طبيعة تركيبه أو المرحلة التى يمر بها ، باعتبارها القاسم المشترك الذى يربط بين كل أفراد المجتمع وطبقاته بلا استثناء بحكم وجودهم وانتمائهم الى مجتمع معين يعيش على رقعة جغرافية معينة ويتمتع بسمات وخصوصيات قومية يتميز بها عن غيره من المجتمعات كاللغة والدين والثقافة والامتداد التاريخى والجغرافى والحضارى المشترك فى الماضى والحاضر ٠٠ الخ ، وحينما يتعرض هذا الوجود للتهديد أو القهر من قبل قوى خارجية فان اثارة المسألة القومية يلعب دورا حاسما فى دفع المجتمع بكامل فئاته وطبقاته الى مقاومة هذا التهديد على نحو ما جرت عليه الأمور فى مقاومة السلطات الاستعمارية

والعنصرية ومخططاتها الرامية الى مسخ هـــذا الوجود وتحطيمه فى كثير من الشعوب النامية والمتخلفة ذات القوميات المختلفة ٠

وعند هذا الحد يتوقف دور المسألة القومية ، أما حينما ينظر الى المسألة القومية باعتبارها الوسيلة الوحيدة أيضا لحل مشاكل التخلف والتناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل المجتمع الواحد أو الأمة الواحدة فان ذلك هو عين الخطأ وأشد نقاط الضعف وأكثرها مدعاة للضياع المحقق الذى وقعت فيه كثير من الشعوب والحركات الوطنية فى المجتمعات النامية والمتخلفة غداة حصولها على الاستقلال السياسى وفى مقدمتها الشعوب العربية التى حاولت عبثا أن تحقق حريتها ووحدتها السياسية وتتبنى الاشتراكية ٠٠ الخ من خلال هذه المسألة القومية بلا جدوى حتى اليوم ، ذلك أن تحقيق مثل هذه المهام لا يتأتى قط الا من خلال قضية الصراع الطبقى وتفجير التناقضات الاجتماعية داخل الاطار القومى نفسه ، والتى ستؤدى حتما الى تخليف وازاحة كل الطبقات والفئات الاجتماعية القديمة عن السلطة والتى تحول أساسا بحكم طبيعتها دون تحقيق المهام السابقة كما أن ذلك سيتيح للقوى التقدمية الجديدة الامساك بالسلطة ، والقادرة وحدها على انجاز تلك المهام السابقة على أسس اجتماعية وطبقية أيضا ٠

ولأن هذا المفهوم قد انقلب على رأسه تماما فى أذهان المثقفين فى البلاد العربية وغير العربية من مجموعة الشعوب النامية والمتخلفة فانهم قد وقعوا نتيجة لذلك فريسة سهلة لأشد نقاط الضعف خطورة ومدعاة لاقتيادهم بسرعة الى المصير الحقيقى التعس الذى كان ينتظرهم بطبيعة الحال على حين غرة كمجرد فئة متشردة من الناس على هامش الحياة الاجتماعية والسياسية لكل الطبقات والفئات فى المجتمع والتى أخذت تحتل مواقعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعنف وبلا هوادة ، وبالذات مجاميع الاقطاع القديم ومجاميع البرجوازية والكمبرادور الجديد الذين أخذوا ينسقوا بين مصالحهم جميعا قديمة كانت أو حديثة مع الاستعمار الجديد من موقع السلطة وفى ظل الاستقلال المزيف غير عابئين بشىء مما يدور فى أذهان وعواطف المجتمع بصفة عامة وهؤلاء المثقفين الطيبين بصفة خاصة ، والذين ما لبثوا بمرور الوقت أن أدركوا مأساتهم كفئة تعيش بلا هوية حقيقية ممزقة الوجدان والمشاعر ، وتقيم على أرضية اجتماعية شديدة القلق وأدعى الى الانهيار وعدم الاستقرار ، لا تربطها ايديولوجية محددة كالفئات الدينية مثلا ، ولا مصالح مادية ومهنية ملموسة كالأطباء والمهندسين والحرفيين ، وأبعد ما يكونون فى مجموعهم عن الانتماء الطبقى الى أى من الطبقات

الرئيسية فى المجتمع كطبقة الاقطـــاع أو الفلاحين أو البرجوازية الناشئة أو الطبقة العمالية التى كانت وما تزال فى دور التكوين ٠

انهم هجين تجربة أول ولادة اجتمـاعية مشـوهة وغير ناضجة لـكل الطبقات والفئات السـابقة فى كل مجتمع من مجتمعات البلدان النـامية والمتخلفة فى العصر الحـديث ، انهم ـ كما يقول موريس دوفرجيه ـ بحق أناسا مشردين حقـا أو أناسا اقتلعت جذورهم من أرضها ، أناسا بؤسـاء مطرودين من جمـاعة قديمة لا يقبلونها ومن جمـاعة جديدة لا يرقى اليها مستوى حياتهم وثقافتهم(١٦) ٠ ولقد تبلور هذا الوضع الهامشى لهذا المولود المشوه والمتشرد وجسد نفسه أكثر فأكثر بمرور الوقت من خلال مجمـوعة من المميزات والخصائص البارزة التى اتسم بهـا مثقفوا البلدان النـامية والمتخلفة ابان مرحلة التحرر السياسى وما بعدها وأهمها :

(أ) البعد الهامشى عن طبقاتهم وجماعاتهم القديمة وعدم القدرة على تكوين طبقة أو جماعة اجتماعية جديدة متماسكة ٠

(ب) التذبذب الشديد فى اتخاذ المواقف السطحية المتطرفة بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، مع الاستعداد للعب الأدوار المتناقضة فى وقت واحد ، أو من وقت لآخر بالنسبة للفرد الواحد ٠

(جـ) سوء الفهم العلمى والتاريخى للمسألة القومية وطبيعة دورهـا السياسى والاجتماعى فى حياة أى مجتمع أو أمة من الأمم ٠

(د) الاسراف فى النقد النظرى والاحجام عن التضحية والفعل العملى الا قليلا ، فهم غالبـا ما يفشلون فى المواءمة والتوفيق بين ما يقولون وبين ما يفعـلون أو بين ما يظنـون أنهم قادرون على فعـله وبين ما يستطيعونه فعـلا ٠

(هـ) سوء الرؤية وانعدام التمييز الجيد بين ما هو أسـاسى وما هو ثانوى فى تعاملهم مع بعضهم أو مع الغـير ومع الواقع برمته الذى غالبـا ما يتعاملون معه من مواقع هامشية وليست مصيرية ٠

(و) انتشار النرجسية وعشق الذات وتضخيمها المقرون غالبا بالميل

---

(١٦) موريس دوفرجيه : مدخل الى علم السـياسة ، ترجمة جمال الأتاسى وسـامى الدروبى ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٦٧ ، ص ٢٢٥ ٠

الى استثمار حالة التخلف القـــائم بفرض انسهم عليه والبحث عن مصــالح طفيلية متخلفة من خلاله ٠

(ز) التشرد وعدم الاحساس بالأمن والاستقرار النفسي والاجتماعي والعائلي تحت مختلف الظروف والتعرض لنوبات الحساسية وانهيار التوازن الشخصي والنفسي باستمرار ٠

رحلة المثقفين نحو العودة الى الأصل :

وبينما هذا التهميش والتشرد الحياتي المرير الذى وجد مثقفو البلدان النامية والمتخلفة أنفسهم فى أتونه غداة الاستقلال يفعل بهم فعــله الذى لم يكونوا يتوقعونه بهذا الشكل ، حدث ما يشبه عملية جزر جديدة فى مقابل عملية المد القديمة من قبل الطبقات الاجتماعية بالنسبة لهؤلاء المثقفين ٠

فاذا ما تذكرنا ما أشير اليه فى مكان سابق من هذا البحث عن كيفية النشأة الخاطئة الأولى لهذه الشرائح الاجتماعية المثقفة كافراز انتقائى مؤقت من كل الفئات والطبقات الاجتماعية فيما يشبه عمـلية مد بحرى صاخب بفعل ظروف اجتماعية وتاريخية وسياسية معينة ، فان ما حدث فى الماضى القريب ومنذ مطلع الستينات وما قبلها بقليل وحتى الآن هو حدوث عملية « الجزر » المعاكس تمـــاما ، وبتعبير أوضح فان كل الطبقـات والفئــات الاجتمـــاعية التى أفرزت هـــذه الشريحة من المتعـلمين والمثقفين والكتبة والسياسيين بالذات وألفت بينهم روابط وهمية مؤقتة فى مواجهة ظـروف وأوضاع مرحلة معينة (النضال ضد الحكم الأجنبى والحصول على الاستقلال السياسى وتنمية مشاعر المواطنة القومية) هى اليوم ومنذ غـداة الاستقلال تقوم بعملية عكسية تماما ، حيث تنقسم جماعات الصفوة الجديدة - كما يقول الدكتور الجوهرى - على نفسها مكونة عدة معسكرات تلعب الانتماءات القبلية السابقة أو الانتماءات الاقليمية أو غير ذلك من التعصبات القديمة ، تلعب دورا كبير الشأن فى تغذيتها وتدعيمها(٢٠) ٠

أى أن هذه الطبقات والفئات الأصيلة فى التركيب الاجتماعى قد قامت وما تزال فى مرحلة الاستقلال السياسى بعمـلية جذب وامتصاص عكسية لهـــؤلاء المثقفين الذين أفرزتهم بالأمس ، مســـتفيدة من نقـــاط الضعف

---

(٢٠) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ١٩٧٨ - ص ٢٦٤ ٠

والتهميش والتشرد الحياتي الذى آل اليه هؤلاء التعساء ووجدوا أنفسهم فى أتونه ، فكل واحدة من هذه الطبقات الاقطاعية والبرجوازية والفئات الدينية القبلية والأرستقراطيات العشائرية المتخلفة صار كل يحاول الفوز بنصيب الأسد من هذا الصيد الثمين المقطع الأوصال ، ليستفيد من مهاراته المهنية والسياسية والفنية النـادرة فى سبيل الدفاع عن نفسه وتنمية مصالحه والتغلب على منافسيه ، سواء ان كانوا فى السلطة أو خارجها ، وبالطـرق المباشرة وغير المباشرة ٠

وحتى الاستعمار نفسه الذى ارتحل بشكله وبقى بمضمونه ، قد دخل حلبة المنافسة بطريقة مباشرة للحصول على نصيبه الوافر من هذه السلعة الرائجة والتى كان له الدور الأساسى فى صنعها منذ البداية وحصل من بين عناصرها على كل ما يحتـاجه من أدوات وضمانات تكريس بقـاءه وتأمين مصالحه الاقتصادية والسياسية بصورة ربما كانت أكثر فعالية من ذى قبل تحت مظلة الاستقلال السياسى المزيف فى معظم المجتمعات النامية والمتخلفة حتى الآن ٠

وهكذا سوف يصبح من المحتم – كما يقول الدكتور محمد الجوهرى – كلما أراد المجتمع استبدال الادارة التقليدية البالية والعاجزة بادارة عصرية جديدة وكلما أرادت الدولة الاضطلاع بوظائف وأعبـاء جديدة ، كلما وجد هذا المجتمع نفسـه مضطرا الى الاستعانة بطبقة من المتخصصين وتشجيعهم ماديا وأدبيا ، بل والعمـل على اعدادهم وتأهيلهم اذا لم يكونوا موجودين أصلا[٢١] وبذلك أصبحت الطـريق مفتوحة الى مراكز السـلطة الادارية والسياسية والفنية أمام كل من يرغب من هؤلاء المثقفين المهرة وشبه المهرة ، بشرط أن يؤدوا مهامهم كموظفين ومهنيين وفنيين لا أكثر ، ووفقا لمـا تقضى به طبيعة التركيب الاقتصادى والاجتماعى السائد وتنميته والمحافظة عليه واحترامه ، والذى لا يعدو كونه فى الواقع مجرد نظم اقطاعية متخلفة فى الداخل أو برجوازية طفيلية تابعة للخارج أو مزيج من هذا وذاك ، وليس وفقـا لطموحاتهم وافتراضاتهم المثالية القديمة ، ولا حتى عواطفهم الوطنية والقومية الهشة ، والتى لابد وأن ينحوها جانبا وهم يقومون بمهامهم الوظيفية الجديدة فى اطار التنظيم الاقطاعى هنا أو البرجوازى هناك ، ولا مانع من أن يحتفظوا ببعض مفاهيمها المهذبة والمؤدبة لتسلية أنفسهم فى أوقات الفراغ والمناسبات العامة وبعض أعمدة الصحف فى أحسن الأحوال ٠

---

(٢١) المرجع السابق ص ٢٥٤ ٠

كما أن الأماكن الشاغرة التى خلفهـا الاستعمار فى مؤسساته الاقتصادية والتجارية الرسمية وغير الرسمية والمؤسسات الجديدة التى تقوم البرجوازية بتنفيذها حينما تكون على قمة السلطة أو متحالفة معها على الأقل قد فتحت هى الأخرى أبوابها الواسعة أمام هذه العناصر المثقفة والمؤهلة بمغريات مادية أكثر جذبا ، وشروط سياسية ومعنوية أكثر قسوة ومهانة ، وحتى الفئات الاجتماعية التقليدية الأكثر تخلفا من قبلية وعشائرية وارستقراطية ودينية متزمتة قد رغب كل منها أيضا فى الحصول على نصيب معين من هذه العملة القابلة للتداول والرواج قبل غيرها (المثقفون) اما بحكم الانتماء الأصلى أو الاستعارة المباحة فى هذا الشأن ، ملوحة بما لديها من مغريات وشروط • وهكذا صار الآمر بالنسبة لهؤلاء المثقفين يسير وفقا لمبدأ : بقدر ما تعطى تستلم واذا لم تقبل فغيرك مستعد •

ولم يتوقف الأمر هكذا عند مجرد الخيارات التى لا بديل عنها فى كل الحالات السابقة ، بل لقد تعداه الى ما هو أكثر من ذلك بكثير حيث صار مجرد الاعتذار عن قبول أى من الخيارات السابقة وعدم حصول الفرد المثقف على هوية اجتماعية وسياسية تثبت انتماءه لأى منها دليل تهمة كاف لحرمانه من شهادة حسن السير والسلوك فى أحسن الأحوال ، أما لو اشتم منه رائحة رأى مغاير فان فصل رأسه عن جسده هو أقل العقوبات استحقاقا له وأكثرها قربا من مبادىء حقوق الانسان بجانب ما أحدثته وسائل العصر وتكتيكاته المتطورة من وسائل القهر والتعذيب والتشويه والعبث بانسانيته قبل موته ، والتى تحرص هذه الطبقات والفئات المتخلفة على استيراد وتطبيق أحدث منتجاتها وخبراتها قبل حرصها على مكافحة أمراض التيفود والبلهارسيا ورفع القمامة من الشوارع • وهكذا فان القليلون ممن قد يتورعون عن القبول بأى من الخيارات السابقة لا يستطيعون الصمود طويلا بدون الحصول على شهادات حسن السير والسلوك الا من رحم ربى !!

وهذا لا يعنى أبدا أن هذه الأطراف الاقطاعية والبرجوازية الطفيلية وغيرها من الفئات الاجتماعية الأخرى ذات الطابع السلبى والمتخلف هى وحدها التى تتقاسم هذه الغنيمة بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، ذلك أنه بالرغم من أنها قد فازت بنصيب الأسد الا أن طبقات وفئات اجتماعية أخرى ذات طابع ايجابى وطنى وتقدمى قد استطاعت أن تمتص هى الأخرى نسبة محدودة من هذه العناصر المثقفة بحكم ضعفها وكونها ما زالت فى دور التكوين كالطبقة العاملة ، أو فى دور النقاهة وبداية الوعى والاحساس

بالذات كطبقة الفلاحين وما ينبثق عن كل ذلك من هيئات ومؤسسات نقابية وجماهيرية مختلفة ٠

فلقد تمت عملية الاقتسام هـــذه في جانب أساسي منهـا على أساس الانتماء الأصولي وتطبيق مبدأ « العودة الى الأصل »(٢٢) كما نفذت في جانب آخر على أساس انتقائي وعشوائي واسع النطاق ٠ حيث وجد من بين عناصر هــؤلاء المثقفين ممن ينتمون الى أصول اجتماعية فقـيرة « عمـالية وفلاحية وبروليتارية مضـطهدة » من يتبنى بحرارة مصـــالح الطبقات الاقطـــاعية والبرجوازية الكمبرادورية ويدافع عنها الى هـــذا الحد أو ذاك ، والعكس صحيح ٠ وهكذا فان الوسط الاجتماعي الواحد في البلد النامي — كما يقول مجموعة من العلماء السوفييت — يفــرز رجالا يتبنون الماركسية ويدافعون عنها كما يفرز زعماء لمنظمات رجعية عاتية(٢٣) ٠

كما أن الكثير من هذه العناصر قد سحقهم هول مفاجئة كون المثقفين — حقيقة — هم هكذا مجرد تركة يتم اقتسامها أصوليا وعشوائيا بين مختلف الطبقات والفئات الأساسية في المجتمع ، وانهم لم يكونوا كما تصوروا أنفسهم في مرحلة سابقة ، باعتبارهم طليعة موحدة لكل فئـــات المجتمع وطبقاته بلا منازع وربما طبقة فوق كل الطبقات قادرة على صنع كل شيء من أعلى ، حيث فشل هؤلاء تماما في القـــدرة على التكيف مع أي طرف من الأطراف أو المواقف الســـابقة أو التــوفيق بينمـــا تشبعت به نفوسهم من عواطف ومفاهيم قومية وليبرالية وطنية وبين ما فاجأتهم به حقائق الواقع ، وأصيبوا بحالة من الاستلاب الفكري والاجتماعي المروع ، وانتكاس معنوي ونفسي خطير أودى بحياة أكثرهم بصورة مباشرة وغير مباشرة(٢٤) ٠

---

(٢٢) أقصد بفكرة أو مبدأ العودة الى الأصل أن المثقف ذي الأصول الطبقية الاقطـــاعية أو البرجوازية والرأسمالية في البلدان النامية بالرغم من تبنيه لأفكار وتطلعات لبرالية وقومية وتقدمية أيضا في مواقف علنية معينة خلال مرحلة ما قبل وبعد الاستقلال مباشرة ، الا أنهم قد لاذوا في مراحل لاحقة الى أصولهم الطبقية وتبنوا مواقفها ومصالحها بعمق ضمن عمـــلية الاقتسام المشار اليها آنفا ما عدا بعض الحالات الاستثنائية التي تم اقتسامها أو وزعت على الأصح على أساس عشوائي بين مختلف الطبقات والفئات من خلال قناعات سياسية وشخصية ٠

(٢٣) مجمـــوعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقي للبلدان النـــامية ترجمة الدكتور داوود حيدو ومصطفى الدباس ، الطبعة الثانية — منشورت وزارة الثقـــافة بدمشق

(٢٤) هناك العديد من الأمثلة والحالات الكثيرة لهذا النوع من المثقفين التعساء الذين انتهى بهم الأمر الى الانتحار البطيء من خـــلال الادمان على المشروبات والمخـــدرات والميل الى الانطواء النفسي الشديد واللامبالاة والاستهتار وانعدام التركيز الذهني والميل بدلا من ذلك =

ولا ننسى في نهاية هـــذه النقطة أن نشير الى طراز آخر من المثقفين الذين خضـــعوا لمبدأ الاقتسام هذا ، ولكن ليس على أساس محلى بل على أساس دولى ، حيث ترددت فى نفوسهم فكرة الانتماء الوطنى والقومى تحت أى اعتبار من الاعتبارات المشار اليها سابقا ، وراح كل منهم يبحث عن هوية دولية أخرى يستغنى بها عن هويته الوطنية الأصلية بطريقة مبـاشرة وغير مباشرة ، اما من خلال الهجرة والانضـــواء تحت مظلة المنظمات والهيئات الدولية المختلفة التى تشكل اليـــوم مركز جذب قوى لأفضل القـــدرات والكفاءات من هذه الشعوب ، والانقطاع الـكلى عن الوطن ، أو البحث عن جنسيات أخرى من خلال التشيع السياسى والفـــكرى لهذه البؤرة الدولية أو الاقليمية أو تلك ٠

عوامل تيسير اقتسام المثقفين بين مختلف الطبقات فى المجتمع :

ولقد ساعد ويسر هـــذا الاقتسام أو الانقسام مجموعة من الأسباب والعوامل الموضوعية والواقعية الرئيسية وأهمها :

(أ) طبيعة الفكرة المثـــالية الخاطئة التى بنى هـــؤلاء المثقفون عـلى أساسهـا وجودهم وتكوينهم منـــذ البداية ، باعتبارهم طليعة ســـياسية واجتماعية موحدة لكل الطبقات وربما طبقة جديدة فوق كل الطبقات قادرة على صنع كل شىء وفق مفاهيم وفروض مثالية وغير علمية فى مرحلة معينة مما أفقدهم القدرة على الاحتفاظ ولو بالحـد الأدنى من التماسك أمام أول اصطدام حقيقى مع الواقع غداة الاستقلال من المحتل الأجنبى ٠

(ب) طبيعة الأصـــول الطبقية والاجتماعية المختلفة والمتناقضـــة التى قدموا منها منذ زمن قصير نسبيا ، والتى ما تزال قريبة العهـــد بهم جدا ، وتشكل الاطار المرجعى الحقيقى لغالبيتهم العظمى فكرا وسلوكا على الأقل ، رغم كل ما أعلنوه وغالطوا به أنفسهم بأنهم قد انفصلوا عن تلك الأصـــول وتخلوا عن مفاهيمها الى غير رجعة ٠ حيث ما كادت الأرض الهشة والمصطنعة التى يقفون عليها أن تنهار من تحت أرجلهم حتى وجدوا فى أطرهم الطبقية والاجتماعية القديمة تلك ملاذ أمنهم ووجودهم الحقيقى ٠

= الى الانتحار المباشر أو الجنون فى بعض الحالات الشائعة والتأزم النفسى الحاد بصفة عامة، ففى اليمن مثـــلا تصل نسبة المثقفين من هذا النـــوع الى ما يقارب ٣٣٪ ، وذلـك على نحو ما سيتضح فى الفصول القادمة التى سنتحدث فيها عن المثقفين اليمنيين بالذات كنموذج تطبيقى لهذا لبحث ٠

(جـ) افتقار الطبقات الاجتماعية القديمة والجديدة فى المجتمع بحكم تخلفها ـ رغم سيطرتها على السلطة ـ الى الخبرات والمهارات الذاتية وحاجتها الملحة لهؤلاء المثقفين لمواجهة ظروف ومتغيرات العصر الجديدة والمواءمة بينها وبين طبيعة مصالحها الحقيقية والعمل على تنميتها فى ضوء هذه المتغيرات ومن خلالها ، وذلك بالرغم من تواضع تلك الخبرات والمهارات الثقافية والفنية التى يملكها المثقفون غداة الاستقلال على الأقل ، والتى لم تكن تتجاوز فى كثير من الأحيان المراحل الأولى من التعليم • حيث كان المواطن العادى ولا يزال فى البلاد النامية ـ كما يشير بلانديه ـ يميل الى الربط بين « النظام » أو « السلطة » واجادة استخدام القراءة والكتابة وسط شعب أغلبه من الأميين(٢٥) كما أن ذلك كان وما يزال هو أقصى ما تتطلبه الطبقات الرجعية المسيطرة فى هذه الشعوب من أجل ادارة مصالحها المتخلفة وخدمتها بل انها لا تسمح بأكثر منه فى الغالب الأعم •

(د) ان السلطة الاستعمارية حينما رحلت بشكلها السياسى قد بنت استراتيجيتها من أجل المحافظة على بقاء نفوذها ومصالحها الاقتصادية بالاعتماد على القوى والطبقات التقليدية القديمة بالدرجة الأولى (الاقطاع والأرستقراطيات السياسية والعسكرية والعشائرية الدينية المتزمتة •• الخ) بعد أن كانت قد نجحت فى افساد ذوقها ونمط استهلاكها وحولته من استهلاك مغلق ومحدود متجه الى الداخل الى استهلاك مفتوح حديث ومسرف للسلع الرأسمالية المستوردة من الخارج ، كما اعتمد من ناحية أخرى على الطبقة البرجوازية والكمبرادورية الجديدة كحليف سياسى ووسيط اقتصادى تابع ونشيط ومستفيد ، وضمن الاستعمار بذلك استمرار نفوذه السياسى ومصالحه الاقتصادية من خلال وجود أى من هاتين الطبقتين فى السلطة ، وليس من خلال الاعتماد على بعض العناصر السياسية المثقفة على أساس ما كانت تطرحه قبيل الاستقلال من الآراء والمفاهيم الاصلاحية والليبراليه فى التحرر الوطنى وفى اطار من التعاون والتعامل من موقف الند للند ، والتى كانوا يرددونها حينما كانوا يتقدمون الصفوف فى انفضال من أجل الاستقلال •

بل لقد همس الاستعمار فى آذان هؤلاء المثقفين السياسيين أثناء وبعد رحيله بما فيهم الذين كان قد نجح فى تجنيدهم من قبل لخدمة مصالحه

---

(٢٥) د• محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ١٩٧٨ ، ص ٢٧٣ •

وضمهم الى صفه ناصحا اياهم بأن يتخلوا عن تلك المفاهيم وينسقوا مصالحهم المستقبلية من خلال القوى الرئيسية فى المجتمع من الاقطاع والبرجوازية المتطفلة والكيمرادور ، وأن يديروا مصالحها من موقع السلطة ، الأمر الذى نفذ بالفعل فى كثير من الحالات وأدى فى الوقت نفسه الى انهيار موقفهم وتفككه بسرعة وعجزهم عن الصمود والمقاومة لوقت أطول .

(هـ) وبالاضافة الى كل العوامل السابقة التى ربما تشكل خصوصيات مرتبطة بمثقفى البلدان النامية والمتخلفة وظروف تكوينهم ونشأتهم ، لابد وأن نشير الى وجود الحقيقة العلمية والتاريخية الخاصة بمعنى المثقفين وطبيعة وجودهم الاجتماعى بشكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى علمى وموضوعى سبق تحديده بالتفصيل فى مطلع هذا البحث والذى يتخلص فى كون المثقفين هم دائما التعبير الهامشى عن كل الطبقات والمصالح المتعارضة والمتناقضة فى كل المجتمعات وعبر مراحل التاريخ المختلفة ، ونقاط الاتصال والتبادل فيما بينها . حيث يشكلون غالبا ما يشبه بيت الخبرة المهنية الذى يقدم خدماته وخبراته ومشوراته لكل من يطلبها أو يقنعه بذلك أكثر من غيره بالاغراء أو الاضطرار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، ولقد عبرت هذه الحقيقة التاريخية فى المراحل الأخيرة عن نفسها بوضوح بالنسبة لمثقفى البلدان النامية والمتخلفة رغم قلتهم وتواضع خبراتهم ، ورغم أن الكثير منهم ما يزال عبثا يرفض هذه الحقيقة بشكل عام متشبثا بالأفكار الديماغوجية السابقة أو يتجاهلها بوعى تام ، ولحاجة ما فى نفس يعقوب ! ، انهم يرفضون الحقيقة التى يؤكدها جماعة من الباحثين السوفييت والمتمثلة فى كون فئة المثقفين تنحدر بصورة رئيسية من وسط الموظفين والوسط البرجوازى الصغير والاقطاع ، وان هذا المنشأ قد ساعد على أن تكون لديهم عقيدة ازدواجية لا تنفى الملامح الرجعية الملازمة لطبقة البرجوازية الصغيرة(٢٦) .

الاغتراب والحقيقة فى حياة المثقفين :

اذا كان الاغتراب - كما يقول ازفلد Azveld - هو الانفصال بين الأنا والآخر انفصال يؤدى الى العدى ، أو هو ذلك الاستلاب الذى يؤدى الى العبودية ، أو هو بعبارة أخرى فقدان الحرية وزوالها ، فان المشكلة لا تكمن فى كون الحقيقة التاريخية والاجتماعية القائمة تلك بالنسبة لمثقفى البلدان النامية والمتخلفة هى بالفعل هكذا وعلى نحو ما سبق عرضه وتحليله

---

(٢٦) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ص ٣٩٢ .

وما تقتضيه طبيعة الواقع وظروف المرحلة بقدر ما آن المشكلة والخطورة تكمن أساسا فيما يفترضه الغالبية العظمى من هؤلاء المثقفين فى أذهانهم حتى الآن من مفاهيم مغايرة عن الواقع وعن أنفسهم أيضا ، أو مغتربة على الأصح عجزوا معها عن المواءمة بين حقيقتهم وواقعهم ، بين ما يعلنونه وما يطمحون اليه قولا وما تقتضيه ممارستهم العملية والاجتماعية فعلا ، بين ما يحاولون ادعاء الانتماء اليه شكلا وما هم مرتبطون به موضوعا الأمر الذى فقدوا معه اتزانهم وحريتهم(٢٧) .

فكون هؤلاء المثقفون يتعرضون اليوم لعملية اقتسام داخلى وخارجى أو يقومون — على الأصح — باعادة توزيع أنفسهم كأدوات وظيفية ووسائل تعبيرية عن مختلف الطبقات والمصالح السياسية والاقتصادية المتناقضة فى المجتمع على أساس من الانتماء الأصولى ، أو الاختيار السياسى والوظيفى ، فتلك ظاهرة طبيعية بل وصحية ، ويجب ألا يثير ذلك أى قلق أو خوف على حاضر ومستقبل التطلعات والأفكار الوطنية والتقدمية الجديدة ، أو فشلها فى مواجهة الايدولوجيات والأفكار البرجوازية والاقطاعية القديمة ، بل ان مرحلة ما قبل اعادة التوزيع هذا والتى لم تنتهى بعد ، كانت هى أكثر مدعاة للقلق والخوف ، ونقطة الضعف المميتة فى جسم المد الوطنى والتقدمى الحقيقى فى الشعوب النامية والمتخلفة ، حيث كان غياب المضمون الاجتماعى والطبقى الناضج بين المثقفين بصفة عامة والوطنيين والتقدميين منهم بصفة خاصة والجهل بالحقيقة العلمية والتاريخية لمعنى المثقف وطبيعة دوره لهو أشد حلقات السلسلة ضعفا فى تكوينهم حتى الآن ، وعامل الحسم فى تذبذبهم وتهديد جهودهم وفشلهم فى تحقيق قيادة الانتصار الناجز للأفكار الجديدة فى مقابل الأفكار القديمة وما آلوا اليه من تشرد وضياع محقق عجزوا معه حتى عن المحافظة على بعض المكاسب القومية والوطنية الباهتة التى كانت تظهر من وقت لآخر وما تلبث أن تختفى بسرعة أكثر(٢٨) .

وحالة الاغتراب هذه فى حياة المثقفين لم تكن دائما مجرد ظاهرة مرضية ولا ارادية فحسب ، ولكنها قد تمارس من قبل البعض كنوع من

---

(٢٧) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ص٣٩٢ .

(٢٨) يمكن اعتبار تجربة عبدالناصر فى مصر ونهرو فى الهند ونكروما فى غانا وما شابه ذلك من الدلائل الواضحة على اخفاق هذا الخط الاصلاحى القومى وضياع المكاسب الشكلية التى كان قد حققها من وقت لآخر .

التصرف الانتهازى والبحث عن مصالح جديدة أو الدفاع عن النفس وعن مصالح شخصية موجودة ٠

الفهم المغترب كتصرف انتهازى :

اذا كان هذا الخطأ العرضى الذى دفع المثقفون الوطنيون وشعوبهم ثمنه غاليا قد بدأ يتجاوز نفسه بنفسه على مستوى الواقع العملى والمادى المعاش على نحو ما سبق ذكره ، الا أنه ما يزال مقلوبا على رأسه تماما فى أذهان غالبية المثقفين عموما وفى مفاهيمهم النظرية والسطحية بوعى منهم أو بدونه ، فالكثير منهم ممن يتربعون على قمة السلطة أو يقفون على مقربة منها فى هذا البلد أو ذاك ، ويقومون بأدوار كلاب الحراسة فى خدمة مصالح الامبريالية العالمية والاحتكارات الدولية فى الخارج داخل شعوبهم ، والمصالح البرجوازية والكمبرادورية الطفيلية التابعة لها فى الداخل ، وبدوافع انتهازية خطيرة ترقى الى مستوى الخيانة الوطنية لسيادة وحرية شعوبهم ، فانهم مع ذلك لا يترددون لحظة بوعى منهم أو بدونه عن الحديث والتغنى بأمجادهم القديمة أيام كانوا تلاميذ فى المدارس ، أو قادة نقابيين وسياسيين يوزعون المنشورات ، ويكتبون فى الصحف ، ويعقدون المهرجانات ويقودون المظاهرات فى الشوارع ، وهم يهتفون ضد الاحتلال ويتغنون بمطالب الاستقلال السياسى ونشيد العلم الوطنى الذى حققوه فى النهاية ، وأهدوه الى شعوبهم التى يعيشون معها اليوم فى ظله وتحت لوائه « فى ثبات ونبات » وأنهم ما يزالون على نفس العهد ومأضون فى نفس الطريق !!

وهنا تتأكد حقيقة أن النزعة الوطنية فى المجتمعات النامية — كما يقول بوتومورو — هى نتيجة الصراع من أجل تحقيق الاستقلال عن الحكام الأجانب ··· واذن فليس من الغريب فى شىء أن نجد فى معظم المجتمعات النامية حزبا واحدا قاد بنجاح حركة الاستقلال ، ثم جعل من نفسه صفوة حاكمة تبرر قوتها بالنظر الى أمجادها الماضية والوعود التى تقدمها لبناء أمة حديثة(٢٩) ٠

كما يعملون فى نفس الوقت وبلا كلل على اقناع شعوبهم — أو تضليلها على الأصح — بالحديث عن عظمة ما أنجزوه من تحرر سياسى مزيف وما حققوه من انجازات اقتصادية واجتماعية وهمية لصالحها كل يوم بلا خجل ، وأنه

---

(٣٩) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، مرجع سابق ، ص ١١٦ ٠

ما عاد هناك من عمل وطني يعمل ولا مهمة حضارية أو اجتماعية أو سياسية يمكن المطالبة بها ، غير التصدى للأفكار المستوردة ، ومحاربة الخطر الشيوعى ، والتحلى بالأخلاق الحميدة والصبر عند المكاره والقناعة بما قسم ، والله يرزق من يشاء بغير حساب !!

ذلك أن الحادث - كما يقول الدكتور الجوهرى - فى الغالب وكما هو متوقع ألا يتحول هؤلاء الأفراد الى مدافعين عن قضية التقدم والتنمية الاجتماعية . ذلك أن انتماءهم الأصلى ثم مجيئم من بيئات مستقرة ماديا ، وكذلك تبعيتهم للسلطة السياسية التقليدية التى لا تسعى الى تشجيع الجديد ، كل ذلك يقلل من حماسهم للقضايا العامة ، ولا يجعل من عملهم الجديد وسيلة لخدمة المجتمع الكبير ، ولذلك تقتصر حياتهم على الاندفاع نحو الاستهلاك باسراف ، الذى تيسره لهم دخولهم العالية من الأراضى الزراعية أو المضاربات وأعمال السمسرة ، أو الاقتصار على المشاركة الروتينية المحافظة فى النشاط السياسى العام « دون برنامج محدد ، أو دون مطامح ثورية ان شئنا الدقة » وقد نجدهم يقتصرون على ادارة المشروعات الصناعية أو التجارية الجديدة ، ولو ادارة اسمية « من خلفهم جيش من الخبراء المحليين أو الأجانب »(٣٠) .

وهذا هو طراز الفهم الطبقى الجديد لمثقفى البرجوازية الكبيرة والكمبرادور المحلى والدولى الذين يديرون مصالحها من قمة السلطة والذى يمارسونه بوعى كامل فى قرارة نفوسهم سرا ، ويؤطرونه علنا بكل تلك التصرفات الانتهازية الخطيرة ، والأكاذيب والاشاعات المضللة الفاسدة ، والتى بالرغم من كل ما أحدثته من مضاعفات سياسية واقتصادية واجتماعية لبعض الوقت ، الا أنها لم تعد تقوى على الحيلولة دون كشف حقيقة الاستقلال الكسيح ، وتعميق مظاهر الاستغلال والتبعية الاقتصادية والسياسية فى الخارج ، وتكريس الأوضاع المتخلفة فى الداخل .

كما أنها لم تعد تقوى أمام متغيرات الظروف والتطور التاريخى على اخفاء ما تسببت فيه وما تزال تتسبب فيه أبواقها المضللة والكاذبة من افساد حقيقى للرأى العام والذوق والثقافة الوطنية وبديهيات العقل والمنطق

---

(٣٠) د. محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ص ٢٥٦ و ٢٥٧ .

والتى يعون هم حقيقة زيفها قبل غيرهم ، الا أنهم لم يستغنوا عنها بعد كتصرف انتهازى ضحل من أجل خدمة مصالحهم السياسية والطبقية الحقيقية المرتبطة بحالة التخلف والتبعية . فهناك عامل - كما يقول بوتومورو أيضا - يجعل من النزعة الوطنية في حد ذاتها مذهبا غامضا بالنسبة للحكام السياسيين للدول النامية هو أنها قد تنطوى على نظرة تراجعية وقد تسعى الى احياء النظم والصفوات التقليدية ... والمثال الكلاسيكى على هذا النمط من الأحداث هو احياء الهندوسية فى الهند (الأعنف) تلك الحركة التى طورها واستخدمها غاندى فى اقامة حركة جماهيرية لمعارضة الحكم البريطانى . ونستطيع أن نجد أمثلة أخرى فى الأقطار العربية ، وباكستان ، بل وحتى فى بعض أجزاء افريقيا(٣١) .

ويمكننا أن ننظر الى حركة الثورة الايرانية باعتبارها تقدم أحدث دليل حى على هذا النمط من النزوع الوطنى التراجعى ، وان كان الشىء الذى تتميز به عما ذكره بوتومورو هو كونها لم تحارب محتلا أجنبيا مباشرا ولكنها أسقطت حكم فرد دكتاتور مستبد وعميل للغرب بمضمون وأفق سياسى ووطنى يشكل خطوة متقدمة أكثر بالنسبة لما قبله وواقعه الراهن ، الا أن الأفق المستقبلى ما يزال محفوف بالمخاطر نتيجة لوجود هذا النمط من النزوع الوطنى الغامض الذى تحدث عنه بوتومورو والذى هو فى طريقه لأحكام قبضته على السلطة فى ايران ما لم تجد تطورات وتحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية جذرية .

وهكذا تتأكد حقيقة أن هذا الطراز من مثقفى الاقطاع والبرجوازية والذى بدأ يمارس مهمته الطبيعية من خلال السلطة أو من خارجها لم يكن حرصه على الاستمرار فى الصاق المفاهيم المغتربة بنفسه للوطنية والحرية والديمقراطية والثقافة والدين والشيوعية .. الخ ، والاصرار على تكريسها فى الواقع بطرق مشوهة ومنحرفة ، لم يكن كل ذلك نابع عن اغتراب حقيقى فى نفوسهم أو جهل بحقيقة وضعهم الطبقى والثقافى الجديد ، بقدر ما أنه قد أصبح تصرفا انتهازيا خطيرا وواعيا دفاعا عن مصالح طبقية واجتماعية معينة ، يجب الكشف عنها وتعريتها بلا هوادة(٣١)

---

(٣١) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ١١٦ و ١١٧ .

(٣١ مكرر) راجع بصفة عامة لينين : كتاب « ما العمل » - دار التقدم موسكو .

(ب) الفهم المغترب كجزء من البقاء والدفاع عن النفس :

وهناك طراز آخر من الفهم المغترب ما يـزال يعشعش بين طراز آخر من المثقفين في البلدان النامية والمتخلفة ، خصوصا ما يتعـلق منهم بذلك النوع البرجوازى الصغير المنتشر بين صغار وكبار الموظفين الاداريين والفنيين فى أجهزة السلطة والمؤسسات والوكالات التجارية المحلية والأجنبية الخاصة والمختلطة ، والتى بالرغم من أنهـا قد أصبحت هى التعبير المـادى والمعنوى لوجودهم ، كما صاروا هم كذلك يشكلون العمود الفقرى لوجودها وضمان استمرارها أيضا ، الا أنهم من النـــاحية الشكلية وبروح استلابية مغتربة ينكرون على أنفسهم ذلك ، بل ويصرون بدافع الحفاظ على توازنهم النفسى المنهار بين ما يعلنونه شكلا ، ويمارسونه فعـلا وموضوعا ، يصرون على أنهم كانوا وما يزالوا يشكلون بأفكارهم ومفاهيمهم الخاصة المدخل الوحيد لمبادىء النضال الوطنى والتقدمى بكل مقاييسه ومضامينه المختلفة ، من أجل تغيير الواقع الراهن نحو الأفضل ، وأنهم وحدهم القادرون على تحديد مهامه وادارة شئونه ، بل وتحقيق أهدافه النهـــائية فى يوم ما وبطريقة ما ، وتقديمها للواقع الاقتصادى والاجتماعى المتخلف كما تقدم الهدايا الثمينة فى الاحتفالات المهيبة .

ولذلك لا ندهش — كما يقول الدكتور الجوهرى — عندما نجد آبنـاء جماعات الصفوة الجديدة يستشعرون فى قرارة أنفسهم التفوق على ســائر فئات المجتمع ، وهو شعور باعتقادهم بأنهم أقدر على رؤية مستقبل الجماهير العريضة وتقدير مصالحها من خلال ما حصلوه من تعليم عصرى وما اكتسبوه من خبرة ، ولذلك يسعون الى التحلل من أداء الوظائف الجزئية(٣٢) .

ولقد كان لينين ثاقب النظرة وشديد الحساسية لهذا الطراز من المثقفين وكان يصفهم بالميوعة ويعتبر أن مجرد وقوفهم على الحياد ضمن علاقة حسن جوار بالنسبة لقضية النضال الثورى يكفى جدا ، أما اذا قبلوا بتنفيذ بعض المهام الثورية المحددة فان ذلك يعد عملا عظيما ، كما أن لينين لم يكن يخفى أبدا احتياج طبقـــات الشـغيلة والمنتجين لأفكار ومعـــارف هؤلاء المثقفين فى نضالهم ، الا أنه يؤكد بثقة أن السند المكين للنضال يكمن فى جماهير هذه الطبقات وليس فى هذا الطراز من صفوات المثقفين ، ملخصا كل ذلك بقوله مخاطبا لهم : ان ســـندنا مكين ، ونحن لم يخـــامرنا الشـك يوما

---

(٣٢) د. محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ص٢٦٠ .

فى ميوعتكم ورخاوتكم ، أما أننا بحاجة اليكم فهذا ما لا ننكره لأنكم كنتم العنصر المثقف الوحيد(٣٣) .

ومن واقع هذا الفهم البرجوازى المشبع بالمثالية المسرفة يستمد هؤلاء المثقفون شرعية استمرار تسلطهم ووصايتهم على التنظيمات السياسية الوطنية والنقابية والجماهيرية المختلفة ، ويشكلون القناة شبه الوحيدة لصياغة وتوصيل المفاهيم والأفكار النضالية والتقدمية الى كل تلك الطبقات والمؤسسات الواقعة فى أسفل السلم الاجتماعى ، من عمال وفلاحين وجنود وتجار صغار وطلاب .. الخ ، بعد أن يصبغوا عليها طبيعة شخصيتهم ومزاجهم الخاص . يساعدهم فى ذلك طبيعة الواقع المتخلف سياسيا وثقافيا لتلك الطبقات والمؤسسات الجماهيرية والذى ما يزال غضا من ناحية ، والاستفادة المشروعة من مبدأ التقادم فى العمل الوطنى الذى اكتسبوه فى هذا الشأن بمرور الوقت من ناحية أخرى ، اضافة الى وجود رغبة خفية ولا واعية على الأقل فى الحرص على هذا الوضع والدفاع عنه كجزء من الحرص على بقاء بعضهم ممن تجاوزتهم الظروف أو تخلفوا عنها على الأصح ، وصار التمسك بهذه الأنماط والمفاهيم المغتربة والخاطئة فى العمل السياسى والوطنى ورؤية الواقع نفسه جزءا من التمسك بوجودهم نفسه والدفاع عنه ورغبتهم فى التغاضى عن حقيقة واقعهم الى هذا الحد أو ذاك .

وهكذا تتأكد الحقيقة الثانية بالنسبة لهذا الطراز من المثقفين البرجوازيين الصغار بأن ميلهم الى الفهم المغترب للقضايا السياسية والاجتماعية والوطنية ليس فهما واعيا أو تصرفا انتهازيا ١٠٠٪ كما هو الحال بالنسبة لمن قبلهم من مثقفى الطبقات الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة والرجعية ، بقدر ما أنه نابع من أصول تربية سياسية وفكرية قديمة خاطئة من ناحية ، ويجد البعض منهم – حتى بحكم تقدم العمر والمراهقة الجديدة – صعوبة بالغة فى القدرة على تجاوزها بسهولة ومجاراة المتغيرات التاريخية الجديدة ، كما يرفضون – بحكم تربيتهم أيضا – الاعتراف بذلك ، ويميلون بدلا منه الى التمسك بمواقعهم التى وقف بهم الزمن عندها لسبب أو لآخر ، كجزء من الدفاع عن بقائهم نفسه الذى صار اغترابا فى الأساس ، ومحاولة جعل كل شىء يدور حول هذا الموقف المغترب والمتذبذب والمريض وغير المستقر .

---

(٣٣) لينين : فى الثقافة والثورة الثقافية ، دار التقدم موسكو ، ص ٣٢ .

انهم باختصار ـ كما يقول عدد من الباحثين السوفييت ـ لم يعد لديهم استعدادا كافيا للتجاوب مع ارادة الجماهير التى تزداد وضوحا وتهدف الى بناء الاشتراكية فى الوقت الراهن وفى مرحلة الانعطاف الاجتماعى الشديد الذى يجرى فى عدد من البلدان المتحررة فى آسيا وافريقيا ، وعلى هؤلاء المثقفين أن يختاروا اما الوقوف مع الشعب فى سبيل الاشتراكية واما مناهضة المستقبل الاشتراكى أى تفضيل الطريق الرأسمالى فى التطور(٣٤) ٠

(ج) الحقيقة بدلا من الاغتراب :

وهناك طراز ثالث جديد ومتطور من الفهم السائد بين مثقفى البلدان النامية والمتخلفة ، أو على الأصح طرازا جديدا من المثقفين الاشتراكيين التقدميين ، ترجع نشأته وتكوينه الى مراحل لاحقة جدا بالنسبة لمن قبلهم ، بل ربما أنه ما يزال فى مرحلة التكوين من خلال بعدين اجتماعيين رئيسيين ، الأول من خلال تحول جذرى حاسم فى حياة البعض من أولئك الذين أضنتهم حياة الاغتراب والصراع النفسى والتهميش الاجتماعى والفكرى بين ما يفترضونه فى نفوسهم ويطمحون اليه ، وما يعيشونه ويمارسونه فى واقعهم العملى ، وبالذات مجموعة الطراز الوسطى أو البرجوازى الصغير الذين سبقت الاشارة اليهم فى النقطة السابقة ، حيث يتجه البعض منهم بحزم من أجل الخلاص من وضعهم الاغترابى الممزق بحثا عن الواقع والحقيقة التى يوفقون فيها بين الشكل والمضمون فى حياتهم الخاصة والعامة ٠

وذلك اما صعودا الى أعلى بمفاهيمهم البرجوازية الصغيرة والليبرالية والوطنية نحو ذلك الطراز الأول من الفهم الذى أصبح واضحا لدى مثقفى الطبقات الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة والكمبرادور والقوى الرجعية بعامة فى المجتمع، ويوفقون بذلك بين الشكل والمضمون فى حياتهم، أو المفاهيم النظرية والممارسات العملية ، شأنهم فى ذلك شأن سابقيهم ممن سبقت اليهم الاشارة ، وتزداد مفاهيمهم عمقا ومواقفهم وممارساتهم جرأة فى هذا الاتجاه المضاد ، ويحصلون على امتيازات ومكاسب أكثر فى ظل الأوضاع الراهنة -

---

(٣٤) عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى فى البلدان الناميه ، ص ٤٠٣ و ٤٠٤ ٠

واما هبوطا الى أسفل حيث يغادرون واقعهم المادي والموضوعي القائم بجرأة وجدية أيضا بحثا عن واقع اجتماعي وموضوعي آخر يتوافق ونوع طموحاتهم ومفاهيمهم اللبرالية والوطنية في نطاق الفئات والطبقات الشعبية المقهورة في المجتمع ، من عمال وفلاحين والمنظمات الجماهيرية والنقابية المختلفة ، ويوفقون بذلك أيضا بين مفاهيمهم النظرية وممارساتهم العملية والموضوعية ، وتزداد مفاهيمهم عمقا ونضجا ، وممارساتهم أكثر فاعلية وتأثيرا في الاتجاه الوطني والتقدمي الموجب ، مكونين بذلك البعد الأول لما نسميه هنا بالطراز الثالث والجديد من مثقفي البلدان النامية والمتخلفة • أما البعد الرئيسي الثاني لهذا الطراز الجديد من المثقفين الوطنيين فهو لايهبط من أعلى بقدر ما هو آخذ في التبلور والنشوء من أسفل ومن أوساط الطبقات الشعبية والفئات الجماهيرية نفسها ومؤسساتها المختلفة من عمال وفلاحين وصغار الموظفين والجنود والطلبة ، وغيرهم من قوى التحالف الوطني في المجتمع •

خصوصا بعد أن بدأت هذه الطبقات والمؤسسات الجماهيرية تمسك بزمام المبادرة المباشرة في طرح مطالبها وطموحاتها بنفسها في كثير من الحالات في مواجهة القوى المعادية في الداخل والخارج ، ولم يعد موقفها هامشي كما جرت العادة منذ ما قبل الاستقلال وبعده بقليل ، أو مجرد صدى وتلبية لنداءات العناصر السياسية الوطنية من وقت لآخر وعلى ضوء تقديراتها الذاتية •

حيث تغيرت مقاييس الوعي في أوساط هذه الطبقات والفئات نحو الأفضل ، وبالذات طبقة الفلاحين التي تكون الغالبية العظمى من سكان هذه المجتمعات التي بدأت تدخل بثقلها كطرف مباشر في سير الأحداث السياسية والاجتماعية بصورة مباشرة وغير مباشرة(٣٥) • حيث بدأ يظهر بين أفراد هذه الطبقة وغيرها عناصر تتمتع بوعي طبقي حقيقي ، مكونين مع تلك العناصر الهابطة التي سبقت الاشارة اليها نمطا جديدا من المثقفين الوطنيين هو بمثابة الحليف الحقيقي للنضال الطبقي التقدمي ومضامينه التاريخية والعلمية والتقدمية الجديدة في مواجهة كل البناءات والمؤسسات الطبقية والاجتماعية القومية •

---

(٣٥) يمكن اعتبار الثورة الايرانية والحركة الثورية في نيكاراجوا وبوليفيا ، هي أولى البوادر الجديدة ، لحركة الشعب المباشرة ضد أعدائه الطبقيين في الداخل على طريق التحرر الاقتصادي والاجتماعي الشامل •

ولقد أشار بوتومورو الى أهمية الأصول الطبقية والاجتماعية فى تكوين المثقفين الاشتراكيين والثوريين داخل الطبقات الكادحة من جهة ، والى نقاء وحياد وعالمية الأفكار التقدمية والاشتراكية كعوامل جذب للمثقفين الاشتراكيين والتقدميين أيضا من خارج الطبقات الكادحة وخصائص حيوية للحياة الفكرية ذاتها ، اذ يقول : ان انجذاب المثقفين نحو الحركة الاشتراكية راجع الى أنهم يجدون فيها النقاء والحيادية والعالمية وهى خصائص تعد حيوية للحياة الفكرية ذاتها • وثمة عامل آخر يحتل نفس الأهمية ـ وربما يفوق أهمية ما سبق ـ وهو الأصول الاجتماعية للمثقفين(٣٦) •

---

(٣٦) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، مرجع سابق ، ص ٨٩ •

الفصل الثالث

أنماط التشوهات الاقتصادية والثقافية فى البلدان النامية

فى كل الصفحات السابقة ـ تقريبا ـ من هذا البحث تم تحليل الكثير من مظاهر العلاقات الخاصة بفئة المثقفين وانتماءاتهم الطبقية وما تعرضت له من متغيرات سياسية واجتماعية حديثة ، وبدأ تحليلنا لكل ذلك بصورة تميل الى الرتابة شبه الآلية ، والتى توحى بالتعميم المطلق على معظم المجتمعات النامية والمتخلفة موضع الدراسة •

فهل نستطيع أن نحكم بأن الأحداث التاريخية المعاصرة فى كل هذه المجتمعات قد جرت على هذا النحو وما تزال وبلا مميزات أو خصوصيات جزئية أو استثناءات على الأقل ؟ سواء بالنسبة لفئة المثقفين أو غيرهم من الفئات والطبقات الاجتماعية من مجتمع لآخر أو من قارة لأخرى ؟؟

هذا ما لا نميل الى الأخذ به ، ونرغب فى تحليله من خلال صفحات هذا الفصل • واذا كان لابد وأن نتذكر دائما بأن كل الأبعاد النظرية والتحليلية الأكثر شمولا وعمومية والتى سبق الأخذ بها فى مجمل التحليلات الاجتماعية والطبقية السابقة بالنسبة لفئة المثقفين أو غيرهم ، هى القاعدة العلمية والموضوعية الأكثر صدقا ، وتطابقا مع ايقاعات التطور التاريخى والجدلى فى الطبيعة والمجتمع ، الا أن حالات نمطية واستثنائية معينة وربما عرضية مؤقتة ، تستطيع أن تفرض نفسها من وقت لآخر وتؤثر تأثيرا ملحوظا وعميقا على الايقاع الصحيح للتطور التاريخى والجدلى ، وتحد من فاعليته الايجابية ، وهى عادة ما تبدو أشبه ما تكون بحالات التشوه المرضى الذى يصيب الجسم الصحيح فيفسد شكله ونموه الطبيعى ويحد من حركته وعطائه المادى والمعنوى •

فلقد لاحظنا فى كل الصفحات السابقة بأن كل الظروف الخاصة والعامة التى أدت الى كيفية نشأة وتكون المثقفين فى البلاد النامية وطبيعة انتماءاتهم وعلاقاتهم الطبقية ، ودورهم السياسى والاجتماعى ، هو ضرب

من حالات التشوه المرضى هذه على مستوى البلدان النامية والمتخلفة بصفة عامة فى ظل علاقات الغزو والسيطرة الاستعمارية .

وسنقوم فى هذا الفصل بتحليل أكثر عمقا لنماذج وأنماط محددة من هذا التشوه ، قد يختلف شكلها وفاعليتها ومضمونها من مجتمع لآخر ، أو من قارة لأخرى على امتداد هذه المجتمعا نفسها ، فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، وصولا الى تحديد السمات والمميزات المختلفة لأشكال التشوه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى أصاب هذه المجتمعات فى ظل الغزو والسيطرة الاستعمارية القديمة ، والتبعية السياسية والاقتصادية الحديثة ، من مجتمع لآخر أو من قارة لأخرى على الأقل ، والتى أسفرت فى مجملها عن تشوهات مختلفة فى البناء الاقتصادى والسياسى والاجتماعى (الطبقى) بما فى ذلك بناء فئة المثقفين التى تشكل النقطة الأساسية لموضوع هذا البحث .

التشوهات الاقتصادية :

اذا ما تذكرنا بأن مربط الفرس فى حركة الغزو والسيطرة الاستعمارية القديمة والامبريالية الجديدة هو دائما الابتزاز والنهب الاقتصادى للشعوب النامية والمتخلفة ، فاننا سوف لن نقوى على الامساك بالمدخل الصحيح لتفسير دلالة الافساد والتخريب والتشويه الرهيب الذى ألحقته هذه الحركة باقتصاديات هذه الشعوب منذ مطلع القرن السابع عشر وحتى اليوم فحسب ، بل اننا سوف نمسك بالمدخل الصحيح لكل دلالات التشويه والتخريب والافساد الاجتماعى والسياسى والثقافى الذى كان ولا يزال مشروطا ولازما لاكمال عملية التشويه والتخريب والنهب الاقتصادى ، وصولا الى تكريس كل دلالات التخلف التى تعانى منها هذه المجتمعات فى الوقت الحاضر ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ، ذلك أن التخلف - كما يقول رودولفو استافنهاغن - هو كما نعرفه الآن نتيجة انغراس الرأسمالية فى المجتمعات غير الصناعية وهو يبدو سمة أساسية من سمات النظام الرأسمالى(١) . ويضيف قوله : بأن البنى التقليدية ليست فى حد ذاتها علامة على التخلف ، فهذه البنى تميل الى أن تصير متخلفة فقط فى حال اندراجها فى النظام الرأسمالى الجديد(٢) .

---

(١) رودولفو استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٧ .

وحتى لا نضطر الى الدخول فى تفاصيل موضوع هذه الحقيقة التى أصبحت شبه بديهية عوضا عن كونها لا تشكل جوهر ما نقصده من هـذا البحث ، فاننا نستطيع أن نجعل هـذه التشوهات الاقتصادية فى نقاط محددة ، ونتبين مدى خطورتها وما وصلت اليه من نتائج سلبية مخيفة ، خصوصا اذا ما تذكرنا بأن عملية غرس وتكريس هذا التشويه والتخريب قد بدأ منذ ما يقرب من ثلاثة قرون كاملة وحتى الآن ، حيث يمكن تحديد أبرز مظاهر هذا التشوه وأكثرها شيوعا من الناحية الاقتصادية بصفة عامة فى النقاط الآتية :

(أ) تدمير الاقتصاد القومى المنتج والمستقل الذى كان سائدا قبل الغزو ويحقق الاكتفاء الذاتى فى الداخل ، مع تحقيق فوائض مصنعة وغير مصنعة للتصدير الى الخارج ، وتحويله الى اقتصاد استيراد سلعى مستهلك غير مستقل وتابع للخارج ١٠٠٪ فى كثير من الأحيان(٣) ٠

(ب) تحويل استثمار مصادر الثروة القومية والطبيعية فى هـذه المجتمعات من حالة تكامل مرتبط ومتجه الى الداخل الى استثمار متخصص بصفة مطلقة ووحيـدة الجانب تقريبـا ومرتبط نهائيـا بمناطق التصنيع فى الخارج ، بالنسبة لكل مجتمع على حدة تقريبا ٠ فمصر تنتج القطن لمصانع الغزل والنسيج الانجليزية بمانشستر ، والجزائر تنتج الكروم لمصـانع النبيذ والمشروبات الروحيـة بفرنسـا ، والبرازيل تنتج البن ، وبلدان شرق آسيا وجنوبها المطاط والشاى ، وحتى الوقت الحـاضر يمثل الكاكاو الانتاج الرئيسى المعـد للتصدير فى غانا ونيجيريا ، وتوجو والكمرون ، وكذلك هى الحال بالنسبة للمطاط فى ليبيريا ، وفسدق العبيد فى السنغال ، والبن فى غينيا وساحل العاج وكينيا وأوغندا(٤) وهكذا ٠

ثم القيام بعملية ابتزاز ناتج هذه الاستثمارات فى شكل مواد خام بأثمان بخسة وشبه مجانية ٠

(جـ) الحيلولة دون احداث صناعات حديثة بعد تدمير كل أشـكال الصناعات التقليدية ، والاكتفاء بتحويل كل مجتمع على حدة الى مجرد سوق مفتوحة للسلع الاسـتهلاكية المصنعة فى منـاطق « المتروبول » فى أوربا

---

(٣) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ص ٤٤ ٠

(٤) ر٠ استفنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١١١ ٠

كمصدر وحيد وملزم بالضرورة للحصول على مثل هذه السلع الاستهلاكية التي أصبحت ضرورة ، بما في ذلك المواد الغـــذائية بأثمان باهظة • فبعد أن كانت أوربا بصفة عامة وانجـــلترا بصفة خاصة نستورد من التوابل والمنسوجات من الهند أثناء القرن الثامن عشر وما قبله فانها ـ أي انجلترا ـ قد استطاعت ـ كما يقول بول بايروك ـ أن تجبر الهنود منذ العام ١٨١٣ على شراء المنسوجات القطنية التي كانت تشحن من ميناء « ليفربول » وتصنع في مصانع « لانكشستر » بانجلترا حيث كان الأطفال يشتغلون ١٦ ساعة في اليوم ، وحيث بلغ ما تحصل عليه بريطانيا من قيمة هـــذه الصادرات عام ١٨٥٦ عشرة ملايين جنيه استرليني ، والذي لم يكن يتجاوز خلال القرن الثامن عشر المليون جنيه استرليني ، وقفز هذا الرقم عام ١٨٦٧ الى عشرين مليون وبلغ عشية الحرب العالمية الأولى سبعين مليونا بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ التي اختزلت المسافة بين لندن وبومباي بنسبة ٤٠٪ وما لبث أن أدى كل ذلك الى زوال كامل تقريبـــا للصناعة الحرفية المحـــلية وعرقل بشدة نشوء صناعة حديثة(٥) •

حيث تحولت بدلا من ذلك أســـواق الهند وغيرهـــا من المجتمعات الآسيوية والافريقية الى مجرد أماكن لتجميع المواد الخام المختلفة التي كانت وما تزال تبتزها السلطات والشركات الاستعمارية بلا مقابل في البداية ، أو بأثمـــان بخسة في الوقت الحـــاضر ، واللازمة لمختلف الصناعات الآلية الحديثة في مراكز « المتروبول » في أوربا •

فلقد أبدى الرأسماليون دائمـــا ـ كما يقول استافنهاغن ـ عدائهم لاقامة صناعات محلية تتيح المجال لتحويل المواد الأولية حيث هي موجودة ، فتساهم في اثراء البلاد ، وكان من شـــأن هذه المنجزات فيما لو تحققت أن تؤدي الى ضرب احتكارات الشركات التجارية(٦) •

(د) اقامة العديد من المرافق الاقتصادية من موانيء ومطارات وسكك حديدية بالذات وفق تخطيط لا يخـــدم مطلقـــا ترابط المجتمع اقتصـــاديا والاجتماعيا في الداخل ، بقـــدر ما يسهل في الأساس عمـــلية الربط بين مصادر المواد الخام في المناجم والمزارع وموانيء تصديرها من جهة ومراكز

---

(٥) بول بايروك : مأزق العالم الثالث ، ص ١٠٧ •

(٦) ر• استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الزراعية ، ص ٦٣ •

توزيع السلع التجارية المستوردة من جهة أخرى • ان هذه المرافق قد بنيت – كما يقول بايروك – بشكل يشبه القمع المتجه الى الخارج ، وليس الشبكة التى يبدأ مركزها وينتهى فى اتجاه الداخل(٧) • ولقد أشار ماركس الى هذه الحقيقة فى عام ١٨٥٣ قائلا : اننى أعرف جيدا أن الرأسمالية الانجليزية لا ترغب فى أن تهب الهنود خطوطا حديدية الا لكى تحصل على المواد الأولية التى تحتاجها مصانعها(٨) •

التشوهات الطبقية والثقافية :

ولكى تؤدى عمليات التشويه والتخريب الاقتصادى كل النتائج المرجوة منها فى تكريس السيطرة والاستغلال الاقتصادى ، فلقد لزم اجراء عدة أشكال مختلفة من التشويه والتخريب الاجتماعى والثقافى والسياسى والطبقى الموازى بالضرورة لعمليات التخريب والتشويه الاقتصادى بطريقة أكثر خطورة ووحشية ، حيث يمكن رصد أبرز مظاهر هذه التشوهات الاجتماعية والثقافية باختصار فى النقاط الآتية :

(أ) مسخ الوجود القومى والحضارى لكثير من الشعوب والمجتمعات عن طريق الحرب والابادة الجسدية ، والقيام بعملية تستطيع مجتمعات « كولونيالية » جديدة قادمة من الخارج على أنقاض بقايا المجتمعات القديمة التى تحولت الى أقليات اجتماعية وقومية محاصرة فى مناطق جغرافية وسكنية محددة سلفا ، وفى ظل ظروف معيشية لا انسانية • الأمر الذى حدث فعلا بالنسبة لمعظم المجتمعات الحضرية الهندية القديمة فى أمريكا الشمالية والجنوبية على السواء ، وإستراليا ومناطق الاستيطان العنصرى فى جنوب افريقيا والصهيونى فى الشرق الأوسط •

(ب) افساد الأوضاع الثقافية والفكرية والحضارية أيضا للمجتمعات الأصلية ، والقيام بعملية حجبها وتهميشها بكل الوسائل ، وفرض أنماط محددة ومخططة سلفا من الثقافة والمدنية الأوربية التى أتابها الغزاة ، بما يحقق الايقاع المطلوب لعمليات الافساد والابتزاز الاقتصادى والسيطرة السياسية ، خصوصا فيما يتعلق باللغة والتشريع وعلاقات الملكية ، وهو الأمر الذى ينطبق على ما حدث لمعظم مجتمعات القارة الافريقية التى

---

(٧) بول بايروك : مأزق العالم الثالث ، ص ١١٣ •
(٨) المرجع السابق ، ص ١١٢ •

صارت تعرف اليوم بالناطقة بالفرنسية أو الانجليزية أو غيرها ، اذا ما استثنينا الدول العربية بشمال وشرق القارة التى أفلتت من هذه القضية الى حد ما ٠

(جـ) القيام بعملية افساد وتعديل نمط الاستهلاك الاقتصادى للطبقات الاقطاعية التقليدية المسيطرة قبل الغزو فى معظم هذه المجتمعات بصفة عامة وهى مجتمعات القارة الآسيوية بالذات ، وتحويله من انفاق محدود للقوت متجه الى الداخل مائة فى المائة (١٠٠٪) الى انفاق للترف متجه الى الخارج ١٠٠٪ تقريبا (الحصول على السلع الكمالية والاستهلاكية المصنعة فى الغرب) دون أن يغير شىء من أوضاعها السياسية والاجتماعية والعشائرية أو نمط تفكيرها الايدلوجى والفكرى المتخلف ، بقدر ما زاد من تضخيم هذه الأوضاع وباركها ودافع عنها ٠ بعد أن صارت أكثر تخلفا من ذى قبل ٠ فهذه البنى التقليدية — كما يقول استافنهاغن — قد لا تكون فى حد ذاتها علامة على التخلف بالضرورة بقدر ما أنها تميل الى أن تصير متخلفة فقط فى حال اندراجها فى النظام الرأسمالى الجديد ، وأكثر من ذلك أن الرأسمالية القادمة من الخارج تعززها وتقويها ، وهذه حالة بعض الطوائف فى الهند ، والاقطاعيات فى افريقيا واندونيسيا والأنظمة السياسية والاستبدادية فى أمريكا اللاتينية ، والنزعات القبلية التى تثيرها الدول الكبرى الاستعمارية فى افريقيا(٩) ٠

(د) التركيز الشديد على خلق طبقة أو شريحة جديدة من البرجوازيين والوسطاء التجاريين والكمبرادوريين المحليين ، للقيام بمساعدة المستثمرين والمضاربين الدوليين فى مراكز المتروبول على توزيع بضائعهم وحتى أرباحهم الطائلة من جهة ، والحصول على ما قد يحتاجونه من المنتجات الزراعية والمواد الخام اللازمة لتلك الصناعات المركزة فى الخارج ، مقابل الحصول على مداخيل طفيلية من عمليات الوساطة والسمسرة هذه التى يتسع نطاقها يوما بعد يوم ، خصوصا بعد الغياب المباشر للسيطرة الأجنبية وفى ظل الاستقلال السياسى المزيف فى الوقت الحاضر ٠

(هـ) القيام بعملية تقسيم ادارى وجغرافى مشوهة لمواطن هذه المجتمعات ، لا وفقا لطبيعة تكوينها القومى وبما يحافظ على وحدتها الوطنية

---

(٩) ر٠ استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٧ ٠

بل بما يضمن اضعاف وتمزيق هذه الوحدة نفسها ، ويسهل مهمة الادارة الاستعمارية ويحقق أغراضها السياسية والاقتصادية ٠ وهو الأمر الذى أدى الى افتقاد كثير من هذه المجتمعات لوحدتها الوطنية والقومية ، وأورثها الكثير من المشاكل السياسية والاقتصادية الحادة بعد الاستقلال الذى كان يعطى لها على أساس ذلك التقسيم الجغرافى والسياسى المشوه ٠ والوطن العربى الذى تم تقسيمه الى عدة مستعمرات قبل الاستقلال وتحولت هذه المستعمرات الى دويلات بعد الاستقلال وما تعانيه هذه الأمة من التمزق السياسى وسوء التكامل الاقتصادى والاجتماعى حتى اليوم من جراء ذلك والى أجل غير مسمى ، كل ذلك يقدم أفضل دليل على ذلك لأكثر من مثل فى أكثر من منطقة من العالم (باكستان الشرقية والغربية — كوريا الشمالية والجنوبية — جنوب السودان — شمال العراق — فيتنام الشمالية والجنوبية — الصين الشعبية والوطنية ٠٠ الخ) ٠

نتائج التشوه فى كل من آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية :

ومن خلال كل عمليات التشويه والتخريب الاقتصادى والاجتماعى هذه وبفعلها يمكننا أن نستخلص عدة نتائج مباشرة وغير مباشرة تمخضت جميعها عن هذا التشويه والتخريب الذى طال به الزمن ، فالى جانب النتائج المباشرة التى فقدت بموجبها العديد من المجتمعات وجودها القومى والحضارى والثقافى نفسه على نحو ما سبق فان نتائج أخرى غير مباشرة وان كانت أقل خطورة نسبيا لهذا التشوه قد شملت هذه المجتمعات نفسها وغيرها من المجتمعات التى صارت اليوم تعرف بالمجتمعات النامية والمتخلفة فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، والتى سنحاول أن نستخلص هذه النتائج فى كل منطقة على حدة نظرا لكل المقدمات والنتائج التى تتميز بها كل منطقة عن المنطقة الأخرى ٠

فى آسيا وشرق وشمال افريقيا :

لقد كان نجاح الادارة الاستعمارية فى افساد وتعديل نمط المعيشة والاستهلاك الاقتصادى للطبقات والأرستقراطيات الاقطاعية فى المجتمعات الآسيوية من انفاق للقوت متجه للداخل الى انفاق للترف متجه للخارج ، دون أى تغيير يذكر فى أوضاعها السياسية والاجتماعية ، هو من الأمور التى أفقدت هذه الطبقات أهم خواصها التاريخية ، وهى الزهد النسبى فى الانفاق والاعتماد على المصادر الذاتية فى الداخل وعدم الارتباط بالخارج ، أو الخوف منه عادة ، والتى يمكن أن توصف بأنها خواص ايجابية بشكل ما ، فى الوقت

الذى احتفظت بكل خواصها السلبية ، كطبقات مستغلة وذات مصالح ومفاهيم رجعية شديدة التخلف ، الأمر الذى حقق ارتباطها الاقتصادى بالخارج من جهة وكرس أوضاعها السياسية والاجتماعية المتردية فى الداخل من جهة أخرى ، وتشوه بذلك دورها السياسى وتركيبها الاجتماعى نفسه ٠

كما أن نجاح السيطرة الأجنبية فى خلق طبقة أو شريحة الوسطاء التجاريين والكمبرادوريين المحليين على أنقاض الصناعيين والحرفيين التقليديين ، قد أدى الى ايجاد شرائح برجوازية تجارية وكمبرادورية طفيلية مرتبطة بالخارج ١٠٠٪ ، وحال دون تكون طبقة برجوازية وطنية منتجة بالمعنى العلمى والتاريخى الذى عرفته أوربا فى القرن التاسع عشر ٠ وهو الأمر الذى أدى جدليا الى الاختفاء شبه التام للتعارض أو الصراع بين مصالح هذه الطبقة البرجوازية الجديدة المشوهة التركيب وبين الطبقات الاقطاعية التقليدية السابقة ، وعلى العكس من ذلك مال كلا الطرفين فى كثير من الأحيان الى التحالف فى مواجهة التيارات التقدمية والوطنية تحت تأثير حرص الطبقات الاقطاعية على استمرار مصالحها التقليدية وحصولها على استقرار مصالحها التقليدية وحصولها على احتياجاتها الاستهلاكية المترفة احتياجاتها الاستهلاكية المترفة المستوردة من الخارج كمستهلك شره ، وقيام الأخرى بعملية التوريد والاستهلاك معا(١٠) ٠ اضافة الى كون الارتباط شبه الكلى لكلا الطرفين اقتصاديا وسياسيا فى كثير من الأحيان بالاحتكارات الامبريالية والعالمية وحرص هذه الاحتكارات على تنظيم العلاقة والتعايش بين الطرفين قد قام بدور صمام الأمن والفرملة الحقيقية لتنظيم هذه العلاقات والأوضاع الاقتصادية والسياسية والطبقية المشوهة فى مواجهة المد الوطنى والتحررى حتى الآن ٠

فلقد تميز سلوك الغزو والسيطرة الاستعمارية فى آسيا وبعض مجتمعات شرق وشمال افريقيا فى أنه عمل على تعديل وتكييف أوضاع هذه المجتمعات التقليدية اقتصاديا واجتماعيا بما يتناسب وطبيعة مصالحه ، والمحافظة الى أقصى حد ممكن على هذه الأوضاع نفسها كما هى ، حيث لم تقتضى هذه المصالح منه أن يمارس عملية التدمير الاجتماعية والثقافية العميقة التى مارسها فى افريقيا وأمريكا اللاتينية ، أو أن ظروفا تاريخية وحضارية معينة قد حالت دون قدرته ووصوله الى هذا الحد من الممارسة البربرية تلك ،

---

(١٠) راجع التركيب الطبقى للبلدان النامية ، مرجع سابق ، ص ٤٨ و ٥٠ ٠

خصوصا وأنه قد وجد فى طبيعة الأنظمة القائمة ذات البعد الاقطاعى والأرستقراطى المتخلف ما ساعده على تحقيق مهمته الأساسية فى السيطرة والابتزاز الاقتصادى ، ولم تشكل مثل هذه الأوضاع الاجتماعية والثقافية عوائق مباشرة كبيرة أمام تلك المهمة الى الحد الذى شكلته الأوضاع الاجتماعية والثقافية الأقل ايجابية بالنسبة لأهدافه فى افريقيا وأمريكا اللاتينية ، فعمد الى تدميرها بالكامل بطريقة أو بأخرى ، وذلك على نحو ما سنرى بعد قليل ·

كل هذه النتائج وغيرها قد أدت مجتمعة الى تكريس حالة التخلف والتبعية الاقتصادية والسياسية المباشرة وغير المباشرة ، وخلق عوائق اجتماعية واقتصادية لا تحصى أمام امكانية احداث تنمية أو تقدم حقيقى يتجاوز بهذه المجتمعات عتبة التخلف بسهولة ما لم تقطع دابر كل صلة لها بمجتمعات المتروبول وتحقق تحررها الاقتصادى والاجتماعى من خلال تحولات ثورية وتقدمية جذرية فى الداخل ، واعادة ترتيب علاقاتها مع الخارج وفقا لمبدأ التكافؤ والمعاملة بالمثل لا مبدأ الوصاية والتبعية ·

فلقد أظهرت لنا التجربة الحديثة لتطور البلدان المتخلفة ـ كما يقول استافنهاغن ـ ان التقدم الاقتصادى الحقيقى لا يمكن آن يتم انجازه الا عندما تحدث تبدلات عميقة فى البنى الاجتماعية ·· وتعديل شامل فى العلاقات مع الخارج ·· ان التنمية الاقتصادية ـ ويجرى الاعتراف بذلك أكثر فأكثر ـ ليست مشكلة تقنية ، بل هى سياسية قبل كل شىء ·· انها باختصار تحتم انقلابا فى علاقات الطبقات القائمة ، وفى معظم الأحيان حلول طبقة مكان أخرى فى السلطة[11] ·

تشوه المثقفين :

واذا ما رجعنا الآن الى جرثومة بحثنا الأساسية الخاصة بالمثقفين وحاولنا تتبع كل الانعكاسات المباشرة وغير المباشرة لتلك التشوهات وأنماطها المختلفة على هذه الفئة فى القارة الآسيوية بالذات فاننا سوف نجد أنفسنا أمام أنماط مختلفة نسبيا من تشوهات المثقفين فى كل من افريقيا وأمريكا اللاتينية على نحو ما سنرى فيما بعد ·

---

(١١) ر· استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٤ ·

ففي عموم آسيا تقريبا حيث لم تصب مجتمعاتها وثقافاتها بكسور وجروح عميقة وانما تم تعديلها وتكييفها وتحديد حركتها بما تقتضيه متغيرات المصالح الأوربية سياسيا واقتصاديا ، نجد أن فئة المثقفين في هذه المجتمعات قد ظلت تعبر عن وضعها الصحيح كفئة هامشية وملحقة بالأوضاع الطبقية المتأصلة السائدة ومعبرة عنها ، رغم افتقادها لوعيها بحقيقة ذاتها وطبيعة دورها لبعض الوقت قبيل وأثناء مرحلة الاستقلال السياسي ، ثم ما لبثت أن استعادت هذا الوعي والاحتكام اليه بعد الاستقلال وحتى الآن مختارة وغير مختارة على نحو ما سبق تحليله في فصل سابق من هذه الدراسة ٠

ولقد كانت كل الصفات والمميزات التي تتميز بها الفئة المثقفة في المجتمعات الآسيوية عن غيرها هي ميلها قبل الاستقلال الى التخلص من أصولها الاجتماعية والطبقية لا بغرض الانتقال من طبقة لأخرى رأسيا أو أفقيا ، وانما بهدف تكوين طبقة جديدة ذات نفوذ سياسي وبعد وطني قومي اصلاحي بشكل ما ، ولكنها فشلت بعد الاستقلال فشلا ذريعا في تحقيق تلك المهمة التي كانوا يظنون أنها قد صارت في متناول أيديهم بالفعل وهم يتسلمون أعلام الاستقلال ، لسببين رئيسيين ، الأول هو أن امكانية تحول الفئة المثقفة الى طبقة متماسكة وتملك السلطة هي مسألة خاطئة تاريخيا ، ومقضي عليها لا محالة ، أما السبب الثاني فهو أن قوة التماسك الطبقي الاقطاعي والأرستقراطي العريق في هذه المجتمعات الآسيوية وأصالته قد عجل باكتشاف هذا الخطأ وتصفيته بسرعة ، انطلاقا من الحرص على مصلحة هذه الطبقات والدفاع عنها في الأساس ٠

حيث ما لبثت هذه الفئة في المجتمعات الآسيوية التي يمكن أن نضم اليها الأقطار العربية في افريقيا مصر والمغرب العربي الى حد ما ، أن عادت الى البحث عن هوية وانتماء مجزى اقتصاديا وسياسيا ، سواء بالعودة الى أصولها القديمة أو غيرها من التشكيلات البرجوازية والكمبرادورية الجديدة ، وفي نطاق المجتمع القومي المتجانس ، دون أن تصطدم بعوائق اجتماعية وكسور حضارية وثقافية كبيرة على غرار ما حدث في مجتمعات افريقيا وأمريكا اللاتينية على نحو ما سنوضح بعد قليل ، اذا ما استثنينا المجتمع الهندي الذي يتميز نظامه الطبقي بفواصل وعوائق اجتماعية وثقافية ذاتية أكثر تعقيدا ٠

لقد تحولت اهتمامات وطموحات المثقفين في آسيا وشمال شرق

افريقيا « مصر بالذات » من البحث عن طبقة جديدة مسيطرة الى البحث عن مواضع انتمـــاء كامل داخل الطبقات الاقطـــاعية والبرجوازية المسيطرة ، والتخلى تماما عن أصولهم القـديمة اذا لم تكن من هـــذا الطراز الاقطاعى والبرجوازى المسيطر والمجزى سياسيا واقتصاديا ، ما عـــدا قلة وطنية وتقدمية محدودة استطاعت أن تحافظ على التزامها القومى والوطنى الثورى وتطوره من خلال البحث عن الانتماء الطبقى للطبقات العمـــالية والفلاحية والبروليتارية المضادة والالتزام بمصالحها وفكرها ·

ومصر تقدم أفضل نموذج لهذه الحقيقة فى كل تاريخها المعاصر ، حيث أنه بالرغم من مجموعة الاجراءات والتحولات اللبرالية والوطنية التى تمت بعد الاستقلال وقيام ثورة ١٩٥٢ والتى أتاحت حراكا اجتماعيا وطبقيا أكثر حيوية صعودا وهبوطا ، من خلال مجانية التعليم واجراءات الاصلاح الزراعى وشكليات التمثيل البرلمانى ·· الخ · الا أن مجمـــوعة تلك الاجـــراءات والتحولات المتواضعة لم تؤدى الى أى تحول يذكر فى البناء الطبقى القـــديم وعلاقاته التقليدية ، بقدر ما أدت الى اتســـاع مظلة الطبقة الاقطاعية القديمة والبرجوازية الجديدة عن طريق تزويدها وتجديدها بقطاع اجتماعى واسع من عناصر الطبقات العمالية والفلاحية الشديدة البؤس والتخلف والحرمان ، ممن استفادوا من فرص التعـــليم كمثقفين ومهنيين ، ونجحوا فى تغيـــير أوضاعهم الاجتماعية لا فى نطـــاق طبقاتهم الأصلية والتعبير عنهـــا وعن مصالحها والدفاع عن هـــذه المصالح ، بل فى نطـــاق الطبقات الاقطاعية والبرجوازية والانسلاخ شبه الكلى عن أصولهم الاجتماعية والطبقية العمالية أو الفلاحية القديمة ، وقطع كل علاقة وصلة حقيقية لهم بهذه الطبقات التى تعانى فى قاع المجتمع منذ زمن طويل ، رغم كل ادعاءات الارتبـــاط الشكلى بين قلة تستغل وتســـيطر فى القمة وكثرة مسحوقة تماما فى القـــاعدة ، والذى تعودت أن تمارسه مثل تلك العناصر للمناورات السياسية لا أكثر ، يشاركها فى ذلك مجمـــوع أفراد الطبقة الاقطاعية والبرجوازية القـــديمة الأكثر استغلالا وتسلطا تحت نفس الدوافع ·

ذلك أن شدة الظلم والقهـــر والاستغلال المعتق الذى ترسف تحته طبقة الفلاحين فى مصر والتى تشكل بأغلبيتها الساحقة صلب المجتمع المصرى عبر قرون طويلة تحت وطأة الغـــزاة القادمين من الخـــارج أو المتسلطين فى الداخل أو هما معـــا فى معظم الحالات قد أصاب هـــذه الطبقة وغيرها من الفئات والطبقـــات المقهورة فى المجتمع بنوع من الاستلاب واللامبالاة ، وفقدان الوعى بالذات ، الى حد افتقادها لأدنى حدود المبادرة تجاه نفسها ،

الأمر الذى أشار اليه استافنهاغن بقوله : فظروف هذه الأكثرية من الشعب المصرى هى فى غاية البؤس وهى — أى هذه الظروف — ككل متدنية وأقرب ما تكون بحالة « التشرد » ومعدومة الانسانية ، لدرجة أن بعضهم (الـكلام ما يزال لستيفانهاغن) كتب يصفها قائلا : « ان هـذه الجماهير الشعبية الخاملة واللامبالية لا تشارك بأية طريقة من الطرق فى الحياة العامة للبلاد ، ولا تشعر بأية رغبـة أو أى ايمـان فى صناعة تاريخها »(١٢) ٠ ويضيف قائلا فى نفس الموضع : لا شك أن هذا الحكم يبدو قاسيا الا أن المسافة الاجتماعية التى تفصل هـذه الجماهير الشـعبية عن « الآخرين » (كل الآخرين) هى بالتأكيد العقبة التى تحول دون تبلور طبقة اجتماعية واعية لذاتها ٠ ويؤكد هؤلاء الدارسين « لهذا السبب » أن هذه الجماهير الغائبة سياسيا والمفتقرة الى وعى مصالحها لا تؤمن بأى نظام وهمى لتعلقها به أن يخلق لديها اهتماما تدافع عنه ٠٠(١٣) ٠ ويذكر الدكتور محمود الكردى فى بحث أكثر حداثة مشيرا الى مثل هذه المتغيرات فى الأوضاع الطبقية الدنيا الآنفة الذكر قائلا : انه نتيجة لتلك المتغيرات مجتمعة ومتفاعلة نلحظ فئات هـذه الطبقة الدنيا وقد غاب وعيهم بالأوضاع الحقيقية التى يحيون فى ظلها ، ويؤدى ذلك بالتالى الى تدنى مستويات طموحهم للدرجة التى يبدو معها وكأنهم غير مستائين من أوضاعهم تلك »(١٤) ٠

والاستثناء المعاصر الوحيد الذى يمكن ملاحظته فى حياة المجتمـع المصرى كما سبقت الاشارة هو ما حدث بصورة مؤقتة بعد ثورة ١٩٥٢ حينما بدأت فئة اجتمـاعية وسطية تظهر وتتطلع الى تكوين فئة أو طبقة مثقفة جديدة صاعدة من أسفل ، بما فيهم المثقفون ، حيث نلاحظ فى بحث قيم أكثر حداثة عن التخلف ومشكلات المجتمع المصرى أشارة الدكتور محمود الكردى الى فئة المثقفين فى مصر والذين يصنفهم ضمن الطبقة الوسطى التى برزت بعد الاصلاحات الجزئية التى نفذتها ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ومن خلالها وما لحق بهم من فشل وتمزق بقوله : وكانت هذه الطبقة هى أكثر الفئات تفاؤلا (بحكم تكوينها العمـرى ونصيبها من التعليم) بالأحوال المستقبلية للمجتمع المصرى ، الا أن هزيمة ١٩٦٧ جعلتها أكثر الفئات قلقا

---

(١٢) ر٠ استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٠٤ ٠

(١٣) المرجع السابق ص ١٠٤ (أنظر الهامش) ٠

(١٤) د٠ محمود الكردى : التخلف ومشكلات المجتمع المصرى ، دار المعارف المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ ، ص ٣٣٥ ٠

وحيرة ، فمعظمها من فئة الشباب الذين أعدوا بشكل معين أظهر لهم المجتمع فى صورة مستقبلية حالمة ، وتخيل كل منهم أن دوره هام وفعال فى تحقيق كل ذلك ، ودون مقدمات ، ففوجىء كل منهم بالصورة وقد صارت متناقضة ، فالضعف باد فى كل شىء وما هو بقادر على تغيره(١٥) •

وهو فى تقديرنا الأمر الذى جعل من حصول أى فرد من أفراد هذه الطبقة المسحوقة على فرصة للخلاص منها والانتقال الى طبقة المستغلين على نحو ما سبق ذكره قاعدة عامة للطموح الاجتماعى بين أفرادها ، وليس مجرد أنحراف أو عقوق ونكران بجميلها ، الى حد أن مثل هؤلاء الأفراد المحظوظين ممن نجحوا فى أنتشال أنفسهم سياسيا واقتصاديا يتحرجون جدا من مجرد تذكيرهم بأصولهم الاجتماعية القريبة العهد بهم (حتى أبائهم وأخوانهم من الفلاحين الفقراء أو غيرهم من أبناء طبقتهم الأصلية) الذين أصبحوا موضع سخريتهم ولعنة ماضيهم التى تعكر صفو حاضرهم أحيانا ، ويحرصون على مواراتها والتخلص منها بقدر حرصهم على استكمال عضويتهم فى الطبقة الجديدة ، فى ما يشبه عملية التناسب العكسى تماما •

وهنا تكمن مأساة المثقفين الوطنيين بالذات ذوى الأصـــول الفقيرة والكادحة فى مصر وغيرها من المجتمعات الآسيوية فى أنهم لم يستطيعوا بعد أن يكونوا مثقفين الا خارج طبقاتهم وضمن طبقات أخرى معادية فى الأساس لطبقتهم الأصلية ، أو مجرد مثقفين وطنيين لأنفسهم فى أحسن الأحوال •

وفى الهند تتكرر نفس الصورة بنفس الايقاع من حيث قدرة أفراد الطبقات المختلفة على أكتساب الثقافة والامتيازات الاقتصادية والمهنيـــة وأحيانا السياسية بفضل بعض التشريعات القومية الحديثة ، الا أن الحواجز الاجتماعية والدينية تبدو أكثر تعقيدا بما لا يقاس بالنسبة لمصر ، حيث لا تسمح هذه الحواجز بخرقها أو تعديلها فى المجتمع الهندى الا فى حياة ما بعد الموت ، حيث لا يستطيع (البينيان) الذين تتكـــون منهم غالبية الشعب الهندى الأصلى أن يصيروا « شودرا » (طبقة الجند والسياسيين) كما لا يستطيع أفراد هذه الطبقة الأخرى أن يتصوروا أمكانية انتقالهم الى طبقة « البراهما » (رجال الدين) الا اذا اتقانا أفراد كل طبقة فى خدمة وطاعة من يليها من أعلا مدة حياتهم ، فيكافؤن مقابل ذلك بأن يبعثوا بعد

---

(١٥) د• محمود الكردى : التخلف ومشكلات المجتمع المصرى ، طبعة ١٩٧٩ ، ص٣٣٤ •

موتهم وبعد أن يطهر الاله أرواحهم النجسة ويبعثها من جديد فى أجسام طبقة أرقاء • أما اذا اساؤا فان أرواحهم قد يعاد بعثها فى أجسام حيوانات وحشرات قذرة ، أو لا يعاد بعثهم على الاطلاق ، وذلك وفقا لمبدأ « تناسخ الأرواح »(١٦) • يضاف الى ذلك أساسا طبيعة التركيب الطبقى والاقتصادى فى المجتمع الهندى وطراز العلاقات السائدة بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج الاقطاعية الشديدة الاستغلال بالنسبة لمن يملكون كل شىء ومن لا يملكون حتى أنفسهم ، والتى تعبر عن مدى فسادها وانحطاطها محمل تلك المفاهيم والأفكار والفلسفات الميتافيزيقية والخرافية المنحطة أيضا •

فكل هذه الأفكار الميتافيزيقية والخرافية المغرقة فى القدم والتقليدية فى المجتمع الهندى أو غيره لا تعدو كونها مجرد تدابير أيدولوجية واجتماعية أكثر تكريسا واحكاما لسيطرة طبقة على طبقة أخرى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا •

والشىء ذاته - كما يقول استافنهاغن - بالنسبة للتمييز العنصرى ازاء السود فى الولايات المتحدة الأمريكية ، الذى تمتد جذوره الى الرق بقدر ما تمتد الى التطور الذى أصاب الرأسمالية الصناعية على اثر الغاء الرق ، فالتمييز العنصرى ينبع أذن أولا وبجلاء من وضع طبقى ما يزال مستمرا الى حد كبير حتى الآن(١٧) • وهنا أيضا تكمن صعوبة أن يكون المثقفون الوطنيون ذوى الأصول الشعبية المقهورة هم مثقفون لطبقاتهم بالدرجة الأولى ، لأن هذه الطبقات قد لا تقوى على تقبل آرائهم بسهولة كما قد يتصورون عادة ، ناهيك عن ميلهم الدائم كفئة هامشية الى البحث عن مجرد مخرج يخصهم بالدرجة الأولى فى معظم الأحيان بشكل أو بآخر على نحو ما سبقت الاشارة بالنسبة للمجتمع المصرى ، ولم نستطع الطبقات المسحوقة فى هذه المجتمعات أن تسترد من أبنائها الذين دفعت بهم الى ميدان التعليم والثقافة فى العصر الحديث الا القليل جدا رغم قلتهم أصلا •

فى أفريقيا : غرب وجنوب الصحراء :

ان النتائج السابقة الأكثر شيوعا فى المجتمعات الآسيوية وبالذات فى مصر وتركيا وايران والهند وجنوب شرق آسيا بصفة عامة « أندونيسيا

---

(١٦) راجع بصفة عامة دكتور أحمد شلبى : الديانة الهندية ، سلسلة مقارنة الأديان ، دار نهضة مصر - طبعة ١٩٧٧ •

(١٧) د• استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٢٩ •

والفلبين بالذات » يمكن أن نجد لها قرائن وامتدادات مشابهة الى هذا الحد أو ذاك فى أفريقيا وبالذات شمال وشمال شرق القارة ، أما معظم أفريقيا غرب وجنوب الصحراء فانه بالرغم من تشابه النتائج الاقتصادية والسياسية الا أن الوقائع والوسائل التى أدت الى ذلك قد اختلفت كثيرا ، وفقا لطبيعة اختلاف الظروف الاجتماعية والتاريخية المتميزة ، حيث لم تكن توجد فى هذه المجتمعات الأفريقية (غرب وجنوب الصحراء) طبقات وارستقراطيات اقطاعية عريقة المجد والتاريخ الاقتصادى والسياسى والدينى كما هو الحال بالنسبة للمجتمعات الآسيوية ، حيث كانت توجد بدلا من ذلك مجتمعات قرابية بسيطة تحكمها وتنظم شئونها علاقات القرابة العائلية بالدرجة الأولى ، وليس علاقات الملكية العقارية والطبقية ، وحيث كانت غالبية هذه المجتمعات ولا تزال جذورها الاجتماعية تعيش علاقات الاقتصاد المشاعى فى استثمار الارض والرعى الى حد كبير ، ولا تعرف معنى الملكية الخاصة ، حتى غداة الغزو الاستعمارى لهذه القارة المتناهية الخيرات والموارد الاقتصادية المغرية ، حيث عمد الاستعمار الى افساد هذه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتخريبها حتى العمق ·

فلقد كانت الأرض كوسيلة انتاج أساسية فى هذه المجتمعات الأفريقية هى — كما يقول استافنهاغن — ليست أداة من أدوات التملك الخاص ، حتى أن مفهوم الملكية الخاصة لم يتطور فيها — أى فى هذه المجتمعات — الا قليلا هذا ان لم يتطور مطلقا ، اذ أن هذه المجتمعات لا تعرف الانقسام الى طبقات اجتماعية ، ويضيف قائلا : وأننا لنجد فى هذه المجتمعات « البدائية » (على حد تعبيره) أنظمة تراتب مستقلة للبنية الاجتماعية ·· ولا تشمل مطلقا سلسلة هرمية من عدة شرائح الواحدة منها فوق الأخرى ، بل تحتوى بالاحرى أوضاعا متباينة لبعض الأفراد ولبعض الأنساب الذين يمكن ربطهم بعناصر رفيعة الشأن(١٨) · كما أن الملكية الخاصة لم تكن معروفة قبل الغزو الأوربى ، ولم تكن معتبرة كقيمة تبادلية(١٩) · ففى البلدان الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء — كما يذكر مجموعة من الباحثين السوفييت — كانت العلاقات الاقطاعية عشية الوقوع تحت الاحتلال الاستعمارى معدومة أو هى فى المراحل الأولى من تطورها(٢٠) ·

---

(١٨) ر· استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٤٠ ·

(١٩) المرجع السابق ص ١٠٦ ·

(٢٠) عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى فى البلدان النامية ، ص ٤٤٠ ·

وقبل ان نسترسل فى تحليل هذه القضية أود أن أشير أو أعقب على كثير من التحليلات الاقتصادية والاجتماعية لتلك المرحلة التى كانت تعيشها هذه المجتمعات الأفريقية قبل الغزو ، وما تزال لها أثارها حتى الآن ، والتى وصفها اللبراليون والمنظرون الغربيون بأنها المرحلة الأكثر بدائية والأقرب الى الوحشية ، وأنه مهما بدت مساوىء وسلوك وتصرفات الغزاة المستعمرين تجاه هذه المجتمعات وأتسامها بالقرصنة والشذوذ فى بعض الأحيان ، الا أنه لا يجب أن يقلل ذلك من أهمية دورهم فى أعداد هذه المجتمعات وتهيئتها للدخول فى مرحلة التطور التاريخى الأكثر تقدما مهما بدت لنا قاتمة ، فهى بالقياس الى ما قبلها تبدوا أهون شرا ، وخطوة الى الامام ، كما أن بعض اليساريين السطحيين قد تورطو فى الوقوع فى مثل هذا المنطق العنصرى والامبريالى العقيم الذى لا تخفى مقاصده بطريقة مباشرة وغير مباشرة ولو بدون وعى منهم ، وذلك حينما أطلقوا على هذه المرحلة بأنها من بقايا المجتمع المشاعى ، الأمر الذى قد يكون صحيحا الى حد ما وبشكل ما ، وأن هذه المجتمعات ما تزال هى أكثر من غيرها بعدا عن امكانية التحول الاشتراكى قبل أن تمر بالمرحلة الاقطاعية التى تمر بها معظم المجتمعات الآسيوية ، والمرحلة الرأسمالية التى تمر بها المتجمعات الرأسمالية ، وهم بذلك يبررون بوعى منهم أو بدونه وجهة النظر الاستعمارية والامبريالية السابقة الرامية الى تبرير ما حدث ويحدث لهذه المجتمعات من ألوان التشويه والتخريب والسيطرة ٠

وعلى العكس من كل ما سبق ، فان تقديرنا بأن المرحلة التى كانت تمر بها المجتمعات الأفريقية قبل الغزو وما تزال دلالاتها باقية بعده وحتى الآن ، هى أكثر المراحل امكانية وأقل كلفة فى التحول نحو الاشتراكية والتقدم بسهولة ، بالنسبة للمجتمعات الآسيوية ذات الانماط الاقطاعية والأرستقراطية العريقة ، لأن الأولى لا تحتاج لكى تتحول الى الاشتراكية سوا عملية واحدة وهى البناء الاشتراكى فى ظروف اقتصادية واجتماعية أكثر مواتاه تماما ، بينما تتطلب الأخيرة لكى تسير فى نفس الطريق عملية مزدوجة أكثر مشقة وكلفة ، وهى هدم الاقطاع القديم بكل أبعاده ، وبناء المجتمع الاشتراكى بكل مفاهيمه ، خصوصا وان المقولة الماركسية القديمة فى ضرورة اجتياز المراحل للوصول الى الاشتراكية ، لم يعد لها مكان مرموق فى الممارسة العملية الثورية المتنامية ، وصارت مجرد حقيقة فى تاريخ المقولات النظرية التى لم يصادفها الحظ فى التطبيق العملى الا قليلا وضمن حقائق أخرى متنوعة ٠ ولقد اشار مجموعة من الباحثين السوفيت المحدثين الى أن حرمان غالبية سكان الريف البروليتاريين فى آسيا وأمريكا

الاتينية ومظاهر المشاعية البدائية فى أفريقيا تشكل عاملا مساعدا لتخلصهم من نزعة التملك البرجوازى وتوحيدهم فى النضال ضد مستغليهم(٢١) ·

ولآن الاستعمار لم يعثر فى هذه المجتمعات على طموحات ومصالح طبقات اقطاعية وارستقراطيات محلية عريقة ومعقدة ، ينسق مصالحه من خلالها على نحو ما حدث فى آسيا ، بل أصتدم بمجتمع شبه مشاعى وشديد التماسك فى افريقيا السوداء ، لذلك فقد ركز وصولا الى نفس النتائج السياسية والاقتصادية التى توصل اليها فى آسيا وقبلها فى أمريكا اللاتينية على ثلاثة مداخل رئيسية :

(أ) عدم الاقتصار على تشويه وتدمير الواقع الاقتصادى على نحو ما حدث فى آسيا فحسب ، بل لقد عمد الى تحطيم وتشويه الواقع الاجتماعى والثقافى أيضا ، عن طريق فرض التخاطب والتعامل باللغات الأجنبية ونشر ثقافتها بدلا من اللغات القومية المحلية وثقافتها التى مالت الى الاندثار وفرض نظم وتشريعات قضائية ومدنية ودينية تتعارض مع كل مقومات المجتمع الأصلى ، وتتيح للأجانب حق امتلاك الأراضى الزراعية واستثمارها ، وممارسة عمليات العزل الاجتماعى لمناطق الأجانب عن السكان الأصليين أو العكس ، بما فى ذلك مناطق العمل نفسها فى المناجم والمزارع ، الآمر الذى أدى بعد الاستقلال الى فرض أوضاع مجتمعات مستقلة سياسيا يشكل فيها الوضع الاستعمارى الفعلى الاطار الاقتصادى والسوسيولوجى (الاجتماعى) للبلاد(٢٢) ·

(ب) اقامة عدد كبير من محطات التجميع والتوزيع التجارية والمناطق الحضرية الحديثة على السواحل ومناطق التعدين ومناطق المزارع الاقتصادية الخصبة التى تم الاستيلاء عليها من السكان الأصليين ، يقطنها ويملكها الاوربيون الأجانب من الحكام السياسيين والعسكريين ومديرو وموظفو وكالات وشركات المستثمرين البيض بالدرجة الأولى ، وأشبه ما تكون بالمعسكرات المغلقة تجاه المجتمع المحلى والقومى ، والمرتبطة بالخارج مائة فى المائة (١٠٠٪) ، والتى تحولت فيما بعد الى مدن ، حيث كان يقتصر دورها

---

(٢١) عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى فى البلدان النامية ، ص ٤٩٤ و ٤٩٥ ·

(٢٢) ر· استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٢٠ ·

بالنسبة للمجتمع المحلى كمجرد مراكز لاستخراج وتجميع المواد الخـام والحاصلات الزراعية استعدادا لنقلها الى الخارج من جهة ، واستقبال وتوزيع السلع الاستهلاكية المصنعة فى الخارج على السكان الأصليين فى الداخل من جهة أخرى ، من مئات وألوف العمال الأفريقيين الذين تستقبلهم هذه المراكز الأشبه بالمعسكرات فى الصباح ، والقادمين من القرى والمناطق الريفيـة المجاورة مختارين وغير مختارين للعمل فى المزارع والمناجم وأعمال الشحن والتفريغ ، وأعادتهم من حيث أتوا فى المساء أو فى نهاية الموسم فى أحسن الأحوال ، تحت ظروف عمل بالغة السوء ، حيث يذكر أستافنهاغن عن هذه المراكز قوله : بأن معظم هذه المدن أنشأتها حركة الاستعمار فى سبيل غايات محددة تماما (غايات تجارية ، وأدارية ، أو صناعية) وحافظت - أى هذه المدن - حتى الى ما قبل فترة قصيرة على صلات اقتصادية وثقافية مع أوربا أكثر من الصلات التى كانت تربطها بالارض الأفريقية(٢٣) .

(جـ) القيـام بعملية افساد سياسى واقتصادى وثقافى منظم لرؤساء القبائل والعشائر والعائلات والعناصر المثقفة التى حصلت على قسط معين من التعليم والتأهيـل المهنى والفنى اللازم لأداء بعض الأعمال المسـاعدة والتكميلية للادارة الاستعمارية ، وذلك بدفعهم الى التخلى عن كل مفاهيمهم وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية القديمة ذات الطابع الجماعى والمشاركة العامة وتغليب الاعتبارات الاجتماعية على الاعتبارات الاقتصادية ، وذلـك باغرائهم بالميل الى الاعتراف بما تصدره هـذه الادارة الاستعمارية من نظم وتشريعات وقوانين رأسمالية تتيح لهم تكوين ملكيات خاصة للارض والموارد الطبيعية بدلا من الملكيات الجماعية ، أو على الأصح تتيح لهم تحويل معظم الملكيات الجماعية للأسرة أو الجماعة أو العشيرة والقبيلة للأرض الى ملكية خاصة يتقاسمونها مع الأجانب ، اضافة الى ما يحصلون عليه من امتيازات واغراءات سياسية واجتماعية واقتصادية أخرى مقابل ذلك فى ظل الادارة الاستعمارية ومن خلالها ، كوسطاء ومتمصلحين طفيليين ، يعتمدون على هذه الادارة فى الحصول على نمط معين من المعيشة المترفة والاستهلاك السلعى الذى لم يكونوا قد عرفوه من قبل أو تعودوا عليه الا فى ظل هذه الادارة والتكامل معها اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، كما يعتمدون فى فرض مصالحهم الجديدة وتعزيز سلطـاتهم السياسية والاجتماعية التقليديـة على جماعاتهم ومناطقهم التقليدية على هذه الادارة أيضا ، ويستمدون منها شرعيتهم وشرعية

---

(٢٣) الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٦١ .

مصالحهم القديمة والجديدة بدلا من أن يستمدوها من الوضع التقليدى الأصلى الذى كان يربط ربطا دقيقا وقويا بين شرعية الحصول على هـــذه السلطة والمكانة وبين الارتباط الكلى بالجماعة الأصلية والاحترام المطلق لنظمهـــا والمحافظة عليها ، والتى أصبحت تتعارض جوهريا مـــع كل ما آلت اليه الأوضاع الجديدة لأفراد هذه الشريحة ، خصوصا فيما يتعلق بتملك الأرض ملكية خاصة ، حيث كانت وما تزال مبـادىء التنظيم الاجتماعى القائمة على العرف والخاصة بالحصول على الأرض ، تقضى بمنع هؤلاء الزعماء من التحول بواسطة مراكز المسيطرة فى السلم الاجتماعى الى مزارعين منظمين وملاكين عقاريين كبار(٢٤) ، ذلك أنه ليس من ملكية خاصة للارض فى المجتمعـات الأفريقية الأصلية ، فالحقوق العقارية حقوق جماعيـــة ، فالمجتمع الأغنى بكامله فى ساحل العاج « مثلا » ، هو الذى يملك مبدئيا الاراضى التى يقيم عليها المجتمع ، والحيازة هى حق من حقوق الاستعمال فقط غير القابـــل للتصرف واستصلاح الارض هو الذى يكرس الحيازة(٢٥) ٠

ولقد أدت هذه العوامل الثلاثة التى اعتمد عليها الاستعمار فى تخريب وتشويه هذه الأوضاع الاجتماعية والثقافية الأصيلـــة فى أفريقيا غرب وجنوب الصحراء فى نهاية الأمر الى بلورة عدد كبير من التشوهات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى بناء هذه المجتمعات التى كانت أقل تعقيدا وأكثر مواتاه من المجتمعات الآسيوية لأحداث تنمية اشتراكية واحداث تقـــدم حقيقى ، وذلك حينما أدت الى فساد كل المقومات الاقتصـادية والاجتماعية والثقافية الايجابية فى المجتمع (الغاء الملكية الجماعية والاستثمار الجمـاعى للارض — تفتيت الترابط والتماسك الاجتماعى التكاملى العريق المستمد من نظام القرابة والأسرة — حجب اللغات والثقافات الوطنية وعزلها بصفة شبه نهائية) كما أن هذه التشوهات التى أصابت المجتمع التقليدى بفعـــل السياسة الاستعمارية قد حالت فى الوقت نفسه دون تحـــول المجتمع الى مجتمع ثقافى أقطاعى أو برجوازية على أى نمط معاصر كما هو المفترض عادة، لأن العناصر التى أغريت بالتخلى عن مفاهيم وأسس المجتمع التقليدى لم تتحول الى طبقة اقطاعية أو برجوازية واضحة البنيان والمعالم ، بقدر ما أن هـذه العناصر المكونة من بعض أفراد الزعامات التقليدية والعنـاصر الأكثر احتكاكا بالادارة الاستعمارية قد كونت شريحة سياسيا واقتصادية متكاملة

---

(٢٤) الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٢٥ ٠

(٢٥) المرجع السابق ص ١٣٩ و ١٤٠ ٠

كلية مع الادارة الاستعمارية ومرتبطة بها سياسيا واقتصاديا وثقافيا الى حد كبير ، أكثر من ارتباطها بأصولها الاجتماعية وواقعها الثقافي والقومي .

ففى مناطق أفريقيا السوداء التى وجد بها استعمار قوى ، لا سيما فى اتحاد جنوب أفريقيا وكينيا نجد ـ كما يقول أستافنهاغن ـ طبقة من المزارعين قد نمت وتطورت بصورة مبكرة فى الاراضى التى طرد منها السكان الأصليون الا أن هذه الطبقة قد فرضت نفسها من فوق على المجتمع وهى جزء من المجتمع الاستعمارى ضمن نطاق الوضع الاستعمارى(٢٦) .

كما أن مئات وألوف من العمال الذين كان يتم أستخدامهم للعمل فى المزارع والمناجم والخدمات المختلفة لم يتحولو الى طبقة عاملة ذات سمات وملامح معينة بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، لأن ظروف التشغيل كانت تتم اما بالاكراه والسخرة أو بدافع البحث عن المبالغ النقدية التافهة التى تعطى لهم فى نهاية كل يوم ، أو فى نهاية الاسبوع ، لكى يتمكنوا بواسطتها من شراء بعض السلع الاستهلاكية المصنعة القادمة من الخارج ، من ملابس وغيرها ، والعودة الى أسرهم بعد نهاية يوم العمل أو موسم العمل فى أحسن الأحوال ، حيث يتشكل وضعهم الاجتماعى والطبقى الصحيح ضمن روابط الاسرة والقرابة التقليدية ، ولا يعودون للعمل الا حينما تتجدد أحتياجاتهم الشخصية والاسرية تلك ، أو يجبرون عليه بالقوة ، خصوصا فيما يتعلق بمواسم الحصاد وجنى المحاصيل الزراعية للبن والكاكاو ، والتى تتطلب أكبر كمية ممكنة من اليد العاملة وفى أقصر وقت ممكن .

كما أن ممارسة سياسة العزل الاجتماعى لهذه الفئة العاملة الواسعة النطاق من قبل الادارة الاستعمارية سواء فى مواقع العمل أو الحياة العامة، وتشغيلهم تحت ظروف اجتماعية واقتصادية بالغة السوء وخالية من أى ضمانات للاستقرار الاقتصادى والاجتماعى وأبسط المفاهيم الانسانية ، لم يكن كل ذلك لمجرد الامعان فى استغلال هذا القطاع الواسع من المجتمع بأبتزار طاقته الانتاجية بلا مقابل تقريبا فحسب بل لقد كان ذلك هو ترجمة عملية لرغبة واعية من قبل تلك الادارة فى تكريس وضعهم الاجتماعى الهامشى الذى يحول دون ارتباطهم بقوى الانتاج وحتى لا يتحولوا الى طبقة عمالية متماسكة مرتبطة بمواقع العمل وقادرة على تغيير علاقات هذا العمل

---

(٢٦) الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٢٥ .

الاستغلالية السائدة ، ويضمن في الوقت نفسه عدم قدرة المجتمع بأسره على توفير الحد الأدنى من متطلباته التى أصبح ينتظر ٩٠٪ منها من الخارج وبالمقابل النقدى دون أن يدفع بهذه المجاميع الواسعة من أبنائه فى ظل تلك الظروف وكيف ما أتفق ، يساعده على ذلك ميل المجتمع التقليدى نفسه الى استمرار ارتباط أبنائهم به وعدم انفصالهم عنه ٠

ولقد اشار مجموعة من العلماء السوفيت الى هذه الحقيقة بصفة عامة بالقول : ان احتكاك العمال المتواصل بالتنظيمات الاجتماعية التقليدية (كالقبيلة والعشيرة والجماعة أو العائلة الكبيرة) التى يحافظوا على عضويتهم فيها ، تعيق نضوج الوعى الطبقى ونشوء وتطور التنظيمات البروليتارية الطبقية وانتشار الايديولوجية البروليتارية ، وبالمقابل تضعف أيضا التنظيمات الريفية التقليدية وتتعرض للتأثيرات الخارجية ، مفتقدة عزلتها وانغلاقها على نفسها(٢٧) ٠

والصورة المريرة التى يشير اليها د٠ استافنهاغن حول هذه المسألة بالنسبة لبعض المجتمعات الافريقية تؤكد هذه الحقيقة ، حيث يشير الى ما ورد فى تقرير احدى اللجان الفنية لمناجم التعدين التى كلفت باجراء تحقيق عن أجور السكان الأصليين جاء فيه : « ان من مصلحة المناجم أن يتم تشجيع العمال من السكان الأصليين على العودة الى ديارهم فور انتهاء الفترة المحددة لخدماتهم ٠٠ والا فان الوسائل المساعدة للقوت (والمقصود هنا المواسم الزراعية المحلية) ستختفى من حياتهم ، وسيصبح العامل ميالا الى التحول الى مقيم دائم فى منطقة العمل وذى حاجات أكبر ٠٠٠ ويضيف استافنهاغن قوله : بأن الشركات فى سبيل الوصول الى أهدافها قد استعانت بمختلف الطرق والأساليب المؤدية الى ذلك ، فعقود العمل مداها محدد تماما ، وشروط العمل والاقامة فى المناجم قاسية لدرجة أن العامل لا يخطر بباله مطلقا احضار عائلته الى مقر عمله ، ثم أنه عندما يرجع الى ديارته فانه ينبغى عليه أن يمضى فترة من الوقت قبل أن يسمح له بالالتحاق ثانية بمعله ، كما وأنه لا يسمح للاشخاص غير القادرين على تبرير وجودهم عن طريق عقد العمل بالاقامة فى المناطق التى تقع خارج اطار مناطق قبائلهم ، كما أن قسما رئيسيا من الاجر لا يسلم الا عند نهاية العقد أى عندما يغادر العامل الى دياره ٠ ويتعاون فى سبيل ذلك كل من ادارة شركات المناجم « الأجنبية

---

(٢٧) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى فى البلدان النامية ، ص ٧٢ ٠

طبعا » والزعماء المحليون ما وسعهم ليحولوا أو يجمدوا « تفكك القبيلة وتفسخها » أى لكى يبقى العامل المهاجر مندمجا نفسيا وجسمانيا بقبيلته(٢٨) ٠

ومن خلال هذه الوقائع نستطيع أن نتصور ما لحق بأوضاع هذه المجتمعات من تشوهات اقتصادية واجتماعية عميقة قبل وبعد الاستقلال على السواء ٠ ناهيك عما كان قد لحق بمجتمعات هذه القارة من تشوهات اجتماعية عميقة من جراء افتقادها لأكثر من عشرين مليونا من سكانها فى سن الشباب تم نقلهم الى العالم الجديد كسلع للبيع والشراء فى ظروف قهر واستعباد لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية ، بدءا من حوالى عام ١٥٢١ وحتى عام ١٨٨٨ ، ذلك أنه اذا كانت العبودية قد الغيت سياسيا فى الولايات المتحدة عام ١٨٦٥ فقد كان لا بد من الانتظار حتى عام ١٨٨٨ كى تزول من البرازيل(٢٩) ٠ والعبودية بشكل عام اذا كانت قد زالت سياسيا وكشكل من أشكال التجارة والاستثمار المربح الذى مارسته الرأسمالية الاوربية الغازية فى القرون الماضية ، الا انها لم تزل بعد كمفهوم اجتماعى واقتصادى وطبقى حتى الآن فى هذه المجتمعات وتوابعها ٠

تشوه فئة المثقفين فى افريقيا :

لاحظنا فى افريقيا غرب وجنوب الصحراء أن الأوضاع الاجتماعية والطبقية بالذات كانت تميل أكثر الى البساطة وعدم التعقيد الاقتصادى والسياسى والاجتماعى أيضا ، فان الفئات الاجتماعية التى نجحت فى تحديث أوضاعها التقليدية اقتصاديا وثقافيا فى ظل الادارة الاستعمارية وبفعلها قد مالوا — على نحو ما سبقت الاشارة — الى التكامل والاندماج مع هذه الادارة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا أكثر من تكاملهم مع أية أوضاع طبقية محلية قديمة أو حديثة ، بما فى ذلك فئة المثقفين على وجه التحديد ، حيث صارت ثقافة المستعمر ولغته هى الثقافة واللغة الرسمية ، الى الحد الذى يمكن أعتبار حركة التحرر والاستقلال السياسى التى تمت فى هذه المجتمعات كانت عملية استقلال فى نطاق تلك الثقافة وليس تحررا منها بالفعل ٠

كما أن الفئات السياسية المثقفة التى تكونت وفق تلك الظروف المشار اليها سابقا وناضلت من أجل الاستقلال السياسى الذى حصلت عليه فى اطار نفس الظروف والمفاهيم ، هذه الفئات لم تصدم غداة الاستقلال بمؤسسات طبقية محلية قوية من أى نوع تحول دون طموحاتها كفئة أو

---

(٢٨) ر٠ استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١١٧ و ١١٨ ٠
(٢٩) بول بايروك : مازق العالم الثالث ، ص ١٠٢ و ١٠٣ ٠

صفوة على نحو ما حدث فى معظم المجتمعات الآسيوية وبعض مجتمعات شرق وشمال أفريقيا ، أو تحد منها على الأقل وتجبرها على مراجعة هذه المفاهيم والمطموحات الفئوية والشخصية الخاطئة والمنحرفة ، لذلك فان أفراد هذه الفئات أو النخبات السياسية والاجتماعية قد نجحت الى حد ما فى الامساك بزمام السلطة بعد الزوال الشكلى للاستعمار سياسيا فى ظل دكتاتوريات عسكرية وشخصية مفعمة بالمفاسد السياسية والاقتصادية والشخصية . حيث أمعنت هذه النخب السياسية والعسكرية البيروقراطية نصف المثقفة فى البحث عن مظاهر الابهة والترف والمجون الشخصى وأعاقة كل أمكانية لخلق أوضاع اجتماعية وسياسية طبيعية من أى نوع ، ناهيك عن امكانية احداث تنمية أو تقدم اجتماعى حقيقى ، محتمين بظل الاستعمار المباشر وغير المباشر الذى لم يفارقهم قط أو ينتقص من نفوذه ومصالحه شيء ان لم تكن قد تكرست بطريقة أفضل فى ظل الظروف الجديدة وتحت مظلة الاستقلال السياسى المزيف ، حيث تحصل هذه الفئات والعناصر البيروقراطية على رأسمالها ومداخيلها الطفيلية الهائلة من مصادر لا علاقة لها بالانتاج والاستثمار ولكنها تتألف — كما يذكر عدد من الباحثين السوفيت — من الرواتب والتعويضات العالية بشكل غير معقول التى تدفع للشخصيات الحكومية والسياسية التى تشكل النخبة الحاكمة ، ففى الكمرون مثلا حيث لا يتعدى متوسط الدخل السنوى عشرين ألف فرنك للفرد يصل دخل الوزير الى ١٨٥ ألف فرنك شهريا (بفارق مقداره ١١١ ضعفا) وفى الجابون يتلقى رئيس الدولة ٨٠٠ ألف فرنك والوزير ٣٥٠ ألف فرنك ونائب البرلمان ١٥٠ ألف فى الشهر ، فى حين أن متوسط أجور الشعب الشغيل لا يزيد فى هذا البلد عن ٥٠٠ الى ٦٠٠ فرنك فى الشهر (أى بفارق مقداره ١٦٠٠ ضعف) بالنسبة لرئيس الدولة و ٧٠٠ ضعف للوزير و ٣٠٠ ضعف لوكيل البرلمان ، كما تشكل المدفوعات الاضافية عادة نسبة من ١٥ الى ٢٠٪ من الرواتب الأساسية ، ويضيف هؤلاء الباحثين انه يصعب فى الحقيقة حساب هذه المداخيل لأن هناك طرق وأساليب عديدة يستخدمها العاملون فى السياسة والدولة من أجل الوصول الى الثراء الشخصى ، فالدفعة التى يتلقاها الموظف النيجيرى الكبير من أجل بناء وتأثيث منزل له تعادل رواتب عدة سنوات ٣٠ الى ٣٥ ألف جنيه استرلينى ، والوزراء فى الكمرون يتلقون عند السفر الى الخارج بصفة رسمية أو غير رسمية تعويضات انتقال بحدود عشرون ألف فرنك وما فوق فى اليوم الواحد(٣٠) .

---

(٣٠) راجع عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، مرجع سابق ، ص ٢٤٣ الى ٢٤٥ .

ولم يكن ضعف البناء الطبقي التقليدى والتكامل الاقتصادى والثقافى العميق لهذه الفئات السياسية والعسكرية الجديدة المثقفة وشبه المثقفة مع مستعمرين الأمس وأصدقاء اليوم هما السببين الوحيدين اللذين ساعدا على تكريس هذه الوضعية والوصول بها الى هذا الحد ، اذ أن الطريقة التى حصلت بها هذه المجتمعات على استقلالها منذ مطلع الخمسينات فى شكل قرارات فردية وجماعية كانت تصدرها الأمم المتحدة وتنفذها الدول الاستعمارية فيما يعرف بسلسلة قرارات واتفاقيات انهاء الحماية أو الانتداب دون أن يترافق ذلك مع حركة نضال سياسى وعسكرى وقومى ، هذه الطريقة قد جعلت من الاستقلال عملية شكلية غير ذات دلالة اجتماعية وسياسية عميقة، الا بالنسبة لتلك الفئة التى تسلمت السلطة وورثت امتيازاتها من المستعمر بصورة أكثر ترديا وفسادا •

وعلى العكس من ذلك فان الاقطار التى لم تستجب الدول الاستعمارية لقرارات المنظمة الدولية بمنحها الاستقلال أو انهاء الوصاية والحماية عليها فى عقد الخمسينات ، وأضطرت هذه الاقطار الى خوض نضال سياسى وعسكرى فى وجه الاستعمار ، فانها قد حصلت فى الستينات والسبعينات على استقلال وطنى أكثر دلالة وعمقا وأثارة للبعد الاجتماعى والقومى ، ساعدها على تحديد بعد سياسى واجتماعى أفضل لمرحلة ما بعد الاستقلال ، رغم أن المشاكل الاجتماعية والثقافية التى ورثها الاستعمار لهذه المجتمعات لم تكن بأقل سوءا وتعقيدا من غيرها ان لم تكن أكثر ، فالجزائر التى كانت فرنسا تعتبرها الامتداد الجنوبى لأراضيها الوطنية والمستعمرات البرتغالية بصفة عامة « أنجولا وموزمبيق » تقدمان أبرز الأمثلة المقنعة على صدق تلك الحقيقة ، وأخيرا زمبابوى (روديسيا سابقا) والتى عانت من أشكال التفرقة والتمييز والاستيطان العنصرى حتى نهاية السبعينات ، وحققت انتصارها الوطنى فى بداية الثمانينات •

والخلاصة أن نمط المثقفين فى أفريقيا عموما - بأستثناء مصر الى حد ما - قد جاؤا تعبيرا مباشرا ومتكاملا مع نمط الثقافة الاوربية الى حد كبير ، وأرادو أن ينظروا الى مجتمعاتهم ويحلوا مشاكلها من خلال تلك الثقافة أو يشوهوا أوضاعها بهذه الطريقة على الأصح ، خصوصا فيما يتعلق بمجموعة البلدان التى حصلت على استقلالها بموجب قرارات دولية فى أوائل الخمسينات ، حيث لم يكن الوعى الوطنى والقومى قد تبلور من خلال حركة تحرير سياسية وعسكرية بحيث يستطيع هذا الوعى أن يحد من عملية التشوه الثقافى والاجتماعى على الأقل الذى كان قد لحق بأوضاع هذه

المجتمعات ، على غرار ما حدث بالنسبة للمجتمعات التى حصلت على استقلالها فى الستينات والسبعينات وعبر نضالات سياسية وعسكرية قومية كما سبقت الاشارة ٠

كما أن فئة المثقفين السياسيين فى القارة الأفريقية عموما ـ باستثناء مصر ـ لم يصدموا بمؤسسات طبقية تقليدية أو تطلعات قومية قوية بعد الاستقلال تحد من طموحاتهم الفكرية ومفاهيمهم الثقافية المشوهة ، اذا ما استثنينا الجزائر والمستعمرات البرتغالية « انجولا وموزامبيق » (سابقا) وزمبابوى (روديسيا سابقا) التى حد فيها النضال المسلح والتطلعات القومية من هذه المشكلة بعد الاستقلال الى حد ما ، الأمر الذى جعل من مجاميعهم السياسية والعسكرية نخبات متميزة عن المجتمع القومى تماما وشديدة الميل الى التسلط الديكتاتورى والامعان الشره فى الترف الاستهلاكى الشخصى والعائلى للسلع الكمالية الاستهلاكية الأجنبية ، جريا وراء التقليد والمحاكاة للنخبات الغربية التى ورثوها اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ، الأمر الذى قلل من الفوائد المتواضعة التى كان فى الامكان الحصول عليها من خلال الاستقلال السياسى وعرقل استعادة المجتمع لتوازنه الاجتماعى والطبقى حتى الآن ، وبحدود نسبية اذا ما قورن كل ذلك بما تم فى المجتمعات الآسيوية التى حسمت هذه المشاكل بوضوح وسرعة بعد الاستقلال باستيلاء الطبقة الاقطاعية القديمة أو البرجوازية الجديدة على السلطة أو تحالفهما معا من خلالها ، وأقصاء فئة المثقفين نهائيا وأعادتهم الى مواقعهم القديمة كما سبقت الاشارة فى الصفحات السابقة ٠

ومما تجدر الاشارة اليه هنا هو أن هذا الوضع المتمايز نسبيا بين الأوضاع الاقتصادية والطبقية فى آسيا وأفريقيا وأنعكاساته المتمايزة أيضا على فئة المثقفين هنا وهناك لا يشكل ميزة ايجابية لآسيا عن افريقيا كما قد يتصور البعض أن لم يكن العكس هو الصحيح فى حالة الاقدام على اجراء تحولات ثورية ، ذلك أنه بالرغم من كل ما وصلت اليه النخبات والدكتاتوريات السياسية والعسكرية الفردية المسيطرة فى أغلب المجتمعات غرب وجنوب الصحراء الأفريقية والمنبثقة من شريحة المثقفين الأوائل ، من حالات التهور والقهر والفساد والافساد السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، الا أن هذه الدكتاتوريات الفردية ستظل بوضعها كذلك « مجرد نخبات أو مراكز قوى فردية أو عائلية » هى أقل كلفة وأضعف شكيمة عند اقتضاء العمل الثورى الناجز لاسقاطها والتخلص منها ، اذا ما قورن ذلك بامكانية اسقاط الطبقات الاقطاعية والكمبرادورية بأكملها فى المجتمع الآسيوى

بصفة عامة ، وفي بعض مجتمعات شرق وشمال أفريقيا نفسها ، خصوصا وان مثل هذه الطبقات لم تتبلور بعد فى المجتمعات الأفريقية غرب وجنوب الصحراء الى الحد الذى تتشابه فيه مع المجتمعات الآسيوية ، ولن يتأتا ذلك فى وقت قريب ، حيث ما يزال التركيب الحقيقى والتحتي لهـــذه المجتمعات الأفريقية مشدودا بعمق الى أصوله التقليدية ولم يطراء عليه تغييرا كبيرا ، اذا ما استثنينا الفئات والنخبات السياسية والاقتصـــادية والعسكريـــة المسطحة من أعلا فوق هذا المجتمع العريق الذى يحتفظ بمفاتيح المستقبل وزمام كل امكانيات التحول الحقيقى ، والذى بداء بالفعل يجد من أبنائه من يتمثلون واقعه تمثلا تاريخيا واجتماعيا عميقا ويعملون من خلاله ، وان كان الوقت ما يزال مبكرا فى الحكم على موعد ومدى مثل هذا التحول ، الا انه آت لا محالة ، باعتباره القـاعدة التى آفسدتها التشوهات المختلفة وعرقلة ديناميكيتها الجدلية لبعض الوقت ٠

فى أمريكا اللاتينية :

لابد وأن نلاحظ ونحن نســـتعرض أنماطا مختلفة من التشـــوهات الاقتصادية والاجتماعية التى لحقت بمجتمعات البلاد النامية من أن الفروق التى تميز شكل هذه التشوهات فى أفريقيا عنها فى آسيا أو أمريكا الاتينية هى فروق نسبية وليست مقطوعة الصلة ببعضها ، خصوصا اذا ما تذكرنا بأن القاسم المشترك بينها جميعا هو الابتزاز الاقتصادى والسيطرة السياسية الاستعمارية ، وان ما نذكره أو نركز عليه فى هـــذا التقسيم من أنماط التشويه الاقتصادى والاجتمـــاعى الذى يميز أفريقيا عن آسيا عن أمريكا اللاتينية انما هو ميل منا الى ابراز أشد وأكثر أنماط التشوه شيوعـــا واختلاف وسائلها فى منطقة ما بالنسبة لأخرى من هذه المناطق بصفة عامة ، أما اذا نظر الى مجموع هذه التشوهات بصفة عامة فاننا نجدها تتداخل مع بعضها فى كل مكان تقريبا عبر هذا العالم المتخلف وبفوارق نسبية قـــد تكون حادة فى بعض الحالات بحكم اختلاف الظروف التاريخية والموضوعية ٠

واذا كنا قد استوفينا هذا الأمر بعض الشىء بالنسبة لآسيا وأفريقيا فما الذى حدث فى أمريكا اللاتينية ، وبأى أيقاع تم تشويه أوضاع شعوب ومجتمعات هذه المنطقة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وحضاريا ، وكيف ؟

لقد تعرضت هذه المجتمعات للغـــزو والسيطرة الاستعمارية الأوربية قبل غيرها من المجتمعات الأفرو آسيوية بوقت طويل نسبيا ، بداء مع مطلع القـــرن السادس عشر حينما قادت الصـــدف الأفواج الأولى من المستكشفين

والغزاة الاوربيين الأوائل من أسبان وبرتغاليين الى هذه المنطقة وهم بصدد البحث عن طريق بحرى يوصلهم الى الهند ، فوجدوا فى هذا العالم الجديد الذى لم يعرفوه من قبل ما هو أكثر أهمية وأغراء من الهند التى يعرفونها وتعرفهم من قبل ، وكان لا يزال التفكير الاوربى فى تلك المرحلة المبكرة مشبعاً بالفكر الاقطاعي والكولونيالى ، لذلك فقد كان شديد التهور وغير محدد الأهداف اقتصاديا وسياسيا على نحو ما حدث فيما بعد خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، حيث كان يغلب عليه فى تلك المرحلة فكرة « البطولة والقرصنة الدولية وأعمال القتل والابادة والتخريب والنهب والتوطن العنصرى والقومى » اضافة الى أنواع الأوبئة والميكروبات التى جلبها الاوربيون معهم الى المنطقة والتى لم يكن لها أى وجود فى هذه المجتمعات المتحضرة من قبل ، مثل الجدرى والتيفوس والجذام والطاعون والحماء الصفراء.

وتتضح هذه الحقائق أكثر فأكثر اذا ما تذكرنا بأن أهم الافتراضات شبه المؤكدة قد اشارت الى أنه فى الوقت الذى لم يكن يتجاوز فيه سكان أوربا ستين مليون فى مطلع القرن السادس عشر كان مجموع سكان شعوب ومجتمعات أمريكا اللاتينية (الوسطى والجنوبية) قبل الغزو الاوربى ، أو ما قبل كولومبس كان يتراوح ما بين ثمانين الى مائة مليون نسمة ، حوالى عام ١٥٠٠ ، وأصبح هذا الرقم فى عام ١٦٠٥ - كما يذكر بول بايروك - هو عشرة ملايين فقط ، وان تناقص عدد السكان فى المكسيك الوسطى كان أشد قوة : ٢٥ مليون حوالى العام ١٥٠٠ ، فسقط العدد الى مليون واحد حوالى عام ١٦٠٥(٣١) .

ولقد نجمت هذه الابادة - كما يقول بايروك أيضا - عن المفاعيل المتظافرة للمذابح التى رافقت الغزو وتلته ، والاوبئة القتالة التى سببتها الفيروسات والجراثيم التى حملها الاوربيون ولم تكن موجودة بالمرة من قبل فى أمريكا ، مثل الجدرى بخاصة ، وكذلك التيفوس والجذام والطاعون والزحار والحماء الصفراء . وتفاقمت بسبب نظام الاستغلال الكولونيالى فى المناجم والزراعة على حد سواء(٣٢) .

لذلك فقد منيت هذه الشعوب والمجتمعات بأسواء مما منيت به أية مجتمعات أخرى من جراء الغزو الاستعمارى الاوربى ، ذلك أن مجموع مقومات

---

(٣١) بول بايروك : مأزق العالم الثالث ، ص ٧ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

وجودها الاقتصادي والاجتماعي والحضاري برمته لم تتعرض لعملية سطو وتدمير مباشر حتى الصفر بكل ما لهـذه الكلمـة من معناه وليس مجرد الاستغلال فحسب ، بل لقد تعرضت هي ووجودها القومي نفسه لعمليات الابادة الجماعية بالكامل ، حيث لم يبق منها اليوم الا مجرد عينات اجتماعية لا تعنى أكثر من مجرد دالة معينة على آثار أرتكاب أعظم جريمة فى تاريخ البشرية ، وذلك رغم ما كانت تتمتع به هذه المجتمعات من مستوى تقدم حضارى شامل يتجاوز كثيرا ما كانت عليه المجتمعات الأفريقية ، وذى سمات انسانية عميقة الدلالة بالنسبة لما عرفت به الحضارات الآسيوية والشرقية بعامة ٠

فلقد كانت هذه المجتمعات تتشابه الى حد كبير مع مثيلاتها فى أفريقيا من حيث الأوضاع الاقتصادية ونمط الملكية الجماعية للارض ، وحالة التراتب الاجتماعى فى السلطة والمكانة الاجتماعية التى لم تكن مرتبطة بالملكيـة الخاصة للارض أو الثروة ، بقدر ما كانت ترتبط بمجمل التنظيم الاجتماعى والدينى والسياسى المقنن من خلال العرف والتقاليد المنبثقة من مجمل أوضاع المجتمع ككل ، والتى تخضع لكثير من الضوابط الاقتصادية الصارمة بالذات على سلوك الفرد الى جانب الضوابط الاجتماعية ٠

واذا كانت مجمل هذه المفاهيم قد تبلورت فى افريقيا وتجسدت من خلال نظام الاسرة والقرابة بالدرجة الأولى ، فأنها قد تبلورت فى مجتمعات أمريكا اللاتينية قبل الغزو وتجسدت من خلال تنظيمات اجتماعية وسياسية أكثر ارتقاء وتطورا وشـمولية ، تمثلت فيما يطلـق عليه أستافنهاغن « المتحدات الاجتماعية المحلية » المرتبطة بمتحد قومى أعلا تنبثق من خلالـه سلطات سياسية واجتماعية لدول مركزية قوية وبالغة الدقة والتنظيم وذات مضامين إقتصادية واجتماعية وتقنية ديناميكية متحركة فى اتجاه التقـدم والتطور الذاتى ، فالأمر هنا — كما يقول أستافنهاغن — كان يتعلق بدول شديدة المركزية تقوم على أساس تنظيم اجتماعى هـو عبارة عن « متحد اجتماعى » قبلى اقليمى ٠٠٠ قام بفتوحات عسكرية واسعة جـدا ، وكانت الغنائم والاتاوات التى نجمت عن هذه الفتوحات قد أسهمت فى قيام سلطة سياسية واقتصادية لا مثيل لها فى العالم الذى سبق عهد كولومبس ، وفى نشوء بنية طبقية ذات تسلسل هرمى « قومى »(٣٣) ٠ الى الحد الذى يفترض

---

(٣٣) ر٠ استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٤٢ ٠

البعض بأن هذه المجتمعات كانت مهيئة لانجاز ما يشبه « المعجزة » ذات الأبعاد والملامح المتميزة تماما في التقدم والتطور الاقتصادى والاجتماعى والتقنى فى العصور الحديثة ، لو لم تصب بكارثة البربرية الاوربية التى أفسدت كل شيء في حياتها • ومما زاد من تفاقم هذا الغزو البربرى الاوربى الذى بدأ بهذه المنطقة وانتهى الى معظم مناطق العالم ، هو أن ما كان يحرك الكولونيالية الاوربية الغازية فى البداية هو — كما يقول بول بايروك — مجرد مصادرة الثروات التى راكمتها خلال قرون الحضارات ما قبل الكولومبية ، وبعد ذلك الاستثمار المنجمى بالمعنى الضيق للتغيير(٣٤) •

ذلك أن حركة الغزو الاوربية للعالم الجديد لم تكتسب المضمون السياسى والاقتصادى الا بعد أن أحدثت شروخا وكسورا عميقة ، ان لم نقل تدميرا شاملا على الأصح ، لأعماق التكوين الاجتماعى والحضارى لهذه المجتمعات ، وقامت بعملية تسطيح مجتمع أفقى جديد من أعلا « مهجن » ومجلوب عبر الأطلنطى ، على أنقاض المجتمعات الأصلية القديمة ، تفصل بين الاثنين مسافات سياسية واقتصادية وعنصرية وقومية لا تدرك بسهولة • هذا اذا سمح بعملية التتابع وايجاد نقاط تماس حقيقية بين الطرفين ، الأمر الذى ما يزال مشكوكا فى حدوثه حقيقة ، حيث أنه ما لبث هذا المجتمع المسطح أن سار فى اتجاه بلورة أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية صعودا وهبوطا كمجتمع متكامل سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، خصوصا بعد حصول هذه المجتمعات على الاستقلال السياسى منذ وقت مبكر فى أواخر القرن التاسع عشر ، والذى تسلمه هذا المجتمع « المسطح والمهجن » من المجتمع (الأم) فى أوربا الاستعمارية ، وكان كل ذلك يحدث بمعزل عن جرثومة المجتمع الأصلى القديم أو رغما عنه على الأصح ، رغم أنه كان ولا يزال — ورغم كل ما لحق على مستوى القرية فى القارتين متشابهة(٣٥) • وهنا تكمن فى تقديرنا جرثومة المستقبل فى كلا القارتين •

ولذا فمن الناحية الثقافية تسير أمريكا اللاتينية على العموم فى تيار الحضارة الغربية أكثر مما تسير فيه أفريقيا ، ومع ذلك فان البنى النقابية على مستوى القرية فى القارتين(٣٥) • وهنا تكمن فى تقديرنا جرثومة المستقبل فى كلا القارتين •

---

(٣٤) بول بايروك : مأزق العالم الثالث ، ص ١٠٠ •

(٣٥) ر• استافنهاغن : الطبقات الاجتماعة فى المجتمعات الزراعية ، ص ٧٨ •

نخلص من خلال هذا العرض الى امكانية تحـديد ملامح التشوهات الاجتماعية التى لحقت بهذه المجتمعات الامريكية الاتينية فى :

(أ) تدمير مجتمع قديم تدميرا اقتصاديا وحضاريا وبشريا الى أقصى حد ممكن ، ومحاولة عمل كل شيء بدونه وبمعزل عنه في أحسن الأحوال ، ومع ذلك فان جرثومته لم تمت نهائيا وما تزال كما وكيفا تتحدى بعمق كل ما يجرى حتى الآن ، وتختزن فى طياتها عبوات اجتماعية ناسفة أن عاجلا أو آجلا •

(ب) تستطيع مجتمع (هجين) قليـل التماسك على أنقـاض المجتمع القديم وفرض نفسه كمجتمع بديل شبه متكامل سياسيا واقتصاديا وثقافيا، تربطه ببقايا المجتمع القـديم علاقات اسـتغلال اقتصادى وقهر سـياسى واجتماعى وقومى وعنصرى الى حد كبير •

(جـ) ان الحالات القليلة التى تسمح بانتقال بعض الأفراد من المجتمع الهندى القديم الى المجتمع الجـديد لا يعنى انتقـال فى السلم الاجتمـاعى والطبقى من أسـفل الى أعلى ، بقـدر ما يعنى فى الأسـاس انسلاخ قومى وحضارى من المجتمع القديم بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، والقيـام بعملية اندماج قومى مشوه بالمجتمع الجديد •

(د) اذا جاز لنا أن نقبل — تمشـيا مع أكثر الآراء شيوعا وميلا الى الصواب — بأن مجتمعات أمريكا اللاتينية فى ضوء ما سبق تنقسم — ولو مجازا — الى طبقتين ، طبقة واسعة مستغلة ومقهورة ممثلة بالمجتمع الهندى القديم ، وطبقة مستغلة ومسيطرة من المجتمع المهجن والاوربى الجديد ، أو عند الاقتضاء — كما يقول رالف بيلز — البيض والسود ، الا أن تشوهات اجتماعية واقتصادية وقومية ما تزال تحد من الثقة بهذه الفرضية الأقرب الى الواقع وتعرقل من تكامل حركتها وديناميكيتها الجـدلية الصحيحة فى الوقت الحاضر على الأقل ، وعلى امتداد غير محدد فى المستقبل •

ذلك أنه فى الوقت الذى كف فيه المجتمع القديم عن وجوده كمجتمع طبقى متكامل البنيان وتحـول الى ما يشبه الاقلية أو الأغلبية القـومية المضطهدة سياسيا واقتصاديا وعنصريا الى حد كبير ، فان المجتمع الهجين والمسيطر من أعلى قد أخذ ينقسم على نفسه أنقساما طبقيا رأسيا ، ما بين مستغلين (بكسر الغين) ومستغلين (بفتحها) ، كما أن المجتمع القديم ما يزال يستمد وجوده من مميزاته الاجتماعية والقومية ونمط معيشته الاقتصادية

أيضا أكثر من كونه أصبح بالفعل يشكل طبقة بروليتارية مستغلة واسعة النطاق ومندمجة فى مجتمع قومى متجانس • وهنا تكمن تشوهات الحاضر اذا تجاوزنا وغضضنا الطرف عن جرائم الماضى ، رغم أن تلك الفرضية الآنفة الذكر يبدو أنها الامكانية الوحيدة التى سيؤل اليها حتما تفسير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والطبقية لتلك المجتمعات فى المستقبل الوشيك الذى لا نستطيع أن نحكم بموعده حتى الآن • ما لم تجد ظروف وتطورات تاريخية وسياسية ثورية تقدمية تعجل من متغيرات التطور وتدفع بها فى الاتجاه الاجتماعى والتاريخى الصحيح •

نمط المثقفين فى أمريكا اللاتينية :

اذا جاز لنا القول بأن السيطرة الاستعمارية فى أفريقيا قد انتهت الى تكوين شريحة اجتماعية محلية لا متجانسة من المثقفين السياسيين والعسكريين والتجار الوسطاء والسماسرة والملاكين العقارين الذين نشؤا فى ظل هذه السيطرة ونكاملوا معها اقتصاديا وثقافيا الى أقصى حد ، وقامت بتسليمهم علم الاستقلال « الكسيح » بعد أن كانت قد قامت بعملية تسطحيهم أفقيا ورأسيا قبل أن ترحل بلحمها ودمها فوق بناء اجتماعى تقليدى عريق ما يزال - كما سبقت الاشارة قبل قليل - يحتفظ بكل أبعاد الحاضر ومفاتيح المستقبل ، اذا جاز لنا أن نؤكد ذلك كحقيقة بديهية بالنسبة لافريقيا فان الأمر قد اختلف كثيرا بالنسبة لامريكا اللاتينية ، حيث بدأت قصة هذا الغزو والسيطرة الاستعمارية مع مجتمعاتها الأصلية فى القرن السادس عشر والسابع عشر بعملية تسطيح مجتمع بأسره ، منتقا ومجلوب عبر المحيط الاطلنطى على أنقاض مجتمع تم تدميره حتى العمق حضاريا وبشريا على نحو ما سبقت الاشارة لتنتهى هذه القضية فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بميلاد مجتمع هجين مشبع بكل خصائص المجتمع الاقطاعى والرأسمالى الأوربى ، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا ، خصوصا ما يتعلق بالجانب العسكرى والادارة الكولونيالية الاوربية التى تشبعت بها الادارة الاستعمارية القديمة فى هذه المنطقة أكثر من أية منطقة أخرى ، وطبعت أوضاعها السياسية والاقتصادية بهذا الطابع الكولونيالى حتى اليوم•

كما أنه بغض النظر عما لحق بتلك المجتمعات الأصلية من دمار حقيقى فان ثلاثة قرون مليئة بالديناميكية والحركة الاجتماعية المعاصرة والواعية هى كافية لخلق مجتمع مستقر وشبه متكامل من المستوطنين الأوربيين وبعض المحليين ، هو أكثر عقلانية وديناميكية حديثة اذا ما قورن بالمجتمعات

الآسيوية والأفريقية ، الا أن مشكلة هذه المجتمعات الأساسية هي أن مراكز « المتروبول » في أوربا قديما والولايات المتحدة حديثا قد كانت وما تزال تنظر الى هذه المجتمعات وتعاملها كمجرد توابع مكملة لها اقتصاديا وسياسيا، بل وتفرض عليها ذلك فرضا ما استطاعت الى ذلك سبيلا حتى الآن .

وفي ضوء مجمل هذه الظروف لنا أن نتصور أو نفترض كيفية نشأة وتطور فئة مثقفة في هذه المجتمعات ، ذات خصائص تميزها عن غيرها من فئات مثقفي أفريقيا وآسيا الذين سبق الحديث عنهم . فاذا استرجعنا مجمل التحليلات السابقة حول طبيعة وكيفية الظروف الاجتماعية والتاريخية التي تكونت من خلالها مجتمعات أمريكا اللاتينية الحديثة فأننا نستطيع القول بأن فئة المثقفين المعاصرين في هذه المجتمعات قد أنبثقت في غالبيتها من فئات وطبقات المجتمع الجديد « المهجن » ولم تتوفر قنوات أو نقاط عبور للمجتمع الأصلي القديم لكي يشارك في تكوين هذه الفئة بصفة خاصة وفي مجمل مكونات الحياة العامة الجديدة بصفة عامة الا في حدود ضيقة للغاية .

وحينما حصلت هذه المجتمعات على استقلالها السياسي المبكر خلال القرن التاسع عشر لم تواجه الفئات السياسية المثقفة التي تتصدر دائما مثل هذه الأحداث مشاكل حادة في اطار التكوين الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع المسطح أو « المهجن » الذين يمثلونه بمختلف فئاته وطبقاته ، ولم يضطروا الى الوقوع في حالات التأزم السياسية والقومية التي وقع فيها المثقفون في المجتمعات الآسيوية وبعض المجتمعات الأفريقية ، ولا التأزم الثقافي والاقتصادي الذي يمكن اضافته الى ما سبق بالنسبة لأمثالهم في عموم القارة الأفريقية قبيل وبعد الاستقلال. بل لقد كانوا على خلاف ذلك هم أكثر تكيفا وتكاملا مع أوضاعهم الطبقية وارتباطا بها منذ البداية ، ولم يؤدي شعار المطالبة بالاستقلال والحصول عليه الى انتشار حالات من الارتباك الشديد في الواقع الاقتصادي والطبقي والاجتماعي بصفة عامة على نحو ما حدث في آسيا وأفريقيا والذي أنعكس بعمق على أوضاع فئة المثقفين في هذه القارات ، حيث وجد هذا الارباك تعبيره المباشرة من خلالهم ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها :

(أ) ان طبقات المجتمع الجديد الذي فرض نفسه على أنقاض المجتمع القديم في أمريكا اللاتينية بنمطيها الاقطاعي والبرجوازي كانت هي أكثر ديناميكية ووعيا بمتغيرات العصر وعقلانيته ، بحكم أصولها القومية « المعقلنة» القادمة من أوربا والمشبعة بالتطلعات السياسية والاقتصادية والعلمية المختلفة ، الأمر الذي حال أو حد على الأصح من ظهور فئة المثقفين كفئة أكثر علما وعقلانية ووعيا بالنسبة لأصولهم الطبقية بمسافات لا تدرك على نحو ما

حدث في آسيا وأفريقيا ، حيث كان يحتل من يجيد القراءة والكتابة مركزا مرموقا وأكبر من حجمه بكثير بين ألوف الأميين من أبناء طبقته أو مجتمعه ككل ، الأمر الذى أدى الى الحد نسبيا من غرور هذه الفئة فى أمريكا اللاتينية وجنبها الى حد ما الوقوع فيما وقعت فيه مثيلاتها فى آسيا وأفريقيا وبحدود نسبية طبعا • حيث ظل الوعى الطبقى سياسيا واقتصاديا هو صمام الأمن الى حد ما فى حياة هذه الفئة •

(ب) ان الاستقلال الذى حصلت عليه هذه المجتمعات لم يكن استقلالا اجتماعيا وقوميا ، بمعنى استقلال مجتمع من سيطرة مجتمع آخر أو أمة من سيطرة أمة وقومية أخرى ، بحيث يقتضى استثارة وحفز المشـاعر القومية والنضالية من خلالها للحصول على مثل هذا الاستقلال ، وحيث يجد المثقفون عادة فرصتهم الذهبية لتصدر الأحداث وتحريكها ، كما حدث فى معظم بلدان آسيا وشرق وشمال أفريقيا ، بل لقد كان أستقلال مجتمعات أمريكا اللاتينية من السيطرة الأوربية هو أشبه ما يكون بالاستقلال الذاتى من الادارة والتبعية المركزية فى نطاق الأمة الواحدة ، مع الاحتفاظ بكل المكونات الاجتماعيـة والثقافية والسياسية ، الأمر الذى قلل من أهمية دور فئة المثقفين فى مسألة النضال من أجل الاستقلال والحصول عليه • وكانت أهميته أكبر بالنسبة للطبقات الاقطاعية والبرجوازية ومؤسساتها السياسية والاقتصاديـة التى خفت تبعيتها وخضوعها للاشراف والرقابة المبـاشرة لمراكز الامبراطوريات الاستعمارية فى أوربا •

(جـ) ان العاملين الأساسيين السابقين قد أديا الى قوة ارتباط المثقفين بطبقاتهم الاجتماعية بحكم الانحدار الاجتماعى والانتماء السياسى فى الغالب الأعم ، الأمر الذى عزز مواقع هذه الطبقات وفكرها ومصالحها وتناقضاتهـا السياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضا ، وقيام المثقفين فى هذه المنطقة من البلدان النامية أو ما صار يعرف ببلدان العالم الثالث بمهمة هى أقرب الى طبيعتهم ودورهم التاريخى الصحيح كادوات تعبيرية عن كل المصالح الطبقية المتناقضة فى المجتمع بأصدق ما يكون التعبير كما يقول لينين ، اذا ما قورنوا بأمثالهم فى آسيا وأفريقيا حتى الآنن • وهو الأمـــر الذى يفسر لنا أيضا
بأمثالهم فى آسيا وأفريقيا حتى الآن • وهو الأمر الذى يفسر لنـــا أيضا
تأسس بها المجتمع منذ زمن طـــويل ، كما يفسر لنا فى الوقت نفسه دلالة النضج المتقدم والواعى للطبقات العاملة وتماسكها وتنامى فاعليتها السياسية والاجتماعية والنضالية فى المراحل الأخيرة ، اذا ما قورنت بغيرها فى آسيا وأفريقيا ، وربما تستطيع كل الدلالات الســـابقة أيضا أن تفسر لنا كل مؤشرات النمو الاقتصادى والاجتماعى التى تتقدم بهما هذه المجتمعات اذا ما قورنت بمثيلاتها فى آسيا وأفريقيا أيضا •

القسم الثانى

المثقفون المعاصرون في المجتمع اليمني

الفصل الرابع

معالم البناء الطبقي في المجتمع اليمني

قبل الدخول في تحليل موضوع فئة المثقفين في المجتمع اليمني كنموذج بارز لأوضاع مثقفي البلدان النامية والمتخلفة بتحليل أكثر عمقا في الفصول القادمة من هذا القسم سنتناول أولا في هذا الفصل تحليل البنـاء الطبقي في المجتمع اليمني بصفة عامة ، وذلك حتى نستطيع أن نحلل في ضوء ذلك أوضاع فئة المثقفين بوضوح أكثر • فنحن ندرك أن القاعدة العلمية المطلقة التي تحكم أوضاع أي مجتمع طبقي وفي أي مرحلة من مراحل تطور هـــذا المجتمع هي انقسامه عادة الى أقلية طبقية مسيطرة ومستغلة وأغلبية عـامة مضطهدة ومستغلة ، وتظل الفـروق في الكيفيات والمضـامين فروقا نسبية بالنسبة للأقلية الطبقية المسيطرة والمسيطرة عليهـا معا ، كأن تكون ذات مضمون اقطـــاعي أو برجوازي أو رأسمالي من جهة ، وأن تكون الأغلبيات الطبقية والشـــعبية ذات مضمون فلاحي في الأساس حينما تـكون الطبقة الاقطـــاعية هي المسـيطرة ، وعمـــالي بالدرجة الأولى حينمـــا تـكون الطبقة البرجوازية والرأسمالية هي المسيطرة ، وذلك وفقا لطبيعة التطور والمرحلة التاريخية التي يمر بها هذا المجتمع أو ذاك من جهة أخرى •

والفرق النسبي الآخر الذي لا يؤثر على القاعدة المطلقة السابقة ، هو أنه غالبا ما يوجد تداخل اجتماعي وتاريخي بين النماذج المختلفة للطبقات المسيطرة والمسيطر عليها ، اضافة الى بعض النتوآت والتشوها المؤقته التي قد تحجب الرؤية الحسنة لهذه الحقيقة وتعمق فاعليتها وحركتهـا الجدلية الصحيحة الى حد ما وهي تشكل ما يعرف في النظرية العلمية بالخصوصيات والمميزات الذاتية التي قد يتميز بها مجتمع عن مجتمع آخر أو أمة عن أمـة أخرى وبحدود نسبية أيضا ، وذلك على نحو ما لاحظنا في الفصل السابق عن أنماط التشوهات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الحديثة المتمايزة في كل من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والتي نجمت عن الغزو والسيطرة الاستعمارية القادمة من الخارج والطبقات والفئات الاقطاعية والكمبرادورية المتحالفة معها في الداخل •

وبناء عليه نستطيع القول بالنسبة للمجتمع اليمنى الذى نحن الآن بصدد البحث عن ملامح بنائه الاجتماعى والطبقى، نستطيع القول - بديهيا - بأنه ينقسم الى طبقات مسيطرة وطبقات مضطهدة ومسيطرة عليها من ناحية ، وان الصفة التقليدية الغالبة لمضمون هذا البناء الطبقى هو المضمون الاقطاعى للطبقة المسيطرة والفلاحى للطبقة المضطهدة من جهة ثانية ، وان متغيرات وتداخلات حديثة قد حدثت وما تزال تحدث بين هذه الطبقات التقليدية وبين نشوء طبقات جديدة ذات مضامين عمالية وبرجوازية مشوهة من جهة ثالثة، وان هناك الكثير من النتوآت والتشوهات الاجتماعية والثقافية التى ما تزال تؤثر على تحقيق الرؤية الحسنة لعلاقات المجتمع الاقتصادية والطبقية الصحيحة من جهة رابعة • وفى ضوء هذه الفروض الأربعة ومن خلالها سوف نحاول تشخيص ملامح البناء الاجتماعى والطبقى فى المجتمع اليمنى فيما يلى :

الطبقة الاقطاعية التقليدية :

لقد كانت هناك ولا تزال فى الشطر الشمالى من الوطن وفى الشطر الجنوبى أيضا حتى عهد قريب طبقة اقطاعية مسيطرة فى مقابل طبقة فلاحية مضطهدة منذ زمن طويل ، استطاعت أن تطبع قوى الانتاج وعلاقات الانتاج بطابعها الاقتصادى وايدولوجياتها السياسية والثقافية منذ ما يزيد على ألف عام ، اذا ما استثنينا بعض الظواهر المحدودة فى الزمان والمكان التى شكلت مجرد حالات رفض سياسى واجتماعى لما هو موجود ورغبة فى تحقيق ما هو أفضل منه على أساس اصلاحى ووطنى وثورى فى بعض الأحيان ، كما حدث بالنسبة لحركة على بن الفضل فى القرن الرابع الهجرى ذات النزعة الثورية والاشتراكية الواضحة ، ومن بعده بفترة من الزمن دولة الصليحيين التى أعادت تطبيق خط الجناح المعتدل للحركة نفسها بأفق أصلاحى ووطنى(١) • وما عدا ذلك فقد كانت الأحداث والتطورات دائما تعبر عن مجرد صراعات وخلافات فى اطار نفس الطبقة على فوز فرد أو عدة أفراد بأوفر نصيب ممكن من الامتيازات السياسية والاقتصادية أكثر من غيره وتكريس مصالح الطبقة ككل •

ولو أننا قمنا بمراجعة سريعة للتاريخ المعاصر لهذه الطبقة خلال المائة

---

(١) راجع سلطان أحمد عمر : نظرة فى تطور المجتمع اليمنى ، دار الطليعة ببيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ ، ص ٥٣ و ٥٤ •

عام الماضية وحتى عام ١٩٦٢ لوجدنا أن ما دار من صراع بين النفوذ التركى وبين بيت حميد الدين ، أولا ثم فيما بين بيت حميد الدين أنفسهم مع بعضهم البعض بعد انفرادهم بالسلطة أو مع بعض البيوتات الاقطاعية المنافسة من نفس الطبقة ، كبيت الوزير وبيت الأمير وبيت الأحمر ... الخ • هى خلافات على توزيع الامتيازات السياسية والاقتصادية داخل نفس الطبقة الواحدة ، نظرا لاحتكار أسرة بيت حميد الدين لمعظم هذه الامتيازات وانفراد كبيرهم الامام أحمد بها أخيرا ومن قبله الامام يحيى قرابة سبعين عاما كاملة، ولم يكن صراعا بين طبقة وأخرى ، وذلك حتى عام ١٩٦٢ حيث شكلت الثورة نقطة بداية حقيقية لتناقضات طبقية واجتماعية جديدة وحقيقية •

ولم يكن الأمر فى جنوب الوطن يختلف عنه كثيرا بالنسبة للشمال ، سواء أن الاستعمار الذى فرض نفوذه المباشرة على هذه المنطقة من الوطن فى هذه الفترة خلال القرن المنصرم بعد رحيل الاتراك قد جعل من نفسه حكما فى توزيع وتنظيم مصالح هذه الطبقة والدفاع عنها فى نفس الوقت ، الأمر الذى قلل من حدة الخلافات فيما بين أفرادها ومراكز قواهـــا ، حيث قام بتقسيم المنطقة اداريا وسياسيا الى عدة امارات ودويلات صغيرة ونصب على كل منها أميرا أو سلطانا يتصرف بالارض ومن عليها كيف يشاء ، فبدلا من أمير أو سلطان واحد فى الشمال ممثلا فى الامام أو الملك صار فى الجنوب أكثر من عشرة ما بين سلطان وأمير ، وكل المقدمات والنتائج كانت واحدة فى كل الشطرين(١) •

طبقة الفلاحين :

اننا لا نجد كبير عناء فى البحث عن ملامح هذه الطبقة الواسعة النطاق والعريقة المنبت فى مجتمعنا ، سوى الاشارة الى أنه بالاضافة الى كونها قد شكلت وما تزال دائما طبقة الأغلبية الساحقة فانها من باب أولى كانت ولم تزل تشكل التجسيد الحقيقى لوجود المجتمع وتاريخه القديم والجديد ، وان هذه الطبقة فى مجتمعنا تتمتع بكثير من المميزات والخصوصيات الايجابيـة اذا ما قورنت بغيرها فى مجتمعات أخرى عربية وغير عربية ، والتى يهمنـا الاشارة اليها هنا ، ذلك أنه بالرغم من أن هذه الطبقة التى ظل وما يزال يتكون منها غالبية المجتمع بأسره قد منيت بنماذج مختلفة من أشد نماذج

(١ مكرر) راجع عبدالفتاح اسماعيل : كتابات مختارة حول الثورة الوطنية الديمقراطية وآفاقها الاشتراكية ، دار الفارابى ببيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٢١٣ الى ٢١٦ •

التسلط الاقطاعى تخلفا وسوءا ، من أئمة ومشايخ وسلاطين وأمراء منذ زمن طويل ، ودأب هذا التسلط على فرض أسوأ نماذج الثقافة والتفكير الاقطاعى على الواقع الاجتماعى بمساعدة ودعم التسلط الاستعمارى المباشر فى جنوب الوطن ، والذى كان يبارك فى الريف ـ كما تذكر أحد وثائق الثورة الوطنية الديمقراطية ـ كل ما من شأنه ان يعمق ثقافة الاقطاع المتخلف من اساطير وخرافات تزرع الخنوع والاتكالية(٢) • الا ان هذه الطبقة الفلاحية رغم ذلك لم تصب بكسور اجتماعية أو تشوهات ثقافية ونفسية عميقة من جراء ذلك على غرار ما لاحظناه بالنسبة لأوضاع هذه الطبقة فى المجتمع المصرى مثلا •

فاذا كانت طبقة الفلاحين فى المجتمع اليمنى قد اضطرت مختـارة وغير مختارة للاستسلام السياسى والاقتصادى الى حد كبـير والثقافى الى حد ما لطبقة الاقطاع منذ زمن طويل الا أنها ـ حقيقة ـ لم تستسلم وجدانيا ونفسيا وثقافيا بصفة عامة ، حيث كانت ولم تزل تمتلك الوعى بذاتها والاحساس بالظلم الواقع عليها ، وقادرة على ممارسة الرفض الاجتمـاعى بصفة دائمة والرفض السياسى المباشر من وقت لآخر • ان هذه الطبقة رغم كل ما لحق بها من ألوان القهر والظلم والتجهيل والتضليل لم تفقد يوما زمام المبـادرة الاجتماعية والنفسية والمعنوية على الأقل تجاه نفسها ، ناهيك عن المبـارات الاقتصادية والسياسية أيضا ، ولم تفقد شيئا من مقومات الاعتزاز بالنفس تجاه الطبقية الاقطاعية المسيطرة •

وذلك هو الأمر الذى حال دون تغلغل الثقافة والفكر الاقطاعى بـكل دلالاته الميتافيزيقية والخرافية والأسطورية المنحرفة فى أعماق هذه الطبقة وفى واقع المجتمع القومى بصفة عامة ، على غرار ما حدث فى بعض المجتمعات العربية والاسلامية ، كمصر مثلا حيث يحج آلاف من البشر يوميا ومئـات الآلاف سنويا الى مقابر موتاهم وأضرحة بعض الأشخاص الوهميين كالسيد الحسين والسيدة زينب فى القاهرة ، والسيد البدوى فى طنطا وأبوالعباس المرسى فى الاسكندرية ومئات وآلاف غيرهم أقل شهرة فى كل منطقة تقريبا من أرض وادى النيـــل ، لكى يشكون اليهم حزنهم وشقائهم ومشـاكلهم ويطلبون منهم البركة والرحمة والحل والعدل الذى افتقدوه والذى لن يأتى بهذه الطريقة(٣) •

---

(٢) الثورة الوطنية الديمقراطية فى اليمن (سلسلة وثائق) دار ابن خلدون ببيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٢ ، ص ٢٦ •

(٢٣) راجع د• سيد عويس : حديث عن الثقافة ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقـاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٤٤ و ٤٥ •

وكذلك ما يحدث دائما وعلى مدار العام فى النجف وكربلاء فى العراق ، وما يشبهه فى ايران وبعض مناطق الخليج العربى والباكستان .. الخ .

حيث لم تنجح الطبقات الاقطاعية فى اليمن فى تكريس ثقافة وفكر بهذه الدرجة الحادة ، أو جعلها تغترب بحياتها بهذا الشكل الباثيولوجى اقطاعى من هذا الطراز فى وجدان الطبقة الفلاحية والواقع الاجتماعى ككل المرضى ، اذا ما استثنينا بعض الظواهر الجزئية المحدودة ، أو ما يتصل بهذه الدرجة الحادة ، أو جعلها تغترب بحياتها بهذا الشكل الباتيولوجى بفكرة التمييز السلالى لمن كانوا يسمون أنفسهم « بالسادة » وادعاء انتسابهم الى الرسول ومطالبة المجتمع بموجب هذا الادعاء « الفاسد علميا » بالعديد من الامتيازات الأرستقراطية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والواجبة الأداء والمراعاة « دينيا » والتى من بينها تحريم تزويج بناتهم لمن لا يتمتع بشرف هذا النسب الوهمى(٣) .

وبالرغم مما كانت قد وصلت اليه هذه الظاهرة من السعة والانتشار المعزز بالسلطة السياسية لبيت حميد الدين الا أنها قد بدأت بالانهيار السريع بصفة تلقائية بعد ثورة عام ١٩٦٢ ، وتميل اليوم الى أن تصبح موضع سخرية اجتماعية تماما ، رغم أنه ما يزال هناك من يؤمن بها ويدافع عنها ويطبقها ولو بصورة غير مباشرة من كلا الطرفين بوعى أو بدونه .

خلاصة الأمر أن الطبقة الاقطاعية فى المجتمع اليمنى اذا كانت قد نجحت فعلا فى فرض سلطتها السياسية واستغلالها الاقتصادى لفترة طويلة على طبقة الفلاحين وعلى المجتمع بصفة عامة الا أنها لم تنجح كثيرا فى توطيد فكرها وثقافتها بنفس الدرجة رغم محاولاتها اليائسة والمستميتة. كما أن هذه الظاهرة والخاصية شبه المتميزة بالمبادرة الايجابية وعدم الاستسلام المطلق والانصياع للميتافيزيقيات لدى الطبقة الفلاحية فى المجتمع اليمنى بصفة عامة ، والتى يمكن اعتبارها ميزة وخصوصية ذاتية يتميز بها

(٣ مكرر) لابد وأن نلاحظ أن هذه الفكرة المتعلقة بدعوى الانتماء السلالى وغيرها من مجمل الأفكار الاقطاعية والاستعمارية التى تؤمن بالتفرقة والتمييز العنصرى والسلالى . قد أصبحت من الأمور التى لا يقرها العلم ولا يدعمها الواقع ، وفكرة الانتماء لعلى بن أبى طالب التى انتشرت فى العالم الاسلامى هى واحدة من هذه الأفكار الموروثة والخاطئة ، لأن أساس الرابطة التى جمعت بين من ينسبوا لأنفسهم هذا الادعاء الفاسد هى رابطة سياسية وطبقية فى الأساس ، بدأت فى عهد على بداية راديكالية ووطنية لمعارضة السلطة الأموية ، وتحولت من بعده الى ظاهرة مرضية ومنحرفة تقوم على الخرافة .

المجتمع اليمني عن كثير من المجتمعات الى حد ما ، هذه الظاهرة لم تكن محكومة بالصدفة والتلقائية التى تفتقر الى التفسير العلمى ، بل انها ترتكز فى الأساس على أسباب تاريخية وحضارية وعوامل اقتصادية وجغرافية وبيئية ونفسية ضاربة الأعماق والجذور فى الواقع الاقتصادى والجغرافى والتاريخى منذ المراحل الأولى التى عرف فيها المجتمع نفسه على هذه الرقعة من الأرض(٤) ٠

البرجوازية الطفيلية :

النشوء البرجوازى فى المجتمع اليمنى هو نشوء حديث شأنه فى ذلك شأن معظم مجتمعات البلدان النامية والمتخلفة ولا تتعدى بذوره الأولى بالنسبة لليمن المائة عام المنصرمة ، والمرتبط أساسا بنشاط التجارة والاحتكارات الرأسمالية الدولية فى ظل السيطرة والنفوذ الاستعمارى ، وبالرغم من التعارف الشائع لتسمية هذا النشوء الطفيلى « بالبرجوازية كمفهوم طبقى » الا أن مثل هذا المفهوم فى تقديرنا على الأقل مشكوك فيه الى حد كبير ولا ينطبق على المفهوم والتعريف العلمى للطبقة البرجوازية التى عرفتها أوروبا منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى آخره ، وربما يكون اطلاق مصطلح ومفهوم « الكمبرادور » الذى يعنى بالعربية الوسيط أو أداة النقل والتوصيل الذى بدأ يشيع حديثا ، هو أكثر صوابا واقترابا من الموضوعية ، لأن انغراس الرأسمالية الدولية فى البلدان النامية والمتخلفة قد حال حتى الآن دون أية امكانية لنشوء طبقة برجوازية حقيقية فى هذه البلدان منذ زمن بعيد وحطم كل مقومات امكانية وجودها بسهولة ، وخلق فى الوقت نفسه هذه التشوات أو الفئات والشرائح الطفيلية التجارية المتكاملة مع الاحتكارات الرأسمالية الدولية والمرتبطة بها ١٠٠٪ ، والتى نطلق عليها غالبا اسم « البرجوازية » ، وأحيانا « الكمبرادورية » ، وذلك كبديل مشوه ومعوق لامكانية نشوء طبقة برجوازية حقيقية بالمعنى العلمى والتاريخى ٠

لقد رغبنا فى ايراد هذا المفهوم هنا بايجاز حتى لا يتبادر الى ذهن القارىء العزيز ونحن نتحدث عن ما نطلق عليه ولو مجازا « البرجوازية الطفيلية » فى مجتمعنا اليمنى بأننا نتحدث عن طبقة برجوازية حقيقية بالمعنى العلمى ، بل اننا بصدد الحديث عن شرائح وفئات كمبرادورية

---

(٤) يمكن العودة الى مزيد من التفاصيل حول هذه النقطة ومعرفة دلالاتها الى كتابنا التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، وبالذات الفصل الثامن ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ١٩٨٠ ٠

وطفيلية مرتبطة بالخارج ومقطوعة الصـلة الاقتصادية والوطنية أيضـا بالداخل ٠

فهذه الفئات التجارية الطفيلية قد وجدت في مدينة عدن بالذات منذ وقت مبكر ، ومنذ اللحظة الأولى لفرض السيطرة الاستعمارية البريطانية المباشرة على المنطقة منذ أكثر من مائة وأربعين عاما ضمن تخطيط مسبق من قبل الادارة الاستعمارية ، أساسه التركيز على جعل مدينة عدن محطة خدمات نشطة ذات أغراض وأبعاد محددة سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، حيث تمثل البعد السياسى فى فرض الهيمنة المباشرة على منطقة من أشد مناطق العالم اثارة وحيوية قديما وحديثا ، بالتحكم فى مدخل البحر الأحمر وممرات العبور البحرى القديم والجديد بين الشرق والغرب من خلال السيطرة على هذه المنطقة ، كما أن البعد الاستراتيجى العسكرى للمنطقة قد جاء انعكاسا للبعد السياسى ، حيث جعلت بريطانيا من هذه المنطقة بعد أن بنت فيها أضخم قاعدة عسكرية لها فيما وراء البحار ما يشبه برج المراقبة الذى يحرس ويدافع عن كل مصالح الامبراطورية فى الشرق بأسره والتى لم تكن لتغيب عنها الشمس كما يقال(٤) ٠

أما البعد الاقتصادى وهو الأهم بالنسبة لموضوع بحثنا وما نرمى الى تحليله بتفصيل أكثر فى هذه النقطة فقد تمثل أولا : فى جعل مدينة عدن وميناءها الاستراتيجى الدولى محطة عالمية لخدمات الشحن والتفريغ والتموين والصيانة للأساطيل البحرية التجارية والعسكرية الغربية التى تضاعفت حركتها عشرات المرات بين الشرق والغرب خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وتمثل ثانيا : فى جعل المدينة أشبه بمركز تموين تجارى ضخم لتزويد كل مناطق الداخل فى الشمال والجنوب على السواء بمختلف السلع الصناعية الاستهلاكية التجارية المستوردة من جهة والحصول على بعض المحاصيل الزراعية والمواد الأولية التى يحتاجها جنود القاعدة البريطانية فى عدن أو غيرها من مناطق النفوذ البريطانى فى مناطق آسيا وافريقيا وأسواق أوربا نفسها ٠

وهنا ومن واقع هذه القضية نشأت وتطورت شريحة برجوازية تجارية وكمبرادورية طفيلية يمنية وغير يمنية فى مدينة عدن وحدها ، نذرت نفسها للقيام بعملية استقبال السلع الاستهلاكية المصنعة فى الغرب والقيام بنقلها

(٤ مكرر) راجع بصفة عامة حول هذا الموضوع فردهولايد : الصراع السياسى فى الجزيرة العربية ، دار ابن خلدون ، بيروت ، ترجمة حازم صاغيه وسعد محيو ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٨ الى ١١٤ ٠

وتوزيعها الى كل منـــاطق الداخل على مستوى الشمال والجنوب خـــدمة للشركات والوكالات التجـــارية الأجنبية المركزة فى الخارج ومن خـــلال فروعها فى مدينة عدن ٠ ولقد استطاعت هــــذه الشريحة أن تجنى أرباحا هامشية لا بأس بها من جراء عمليات التوزيع والسمسرة والوساطة والمرابا‌ة وتكرار عمليات بيع السلعة الواحدة أكثر من مرة قبل وصولها الى المستهلك فى أعماق المناطق الحضرية والريفية فى الداخل ، كما استطاعت من خلال كل ذلك أيضـــا وبمرور الوقت أن تجعل من نفسهـا ظاهرة اجتمـــاعية واقتصـــادية ذات دلالات طبقية برجوازية مليئة بالتشـــوهات الاقتصـــادية والاجتماعية على مستوى الشمال والجنوب ، نظرا لازتباطها الكامل بالشركات والاحتكارات التجارية الدولية ١٠٠٪ وانحصار نشاطها كمجرد حلقة أخيرة فى سلسلة النشاط الاقتصادى والتجارى لتلك الاحتكارات ، اضـــافة الى انقطاع كل صلة اقتصادية لهذا النشوء الطبقى البرجوازى المشوهة بالأوضاع الاقتصادية التقـــليدية فى الداخل من استثمار زراعى أو صناعى أو غيره ، متخذا من مدينة عـــدن مرتكزه الأســـاسى وموقع انطلاقه الوحيد فى اتجـــاه الداخل والخارج معا ٠

وبالرغم من أن النفوذ السياسى المباشر للادارة الاستعمارية لم يمتـــد الى معظم مناطق الداخل فى الوسط والشمال واقتصر على مناطق الجنوب ، الا أن كل الحسابات السياسية والاقتصادية بالذات كانت قد وضعت سلفا بالنسبة لمدينة عدن بحيث تؤدى أغراضها الاقتصادية كاملة كمحطة لتموين مناطق الداخل بأكملها شمالا وجنوبا بالسلع التجارية الاستهلاكية منذ زمن بعيد ، فلقد كانت مدينة عدن هى المحطة الرئيسية لنشاط العمالة والتجارة لكل اليمنيين حيث لم يلجأ أى من الادارة الاستعمارية فى الجنوب أو الأمام فى الشمال الى اتخاذ أى اجراءات سياسية أو ادارية من آى نوع للحد من انتقال الأفراد بين صنعاء وتعز وعدن أو آى منطقة أخـــرى ، حيث لم يطبق أى نوع من بطاقات المرور أو جوازات السفر أو غيرها ما عدا بعض التحريات السياسية والضرائب الجمركية فى نقاط العبور ، بل لقد كان أبناء المناطق الداخلية فى جنوب الوطن يجدون صعوبة أكثر فى الوصـــول الى هـــذه المدينة بسبب تعدد الامارات والسلطانات الاقطـــاعية المنفصلة عن بعضها ووجود نقـــاط حدود وعبور بين كل منهـــا تقتضى الرقابة والتفتيش ودفع الضرائب والمكوس الاقطـــاعية عنـــد العبور من سلطنة لاخـــرى لصـــالح الاستعمار والسلطات المحلية للسلاطين والأمراء(٥) ٠

---

(٥) المرجع السابق ، ص ١١٤ الى ١١٨ ٠

ولقد تمثلت سياسة العزل بين مدينة عدن وكل مناطق الداخل شمالا وجنوبا فى قصر كل هذه الخدمات التجارية والمصرفية والبريدية وغيرها على هذه المدينة فقط دون سوها من منـاطق الداخل فى الجنوب والشمال التى حافظ كل من الاستعمار والامام على أوضاعها التقليدية وعزلتها عن العـالم الى حد كبير من جهة وابراز هذه المدينة (مدينة عدن) بما توفر فيها من حالة انتعاش وخدمات مختلفة كنتيجة وضرورة لازمة لكل المقـدمات السـابقة ، وكما لو كانت مدينة خارج الحـــدود اليمنية تماما وذات سمات اقتصادية واجتماعية متميزة الى حد كبير(٥) ٠

نشوء الطبقة العـاملة الحديثة

اذا كانت البـــذرة الأولى للنشـوء البرجوازى الحـديث قد انطلقت من مدينة عدن على نحو ما سبق ملاحظته ، فان البذور الأولى لنشوء الطبقة العاملة اليمنية الحديثة قد بدأت كذلك فى هذه المدينة أيضا كنتيجة حتمية ومنطقية لـكل التحولات التى طرأت على هـــذه المدينة وضواحيها فى ظل الادارة الاستعمارية البريطانية طوال قرن ونيف من الزمن ، وذلك نتيجة لافتقار هذه الادارة واحتياجها لقطاع واسع من اليد العاملة لتغطية مختلف الخدمات اللازمة لعمليـات الشحن والتفـريغ والتموين البحرى فى مينـــاء عدن ، ومعامل تكرير البترول التى أقيمت فى المنطقة لنفس الغرض ، اضافة الى متطلبات القاعدة العسكرية البريطانية الضخمة من جهة والادارة المدنية الاستعمارية من جهة أخرى لقطـاع واسع من المستخدمين الدائمين ، وغير الدائمين ، ناهيك عما شكلته المؤسسات والوكالات التجارية الأجنبية داخل المدينة وضواحيها من مراكز جـــذب واسعة لليد العـــاملة اليمنية المتوفرة والرخيصة التى وفدت من مختلف مناطق اليمن للقيام بمختلف الأعمـــال الخدمية والانشائية والتجارية من نقل وتفـــريغ وتخزين وصيانة وتوزيع وبناء ٠٠ الخ بكثافة عالية ٠

حيث تكون من خلال فاعلية هذه العوامل مجتمعة قطاع واسع النطاق من العمال والمستخدمين البسطاء الذين وفدوا بمفردهم من مختلف منـاطق

(٥ مكرر) اننا مانزال نذكر جيدا حينما كان أى مواطن يمنى من صعدة وحتى حضرموت اذا أراد أن يراسل ابنـــه أو قريبه فى المهجر فى أوربا ـ أمريكا ـ الحبشة ـ السـودان ـ جنوب شرق آسيا والوطن العربى نفسه وغيرها من مناطق العالم التى ينتشر فيهـــا اليمنيون منذ زمن طويل وحتى اليوم فان عليه أن يذهب الى مدينة عـــدن أولا ليتمكن من مراسلتهم وتلقى ارسالياتهم أو الذهاب اليهم أو استقبالهم ٠٠ الخ ٠

اليمن بلا استثناء ، وهنـــا نود أن نؤكد حقيقة بديهية ربما غاب أو أسيء فهمها لدى البعض بحسن نية أو بدونها ، وهي أنه اذا كانت هـذه المدينة قد استقبلت منذ وقت مبكر أفراد عاديين من مختلف منـــاطق اليمن ذوى أصـــول فلاحيـــة وحرفيـــة وتجـــارية محـــلية قديمة ، وتحولوا في ظل الادارة الاستعمارية وتشجيعهـــا الى شريحة برجوازية كمبرادورية حديثـــة نشطة ، عمقت بذورها داخل هـــذه المدينة وحدها ، ومدت نشاطها الى كل مدينة وقرية فى مدن وقرى الوطن اليمني بأسره على نحو ما سبقت الاشارة ، فان نشوء البـــذور الأولى للطبقة العاملة اليمنية الحديثة قد نبتت أيضـــا فى هذه المدينة بنفس الطريقة ولنفس الأسباب وبكم وكيف أكثر اتســـاعا وحيوية بالنسبة لهذه الطبقة التى كانت هى أكثر ارتباطا بأعماق القـــرية اليمنية والريف اليمنى كله وتعبـــيرا عنـــه الى حد كبير(٦) حيث ظل ألوف هؤلاء العمال يعيشون حياة مزدوجة ، فهم نصف عمال ونصف فلاحين فى ظل الادارة الاستعمارية •

ذلك أنه فى الوقت الذ كانت تحرص فيه هذه الادارة الاستعمارية كل الحرص على خلق شريحة برجوازية وكمبرادورية تجـــارية متفرغة لأعمـــال استقبال السلع التجارية المستوردة وتوزيعها الى كل قرية وربط حياة هذه الشريحة بهذه العملية الطفيلية نهائيـــا ، أو بالاحتكارات الدولية على الأصح وقطع كل صلة لها بواقع الاقتصاد القومى والوطنى ، الا أن هـــذه الادارة كانت تقوم بعملية عكسية تماما بالنسبة للطبقة العاملة •

حيث كانت تعمل دائما وبكل الوسائل على الحد من وجود طبقة عاملة منقطعة عن الريف ومرتبطة بمواقع العمل ارتباطا دائما فى هذه المدينة التى اتسع حجمها وخدماتها المحلية والدولية ، حيث كانت كل الاجراءات الخاصة بطريقة الاستخدام المؤقت والموسمى وعدم ربط العمـــال بعقود عمل طويلة المدى وحقهم المباح فى ترك العمل فى أى وقت يشاءون مهما كانت صفة هذا العمل ، اضافة الى معـــدل الأجور المنخفضة جـــدا وظروف السكن الرديئة فى صناديق الصفيح وأنقاض الخشب والدكاكين الصغيرة وفراغات العـــراء الطلق مباشرة ، وعـــدم وجود أية ضمانات صحية واجتمـــاعية أو تأمينات اجتماعية كافية ، كل ذلك قد أدى بصورة مباشرة وغير مباشرة الى عـــدم استقرار العمال فى المدينة وارتباطهم الدائم بمواقع العمل من جهة واستحالة قدرتهم على اصطحاب عائلاتهم للاقامة معهم فى مناطق العمل من جهة أخرى ، وهو الأمر الذى كان يضطرهم بصورة مباشرة وغير مباشرة الى ممارسة العمل الموسمى ، المؤقت ، مختارين وغير مختارين ، وجعل مسألة العمالة فى هذه

---

(٦) راجع فردهولايد : الصراع السياسى فى الجزيرة العربية ، ص ١٣٩ •

المدينة دائما مسألة هامشية تماما فى حياة القائمين بهـا ، وذات أهمية اقتصادية ـ اجتماعية من الدرجة الثانية والثالثة بالنسبة لأساس وجودهم الحقيقى كفلاحين فى القرى والمناطق الريفية أو حرفيين ومستخدمين فى الأعمال الزراعية والمناطق الحضرية القديمة فى الداخل .

ولقد دأبت الادارة الاستعمارية على تكريس هـذه الوضعية الهامشية المشوهة لأوضاع اليد العاملة فى المنطقة والحيلولة دون استقرارها وارتباطها الدائم بمـكان العمل ، حتى لا ينفصل هؤلاء العمـال عن أصولهم الريفية ويشكلون نواة الطبقة العاملة المستقرة ذات ملامح وأبعاد سياسية واجتماعية واقتصادية محددة ، لأن من شأن مثل هذا الأمر لو حدث آن يثير الكثير من المتاعب للسلطات الاستعمارية وحلفائها الكمبرادوريين المتطفلين ويؤدى الى الحد من استغلالهم لهؤلاء العمال من جهة ، واثارة الوعى الوطنى والتحررى من جهة ثانية ، لا بالنسبة للاحتلال الأجنبى فحسب بل وبالنسبة لركائزه الاقطاعية القديمة من جهة وسماسرته « البرجوازيين والكمبرادوريين المرابين الجدد » من جهة أخرى .

ذلك أن الاحتفاظ بتوازن الوضع الهامشى لألوف هؤلاء العمال اليمنيين الذين ظلوا يتدفقون على هذه المدينة بين وقت وآخر قد حقق ثلاث نتـائج هـامة فى خـدمة الادارة الاستعمارية وحلفـائها الاقطـاعيين فى الريف والبرجوازيين الطفيليين فى المدينة ، وتتمثل هذه النتائج فى : خلق سوق رائجة لليد العاملة اليمنية لتلبية كل الخدمات والمنـافع التى كان يتطلبها هذا التحالف الثـلاثى من جهة ، والحيلولة دون تحولهم الى طبقـة عاملة مستقرة يمكن أن تتحـول بطبيعتها الى تيار سياسى وطنى لمناهضة هـذا التحالف الثلاثى المستغل لهـذه الطبقة وللمجتمع بأسره من جهة ثانية ، ثم خلق ثغرة ونقطة ضعف خطيرة فى أوسـاط الطبقة الفلاحية فى الريف من خلال تهميش هذا القطاع الواسع من قوتها المنتجة الذى لم يعـد يقوى على الاعتماد فى عيشه على الأرض الزراعية من جهة ثالثة .

وهذه السياسة الاستعمارية التى جعلت من مدينة عـدن وضواحيها تؤدى كل هذه المهام والوظائف المضرة والمشوهة لأوضـاع المجتمع بأسره شمالا وجنـوبا سياسيا واقتصـاديا واجتماعيـا لم تكن حـالة استثنائية للسياسة الاستعمارية تخص اليمن وحدها ، ولكنها لا تعدوا أن تكون حلقة حادة من سلسلة طويلة من مبدأ سياسى واقتصادى عام مارسته كل القوى الاستعمارية فى آسيا وافريقيا وأمريـكا اللاتينية ، كما سبق وأن أوضحنا فى فصل سابق ، حيث لم تكن عـدن لتختلف فى وظيفتها بالنسبة لليمن

عن بيروت بالنسبة لمنطقة الشام ، وهونج كونج بالنسبة للصين والمناطق المجاورة ، اضافة الى الكثير من المناطق الحضرية فى الموانىء ومناطق التعدين وزراعات التصدير المنتشرة بكثرة فى افريقيا ، والتى كانت الادارة الاستعمارية تقوم بفصل مثل هذه المناطق الضيقة عن الوطن الأم لكى يقوم بمثل هذه المهام المحددة والمفيدة للادارة الاستعمارية والمضرة جدا بالأوضاع الوطنية للمجتمع الأصلى ٠

ومع ذلك وبالرغم من كل المحاولات المستميتة للادارة الاستعمارية وحلفائها للحيلولة دون تكون بذور طبقة عمالية يمنية حديثة فى عدن ، الا أن تلك المحاولات لم تؤدى كل النتائج التى استهدفتها بالنسبة لهذه القضية ، ذلك أن الاستراتيجية العسكرية والسياسية والاقتصادية التى لعبتها المنطقة بحكم موقعها الهام بالنسبة للمصالح الاستعمارية المحلية والدولية قد فرضت على الاستعمار البريطانى أن يقيم فيها مرافق عسكرية واقتصادية برية وبحرية وجوية على درجة عالية من الأهمية والتعقيد والاتساع الذى يلبى كل الخدمات والمصالح الاستعمارية الدولية عبر المحيط الهندى وآسيا وافريقيا معا ، ابتداء باقامة ميناء عدن الدولى الضخم ومصافى البترول وانتهاء باقامة أضخم قاعدة عسكرية بريطانية فى منقطه ما وراء البحار تقريبا ، وهو الأمر الذى أدى بالضرورة الى وجود استقرار نسبى لقطاع محدود على الأقل من مئات وألوف العمال فى المدينة وضواحيها ، ونمو قدراتهم وخبراتهم المهنية ، ووعيهم بمصالحهم الوطنية والسياسية والقومية بصورة ملحوظة ، وكنتيجة حتمية وجدلية لطبيعة هذه المتغيرات ٠

حيث لعبت هذه المجاميع الطليعية للطبقة العاملة اليمنية الحديثة أدوارا سياسية واجتماعية وقومية فعالة فى اذكاء الحس والوعى القومى فى المنطقة ومناهضة الاحتلال الأجنبى والمطالبة بالاستقلال من جهة ، ثم شاركت بفاعلية وطنية وثورية مع الأحزاب السياسية الوطنية والثورية فى حرب التحرير الشعبية التى بدأت من الريف وانتهت الى أعماق مدينة عدن نفسها ، وزاد دور هذه الطليعة الطبقية أهمية وحجمها اتساعا بعد الاستقلال وحتى اليوم ، وذلك على نحو ما سنرى من خلال الفقرة التالية التى سنناقش من خلالها المتغيرات الجديدة فى البناء الاجتماعى والطبقى لمرحلة ما بعد عام ١٩٦٢ فى المجتمع اليمنى ٠

متغيرات البناء الطبقي في اليمن بعد عام ١٩٦٢ :

ان الأوضــاع السياسية والاجتماعية والطبقية السابقة والتي ظلت ســائدة قرابة قرن ونيف من الزمن قد تعرضت لعــدة متغيرات جوهرية وأساسية خلال العشرين عاما الأخيرة ومنذ قيـام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٦٢ بالذات ، والتي يمكن ايجازها في : اتســاع دائرة الطبقة الاقطاعية ونفوذها السياسي والاجتماعي في الشمال وتقلص هــذه الدائرة ومصالحها الى حد كبير في الجنوب من جهة ، وانتقال مراكز نشاط البرجوازية والكمبرادورية التجارية من عـدن الى الحديدة وصنعاء وتعــز وتوسيع نشاطها أيضا من جهة ثانية واتساع دائرة الطبقة العاملة ونفوذها السياسي والاقتصادي في الجنوب وظهور بذور هذه الطبقة وجيوبها الأولى في مناطق الشمال من جهة ثالثة ، ثم دخــول طبقة الفلاحين في الشمال والجنوب كطرف سياسي واجتماعي فعال في كل المتغيرات والأحداث الجديدة وحتى الآن •

ونظرا لمـا لكل هذه المتغيرات الجديدة من دلالات اجتماعية وسياسية واقتصادية بالغة الأهمية فاننــا سوف نتناول كل منها بشيء من التفصيل والتحليل الضروري من خلال الفقرات الآتية :

أولا ـ اتساع دائرة الطبقة الاقطاعية في الشمال وتقلصها في الجنوب

لقد تمكنت الطبقة الاقطــاعية التقليدية في شمال الوطن من توسيع دائرتها الاجتماعية وتطوير نفوذها السياسي والاقتصــادي بصورة ملحوظة بعد سنوات قليلة من قيام الثــورة التي لم تكن بأفقها القومي والبرجوازي الوطني الصغير لتقوى على القضاء على هذه الطبقة الاقطاعية العريقة في المجتمع اليمني أو حتى مجرد الحد من طموحاتها الا لسنوات قليلة فقط بعد قيـام الثورة ، ولا تتجاوز الثــلاث سنوات الأولى وبفعل ظروف قومية ومعنوية ونفسية لا أكثر ، حيث ما كاد عام ١٩٦٧ أن ينصرم حتى كانت هذه الطبقة قد أوشكت على التخلص من كل تأزماتها النفسية والمعنــوية التي سببتها الثورة بأفقها القومي والعاطفي الحاد ، وصارت على مقربة من مواقع السلطة السياسية والتي أحكمت قبضتها عليها نهائيا بعد انقلاب الخامس من نوفمبر سنة ١٩٦٧ ، وأقصى كل المشاغبين السياسيين بالنسبة لها ، والقيام بتوزيع كل المصالح والامتيازات السياسية والاقتصادية بين أفرادها ومراكز قواها على نطاق أكثر اتساعا وشمولا •

وبذلك تحقق أعظم حلم تاريخي في حيـــاة هذه الطبقة بـكل أبعادها وتحالفاتها الأرستقراطية والقبلية والعشائرية والعقارية والسلالية ، والذى كانت تحلم به وتناضل من أجله منذ زمن طويل ، حينما كانت تناضل من أجل اسقاط الديكتاتور الاقطاعي الوحيد ممثلا في « الامام الملك » الذى كان يحتكر لنفسه كل شيء ولا يسمح لأفراد هذه الطبقة الا بالفتات التافه ، وذلك لكي تتمكن من احلال نفسها محله واعادة قسمة كل هذه المصالح والامتيازات السياسية والاقتصادية والاجتماعية قسمة أقرب الى العـــدل والمساواة بين أفرادها فقط كما سبقت الاشارة .

واستطاعت بذلك أيضـــا أن تحقق من خلال ثورة ٢٦ سبتمبر التى فجرها الخط القومي والبرجوازى الوطني الصغير ما فشلت هى في تحقيقه من خلال حركاتها السياسية عام ١٩٤٨ و ١٩٥٥ .

وبينما كانت الأحداث منذ منتصف الستينات تسير في هذا الاتجـاه في شمال الوطن كان هنـــاك اتجـاه شبه عكسي في جنوب الوطن ، حيث استطاعت تجـارب وممارسة حرب التحـرير الطويلة أن تستفز قطاعات الشعب الواسعة من فلاحين وعمـــال ومثقفين وطنيين في مواجهة سياسية وعسكرية شاملة ذات أبعاد اجتماعية وطبقية أكثر عمقا ، لا بالنسبة للمحتل الأجنبي فحسب بل وبالنسبة للتحالف الاقطاعي السلاطيني والكمبرادوري المرتبطة مصالحه بهذا الاحتلال نفسه الأمر الذى أدى الى وضع هذه الطبقة الاقطاعية في قفص الاتهام والخيـانة الوطنية تماما من أول لحظة ، وسهل امكانية تقليص نفوذها ومحاصرة مصالحها السياسية والاقتصادية أثناء حرب التحرير والقضاء عليها نهائيا بعـد الاستقلال وتعميق الخط الثورى التقدمي في السلطة .

وذلك هو المتغير الأساسي الأول الذى حدث بعد ثورة سبتمبر عام١٩٦٢ فيالشما ل وثورة الرابع عشر من أكتوبر في الجنوب وتحقيق الاستقلال ، أما اذا سؤلنـا عن كل الأسباب والعوامل المـادية والتاريخية التى أدت الى حدوث هـذا المتغير بهـذا الشـكل حتى الآن ، فان ذلـك هو ما سنتناوله في الفصل القادم الذى سنتناول فيه حدث الثورة نفسه وتحليل كل أبعاده السياسية والطبقية والقومية .

ثانيـا ـ انتقـال نشـــاط البرجوازية التجـارية من عـدن الى الحديدة وصنعاء وتعـز :

ان نفس المتغيرات والأسباب التى أثرت على أوضاع الطبقة الاقطـاعية في الشمال والجنوب على نحو ما سبقت الاشارة قد عكست نفسها بوضوح

على أوضاع النشوء الطفيلي للطبقة البرجوازية التجـارية التي ظل نشاطها مركزا ومحاصرا في مدينة عدن وحدها بفعل تخطيط مسبق من قبل الادارة الاستعمارية ، وذلك حينما تهاوت هـذه القلعة الدولية الحصينة لنشـاط الاحتكارات التجارية والامبريالية العالمية وحلفائها من الكمبرادوريين المحليين والدوليين تحت ضربات حرب التحرير الشعبية المنتصرة التي أفقدتها توازنها السياسي والاقتصادي المشوهة بصورة أكثر عمقا وفاعلية مما حدث للطبقة الاقطاعية السلاطينية في الريف ، وذلك من خلال كل الاجراءات الاشتراكية والثورية التي تمت حتى الآن ووضعت حدا نهائيا لوضع هذه المدينة اليمنية (عدن) المشوه الذي ظلت تتسم به كمجرد سوق للسمسرة وأعمال المرابات وتوزيع السلع الاسـتهلاكية الرأسماليـة المسـتوردة في كل منـاطق الداخل(٦)

فما كان من تلك الطبقة البرجوازية الطفيلية التي ترعرعت في هـذه المدينة منذ زمن بعيد الا أن شدت رحالها بسرعة في اتجـاه مناطق الشمال الداخلية (الحديدة وصنعاء وتعـز) حيث توجد مواطنها الأصلية من جهة وأسواق تجارتها المباشرة من جهة أخرى ، مستفيدة بكل المتغيرات التي تمت في شمال الوطن منذ عام ١٩٦٢ بصفة عامة وما حدث بعـد انقلاب الخامس من نوفمبر ١٩٦٧ بصفة خاصة ، والذي لم يهيىء لهذه الطبقة مجرد مكان للاتواء والحمـاية من المد الوطني والثـوري المتصاعد في الجنوب فحسب بل وتوفير منطلقات اقتصادية وسياسية لنشاطها أكثر اتساعا وربحا في أكثر من مدينة ومنطقة في الشمال بدلا من المحـاصرة التي ظلت تفرض عليهـا في الماضي داخل مدينة عدن وحدها من قبل الاستعمار والامام على السواء ، حيث تأكد - بعد انقلاب نوفمبر الرجعي - اقامة تحالف منظور وغير منظور بين الطبقة الاقطاعية التي أصبحت في قمة السلطة في صنعاء بعد عام١٩٦٧ ، وبين هذه الشرائح البرجوازية والتجـارية التي كانت قد بدأت في تأكيد وجودها كحقيقة اجتماعية واقتصادية في شمال الوطن منـذ عام ١٩٦٢ ، وأكدت هذا الوجود بعـد عام ١٩٦٧ بسرعة أكثر كطبقة برجوازية طفيلية واسعة النطاق وذات مضمون سياسي واضح مشـارك في السلطة ، بعـد أن فقدت كل مواقعها ومصالحها القديمة في الجنوب ٠

(٦ مكرر) راجع الثورة الوطنية الديمقراطية في اليمن (سلسلة وثائق) ص ٩١ -

وهنا نستطيع أن نؤكد حقيـــقة هامة وهى أن متغيرات الأحداث التى سارت فى اتجـاه سلبى بالنسبة لثـــورة السادس والعشرين من سبتمبر فى الشمال منذ منتصف الستينات لأسباب كثيرة سنتناولها فى الفصـول القادمة ، وكادت أن تفرغها من مضمونها الوطنى بعـــد انقلاب الخامس من نوفمبر ، لم تكن قد خدمت الطبقة الاقطاعية فحسب ولكنها قد فتحت أفقا جديدا لطبقة كمبرادورية طفيلية جديدة ، وأحالت هزيمتها وخسارتها فى عدن الى انتصار وربح أكبر فى صنعاء والحديدة وتعز وغيرها ، من خلال التحالف المنظور والغير منظور لهذه الطبقة مع الطبقة الاقطاعية ومشاركتها فى السلطة وتنسيق كل جهودهما وتركيزهما فى اتجـاهين رئيسيين : الأول الامعـان فى تصفية كل الجيوب والمفاهيم والتوجهات الوطنية التى كانت قد فرضتها ثورة الســادس والعشرين من سبتمبر والدأب المستميت على افــراغ كلمة « الثــورة والجمهورية » من كل مضامينهما الوطنية ، أما الاتجـاه الثـانى فهو القيام بعملية التفاف ومحاصرة للنظام الوطنى الذى بدأ يتوطد سياسيا واجتماعيا على امتداد الشطر الجنوبى من الوطن ، استعدادا للانقضاض عليه واجهاضه ، من خــلال الدعاية والتشويه السياسى وبث الفـــرقة الوطنية والاجتماعية والدينية لأبنــــاء المجتمع الواحد ودفعهم الى عمليـات الاقتتال والحرب المباشرة وغير المباشرة بين أبنـــاء البـلد الواحد ، من أجل تحقيق الأهداف الخفية السابقة ٠

ولقد وجد هـــذا التحالف الكمبرادورى والاقطاعى الرجعى والمتخلف الذى امتد على مســـتوى الشمال والجنوب فى الداخل والخـارج من أجل استكمال افراغ مفهوم الثورة والجمهورية فى الشمال من كل مضامينهما ، واســقاط النظام الوطنى فى الجنوب بعـــد عام ١٩٦٧ ، وجد له الـكثير من الأنصـــار والمؤيدين والمدعمين له بـكل الامكانيات من قبل القـــوى الاستعمارية والامبريالية العالمية ورؤس حرابهـا المتقدمة من النظم الرجعية فى المنطقة العربية المجاورة التى فشلت فى تحقيق أغراضها من خلال الحرب الملكية الجمهورية طوال الست سنوات الأولى من عمر الثورة والتى خرجت منها بخفى حنين ، فعمدت الى دعم كل المصالح السياسية والطبقية فى الداخل ذات المصلحة المباشرة فى افراغ الثورة والنظام الجمهورى من كل مضامينهما الصحيحة ، من ملكيين وجمهوريين على الســواء ، تحت علم الثـــورة واسم الجمهورية ٠

ثالثا — تعاظم دور الطبقة العاملة فى الجنوب وظهور بوادرها فى الشمال :

ان المتغيرات الجديدة التى طرأت على أوضاع الطبقة الاقطاعية والبرجوازية الكمبرادورية فى المجتمع اليمنى على نحو ما سبق قد وجدت امتدادها وتأثيرها بالنسبة للطبقة العاملة اليمنية أيضا بمقاييس لا تقل عن سابقتها ان لم تكن أكثر عمقا ودلالة ، فبعد انتصار الثورة فى جنوب الوطن وتعميق توجهها الثورى والتقدمى الاشتراكى الناجز تعاظم بفعل ذلك دور الطبقة العاملة وتبدلت أوضاعها على كل المستويات ، فانتصار الثورة ببعدها التقدمى والاشتراكى الناجز وتعميق هذا البعد أكثر فأكثر لم يؤدى الى مجرد حل مشاكل هذه الطبقة وازالة الظلم والاستغلال عنها والقضاء على تشردها وحالة التهميش الحياتى التى ظلت تعانيه فى ظل الاحتلال فحسب بل لقد شقت طريقها بعمق وحيوية نحو المشاركة فى السلطة وادارة الانتاج الاشتراكى الجديد وترسيخ ملكيته العامة من خلال مؤسساتها النقابية والسياسية المختلفة وطلائعها الثورية والتقدمية •

فلقد تمكنت الثورة من القضاء على كل أدوات وعلاقات الانتاج القديمة القائمة على اقتصاد الاستيراد السلعى والخدمات الطفيلية التابعة للخارج فى نطاق مدينة عدن وضواحيها فقط ، واستبدلتها بوسائل وعلاقات انتاجية جديدة مرتكزة على التنمية الزراعية والصناعية واستثمار الموارد المختلفة على أسس اشتراكية وعلى امتداد الوطن كله وبعيدا عن كل أشكال تبعية الاحتكارات الرأسمالية الأجنبية ، وبالتعاون البناء مع المنظومة الاشتراكية الحليف الحقيقى لتقدم وتنمية المجتمعات النامية والمتخلفة وتحررها من التبعية الرأسمالية الأوربية ، بحكم عداء هذه المنظومة للاستعمار والرأسمالية وتناقضها معها سياسيا واقتصاديا وأيديولوجيا ، الأمر الذى يجعلها تقف فى خط وجبهة نضالية واحدة ذات مصلحة مشتركة مع الدول النامية والمتخلفة فى مواجهة الاستعمار والرأسمالية من جهة وما تفرضه على هذه الدول النامية من حالة الاستغلال والتبعية من جهة أخرى •

حيث لم تؤدى كل هذه التحولات الجذرية التى تمت فى اليمن خلال الثلاثة عشر عاما الماضية بالنسبة للطبقة العاملة الى مجرد تغيير أوضاعها القديمة وتملكها لوسائل الانتاج التقليدية ومشاركتها الفعالة فى السلطة فحسب على نحو ما سبقت الاشارة بل لقد أدت الى اتساع نطاقها الكمى وتنامى قدراتها الكيفية ، حيث امتدت مظلتها الاجتماعية الى كل المناطق

والمدن الداخلية كافراز جدلي مباشر لإمتداد الاجراءات والتحولات الاشتراكية والتنموية العميقة فى هذه المناطق من جنوب الوطن التى شهدت ثورة حقيقية فى مجال الزراعة الحديثة والصناعة والتعدين والصيد .. الخ . بعد أن ظلت محاصرة ومعزولة فى مدينة عدن زمنا طويلا كما سبقت الاشارة أيضا ، والتى كانت تفد اليها بين وقت وآخر من الأرياف ثم تغادرها وكما لو كانت مدينة خارج الحدود الوطنية لليمن .

كما أن هذه التحولات لم تقض نهائيا على الارتباط الهامشى المؤقت للعمال بمواقع عملهم وانتاجهم فحسب كما كانت تخطط لذلك الادارة الاستعمارية دائما ، بل لقد صار هؤلاء العمال هم الذين يملكون هذه المواقع نفسها وكل أدواتها الانتاجية ملكية جماعية ويديرونها بأنفسهم ادارة اشتراكية وديمقراطية مباشرة .

ولقد كان لكل هذه الاجراءات والتحولات الاشتراكية والاجتماعية وغيرها وما وصلت اليه من عمق اقتصادى واجتماعي كبير أبعد الأثر فى تمكين الثورة والسلطة الوطنية فى جنوب الوطن من تصفية كل الجيوب الاقطاعية والكمبرادورية فى الداخل ، والتصدى لكل المحاولات الرجعية والامبريالية المستميتة فى عدائها للشعب اليمني بأسره وأطماعها فى النيل من ثورته وسيادته ومصالحه الوطنية والقومية العليا فى الخارج .

وعلى نطاق الشطر الشمالى من الوطن كانت مواقع الطبقة العاملة الحديثة شبه معدومة قبل عام ١٩٦٢ اذا ما استثنينا بعض التجمعات فى ميناء الحديدة الذى تم اقامته بمساعدة الاتحاد السوفيتى ، وعمال النقطة الرابعة الأمريكية لبعض المشاريع الخدمية المحدودة كالمياه وشق الطرق الترابية فى تعز ، والتى لم يكن قد امتد العمر ببعضها لأكثر من عامين أو ثلاثة قبل قيام الثورة ، وكذلك مصنع الغزل والنسيج فى صنعاء الذى أقامته جمهورية الصين الشعبية فى مطلع الستينات بعد قيام الثورة مباشرة .

أما مجمل المتغيرات التى تمت بعد قيام الثورة فقد سارت فى مجملها فى اتجاه تنشيط وتوسيع مواقع هذه الطبقة بصورة مباشرة وغير مباشرة ، من خلال اقامة بعض المشاريع الوطنية التى تبنتها الثورة والانتعاش العام والسريع لاقتصاد التجارة والخدمات خصوصا ما يتعلق بأعمال البناء والطرقات والورش وأعمال الصيانة والتجهيزات والخدمات التجارية فى النقل والشحن والتفريغ فى الموانىء والمطارات والمراكز التجارية والتى اتسعت وتضاعفت طاقتها عشرات المرات فى السنوات الأخيرة ، نظرا لانتعاش

حركة الاستيراد والاستهلاك الواسع النطاق للسلع المستوردة ، خصوصا بعد عام ١٩٦٧ وابرام المصالحة الملكية الجمهورية وتوقف الحرب من جهة وانتقال مواقع الارتكاز للطبقة البرجوازية والكمبرادورية التجارية من عدن ومن الشطر الجنوبي بأكمله واعادة توزيع نفسها في المدن الرئيسية في الشمال (الحديدة ، تعز ، صنعاء) وتصعيد نشاطها الاقتصادي بحدة أكثر في مجال التجارة والخدمات وبعض الصناعات الجزئية على نحو ما سبقت الاشارة ، الأمر الذي أدى بالضرورة الى انتعاش نسبي موازي في حياة الطبقة العاملة كما وكيفا ٠

الا أنه بالرغم من الانتعاش الكمي والكيفي لأوضاع الطبقة العاملة في كثير من المواقع في شمال الوطن ونمو وعيها السياسي والوطني منذ عام ١٩٦٢ وحتى الآن ، الا أنها ظلت وما تزال تعاني من حياة التهميش الاجتماعي بين القرية والمدينة وعدم الاستقرار والارتباط بمواقع العمل والانتاج بفعل نفس الأسباب التي كانت تعانيها في الماضي في عدن قبل الاستقلال وبفروق نسبية ، نظرا لما تقوم به شريحة البرجوازية الطفيلية والكمبرادور التجاري من عملية اضطهاد ورفض مطلق لأبسط حقوق هذه الطبقة العاملة ومطالبها الاجتماعية والقانونية ، أو حتى مجرد الاعتراف بوجود هذه الطبقة نفسه ، ومنحها حق اقامة المؤسسات النقابية الخاصة بها بأي شكل من الأشكال ، وذلك رغم وجود قانون رسمي للعمل ذي مضمون متواضع في تنظيم علاقة العمال بأصحاب الأعمال وحقهم في اقامة المؤسسات النقابية الخاصة بهم ، والذي صدر بعد قيام الثورة بفترة وجيزة وتحول بعد عام ١٩٦٧ الى مجرد حبر على ورق ، حيث يرفض أصحاب الأعمال الاعتراف بهذا القانون أو تطبيقه جملة وتفصيلا الا في حدود لا تذكر ، تجاريهم في ذلك وتتعاطف معهم السياسة العامة للدولة بوعي منها أو بدونه ٠ كما ان سياسة الباب المفتوح لهجرة الأيادي العاملة الى الخارج بالملايين منذ زمن بعيد من جهة ، وفتح باب الهجرة المضادة الى الداخل لعمال وجاليات أجنبية بكاملها أخيرا من جهة أخرى ، لم يؤدي الى المزيد من تردي أوضاع الطبقة العاملة اليمنية في الشمال وعدم استقرارها فحسب ، بل لقد عكس نفسه بصورة أكثر رداءة وسوءا على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع بصفة عامة(٦)

---

(٦) راجع بصفة عامة حمود العودي : التنمية وتجربة العمل التعاوني في اليمن ، طبعة القاهرة ١٩٧٧ ، وبالذات ص ٣١ الى ٣٧ ٠

رابعا — بروز طبقة الفلاحين وتعاظم دورها السياسى والاجتماعى :

ربما يكون أهم متغير حديث فى حياة الشعب اليمنى بصفة عامة وأبرز خصوصياته الذاتية المعاصرة هو بروز طبقة الفلاحين كطرف سياسى واجتماعى مباشرة وذا فعالية ملحوظة فى سير الأحداث والتطورات الحديثة منذ عام ١٩٦٢ وما بعدها بقليل ، فلقد شكلت هذه الطبقة خط الدفاع الأول عن الثورة والجمهورية فى الشمال ومعها قطاعات واسعة من العمال والمهاجرين الذين ينتمون اليها أصوليا فى نفس الوقت ، من خلال انخراط مجاميعها الواسعة طواعية فى الحرس الوطنى والخدمة العسكرية كجنود وضباط فى الجيش والشرطة ٠

كما شكلت هذه الطبقة العمق الحقيقى لانطلاق حرب التحرير الثورية فى جنوب الوطن ضد الاحتلال الأجنبى وحلفائه الاقطاعيين والكمبرادوريين ٠ حيث سجلت طبقة الفلاحين اليمنيين الكثير من المواقف السياسية والتاريخية التى تجاوزت بها كل الحسابات والتقديرات السياسية والاجتماعية ، والتى لم يكن أولها هو الانخراط الجماعى فى سلك الحرس الوطنى طواعية وبصورة لم يسبق لها نظير دفاعا عن الثورة والجمهورية فى الشمال فحسب ، بل لقد قامت بالدور الأساسى فى حرب التحرير فى الجنوب ، التى شكلت هذه الطبقة الأرضية الأولى لانطلاقها العسكرى وأداتها وعمقها الاستراتيجى فى احراز الانتصار الحاسم وتحقيق التحولات الاشتراكية العظيمة التى تمت حتى الآن ٠ فاذا كانت السياسة البريطانية — كما يقول فرد هولايد — قد استندت الى استخدام المناطق القبلية « المستقرة » لاخضاع العمال المناضلين فى عدن ، الا أنها قد فوجئت باندلاع لهب الثورة فى المناطق الريفية ، وزاد بالتالى الدفق الثورة فى المدينة(٧) ٠

ونستطيع القول — كما يقول عبدالفتاح اسماعيل — بأن المعركة المسلحة من أجل السلطة السياسية والاستقلال الوطنى قد انطلقت من الريف فى الأساس لتلتحم بنضال الطبقة العاملة والمثقفين الثوريين وسائر الكادحين فى المدينة الذين كانوا يؤمنون بالنضال المسلح(٧) ٠

---

(٧) فردهولايد : الصراع السياسى فى الجزيرة العربية ، ص ١٤٦ ٠

(٧ مكرر) عبد الفتاح اسماعيل : كتابات مختارة حول الثورة الوطنية الديمقراطية وآفاقها الاشتراكية ، دار الفارابى بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٢١٥ ٠

ولقد كان لهذه الطبقة دورها التاريخي كذلك في حرب السبعين يوما التى ظلت فيها صنعاء عاصمة الجمهورية والثـورية اليمنية بعـامة محاصرة من قبل فلول الملكية والرجعية ومرتزقة الامبريالية العـالمية والاستعمار ، وذلك حينما دافع أبناء هذه الطبقة من جنود وضباط وطلاب ومعهم العمال والتجار الوطنيين الصغار من أصحاب الدكاكين والورش والمطـاعم وغيرهم عن هذه العاصمة الجمهورية بصلابة حتى النصر ، بعـد أن تخلت عنها كل البؤر الاقطاعية القبلية والأرستقراطية وتجـار الحروب والسياسة ، كما تحملت هذه الطبقة أيضـا مسئولية جبهة أوسع نطاقا فى تلك اللحظات التاريخية الحاسمة من حياة الشعب اليمنى فى الدفاع عن عاصمة الثـورة والجمهورية وعن كل بقاع الوطن الحبيب ، وذلك من خلال تشكيل المقاومة الشعبية فى معظم المنـاطق الريفية والتى لعبت دورا بالغ الأهمية فى دعم مقـاومة العـاصمة ورفع معنوياتها وامدادها بالدعم المـادى والمعنـوى حتى النصـر .

كما أن المراحل اللاحقة قد أثبتت بشكل أكثر وضوحا أن الفلاح اليمنى والقرية اليمنية ليست مجرد عمق جمهورى وقومى وطنى معـادى للملكية والرجعية بكل مفاهيمها الاقطاعية والرجعية فحسب ولكنها كذلك تشكل عمقا ثوريا وتقدميا بالغ الأهمية والدلالة السياسية والاقتصـادية والاجتماعية ، طالما تجـاهله أو جهله الكثيرون على الأصح من العناصر السياسية الوطنية المثقفة بوعى منهم أو بدونه ، حتى استطاعت المتغيرات السياسية والاجتماعية اللاحقـة فى شمال الوطن بالذات أن تجبرهم على الاعتراف بهـذه الحقيقة واكتشاف أهميتها الاستراتيجية فى النضال .

والمشكلة الأساسية التى عانت منها هذه الطبقة فى كل مراحل حياتها السابقة وحتى عام ١٩٦٢ وما بعـد عام ١٩٦٢ هو افتقارها الدائم لطليعة وطنية مثقفة تنبع من أوساطها وتلتـزم بفكرها ومصـالحها وطموحاتها المختلفة . ذلك أنه بالرغم من أن متغيرات ما بعد عام ١٩٦٢ قد حطمت منذ اليوم الأول للثورة حاجز العزلة التى فرضها الأئمة فى الشمال والاستعمار فى الجنوب على هـذه الطبقة زمنا طويلا بحرمانها من التعليم أو الخروج من دائرتها الضيقة ، واستطاعت بفعل هذه المتغيرات أن تدفع بقطاع واسع من أبنائها الى ميدان التعليم والثقافة والجيش والسياسة والسلطة أيضـا بعد قيام الثورة والتى كانت محرمة عليهم ، الا أن هؤلاء الأبناء الذين تحولوا بعد وقت قصير نسبيا الى سياسيين ومثقفين بشكل ما قد انفصلوا عن هذه

الطبقة نهائيا بحثا عن انتماءات سياسية وطبقية برجوازية واقطاعية أخرى بوعي منهم أو بدونه ، ولم تستطع طبقة الفلاحين أن تسترد منهم أحدا الى صفوفها كطليعة طبقية وطنية مثقفة لقيادة هذه الطبقة والتعبير عن مصالحها وفكرها والالتزام به منذ أوائل الستينات وحتى أوائل السبعينات ، حينما بدأ هذا الاتزان المشوه يتغير فى صالح هذه الطبقة وبدأت تسترد وتمتص بعض أبنائها وغير أبنائها من المثقفين الوطنيين الى صفوفها مختارين وغير مختارين ، لأسباب سياسية وثقافية وقومية مختلفة سوف نتعرض لها بالتحليل فى الفصول القادمة حينما نتحدث عن المثقفين اليمنيين من حيث النشأة والتطور والاغتراب ثم العودة الى الأصل ٠

ولقد أدى هذا الغياب والحرمان التام لطبقة الفلاحين فى شمال الوطن بالذات بعد عام ١٩٦٢ وحتى أوائل السبعينات من مثل هذه الطليعة الوطنية الثورية المثقفة والملتزمة بمصالح هذه الطبقة وفكرها ، أدى ذلك الى وقوع هذه الطبقة ووقوع الحركة الوطنية بعامة فى مزالق خطيرة وملابسات سياسية واجتماعية كانت لها أسوأ العواقب فى أكثر من موقف ، والتى يمكن حصرها فى الآتى :

(أ) ان الافتراض الأساسى الأول الذى افترضته واستسلمت له هذه الطبقة الفلاحية العريقة فى شمال الوطن منذ اليوم الأول لقيام الثورة بحسن نية هو أنه قد أزيح عن كاهلها كل أعباء ومظالم الطبقة الاقطاعية واستغلالها وقهرها السياسى والاجتماعى ، وراحت جماهيرها تتصرف منذ اليوم الأول على هذا الأساس وبعواطف قومية ووطنية متصاعدة وصادقة ، وفى حدود وعيها وامكانياتها السياسية والذاتية التى كانت ما تزال متواضعة من حيث النضج وحسن الرؤية الواضحة ، وبحكم طبيعة الظروف والحدود الطبيعية لامكانياتها كجماهير عامة فى فهم الأحداث وتقييمها ، حيث ساعدها على ذلك ودفع بها الى أقصى حد ممكن كرهها وعدائها القديم للطبقة الاقطاعية وسلطتها السياسية المستبدة من جهة ، وما أحاط بها من ظروف نفسية ومعنوية عامة بعد قيام الثورة مباشرة ، من خلال التوجه القومى والوطنى العام محليا وعربيا الذى كانت تعكسه أجهزة الاعلام المحلية والقومية بحدة وتهور لم يسبق له مثيل من الناحية الدعائية ، رغم أن أى شىء مما كان يقال نظريا لم يكن ليوجد له أى بعد عملى على الاطلاق ، الا بما لا يتعدى نسبة واحد فى الألف ، عوضا عن أن ما كان يقال كان يتجاوز ألف مرة حقيقة ما يمكن تحقيقه فى الواقع العملى والذى لم يحقق منه الا القليل وبالطرق غير المباشرة ٠

(ب) لقد كان ذلك الافتراض الذى دخل حيز التنفيذ والفعل بالنسبة للطبقة الفلاحية هو بحق أفضل ما يمكن أن يصل اليه وعى وادراك طبقة شعبية لمصالحها واختيار مواقفها الصحيحة بكل تأكيد ، ولقد كان الافتراض الثانى والمكمل للافتراض السابق هو أن تكون هناك طليعة وطنية وثورية مثقفة من داخل هذه الطبقة أو من خارجها تلتزم بفكرها وتتبنى مصالحها والدفاع عنها بوعى وادراك علمى صحيح لكى تقوم بما يشبه رأس الحربة المتقدمة فى قيادة هذه الطبقة وتحديد المعالم الحقيقية لخط سيرها الصحيح والمنسجم مع كل طموحاتها وتطلعاتها الجديدة ، ويزيح عنها حقيقة التسلط الاقطاعى والرجعى القديم الذى كان ولا يزال يتجسد من خلال جهاز القضاء الموروث والادارة المحلية والملاكين العقاريين الكبار والمشايخ بالوراثة ٠

الا أن سوء الفهم المطبق لدى العناصر الوطنية المثقفة فى السنوات الخمس الأولى من عمر الثورة بحكم تجربتهم وخبرتهم المتواضعة وسوء تربيتهم ومفاهيمهم السياسية الخاطئة قد حال بينهم وبين أن يقوموا بمثل هذا الدور التاريخى البالغ الأهمية ، وزج بهم فى متاهات جانبية وتطلعات برجوازية صغيرة ومثالية لا مكان لهـا فى أرض الواقع ، وحتى بالنسبة لعشرات المثقفين الذين جاءوا بعد الثورة من أوساط هـذه الطبقة الفلاحية نفسها بعد أن حصلوا على قسط معين من التعليم والثقافة قد ذهبوا بعيدا عنها بحثا عن تطلعات برجوازية وانتماءات طبقية جديدة ، رغم استمرار عواطفهم وحنينهم اليها من وقت لآخر واعتقادهم بأنهم يعملون من أجلها ٠ وسيتضح هذا الأمر بتفصيل أكثر عند تناول موضوع المثقفين بالدراسة والتحليل المتعمق فى الفصول التالية ٠

(ج) وبينما كانت هذه الطبقة الفلاحية قد استسلمت لذلك الفرض المنطقى بالنسبة لها والنابع من طبيعة وجودها ووعيها ومصالحها الطبقية وتصرفت فى ضوئه منذ اليوم الأول لقيام الثورة وبمساعدة كل الظروف السياسية والقومية المحيطة وأجهزتها الدعائية التى رافقت قيام الثورة(٨) بينما كان يحدث كل هذا على المستوى الشكلى والعاطفى لا أكثر وفى حالة غياب تام للفرض المكمل لما قبله بوجود طليعة ثورية تقود هـذه الطبقة ، كان ولا يزال هناك طابورا سياسيا واجتماعيا واداريا واسع النطاق يغطى

---

(٨) راجع حمود العودى : المنظور العلمى للثقافة ، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م ، ص٢١٩ الى ٢٢٢ ٠

كل مراكز السلطة الرسمية وغير الرسمية ذات الصلة المباشرة بطبقة الفلاحين وينتمي بلحمه ودمه الى الطبقة الاقطاعية القديمة وسلطتها السياسية والرجعية ويحمل فكرها وأيديولوجيتها الحقيقية من (العمال) التابعين للحكم المحلي والحكام المحليين التابعين للقضاء والمشايخ بالوراثة ووكلاء الشريعة وغيرهم ·

حيث ظل هـذا الطابور الاقطاعي الرهيب كما هو دون أن يمسسه تغيير يذكر حتى الآن ، ظل يمارس كل صلاحياته النابعة من طبيعة وعيه ومصالحه الطبقية الاقطاعية والرجعية المتخلفة ويتجسد من خلال بقائه واستمراره الاستمرار الحقيقي لسيطرة الطبقة الاقطاعية والرجعية بمفهومها الامامي والملكي ، واطلاق سلطاتها المباشرة بصورة أكثر بشاعة في ظل الثورة والجمهورية على طبقة الفلاحين الذين حلموا بالحرية نظريا وافتقدوا ما تبقى لهم منها عمليا · وهو الأمر الذى أدى الى اصابة جماهير هذه الطبقة الواسعة النطاق بالعديد من الاحباطات المادية والمعنوية نتيجة التناقض بين ما يقال وما يفترض رسميا وما ينفذ فعليا ، وأورثها الكثير من مشاعر اليأس وعدم الثقة بحقيقة التوجه الوطني نفسه ·

(د) ان الطبقة الاقطاعية والرجعية ممثلة بهـذا الطابور السياسي والاجتماعي الواسع لم تنجح بمجرد الاحتفاظ بسيطرتها وسلطاتها التقليدية على نحو ما سبق على طبقة الفلاحين ، بل لقـد نجحت أيضا في عزل هذه الطبقة ثقافيا واجتماعيا عن كل المؤثرات والتيارات السياسية والثقافية التي كانت قد بدأت وازدهرت في المـدن عن طريق نشوء العديد من المنظمات السياسية القومية للمثقفين الوطنيين ، واستطاعت أن تعزل هذه التيارات عزلا تاما عن الطبقة الفـلاحية ، وتجعل منها شبحا مخيفا بالنسبة لهـذه الطبقة وبالنسبة للمجتمع ككل ، عن طريق التشويه والتحريف والكذب الذى يعتمد عليه فكر هذه الطبقة دائما ، حينما نجحت في الباس المفاهيم الوطنية والتقدمية والعلمية ثوبا غير ثوبها ومضمونا عكس مضمونها ، حينما تحولت الجمهورية الى كفر والاشتراكية الى اباحة الحقوق والأعراض والحرمات ، والثقافة والعلم الى الحاد وزندقة ، الى غير ذلك مما أبدعه ويبدعه دائما خيال هذه الطبقة، وطابورها الموروث هـذا في بلادنا حتى اليـوم ، والتي نجحت من خلالها في الزج بطبقة الفلاحين في مواقف مضادة لمصالحهم الحقيقية أكثر من مرة ، ابتداء من الحرب الملكية الجمهورية وحتى دعاوى واشاعات محاربة الالحاد والشيوعية ·

(هـ) ان مرارة النتائج التى ظلت تفرزها الملابسات والتداخلات السياسية والاجتماعية السابقة فى شمال الوطن منذ عام ١٩٦٢ وحتى عام ١٩٦٧ تقريبا قد أدت رغم ثمنها الفادح الى نتيجة هامة ، هى أن طبقة الفلاحين عموما التى سحقتها الأحداث قد اقتنعت بأن افتراضها الأساسى الأول اذا لم يكن خاطئا وسابقا لأوانه فانه غير كاف بالمرة ، وأن الاحتكام اليه مسألة محفوفة بالمخاطر تماما ، وبدأت حقيقة تنتقل بوعيها من مجرد العداء للملكية والرجعية بمفهومها السياسى والاسمى (الامام والملكية) الى العداء بمفهومه الاجتماعى والطبقى تماما ، وأن مجرد احلال اسم الجمهورية بدلا من الملكية والرئيس بدلا من الملك لم يعد كافيا ولا مقنعا لحل المشكلة ، كما أنه لم يكن كافيا فى أى وقت مضى لتحقيق الطموحات والتطلعات المشروعة لهذه الطبقة وللشعب اليمنى بأسره ، ان لم يكن ذلك قد إتخذ كستار لمزيد من القهر والاستغلال لهذه الطبقة وللمجتمع بأسره ٠

وبدأت هذه الطبقة بحسها الوطنى والقومى تحاكم الأوضاع الجمهورية الراهنة بعد عام ١٩٦٢ وبعد انقلاب الخامس من نوفمبر بالذات محاكمة سياسية واجتماعية نقدية مفتوحة على كل المستويات ، ابتداء من عاقل القرية وشيخها بالوراثة حتى قمة السلطة ، وبشجاعة صاحب الحق وبيقين الممارس والمجرب وثبات المؤمن بضرورة التغيير والتحول الى الأفضل ٠

(و) انه بينما كانت الطبقة الفلاحية وغيرها من جماهير الشعب المحرومة من عمال وجنود وموظفين وبرجوازية وطنية صغيرة تتماثل لمثل هذا الموقف الجديد من واقع المعاناة والتجربة منذ أواخر الستينات حتى أوائل السبعينات كانت فئة المثقفين السياسيين الوطنيين قد فقدت آخر ورقة من أوراق تصرفاتها وفهمها الخاطىء بعد انقلاب الخامس من نوفمبر ، وصارت تحت وطأة التصفية والمطاردة الاقطاعية الشرسة تبحث عن أى مأوى أو موقع قدم جديدة لكى ترسى عليها سفنها المهشمة ، وبصورة عفوية وشبه تلقائية وجد هؤلاء المثقفون الوطنيون الذين انقطعت بهم السبل وضاقت بهم الممرات التى حلموا بالعبور من خلالها الى مجدهم الجديد والموهوم ، وجدوا أن قراهم ومزارعهم وأهلهم فى الريف لم تكن هى مواقع النجاة والمحافظة على البقاء الذى صار مهددا بالنسبة لهم فحسب ، بل لقد اكتشفوا فجأة الامكانية الهائلة لهذه الطبقة فى النضال الوطنى ، وآن لديها ما هو أكثر بكثير من مجرد تقديم قوارب النجاة وضمان حق البقاء المهدد ، وأن فى مقدورهم اعتمادا عليها آن يشكلوا مواقع انطلاق سياسية ووطنية جديدة وبالغة الأهمية والدلالة كطليعة وطنية مثقفة لهذه الطبقة وغيرها من الفئات

والطبقات الاجتمـاعية المحرومة والمستغلة فى المجتمع ، والذى كاينت تفتقر اليه هذه الطبقة الفلاحية من زمن بعيد ٠

وبذلك حدث ولأول مرة أن اكتملت الدائرة المقطوعة منذ عام ١٩٦٢ بين طبقة فلاحية ذات وعى وتطلعات وطنية وثورية واضحة تفتقر الى طليعة سياسية وثورية ، وفئة من المثقفين السياسيين الوطنيين يناضلون بمفهوم خاطىء وبلا أرضية اجتمـــاعية أو طبقية محـــددة ، حيث ما لبثت الأمور أن تطورت بعد ذلك فى اتجاهها الصحيح وحتى الآن وبمقاييس من السرعة والكم والكيف فاق كل التقديرات القديمة ، والذى انعكست آثاره بوضوح على المستوى السياسى والاجتماعى بعد حركة الثالث عشر من يونيو عام١٩٧٢ وحتى الآن ٠

(ز) ان الشيء الوحيد والأساسى الذى يميز كل المتغيرات السابقة بالنسبة للطبقة الفلاحية فى شمال الوطن عما حدث فى الجنوب حتى أوائل السبعينات ، هو أن الثـــورة المسلحة ضـد الاستعمار البريطانى ببعـدها الاجتماعى والسياسى قد انطلقت من أوساط هذه الطبقة الفلاحية فى الريف أساسا ، وهو الأمر الذى ساعد الطلائع الوطنية المثقفة والطبقة الفلاحية معا على الاحتفاظ بتـــلك الدائرة حية ومكتملة دائمـــا بين الطليعة والطبقة ، ولم يسود اللبس وسوء الفهم والرؤية بينهمـا بنفس المقاييس التى حدثت فى الشمال ، رغم كل المحاولات الاقطاعية والكمبرادورية المستميتة لفصل هذه الدائرة قبل الاستقلال وبعد الاستقلال ، والتى كانوا يعرفون جيـــدا مدى خطورتها على مصـــالحهم(٨) ٠ ولهم كل الحق فى ذلك ، ولـكن كـل الظروف والمتغيرات التاريخية قد سارت حتما فى غير صالحهم وحتى هـــذه اللحظة ، وبأخطاء أقل وخطوات أسرع مما حدث فى الشمال ٠

(٨ مكرر) لقد كانت محاولات التحالف البرجوازى والكمبرادورى والاقطاعى السلاطينى فىقيادة جبهة التحرير عام ١٩٦٦ من أجل القفز الى قيادة الثورة الشعبية المسلحة بقيادة الجبهة القومية التى أوشكت على النصر والتى سبق وان قاوموها وأدانوها بالأمس ، من خلال مسرحية التوحيد الزائف مع الجبهة القومية هو ضرب من هذه المحاولات ، وكذلك محاولة الانقلاب العسكرى الفاشل بعد الاستقلال مباشرة من قبيل الجيش كمؤسسة استعمارية قديمة كان يراهن عليها الاستعمار كاحتياطى كبير بعد رحيله ، وبما فى ذلك خط قحطان الشعبى اليمينى نفسه داخل الجبهة القومية ، وسنتناول هذه الأمور بتفاصيل أكثر فى الفصول القادمة ٠

الأشكال الطبقية الهامشية

والملاحظة الأخيرة التى لابد من الاشارة اليها ونحن على وشك الانتهاء من هـذا الفصل الخاص بتحديد معالم البنـاء الطبقى فى المجتمع اليمنى هو الحديث عن بعض الفئـات والشرائح الاجتماعية الهامشية فى مظهرها والطبقية فى حقيقتها ومضمونها ، والتى غالبـا ما يثير وجودها الـكثير من الملابسات وسوء الفهم عند الكثيرين ممن لا يملكون رؤية ومنهجا علميـا صحيحا فى تفسير الواقع الاجتماعى والطبقى ، حيث غالبا ما ينظرون اليها اما باعتبارها بديلا عن الطبقات وينكرون وجود الطبقات نفسها ، أو باعتبار أنها هى بذاتها التى تجسد النظام الطبقى نفسه الذى تتعدد طبقاته بتعدد هذه الفئات والشرائح الهامشية نفسها •

وتنتشر هـذه الفئات والشرائح رأسيا من قاعدة المجتمع حتى قمته فى كل المجتمعات النامية والمتخلفة مع فـرق فى المسميات وبعض المضامين الى هذا الحد أو ذاك ، وهى تتمثل فى مجتمعنا اليمنى بما يعرف بفئة القضاة والسادة والهجر[٩] والمشـايخ بالوراثة الذين لا يملكون عقـارات واسعة والوجهاء وبعض رجال الدين الرسميين ، وجميعهم يميلون الى التكامل مع الطبقات العليا فى قمة الهـرم الاجتماعى ، يقابلهم فى قاعدة هـذا الهرم فئات هامشية أخـرى ، كالحلاقين والدواشين وأصحاب الحرف اليـدوية القديمة المتصلحة بالخدمات المنزلية والأخضور والمتسكعين وغيرهم ، والذين يميلون الى التكامل مع أشد قواعد الهرم الاجتماعى انحطاطا ، اذا لم يـكن من الناحية الاقتصادية فى الغالب فمن الناحية الاجتماعية على الأقل •

فهذه الفئات المنتشرة على نطاق واسع من مجتمعنا غالبا ما ينظر اليها من وجهة نظر مثـالية ولا علمية واقطاعية رجعية فى الأساس باعتبـارها المكونات الأسـاسية لوجود المجتمع ، وهى تستمد وجـودها واستمرارها من نظام الوراثة ومفاهيم الغيب التى نشأت لكى تكون هـكذا منـذ الأزل

---

(٩) « الهجر » بكسر الهاء وفتح الجيم هى بعض العائلات والأسر وأحيانا قرى بأكملها التى تهجر من قبل المجتمع ، بمعنى تسقط عنها الكثير من المسئوليات العامة لأعتبارات دينية واجتماعية ، فلا تلزم بدفع اتاوات وغرامات أو ضرائب مما يفرض على غيرهم فى ظروف الحرب أو السلم ، كما أنهم لا يشاركوا فى الحرب ولا يعتداء عليهم فيها ، ويعيشون عادة فى حماية القبائل والمناطق التى تجاورهم ويرجع اليهم فى بعض المسائل القضـائية والدينية أحيانا كمستشارين ويشعرون نتيجة لذلك بنوع من التميز الاجتماعى على غيرهم •

وبلا تغيير ، ولحكمة ما شاءها الخالق في خلقه لا يرقى اليها فهمنا ولا يجوز لنا أن نعترضها !! وهي حكمة سياسية وطبقية اقطاعية شاءوها لأنفسهم على الأصح ولم يشأها الله أو ينزل بها من سلطان ٠

ومن هذا المنطلق الفكرى والميتافيزيقى المعروف فى أيدلوجية الطبقة الاقطاعية دائما تصل هذه الطبقة الى انكار وجود الطبقات نفسها ومبدأ الصراع والتناقض فيما بينها وامكانية حلول بعضها محل الأخرى ٠

أما وجهة النظر الأخرى والتى تنظر الى هذه الفئات والشرائح باعتبارها تجسيدا مباشرا للنظام الطبقى فى المجتمع وترى مثلا بأن المجتمع اليمنى يتكون من عدة طبقات هى : طبقة السادة ، وطبقة القضاة ، وطبقة المشايخ ، وطبقة التجار ، وطبقة الملاكين العقاريين فى الريف ، وطبقة المتوسطين منهم ، ثم طبقة الفلاحين والأجراء فى الريف ، وطبقة العمال فى المدن ، وطبقة البروليتاريا الكادحة والرثة فى الريف والمدن على السواء والذين يدخل ضمنهم الفئات الهامشية المشار اليها آنفا فى أشد قواعد الهرم الاجتماعى انحطاطا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، من حلاقين ومزاينة وجزارين ودواشين وخدم وباعة متجولين ومتسكعين وغيرهم ٠

فان هذه الرؤية التى طرحها الأخ سلطان أحمد عمر فى كتابه « نظرة فى تطور المجتمع اليمنى بصورة مباشرة وغير مباشرة » هى رؤية مخالفة جذريا للرؤية الاقطاعية السابقة وأميل الى الرؤية العلمية الصحيحة من حيث طرحها للمفهوم الطبقى على الأقل فى تفسير الواقع الاجتماعى للمجتمع اليمنى بغض النظر عن النواقص المنهجية المخلة فى استخدام الأخ سلطان لهذه الرؤية بأسلوب شكلى مسطح وخاطىء(١٠) ٠ لأن هذه المسميات الكثيرة هى فئات هامشية ملحقة أصوليا وأيدولوجيا بطبقات رئيسية محددة فى المجتمع بصورة مباشرة وغير مباشرة ، ولو أنها أخذت باعتبارها طبقات لامتدت أرقام تعدادها عبثا الى ما لا نهاية ٠

والصحيح هو أن فئات القضاة والسلاطين والسادة والمشايخ وبعض رجال الدين المحترفين للسياسة والسلطة والجماعات الأرستقراطية المختلفة

---

(١٠) راجع سلطان أحمد عمر : نظرة فى تطور المجتمع اليمنى ، دار الطليعة بيروت عام ١٩٧٠ ، ص ١٠١ الى ١٠٨ ٠

في المجتمع يشكلون في مجموعهم مع كبار الملاك العقاريين تحالف الطبقة الاقطاعية القديمة ، وأن ما قد يلاحظ من فروق أو خلافات نسبية بين هذه الفئات والجماعات هي فروق وخلافات ثانوية لا أكثر في نطاق الطبقة الواحدة ، وترتكز على أسس اقتصادية وأيدولوجية وعقائدية واحدة لا خلاف عليها بينهم جميعا ، وأن دافع هذه الفروق والخلافات الثانوية هو اما حرص بعض أفراد هذه الطبقة على الاستئثار بأكبر قسط ممكن من الامتيازات السياسية والاجتماعية أكثر من غيرهم ، كما كان يحدث بالنسبة لفئة السادة في مقابل القضاة والمشايخ في عهد الامام ، أو حدوث العكس تماما حينما تتطلع فئة أخرى أقل حظوة ونصيبا من تلك الامتيازات الى الحصول عليها على حساب فئة أخرى ، كما حدث بالنسبة لفئة المشايخ بعد الثورة في مقابل السادة والقضاة ، فهو خلاف في الجزئيات وعلى الأنصبة وليس في الأساسيات ٠

كما أن الفئات الاجتماعية المقابلة في أسفل السلم الاجتماعي هي داخلة في حقيقتها ضمن تحالف الطبقات العمالية والفلاحية والبرجوازية الوطنية الصغيرة،فالمزاينة والأخضور والدواشين والأخدام في الريف هم جزء لا يتجزأ من طبقة الفلاحين وتتكامل كل جوانب حياتهم الاقتصادية والاجتماعية مع هذه الطبقة وترتبط بها ، كما أن ممارسي المهن والحرف اليدوية والخدمات المنزلية التقليدية (سقايين – حمالين – مفلقين – مزاينة – خدم دائمين ومؤقتين للأعراس والمناسبات والمنازل ٠٠ الخ) هم جزء لا يتجزأ من الطبقة العاملة ونواة وجودها المبكر في المدن ، وكذلك الباعة المتجولين والدلالين ومقادمة السيارات وأصحاب الصنادق والأكشاك التجارية الصغيرة والمصلحين في الأسواق العامة هم جميعا ينتمون للطبقة البرجوازية الصغيرة وبحكم تطلعاتهم وطموحاتهم على الأقل ٠

والملاحظة الأخيرة والجديرة بالاشارة اليها هي أنه غالبا ما يفتقر معظم أفراد هذه الفئات الهامشية على اختلاف مضامينها وانتماءاتها الطبقية الى الأساس الاقتصادي والمادي الذي ينسجم وينطبق مع ما أشرنا اليه من ميولهم وانتماءاتهم الطبقية فعلا ، رغم الأهمية القصوى التي يمثلها هذا العامل الاقتصادي في تحديد الوضع الطبقي الحاسم لأي فرد أو جماعة ،حيث نجد غالبا الكثير ممن يفترضون انتماءاتهم لفئة السادة أو القضاة أو المشايخ يعانون من الفقر والحرمان الاقتصادي الى حد كبير ، رغم ما أشرنا اليه من أنهم يكونون مع نظائرهم من الملاك العقاريين التحالف الواسع للطبقة الاقطاعية ٠

وهنا تكمن أهمية الاشارة الى أن هـــذه العناصر رغم فقرها الا أنهـا متشبعة الى حد كبير بفكر وأيديولوجية الطبقة الاقطاعية وثقافتها ومعتقداتها ومبدأ الانتماء الاجتماعي والسياسى اليها منذ زمن بعيد ، ويعترف لها بكل ذلك من قبل هذه الطبقة الاقطاعية ، وهي تجد فى هـــذا الانتماء الاجتماعي والثقافى والعقائدى والدينى أحيانا تعويضا نفسيا ومعنويا كبيرا عما يكون قد لحق بها من حالة الفقر الاقتصادى والمادى والاضطهاد السـياسى الفعلى بالرغم من تطلعها الشديد الى الخلاص من كل ذلك لكى تستكمل عضويتها داخل الطبقة الاقطاعية التى تنتمى اليها اجتماعيا وأيديولوجيا ونفسيا • الا أن ذلك لا يشكل الشرط الوحيد والمعوق لوجودها ضمن الطبقة الاقطاعية بمفهومها الاجتماعي والثقافى ، فهم ضمن هـــذه الطبقة حقيقة بحكم الانتماء الاجتمـاعي والفـكرى والثقـــافى وبحكم سلوكهم وممارساتهم وتصرفاتهم الاجتماعية ونوع تطلعاتهم السياسية والاقتصادية التى قد تنقصهم فى بعض الأحيان امتيازاتها الملموسة •

وهذا لا ينفى أبدا حقيقة أن هذه العناصر والفئات الهامشية والاقطاعية بفكرها وثقافتها وانتمائها الاجتماعي والمسحوقة جدا فى واقعها الاقتصـادى هى أقـــدر من غيرها على الانســلاخ عن هــذه الطبقة والتخلى عن فكرهـا وأيدولوجيتها الاقطاعية العفنة ، وتبنى مفـاهيم وأفكار وأيدولوجيات جديدة تنسجم جوهريا وطبيعة واقعهم الاقتصـــادى والاجتمـاعى ضمن الطبقـات الفلاحية والعمـالية والبروليتارية الكادحة ، لأنهـــا لا تملك أية امتيازات اقتصادية وسياسية تحول دون ذلك ، فاذا كان يتوجب على أحد أفراد الطبقة الاقطاعية من ذوى الامتيازات السياسية والملكيات العقـارية أن يتحول الى شخص وطنى وتقدمى يؤمن بفكر ومصالح الغالبية العظمى من أفراد المجتمع من العمـال والفلاحين ويكف عن استغلالهم فانه يحتـاج الى تجاوز عقبتين أو مرحلتين من التحول ، الأولى التخلى عن أفكا رومفاهيم طبقته الأصــلية وأيديولوجيتها ، والثـــانية التخلى عن امتيازاته الســياسية والاقتصــادية والاجتماعية داخل هذه الطبقة نفسها ، والثـانية هى أشق من الأولى بـكل تأكيد •

أما من لا يملكون امتيازات ســـياسية واقتصـادية ممن سبقت اليهم الاشارة فى نطاق هذه الطبقة الاقطاعية فانهم لا يحتاجون الا الى تجاوز أقل العقبتين مشقة فقط ، وهي التخلى عما لصق فى أذهانهم أو بصق فيهـا على الأصح من أفكار ومفاهيم الطبقة الاقطاعية الفاسدة جملة وتفصيلا منذ زمن

بعيد والمبنية على الطائفية والسلالية والتضليل والخرافة والارهاب الفكرى لا أكثر ٠

ففى اللحظة التى سيتمكن فيهاكل مواطن مظلوم وبائس من أن ينتزع من ذهنه الخرافة الاقطاعية التى بصقت فى رأسه بأنه قد خلق « سيدا » أو « قاضيا » أو « شريفا » أو « سلطانا » أو « حبيبا » أو « شيخا » ٠٠ الخ وأن له على الآخرين،الأقل منه شأنا ولحما ودما،حقوقا وواجبات ترقى الى درجة التقديس والطاعة التىيسنها أهل السماء على أهل الأرض ، فانهم لا يكونون بذلك قد تخلصوا من أعظم أكذوبة أودعتها الأقدار فى رءوسهم منذ زمن بعيد وخدعوا بها نفوسهم أو خدعتهم بها هذه الطبقة الاقطاعية على الأصح فحسب ، بل انهم سيكونون بذلك قد حققوا عتقهم الحقيقى من سيطرة هذه الطبقة نفسها ووضعوا أقدامهم لأول مرة على الطريق الصحيح ويشقون طريقهم فى الحياة بقدراتهم وكفاءتهم كمواطنين لا بخرافاتهم وأوهامهم المريضة عن أنفسهم وعن غيرهم ٠

والعكس بالعكس صحيح بالنسبة للفئات والعناصر الاجتماعية المقابلة الواقعة فى الهامش المتدنى للطبقات الشعبية ، والتى تشبعت منذ القدم بثقافة وأفكار الطبقة الاقطاعية المفروضة عليها والقائمة على الاحساس الاجتماعى والنفسى العميق « بالدونيه » والانحطاط المبرر والمعلل بمختلف الأساطير والادعاءات الاقطاعية والرجعية الفاسدة والمعزز بقهرها وسلطاتها السياسية والاجتماعية ضد هذه الفئات وغيرها من الطبقات الشعبية الفلاحية والعمالية ٠

فهذه الفئات هى بحكم مشاعر الغبن والاحتقار والحرمان الذى تعانيه هى أقدر على تجاوز وضعها هذا حينما تقوى على التخلص من كل الرواسب الثقافية والاجتماعية التى فرضت عليها من قبل الطبقات الاقطاعية والرجعية وتناضل ضدها ببعد طبقى وتاريخى ناضج ، وذلك اذا ما قيست بالفئات المقابلة لها فى أعلى السلم الاجتماعى والمشار إليها فى الفقرة السابقة والتى تعانى من مشاعر وعقد نفسية وثقافية اقطاعية ذات مضمون معاكس تماما ، هى التفوق والنبالة وسمو العنصر والسلالة والمكانة ٠٠ الخ ٠ رغم بؤسهم وفقرهم الشديد الذى يجعلهم حقيقة ضمن أشد الطبقات كدحا واضطهادا فى المجتمع ٠

لأنه اذا كان على الفئـات والعناصر السابقة أن تناضل لـكي تتخلص من أفكار ومفاهيم اقطـاعية ورجعية داخل ذاتهـا فرضت عليهـا للحط من كرامتهاوقيمتها الانسـانية وزيادة استغلالها وهي تكرهها أصلا ، فان الفئة الأخرى ملزمة بأن تناضل من أجل التخلص من أفكار ومفاهيم اقطاعية ورجعية فاسـدة داخل ذاتهـا أيضـا هي محببة الى نفسهـا وتمنحها بعض التعويض النفسي والمعنـوى الكاذب في مقـابل ما تعانيه من فقر وحرمان واضطهاد حقيقي ٠

الفصل الخامس

المثقفون اليمنيون : النشـأة والتطور

في الفصل السابق تناولنا بالعرض والتحليل ملامح البنـاء الاجتماعي والطبقي في المجتمع اليمني وما طرأ عليه من متغيرات معاصرة ، ونصل الآن الى البحث في أهم بند جوهري من بنود هذه الدراسة ، وهو البحث التحليلي لأوضاع المثقفين اليمنيين من حيث علاقتهم بهذا البناء ومدلولهم الموضوعي والاطار الزمني لتكوينهم المعـاصر ، وأثر البعد القومي في ذلك ، وكذلك الاطار الاجتماعي والطبقي الذيانحدروا منه ثم الأطر السياسية والأيدولوجية التي بدأوا منها وانتهوا اليها حتى الآن ، وأخيرا الحديث عن المثقفين الوطنيين منهم بالذات من حيث : ماهيتهم وأهمية دورهم في عمليات التغيير والتحول المعاصر نحو الأفضل ·

ماذا نقصد بالمثقفين اليمنيين ؟

لسنا هنا بصدد البحث والحـديث عن تعريف مستقل وقائم بذاته للمثقف اليمني أو المثقفين اليمنيين ، مقطوع الصـلة بما سـبق عرضه من تحليل وتحديد لماهية المثقف والمثقفين في بداية هـذه الدراسة بصفـة عامة ، فذلك أمر يخـرج عن حـدود الموضوعية الى ما وراء منطـق العلم وقوانينه ، وما نقصده هنا وفي هذه الفقرة بالذات هو البحث الأكثر تفصيلا وشمولا وعمقا لأوضـاع المثقفين اليمنيين والكشف عن بعض الخصوصيات الجزئية والمميزات الذاتية التي قد يتميز بها المثقفون اليمنيون المعـاصرون عن غيرهم بحدود نسبية ، والنـابعة من ظروفهم وأوضـاعهم السـياسية والاجتماعية المتميزة أيضا ، وهو أمر لا غبار عليه ومعترف به في عرف البحث العلمي والاجتماعي بلا منازعة ،واننا ونحن بصدد البحثوالتقصي لكل جوانب هذا الموضوع كهدف أساسي من أهداف هذا البحث ، نريد ببساطة في هذه الفقرة أن نرد على هذه التساؤلات : ماذا نقصد بالمثقفين اليمنيين الذين نريد الحديث عنهم كمدلول علمي وموضوعي يأخذ به كمعنى للمثقفين اليمنيين ، هل هم كل من استطاع الحصول على قسط معين من التعليم في حدود اجادة القراءة والكتابة فوق المتوسط ؟ أو هم كل من قاوم السلطة قبل عام ١٩٦٢

ومارسها بعد عام ١٩٦٢ مباشرة ؟ هل هم الذين يحكمون الآن فى قمة السلطة أم الذين يعارضون من خارجها ؟ هل هم خريجى الجامعات أم الثانوية العامة أم الكليات العسكرية ؟ هل هم الذين مارسوا ويمارسون العمل السياسى من خلال الأحزاب والمنظمات السياسية العلنية والسرية أم من خارجها ؟ أم أنهم خليط غير محدد من كل هذا وذاك ؟

فاذا جاز لنا أن نفترض أى من التساؤلات السابقة باعتباره مدلولا وتعريفا مقنعا لوجود المثقفين اليمنيين فما هو المبرر العلمى والمنطقى والموضوعى لهذا الافتراض ؟ أما اذا افترض أنهم خليط من كل هذا وذاك فما هو التعريف والاطار المحدد الذى يمكننا أن نتعرف عليهم من خلاله بدقة ونميزهم عن غيرهم ؟ مع ملاحظة عدم الوقوع فى تعارض أو تناقض مع التعريف والمدلول العلمى العام لمعنى المثقف والمثقفين الذى سبق تحليله فى بداية هذا البحث ، والذى لا بد وأن يكون كل مجهودنا مركزا فى البحث عن خصوصيات المثقف اليمنى فى ضوء ذلك المفهوم العام والشامل ومن خلاله ٠

واذا كان قد وجب علينا الآن أن نحدد بالضبط افتراضنا الخاص الذى سنأخذ به كمدلول ومدخل لتحديد ماهية المثقفين اليمنيين المعاصرين واخضاعهم للبحث والدراسة من خلاله ، فاننا من واقع المعايشة الموضوعية للواقع الاجتماعى المتغير خلال العشرين عاما الماضية نميل الى الأخذ بالانتماء للعمل السياسى المنظم وممارسته من خلال الأحزاب والمنظمات السياسية المحظورة وغير المحظورة وذلك كمقياس لتحديد الاطار الموضوعى الخاص بالمثقفين اليمنيين ، لأسباب كثيرة سنوردها بعد قليل ، علما بأننا لا نخفى أبدا ادراكنا لكل مصاعب وحساسية هذا الاختيار ومشاق البحث فيه خصوصا فى ظل ظروف المجتمع اليمنى التى ما يزال فيها العمل السياسى المنظم تهمة اجرامية ترقى عقوبتها الى درجة الموت ٠

ووفقا لهذا الافتراض وقبل أن ندخل فى تحليل مدى صحته ومبررات اختياره يمكننا أن نعرف المثقفين اليمنيين المعاصرين والذين سنتولاهم بالبحث فى كل الصفحات التالية من هذا الفصل بأنهم : كل من انتمى وينتمى الى العمل السياسى المنظم من ذوى الصف الأول والثانى فى قيادة هذا العمل ، سواء منهم من برز على مستوى الحياة السياسية والاجتماعية العامة أو احتفظ بنفسه فى الظل وهو يمارس العمل السياسى من موقف الصف القيادى الأول أو الثانى على الأقل ٠

أما اذا سؤلنا عن المبررات المنطقية والدوافع الموضوعية لوضع هذا الفرض والتعريف كمدخل علمي لدراسة المثقفين اليمنيين وتعريفهم بدقة ، وعما اذا كان هذا الفرض سيؤدى الى نتائج موضوعية سليمة حقا ، فاننا نستطيع أن نرد بكل اطمئنان بأنه قد ثبت لدينا سلفا من واقع حصر وتتبع دقيق لحالات فردية وجماعية عديدة أن هذا الفرض هو أقدر من غيره بكثير على الوصول بنا الى نتائج أكثر قربا من الحقيقة والتصاقا بها ، عن المثقفين اليمنيين المعاصرين ، خلال العشرين عاما الأخيرة ، وبالتحديد من أوائل الستينات حتى اليوم ، ونحن فى بداية الثمانينات ، وأن هذا الفرض فى نظر الباحث يكاد أن يكون نتيجة يبنى عليها وليس مجرد مقدمة كما هو المفروض .

هذا من حيث المدلول السياسى والاجتماعى لأهمية هذا الفرض ، أما من حيث أهميته كأداة تكنيكية منهجية بحتة فانه يبدو أكثر ملاءمة من غيره سواء بالنسبة للمثقفين اليمنيين أو غيرهم فى أى مجتمع آخر ، وذلك لأسباب كثيرة نشير الى أهمها فيما يأتى :

١ ـ العمل السياسى المنظم هو أفضل مقياس علمى لتحديد ماهية المثقفين بصفة عامة

لقد كان فى الامكان أن نستبدل مبدأ « الانتماء السياسى المنظم » كمقياس لتحديد الاطار العام للمثقفين اليمنيين وتعريفهم بغيره من المقاييس الشائعة والمتبعة ، كالمستوى التعليمى (تعليم فوق المتوسط ـ جامعى ـ أكاديمى ... الخ) أو المستوى الوظيفى (قادة اداريين ـ وسياسيين) أو نوع المهنة والممارسة (صحفيين ـ شعراء ـ كتاب ـ محامين ... الخ) وغير ذلك من المقاييس التى يؤخذ بها عادة مجتمعة أو متفرقة فى كثير من أغراض البحث العلمى ، بما فى ذلك تحديد المستويات الثقافية والتعليمية فى أى مجتمع . ذلك أنه بغض النظر عما قد يؤخذ على مثل هذه المقاييس من معايب فى تعريف الشخص المثقف بصفة عامة ، فانها لا تساعد كثيرا على تحديد ماهية المثقف اليمنى بالذات فى الوقت الحاضر ، فاذا كان من المؤكد بصفة عامة أن ليس كل من حصل على شهادة تعليمية من أى نوع أو شغل مركزا اداريا وسياسيا على أى مستوى أو مارس الصحافة والكتابة كيفما اتفق هو بالضرورة شخص مثقف بالمعنى العلمى ، فان هذا الأمر يصدق من باب أولى على المجتمعات النامية والمتخلفة الى حد كبير ومنها اليمن على وجه الخصوص .

فكثير من الأشخاص فى مجتمع متخلف قد يشغلون أعلى المراكز الادارية والسياسية والعسكرية لمجرد كونهم يجيدون القراءة والكتابة ، أو قد لا يحسنونها كثيرا ، وذلك اما بحكم الوراثة والتسلط والقهر الطبقى ، أو بحكم الندرة فعلا لمن يحسن ذلك ، خصوصا اذا ما تذكرنا بأن فكرة محو أمية الشخص واجادته للقراءة والكتابة وحتى وقت ليس بالبعيد قد ارتبط بتطلعه الى السلطة السياسية مباشرة فى مجتمع متخلف كله من الأميين تقريبا(١) . هذا بينما نجد أن مبدأ الانتماء السياسى المنظم هو أكثر المقاييس السابقة قدرة على تقليص ميل الفرد فى مجتمع متخلف الى أى من المقاييس السابقة مجتمعة أو متفرقة واستغلالها كاطار لشخصيته وفرض نفسه على الواقع ، بل ان مبدأ الانتماء السياسى كثيرا ما يعمل على تخليص الفرد من هذه الميول ، باعتبارها مقاييس خاطئة ومضللة أصلا ، كما يعمل من جهة أخرى على خلق دوافع وقناعات ذاتية بحتة لدى الفرد من أجل الاستيعاب الثقافى والفكرى المنظم بلا انقطاع ، وصولا الى تحقيق وضعه كمثقف حقيقى ، بغض النظر عن هويته الاجتماعية والطبقية الأصلية ، أو مستواه التعليمى الرسمى ، أو مركزه الاجتماعى والسياسى المعلن .. الخ حيث لا مكان لمثل هذه الاعتبارات فى نطاق العمل السياسى المنظم ، والتى يستعاض عنها جميعا باعتبار واحد هو قدرة الفرد على الاستيعاب والعطاء المتنامى والمتجدد وتكوين شخصيته بصفته مواطنا من خلال ذلك .

٢ ـ العمل السياسى المنظم هو المدرسة الوحيدة للمثقفين اليمنيين

ولقد ثبت بالنسبة لليمن أن ما لا يقل عن ٩٥٪ ممن قاموا برفع مستواهم الثقافى والتعليمى بأنفسهم أو حصلوا على شهادات جامعية أو تعليمية فوق المتوسط من خلال الكليات العسكرية والشرطة وما شابه ذلك، ورغبوا زيادة على ذلك فى الارتقاء بمستوى ثقافتهم وتفكيرهم كمثقفين ناضجين حقا، قد مارسوا جميعا العمل السياسى المنظم ، بل لقد كان العمل السياسى المنظم هو الأداة شبه الوحيدة التى ارتقوا من خلالها من مجرد حملة شهادات مدرسية أو جامعية أو لا شهادة على الاطلاق فى الغالب الأعم الى مثقفين سياسيين قياديين فعلا . أما الخمسة فى المائة الباقين الذين قد لا يكونون ممارسين للعمل السياسى المنظم وحققوا ارتقاء سياسيا أو اداريا واضحا فقد كان

---

(١) دكتور محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ص ٢٧٣ .

ارتقاءا في اتجاه الخبرة المهنية والكفاءة الوظيفية وليس في اتجاه الفكر والثقافة سياسية كانت أو غير سياسية ، اذ أننا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان أنه لا يوجد في اليمن حتى الآن لا ثقافة ولا مثقفين خارج نطاق العمل السياسي المنظم ، أو على الأقل أنهم قد مروا من خلاله ووجدوا بفضله بصورة مباشرة وغير مباشرة .

فالعمل السياسي المنظم في بلادنا يكاد يكون حتى اليوم وبالرغم من كل ظروفه القاسية هو القناة الوحيدة للحصول على الثقافة والفكر المقنع للشخص والمحقق لطموحاته وتطلعاته في الحياة العامة سياسية كانت أو اجتماعية ، ومنحه فرصة حق اعطاء الرأي الآخر ونقده ، بل لقد اتسع مدلول هذا العمل السياسي المنظم وشبه المنظم في الآونة الأخيرة ليشمل المواقف والأفكار الاجتماعية والطبقية في المجتمع اليمني ويعبر عنها ، بما في ذلك الأفكار والمواقف الاقطاعية والرجعية المتخلفة ، كما تطور في المقابل من مجرد وعاء لتنمية الأفكار الوطنية والقومية الى اطار صلب لأشد المواقف والأفكار الأممية والتقدمية المعاصرة جرأة ، وأداة للعنف الجماعي والصدام الطبقي المسلح على نطاق واسع .

٣ - عن شمال الوطن بخاصة

ان هذا البعد السياسي اضافة الى كل ما سبق يكتسب أهمية خاصة بالنسبة للمجتمع اليمني وفي الشطر الشمالي من الوطن بالذات منذ عام ١٩٦٢ وحتى الآن ، حيث كان وما يزال يشكل القناة شبه الوحيدة لاشباع كل الاهتمامات العامة للشباب وتلبية احتياجاتهم الثقافية والفكرية ، الضرورية والحصول على أبسط المفاهيم المقنعة للفرد تجاه نفسه وواقعه وواقع الغير . وذلك بسبب انعدام القنوات الثقافية الموازية والمسموح بها من أي نوع ، حيث لا صحافة حرة أو حتى مقنعة على الأقل ، ولا مؤسسات نقابية أو ثقافية عامة ، ولا حتى أماكن للهو وقضاء أوقات الفراغ .

فكل ذلك اذا لم يكن قد وجد فهو محظور على الأصح بما في ذلك التنظيمات السياسية ، والتي تكون من خلال وجودها السري غير المشروع رسميا البديل الشامل والمقنع عن كل ما كان من المفروض أن يوجد بصورة طبيعية وعادية على سطح الحياة العامة .

حيث أنه بالرغم من تشدد السلطة السياسية ذات البعد الاقطاعي والكمبرادوري المتحلل تجاه التنظيمات السياسية الوطنية والليبرالية

الحديثة ، الا أن العمل السياسى المنظم قد تعاظم كثيرا فى السنوات الأخيرة وتطور كما وكيفا بدرجة لا نجد لها قرين بسهولة فى كثير من المجتمعات النامية والمتخلفة ، حتى كاد أن يتجاوز مؤخرا وجوده كمجرد ظاهرة ونشاط سياسى الى أن يصبح ظاهرة اجتماعية وطبقية تتصف بالعمومية والشمول ، ابتداء من قاع المجتمع فى المدينة وحتى أطرافه المتنائية فى القرية والريف ، ضمن تشكيلات مختلفة من التصرفات والسلوك النمطى المعتاد فى الحياة العامة ، والمعزز بالقوة والعنف السياسى المباشر الذى لا تستطيع أن تطوله السلطة المركزية بأفقها الحالى بل مالت الى الاعتراف به ضمنيا والتعايش معه • ذلك أنه بالرغم من التهور الشديد لأجهزة القمع فى السلطة فى نطاق الحدود الجغرافية الضيقة التى يستطيع أن يصل اليها جنود الشرطة والأمن وتمارس فيها مهامها المباشرة داخل المدن والمطارات والموانى الرئيسية فقط ، الا أن ما عدا ذلك على طول الحدود والمداخل البرية المختلفة للبلاد والمناطق الريفية والقبلية فهى أرض مفتوحة ومشاعة سياسيا لأبنائها وغير أبنائها ، حيث ظلت منذ عام ١٩٦٢ ولم تزل تشكل بؤرا وجيوبا اجتماعية مركزية لمنظمات سياسية واجتماعية مختلفة ابتداء من أشد المنظمات اقطاعية ورجعية وتخلف وحتى أشدها يسارية وتقدمية ، والتى أخذت مؤخرا تزدهر بسرعة فى مناطق الريف ، ولا يوجد شكل الدولة وسلطتها فى مثل هذه الحالة الا بوصفها أحد الأطراف الذى يبحث عن مجرد الاعتراف به وسط الأطراف الأخرى ربما الأكثر قوة وفاعلية فى الواقع الاجتماعى سياسيا واجتماعيا • والذى يميز الشطر الجنوبى من الوطن فى هذا الشأن هو الاعتراف الرسمى بالعمل السياسى والتنظيمات السياسية نفسها والموجودة فى الشمال ، بل وقيام السلطة نفسها على هذا الأساس وفى نطاق سلطة وطنية ومركزية قوية •

لكل هذه الأسباب ومن خلالها تتضح أهمية البعد السياسى المنظم بالنسبة لاى محاولة جادة للبحث فى موضوع المثقفين فى اليمن خاصة أو غيرها من البلدان النامية والمتخلفة بصفة عامة •

الاطار الزمنى والتاريخى لتكون المثقفين اليمنيين المعاصرين

كلمة « المعاصرين » فى العنوان السابق سيكون لها أهمية ومدلولا موضوعيا مباشرا فى الحديث عن هذا الموضوع ، فهى من جهة تشير الى أننا سوف نتناول المثقفين اليمنيين خلال فترة زمنية حديثة ، والتى افترضنا بدايتها مع بداية الخمسينات من هذا القرن وما قبل ذلك بسنوات قليلة وحتى اليوم ، وهى من جهة أخرى تشير الى أننا بالضرورة سوف نتناول

الثقافة المعاصرة والجديدة في المجتمع اليمني ، والتي تعاطاها هؤلاء المثقفون اليمنيون المعاصرون وكونوا أنفسهم من خلالها كمثقفين معاصرين على أنقاض الكثير من الاتجاهات الثقافية التقليدية القديمة ومثقفيها ، والذين ما تزال لهم امتـــدادات واضحة ومؤثرة في واقعهم اليمني ويعيشـــون بثقـــافتهم ومفاهيمهم القديمة حالة صراع وتناقض مع مفاهيم وثقافة العصر ومتغيراته •

ما قبل عـام ١٩٤٨ :

ففي مرحلة ما قبل عام ١٩٤٨ لم نكن نستطيع أن نجزم بوجود أبعاد أو حتى اشارات لوجود ثقافة معاصرة وحديثة أو مثقفين معاصرين على مستوى الساحة اليمنية ككل ، خصوصا فيما يتعلق بمفاهيم الثقافة الحديثة للأممية والاشتراكية ومفاهيم التحولات الاقتصـــادية والاجتماعية الجـــذرية تلبية لطموحات أوسع الجماهير الشعبية ومن خلالها وازالة الظلم عنها • فأصحاب « مجلة الحكمة اليمانية » أو ما يمكن أن نطلق عليهم بمـــا مثلوه من توجه فكرى وثقافى معين وواضح أصحاب « مدرسة الحكمة » قد تحـــدد بعدهم الثقافى والفكرى بالتأكيد على نقد الواقع بصورة غير مبـــاشرة وتحديد ملامح المستقبل بنفس اصلاحي ولبرالى فى أحسن الأحـــوال وفى إطـــار المفاهيم التقليدية وشبه التقـــليدية ، والتى استمدوا جذورها من حـــركة الأفغانى والكواكبى وغيرهم فى مصر والشام فى حينه ، ومع ذلك فقد كانوا بلا منازع هم أكثر الموجود تقدما وقربا من المعاصرة بصفة عامة(٢) •

وهناك أيضــــا أصحاب ٤٨ أنفسهم أو مدرسة ٤٨ اذا جاز التعبير ، أو حركة الأحرار اليمنيين ، وهى مدرسة تتميز عن المدرسة السابقة فى كونها قد جمعت بين الثقـــافة والعمل السياسى شبه المنظم معا ، وتمكنت هـــذه المدرسة بفضل هذا الجمع بين الثقافة والسياسة من القيـــام بأدوار أكثر فاعلية وانتشارا على المستوى الثقافى والسياسى والاجتماعى الى حد منـــازلة السلطة بالعنف المسلح واقلاقها بصفة دائمة • والذى يهمنا هنا هو الاشارة الى الأفق الفكرى والثقافى لهذه المدرسة ، فقـــد كان من حيث الفهم النظرى هو أكثر تقليدية وبعدا عن المعاصرة بالنسبة « لجمـــاعة الحكمة » كصفوة مثقفة فحسب ، بالرغم من وجود تداخل كبير بين المجموعتين حيث شـــارك الكثير من جماعة الحكمة وساهموا بفاعلية فى نطـــاق حركة الأحرار الأكثر

---

(٢) راجع تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع فى كتاب أسرار ووثائق الثورة اليمنية لمجموعة من تنظيم الضباط الأحرار ، دار العودة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ، ص ٢٩ و ٣٠ •

اتساعا وتأثيرا • وباختصار فان مدرسة ٤٨ من حيث افقها النظرى والفكرى والثقافى وطموحاتها السياسية لم تكن تتعدى كثيرا مفهوم السلطة الاقطاعية الحاكمة للامامة الملكية المستبدة الا فى حدود نسبية جدا ، رغم حدة الصراع الذى ظل ساريا بين الطرفين ، وفى الامكان استخلاص هذه الحقيقة من مراجعة الميثاق المقدس لهذه الحركة السياسية[٣] • والذى يمكن الخروج من خلاله بحقيقة أخرى أكثر أهمية وهى أن صراع مدرسة ٤٨ أو حركة أحرار ٤٨ مع السلطة لم يكن صراعا بين قديم وجديد أو اقطاع وبرجوازية ، ولكنه تنازع مصالح ذاتية داخل الطبقة الاقطاعية نفسها على نحو ما سبق الاشارة فى فصل سابق ، حيث كان الاقطاعى الأكبر ممثلا فى الامام يستحوذ على كل شىء تقريبا وأفراد الطبقة الاقطاعية كانوا يرغبون فى الحلول محله أو مقاسمته والحصول على نصيب أفضل على الأقل ، مع التلويح ببعض الاصلاحات الشكلية والطفيفة على مستوى تنظيم الدولة اذا ما أتيح لهم تولى السلطة[٤] ، فحركة ١٩٤٨ — كما يقول مجموعة من تنظيم الضباط الأحرار الذين فجروا ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ — هى أشبه ما تكون بانقلاب القصر[٥] •

هذا فيما يتعلق بشمال الوطن ، أما فيما يتعلق بالشطر الجنوبى من الوطن فان الاستعمار البريطانى كان قد نفذ مجموعة من الاجراءات الادارية منذ زمن طويل أعاقت أو امتصت على الأصح امكانية قيام حركة ثقافية أو معارضة سياسية للسلطة البريطانية فى أوساط الطبقة الاقطاعية والسلاطينية على غرار ما حدث فى الشمال ، وذلك حينما قامت الادارة الاستعمارية منذ زمن مبكر وبناء على دراسات اجتماعية وأنثروبولوجية متعمعة بتقسيم المنطقة الى عدة امارات أو دويلات اقطاعية صغيرة منفصلة عن بعضها فيما عرف بالمحميات التسع ، وحضرموت ، ووضعت على رأس كل منها سلطانا أو أميرا يتصرف بأرضها وأهلها كيف يشاء تحت حماية الادارة الاستعمارية ودعمها •

وهو بذلك قد قام بتوزيع مصالح الطبقة الاقطاعية وقسمتها بين أفراد هذه الطبقة قسمة شبه متوازنة ، حيث لم يشعر أفراد هذه الطبقة بالهضم

---

(٣) أقرأ نص الميثاق الوطنى المقدس لحركة ١٩٤٨ الدستورية فى مجلة الحكمة اليمنية عدد فبراير سنة ١٩٧٣م •

(٤) راجع حمود العودى : المنظور العلمى للثقافة طبعة القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٠١ الى ٢٠٦ •

(٥) راجع أسرار ووثائق الثورة اليمنية ، مرجع سابق ، ص ٣٢ الى ٣٦ •

أو المعاناة من سوء توزيع المصالح في ظل الادارة الاستعمارية فى الجنوب ، بل لقد وجدوا فى هــذه الادارة أفضل حليف لهم فى المحافظة على هــذه المصالح وتعميقها وحسن تنظيمها ، وذلك عكس ما كانت تعانيه غالبية أفراد هذه الطبقة نفسها فى الشمال من هضم وسوء توزيع المصــالح السياسية والاقتصادية فى ظل دكتاتور اقطاعى كبير هو الامام المــلك الذى دأب على الاستحواذ على كل شيء لنفسه ، مما قاد الى خلق معارضة قوية له داخل الطبقة الاقطاعية وداخل أسرته نفسها على نحو ما سبقت الاشارة فى الفصل السابق(٦) .

كما أن الاستعمار قد قام بفصل مدينة عـدن وجعلها منطقة تجـارية بحتة تابعة فى ادارتها للحاكم البريطانى فى الهند وحاول اشباع رغبـات كثير من العناصر البرجوازية والكمبرادورية المحلية والأجنبية فى الحصـول على بعض المداخيل التجــارية الطفيلية من جراء قيــامهم باستقبال السلع التجارية البريطانية وغيرها القادمة من الخارج والقيـام بتوزيعها وتوصيلها الى كل مناطق الداخل ، وتكريس هذا الوضع باعتباره أفضل بما لا يقاس اذا ما قورن بالأوضاع فى شمال الوطن بصفة عــامة ، الأمر الذى أدى الى عرقلة نشوء حركة سياسية وطنية فى وقت مبكر فى الجنوب قبل انتشار المد القومى العربى بعد عام ١٩٤٨ واقتصار الحركة التعليمية والثقافية على خلق شريحة من الكتبة والمستخدمين نصف المؤهلين مهنيا ضمن الادارة الاستعمارية المدنية والعسكرية ، أو أعمال التجارة والبنوك الخاصة ، على نحو ما سنرى بعد قليل .

النشأة المعاصرة للمثقفين اليمنيين

أما النشأة الحديثة المعاصرة للمثقفين اليمنيين والتى تشكل الهـدف الأساسى فى موضوع بحثنا فانه يمكن تحديد بداية الاطار الزمنى والتاريخى لتكوينها فى أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات ، وهى البــداية التى واكبت انتعاش الفـكر والتيارالقومى فى المنطقة العــربية ككل ، كمدخل لمواجهة النكسة القومية التى حلت بالشعب الفلسطينى وتشريده من وطنه وقيام دولة اسرائيل من جهة وللحصول على الاستقلال السياسى من السيطرة الأجنبية الاستعمارية من جهة ثانية ، وتضييق نطـاق الوجود الاقطاعى على

---

(٦) راجع الفصل السابق .

المستوى السياسى والاقتصادى والاجتماعى من جهة ثالثة ، ومحاولة تحقيق الوحدة الوطنية والقومية من جهة رابعة ·

حيث بدأ هذا المد القومى المتصاعد بقيادة عبدالناصر فى مصر وبعض الجماعات والأحزاب السياسية البرجوازية فى سوريا والعراق ، بدأ يعكس ظله بوضوح كبير ليس على المنطقة العربية كلها فحسب بل وكثير من الشعوب الافريقية والآسيوية بصفة عامة ، وذلك فى شكل نشوء منظمات وتجمعات سياسية قومية ذات منحا وطنى برجوازى صغير ، وحركات جماهيرية وعسكرية نجح معظمها فى الاستيلاء على السلطة ، اما باجلاء المستعمر وتسلم الاستقلال ، أو عن طريق الانقلابات العسكرية ضد الطبقات القديمة الحاكمة ، كما حدث فى مصر وسوريا والجزائر وتونس والعراق وليبيا واليمن ، وأحيانا كان يحدث العكس حيث تتمكن الطبقات والجماعات الاقطاعية القديمة من استلام السلطة والاستقلال الشكلى من المحتل الأجنبى كما هى الحال بالنسبة للأردن والسعودية والمغرب وليبيا قبل ثورة الفاتح من سبتمبر ، ومناطق الخليج العربى ، أو طرد الجماعات الليبرالية منها بالقوة ، كما حدث فى الشطر الشمالى من الوطن بعد انقلاب الخامس من نوفمبر ، ومصر أخيرا ·

ففى هذا المناخ القومى الساخن كانت النشأة المعاصرة للمثقفين العرب بصفة عامة ولليمنيين أيضابصفة خاصة ، ولقد ساعد على ذلك تزايد فرص التعليم من خلال الجامعات والمعاهد العليا وتبادل الايفاد للمبعوثين بتسهيلات كبيرة بين مختلف الأقطار العربية ومصر بالذات ، اضافة الى وسائل الاعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية التى تشهدها المنطقة والتى لعبت فيهـا مصر تحت قيادة عبدالناصر دورا قياديا وحيويا وفعالا الى أبعد الحدود ، الى الحد الذى لم يستطع أحد فى المنطقة العربية ممن كانوا يرغبون فى عزل أنفسهم عنها أن ينجحوا فى ذلك ولو بحدود دنيا ·

ولقد كانت اليمن تحت حكم الامامة الملكية الاقطاعية هى أبرز مثـل للتصلب ومحاولة فرض العزلة ومقاومة هذا المد القومى دون جدوى ، حيث يمكن لهذه الحقيقة أن تجد تعبيرها الصادق فيما عبر عنه السياسى البريطانى « هارولد أنجرمان » بقوله : لقد كان الامام يعرف قوة تأثير الراديو وبذل كل ما فى وسعه للسيطرة على استخدامه ، ولـكن هزمه فى ذلـك جهاز « الترانزستور » الصـغير الذى لم يكن يـزيد ثمنه على جنيهـين وثلاثة

شلنات(٧) • ويمكن أن نقسم مرحلة النشأة هـــذه تقسيما موضوعيا الى مرحلتين أساسيتين ، الأولى منذ أواخر الأربعينات وحتى بداية الستينات ، قبيل قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٦٢ ، والمرحلة الثانية وهى تشمل العشر السنوات الأولى من قيام الثورة حتى أواسط السبعينات ، ويمكن الاشارة الى هاتين المرحلتين باختصار بمرحلة ما قبل الثورة ثم مرحلة ما بعدها على النحو التالى :

١ – مرحلة ما قبل الثـورة

بالرغم من التدنى المخيف لمستوى التعليم ووسائل الاعلام والثقافة الذى كان فى هـــذه المرحلة يصل الى ما يشبه العـــدم ، وحرص كل من الاستعمار فى الجنوب والامام فى الشمال على هذه الوضية ، فقد وجد هـذا المد القومى أصداءه المبـــاشرة وغير المباشرة داخل المجتمع اليمنى بوسـيلة أو بأخـرى ، فقد نجح عـــدد من المثقفين على قلتهم من أبنـــاء التجـــار والأرستقراطيات الاقطـــاعية فى استيعاب تيارات الفـكر القومى السياسى والاجتماعى فى المنطقة العربية والعـــالمية ، ونقل بذورها الى داخل المجتمع اليمنى ، والذين كانوا يرسلونهم للتعليم المتوسط والجامعى أو العسـكرى فى مصر والعـــراق ولبنان ، بما فى ذلـــك مبعوثى الأسرة المالكة نفسها فى الشمال •

فقد خرجت من اليمن فى عهد الامام يحيى أول بعثة تعليمية تقريبـا حوالى عام ١٩٤٥ الى لبنان مكونة من أربعة وثلاثين طالبا وجميعهم دون المتوسط فى المستوى التعليمى ، وذلك بغـرض الحاقهم بمدرسة المقـاصد الاســـلامية بفرعيها فى صيدا وطرابلس ، من أجـل الدراســة والتعمق فى المذاهب الشيعية وعلومها ، والتى ما تزال تعرف بها هذه المدرسة حتى اليوم ، حيث تم ارسال البعثة وتوزيعها على فرعى المدرسة ، وذلك بناء على اقتراح وطلب مسبق عرض على الامام من قبل بعض القائمين على هذه المدرسة عن طريق بعض المقربين للامام ، مثل الدكتور عدنان ترسيسى وهو لبنانى الأصل واكتسب الجنسية اليمنية ، والذى يبـدو أنه لعب الدور الأساسى فى هذا الموضوع وأقنع الامام يحيى بارسال هذه البعثة الى بيروت(٨) •

---

(٧) هارولد أنجرمان : اليمن الحكام والثورات ، طبع فى بريطانيا بالعربية عام ١٩٦٢ ، ص ١٢١ •

(٨) عبد الله جزيلان : التاريخ السرى للثورة اليمنية ، الطبعة الثانية فبراير سنة ١٩٧٩، مكتبة مدبولى شارع طلعت حرب – القاهرة ص ١٧ •

ولكن مجرى الأحداث لم يدع لهـــذه البعثة أن تسير فى نفس الخط الذى رسم لها ، فبعد حوالى ثلاث سنوات من وصولها الى بيروت قامت حركة ١٩٤٨ الوطنية التى انتهت بمقتل الامام يحيى نفسه وتولى ابنه الامام أحمد للحكم بعد القضاء على الحركة الوطنية بعد ٢٦ يوما ، حيث قرر الامام أحمد نقل البعثة من بيروت الى القـــاهرة نتيجة أزمة سياسية حدثت بينه وبين الحكومة اللبنانية وقتها ، والتى كانت قد قامت بمنح حق اللجوء السياسى للفضيل الورتلانى زعيم الاخوان المسلمين المنتدب من مصر الى اليمن ، والذى كان له ضلع أساسى فى حركة ١٩٤٨ ، ورفض حكومة رياض الصلح وقتها تسليمه للامام الجديد حسب طلبه ٠

وبعد وصول أفراد البعثة الى القاهرة تعددت اهتماماتهم وفق رغباتهم الخاصة الى حد ما ، ما بين مواصلة التعليم العام حتى الجامعة والالتحـاق بالكليات العسكرية بالنســبة للبعض الآخر(٩) ٠ وكانت البعثة الثـانية فى عهد الامام يحيى المتجهة الى القاهرة عام ١٩٤٨ قد أعيدت من عدن بعـد مقتل الامام مباشرة وتولى ابنه أحمد ٠ كما أن بعثة عسكرية محدودة كانت قد أرسلت من قبل الى العراق للدراسة ، من بينهم المشير عبدالله السـلال الذى تولى رئاسة الجمهورية بعد الثورة مباشرة واستقدام عدد محدود جدا من الضباط العـراقيين للمساهمة فى تدريب الجيش اليمنى بعـــد رحيل الأتراك ، من بينهمجميل جمال الذى أعدم عام ١٩٤٨ ٠

وفى عام ١٩٥٤ أرسلت أول بعثة فى عهـــد الامام أحمد الى القاهرة للتعليم العام الاعدادى والثانوى مكونة من خمسين طالبا غالبيتهم من الأمراء وأبناء الأسرة المالـكة ، وحددت منطقة بنى سويف مقـــرا لدراستهم تحت اشراف مندوبين ومشرفين يمنيين مرافقين للبعثة ، حددهم الامـام بنفسه فى بنى سويف ، وظلوا هناك حتى عام ١٩٥٧ حيث نقلوا الى حلوان قرب الجـامعة ، والتحق عشرة منهم بالـكلية العسكرية مع من سبقهم من بعثة بيروت ، ثم تقرر نقل الجميع ممن لم يلتحقوا بالكليات العسـكرية والشرطة الى طنطا لمواصلة التعليم العام، حيث وصل عددهم هناك الى ما يقرب من مأتين مبعوث رسمى تحت أشراف يمنى خاص ، وظل أرســال المبعوثين يتوالى سنويا بشكل محدود ، حيث وصل مجموع المبعوثين الرسميين قبيل قيام الثورة عام ١٩٦٢ الى حوالى مائتين طالب ، معظمهم فى التعليم العام والبعض

---

(٩) المرجع السابق ، ص ١٨ ٠

الآخر قد التحق بالجامعات ، وعدد قليل منهم كان قد أكمل تعليمه الجامعى ، وكذلك العسكريين الذين تخرجوا فى وقت أسرع ٠

وبينما كانت هذه القناة الرسمية البطيئة لتسرب المبعوثين تعمل على هذا النحو كانت توجد هناك قناة أخرى موازية وغير رسمية أكثر بطئا ومحدودية لتسرب عناصر المبعوثين الى مصر وغيرها ، وذلك عن طريق نشاط حركة الاحرار اليمنيين (المعارضة السياسية) أو ما عرف بالاتحاد اليمنى ، الذى كان مقره فى عدن ، ثم أتخذ لهفرعا فى القاهرة بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م ٠ حيث كان يقوم بأرسال بعض الطلاب للدراسة فى مصر من أبناء التجار واللاجئين السياسيين وبعض النابهين على نفقته ، ومن خلال جمع التبرعات من المهاجرين والتجار لهذا الغرض ، حيث وصل عدد الطلاب فى القاهرة من هذا النوع الى ما يزيد على خمسة وعشرين طالبا ، اضافة الى أبناء التجار الميسورين أنفسهم الذين كانوا يتمكنون من ارسال أبنائهم للدراسة فى الخارج على نفقاتهم الخاصة من خلال أقامتهم فى عدن ، أو يقومون بتعليمهم أثناء اقامتهم معهم فى أرض المهجر لمدة طويلة ٠

كما أن بعثات عسكرية ودراسية محدودة أخرى كانت قد أرسلت فى عهد الامام أحمد الى العراق ولبنان والصين والاتحاد السوفيتى ، مع ملاحظة أن ليس كل الذين خرجوا الى الخارج للدراسة - على قلتهم - قد تمكنوا من أتمام تعليمهم وتحولوا الى مثقفين ٠ هذا بالرغم من أن حركة ثقافية وتعليمية محدودة كانت قد بدأت بوادرها فى الداخل من خلال استقدام بعض البعثات التعليمية المحدودة جدا للتعليم العام والتعليم العسكرى ، وأتساع حركة الاعلام القومى من خلال الراديو والصحافة والاذاعة الوطنية والخارجية ، ووجود أبعاد وأصول ثقافية لبرالية أصيلة لدى الكثير من العناصر الاجتماعية ذات الميول اللبرالية والوطنية الواضحة ، والمناوئة للسلطة بصورة مباشرة وغير مباشرة ٠ وبغض النظر عن مدى نجاح أولئك المبعوثين فى أكمال تعليمهم ، الا إن الأهم هو أنهم بفعل ما كان يحيط بهم من ظروف ذاتية وقومية مثيرة جدا منذ بداية الخمسينات قد تحولوا فى مجموعهم ورغم تباين أصولهم الطبقية والاجتماعية الى كتلة صخب مفعمة بالمشاعر والطموح الوطنى والاتجاه نحو معارضة السلطة الملكية الامامية فى الشمال والاستعمارية فى الجنوب داخل الوطن ، بما فى ذلك بعض أفراد الاسرة المالكة أنفسهم من الأمراء الصغار ٠

حيث لم تكتفى هذه العناصر الموجودة فى القاهرة وسوريا وبيروت

وغيرها من الأقطار العربية باستيعاب الفكر القومي المتصاعد وقتها في المنطقة فحسب ، وتغليبه تماما - ولو عاطفيا وشكليا - على كل الاحاسيس والمشاعر العائلية والأنتمآت الطبقية التي قدموا منها ، بل لقد تجاوزوا ذلك الى الانخراط المباشر في المنظمات والاحزات السياسية والقومية المعبرة عن ذلك في المنطقة العربية ، كحزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا وحركة القومية العرب في بيروت والتيار الناصري غير المنظم في القاهرة ، وحتى المنظمات والعناصر اليسارية والشيوعية التي كانت قد وجدت في المنطقة بشكل محدود قد نجحت هي الأخرى في كسب أنصار أقوياء من بين أفراد هؤلاء الطلاب اليمنيين •

ولم يتوقف الأمر بالنسبة لهؤلاء الطلاب اليمنيين عند هذا الحد بل لقد تجاوزه بسرعة الى حد القيام بتأسيس فروع سياسية لتلك الاحزاب والمنظمات القومية داخل اليمن نفسها ، بمجرد عودتهم من الدراسة وحتى أثناء الاجازات الصيفية التي كانوا يذهبون لقضائها هناك ، حيث شكلت تلك الفروع السياسية والحزبية ، كحزب البعث العربي الاشتراكي وحركة القوميين العرب ، والشبيبة الشيوعية ، البذور الحقيقية للعمل السياسي المعاصر في اليمن وقنوات الفكر والثقافة الجديدة التي أدت مهمتها بنجاح ، ولم يحن حلول عام ١٩٦٢ وهو عام قيام الثورة ، الا وقد تركت تلك المنظمات والأحزاب بصماتها الواضحة على مجرى الحركة الوطنية في اليمن بصفة عامة بما في ذلك حدث الثورة نفسه ، على نحو ما سيتضح فيما بعد ، حينما نقوم بتحليل حدث الثورة عام ١٩٦٢ كأنجاز قومي وبرجوازي وطني صغير لهذا التيار الجديد •

وفي الشطر الجنوبي من الوطن بالذات كان تركيز الادارة الاستعمارية على توجيه الحركة التعليمية التي أوجدتها في مدينة عدن وحدها ، في حدود ما يضمن توفير متطلبات الادارة الاستعمارية المدنية والعسكرية من الكتبة أنصاف المؤهلين مهنيا ومستخدمي الجيش والشرطة الأقل تأهيلا ، اضافة الى ما تتطلبه أنشطة البنوك والأعمال التجارية الخاصة •

حيث ما لبثت رياح المد القومي العربي أن تصل الى المنطقة في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات حتي وجدت في هذه العناصر التي كانت قد تشبعت بها مدينة عدن بالذات أداتها الأولى في أثارة الحس القومي في المنطقة وتصعيد حركته بسرعة على المستوى السياسي والثقافي ، فالى جانب أن هذه العناصر قد نجحت في أن شكلت الصدى المباشر لكل الأحداث

القومية داخل المنطقة أبتداء من أثارة الوعي والشعور القومي مرورا بالعدوان الثلاثي على مصر وأنفصال الوحدة مع سوريا وانتهاء بالاندفاع والمشاركة غير المحدودة في الدفاع عن ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ودعمها في شمال الوطن بلا حدود ، فقــد نجحت كذلك في تأسيس منظمات وأحزاب سياسية كأنعكاس وتعبير عن كل هذه التطورات بصفة عامة ، كحزب الشعب الاشتراكي والمؤتمر العمالي ورابطة أبناء الجنوب .. الخ .

واذا كان النظام الاقطاعي الرجعي في الشمال قد خاب ظنه وجنى ثمار عكسية مما اراده من خلال البعثات المحدودة الى الخارج كمجرد خدم أو أتباع ومبشرين ومنظرين لأفكار الطبقة الاقطاعية على نحو ما سبقت الاشارة، فان النظام الاستعماري في الجنوب قد أخفق هو الآخــر في النهاية في أن يجعل من العملية التعليمية المحدودة في مدينة عدن مجرد مصدر للحصول على الكتبة والمستخدمين المطيعين الى ما لا نهاية ، لأنه من بين أوساط هذه الفئة من الموظفين والمستخدمين والعمال الدائمين في الشركات الأجنبية في عدن نشأت كل بذور الثقافة المعاصرة والمثقفين المعاصرين في المنطقة على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم الحديثة ، على مستوى اليمن بصفة عامة وليس عدن وحدها .

ونحن لا نزال نتذكر جيدا الدور الذى لعبته كلية بلقيس في عدن ، وهي كانت عبارة عن مدرسة عليا متكاملة ذات اهتمامات تعليمية مختلفة فوق المتوسط بقليل ، وكيف شكلت همزة وصل قوية لنشأة البذور الأولى للمثقفين اليمنيين بصفة عامة وملتقى اهتماماتهم ونشاطهم بصفة شبه دائمة قبل قيام الثورة في الشمال ، سواء من خلال التعلم أو التعليم فيها .

أما بالنسبة للريف فقد كان يعاني عزلة وحرمانا تاما من العمليــة التعليمية في الجنوب والشمال على الســواء ، خصــوصا اذا ما تذكرنا ما سبقت اليه الاشارة من قيام الادارة الاستعمارية بفصل عدن سياسيا واجتماعيا عن بقية أجزاء الجنوب وبدء تكريس فكرة « عدن للعدنيين » التى تبنتها بعض التجمعات السياسية المنحرفة فيما بعد ، وان كل النشــاط السياسي والثقافي المشار اليه سابقا قد تمحور الى حد كبير داخل مدينة عدن ولم يكن يتجاوزها لا بصورة مباشرة ولا غير مباشرة ، أو حتى يعلم ماذا كان يجرى بجمــوع الشعب في الريف من الفــلاحين تحت نير التسلط الاستعماري والاقطاعي الســلاطيني المزدوج ، خــارج حدود هذه المدينة وضواحيها ، وهو الأمر الذى أدى الى تشوه تلك الحركة الثقافية وتقوقعها في نطاق ضيق قبل عام ١٩٦٢ ، وفشلها في مسايرة الأحداث والتطورات

بعد ثورة سبتمبر فى الشمال والرابع عشر من أكتوبر فى الجنوب التى اعلنت بدء حرب التحرير الشعبية فى الجنوب من الريف وليس من المدينة ، حيث عجزت تيارات تلك الحركة بكل تجمعاتها السياسية وبحكم أفاقهـا البرجوازية والاقطاعية الضيقة وتربيتها السياسية والفكرية المنحرفة فى ظل الادارة الاستعمارية ، عجزت عن تفهم المتغيرات الوطنية الجديدة ، فمالت الى الاتجاه المضاد فى الغالب الأعم أو ممارسة المواقف السلبية فى أحسن الأحوال ، وذلك على نحو ما سنوضحه فى مكان لاحق من هذا الفصل عند الحديث عن الأبعاد والانتماءات الطبقية والفكرية للمثقفين اليمنيين وأثرها في تحديد مواقفهم السابقة واللاحقة .

٢ ـ مرحلة ما بعد الثورة :

ما يهمنا هنا فى هذه الفترة بالنسبة للنشأة المعاصرة للمثقفين اليمنيين هو أن الثورة بقدر ما أنها كانت أنجازا مباشرة للعناصر السياسية الوطنية المثقفة السابقة لعام ١٩٦٢ على مستوى الشمال والجنوب وعلى نحو ما سبق وما سيأتى تحليله بصورة أكثر تفصيلا ، فـانها قد شكلت قفزة كبيرة بالنسبة لهؤلاء المثقفين جميعا وأوجـدت لهم آرضية رحبة جديدة للنمو والتطور السريع من الناحية الكمية ، ومن داخل المجتمع نفسه وليس من خارجه فقط ، كما هو الحال بالنسبة للمرحلة السابقة .

وذلك من خلال أنخراط آلاف الشباب فى نظام التعليم العام الذى باشرت الثورة تنظيمه فى الشمال على أسس حـديثة ، منذ اليوم الأول لقيامها ، وفتح الكليات والمعاهد العسكرية للجيش والشرطة ، وأيفاد آلاف الطـلاب الى مختلف الدول العربية والأجنبية للتعليم المتوسط والجامعى والعسكرى أيضا ، فى أطار من التوحد الوطنى الذى لم يحدد فيه أى صفة مميزة لأبناء الشمال أو الجنوب ، ما عدا مزيدا من الدعم وتقديم العـون لأبناء الجنوب بحكم ظروف المرحلة التى تمر بها المنطقة من نضال ضـد الاستعمار .

حيث تطور عدد الطلاب فى المرحلـة الثانوية بعد الثورة مما يشبه « لا شىء » خلال عام ٦٢ ـ ١٩٦٣ والذى لم يكن يتجاوز ٨٤ طالبا ، ليصل فى عام ٧٤ ـ ١٩٧٥ الى ٤٣٥٠ طالبا منهم ١٩٧ طالبة(١٠) ، ووصل هذا

---

(١٠) الجهاز المركزى للتخطيط ـ صنعاء : كتاب الاحصاء لعام ١٩٧٦ ، ص ١٥١ .

المعدل فى عام ٧٨ - ٧٩ الى ٢٤٩٠٧ طالبا ، كما يتوقع أن يصل هذا الرقم فى العام الدارسى ٧٩ - ١٩٨٠ الى ٣٩٨٥١ طالبا(١١) • كما تطور عدد طلاب جامعة صنعاء منذ افتتاحها عام ٧٠ - ١٩٧١ من ٥٦ طالبا الى ١٠٧٥ طالبا عام ٧٤ - ١٩٧٥(١٢) • ويصل هذا الرقم الى أكثر من خمسة ألف طالب فى الوقت الحاضر (٧٩ - ١٩٨٠) فى مختلف التخصصات • كما أزدهرت حركة الايفاد الى الخارج للتعليم الجامعى بشكل لم تعرفه اليمن من قبل ، حيث يصل مجموع الموفدين للتعليم الجامعى والعالى فى الدول العربية والأجنبية فى الوقت الحاضر الى ما يقرب من أربعة آلاف طالب وطالبة منهم قرابة ألفى طالب فى مصر وحدها(١٣) فى مختلف التخصصات •

وهذا لا يعنى أن هذه النسب تحقق المعدل المطلوب أو حتى ما يقرب منه بالنسبة لعدد السكان ومنهم فى سن التعليم الفعلى ، حيث أنه بالرغم من أن المرحلة الثانوية وهى أفضل مقياس يأخذ به فى معرفة معدل التعليم بالنسبة لعدد السكان فى أى مجتمع قد أستقبلت عام ٧٨ - ١٩٧٩ حوالى أربعة وعشرين ألف طالب فان العدد المطلوب استيعابه ممن هم فى سن التعليم الثانوى فعلا يصل الى أكثر من ٣٥٥٥٦٩ طالبا فى شمال الوطن وحده(١٤) •

يضاف الى ذلك الكليات والمعاهد العسكرية ، حيث أدى هذا التحول الكمى الجديد فى مستوى التعليم الى خلق أرضية خصبة لازدهار حركة المثقفين وزيادة أعدادهم وأنشطتهم السياسية والثقافية ، هذا من الناحية الكمية • وعلى نطاق الشطر الجنوبى من الوطن حدثت تطورات حاسمة فى هذا الشأن حيث تذكر احدا وثائق الثورة الوطنية الديمقراطية فى اليمن ان بلادنا قد شهدت بعد الاستقلال عام ١٩٦٧ نهضة فى بناء المدارس واستيعاب آلاف التلاميذ حيث بلغ عددهم فى عام ٧٠ - ١٩٧١، ١٤٠٠٦ طالب وطالبة، أى بزيادة تقدر ٥ر١١٠٪ وكان مجموع عدد المدارس فى عام ٦٦ - ١٩٦٧م ٢٦٨ مدرسة

---

(١١) عبد الله الكميم : مؤشرات المستقبل التعليمى واختلال توازنه فى الجمهورية العربية اليمنية ، مقال فى مجلة الغد ليمنية عدد يناير - فبراير ١٩٧٨ ، ص ٣٩ •

(١٢) الجهاز المركزى للتخطيط كتاب الاحصاء لعام ١٩٧٦ ، ص ١٥٩ •

(١٣) ادارة البعثات المنية بالقاهرة •

(١٤) عبد الله الكميم : مؤشرات المستقبل التعليمى واختلال توازنه فى الجمهورية العربية اليمنية ، مقال فى مجلة الغد اليمنية عدد يناير فبراير سنة ١٩٧٨ ، ص ٣٧ •

ابتدائية واعدادية وثانوية بينما بلغ عـــددها فى عام ٧٠ ـ ١٩٧١م ٩١٥ مدرسة ، أي بزيادة تقدر ب ٤ر٢٤١٪(١٥) ومن المؤكد آن هذه الأرقام قد تم تجاوزها بكثير وتضاعفت عدة مرات منذ عام ١٩٧٢ وحتى الآن ٠

أما من الناحية الكيفية فقد أستمرت مفاهيمهم السياسية والثقافيـة والقومية على نفس النمط الذى بدأه سابقوهم قبيل الثورة ومن خلال نفس المنظمات السياسية والحزبية ونفس المفاهيم والاتجاهات القومية والمثاليـة وبمقاييس كمية وكيفية أكثر حدة وفاعلية على أرض الواقـع الجديد الذى أتاحته الثورة ببعدها الوطني والقومي الواضح فى الشمال وحرب التحرير المضطرمة في الجنوب ، وتلك هى القفزة الـــكمية الأولى فى تكوين المثقفين اليمنيين بصفة عامة ، أما القفزة الكمية والكيفية الثانية الأكثر أهمية فى تقديرنا ، فهى التى حدثت بعد الاستقـلال للشـــطر الجنوبى للوطن عام ١٩٦٧م ، والتى لم تقتصر على الكم هذه المرة ، ولكنها قد جاءت تطورا كميا وكيفيا بالدرجة الأولى ، وعلى امتداد الوطن بأسره وليس فى حدود طبقية أو أقليمية ضيقة كما كان يحدث فى الماضى ، سواء من خلال تعميم العملية التعليمية الثورية بأعتبارها حق من حقوق كل مواطن وضرورة من ضرورات الحياة لكل طفل ، أو من خلال العملية السياسية والثقافية والفكرية ٠

حيث أنه بالرغم من تعثر هذه العمليـــة ككل فى شمال الوطن بعد انقلاب الخامس من نوفمبر سنة ١٩٦٧ فان زمام المبادرة قد انتقل بعمق الى جنوب الوطن وبفاعلية وطنية وثورية أكثر ، وحقق كل أبعاده السياسية والثقافية والوطنية على مستوى الوطن ككل ، وقطع مراحل كبيرة وهامـة وما يزال كذلك حتى الآن يتقدم في الاتجاه الصحيح وبخطا حثيثة أكثر فأكثر ٠

الثورة كانجاز قومي وطني برجوازي صغير

بالرغم من طبيعة الظروف القاسية التى كانت تعمل فى ظلها الأحزاب والمنظمات القومية والبرجوازية الصغيرة الخاصة بالمثقفين المعاصرين الا أنها قد أكدت نفسها بمرور الوقت كبديـل حقيقى لجمـاعات مثقفـة وأحزاب سياسية قديمة ذات بعد أقطاعى مباشر وأصلاحى الى حد ما سبقت الاشارة

---

(١٥) الثورة الوطنية الديمقراطية فى اليمن (سلسلة وثائق) ، دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٣ ، ص ٥٢ ٠

اليه ، كما استطاعت أن تشكل نواة حقيقية متنامية كما وكيفا للفكـــر البرجوازى الوطني والقومى طوال عقد الخمسينات ، تدعمها حيوية الظروف القومية المحيطة الى الحد الذى يمكن اعتبار ثورة السـادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ فى الشمال والرابع عشر من أكتوبر ١٩٦٣ كامتداد مباشر فى الجنوب ، هى انجاز واقعى مؤكد لهذا الفكر القومى المتنامى وترجمة حقيقية لطموحاته البرجوازية الوطنية الصغيرة على النطاق المحلى والقومى ، ذلك أنه بالرغم من أن جماعة الضباط الاحرار الذين فجروا حدث ثورة السادس والعشرين من سبتمبر قد رتبوا لمهمتهم وخططوا لها من أول خطوة الى آخر خطوة بعيدا عن كل الأشكال الأولية للتنظيمات والأحزاب السياسنية الموجودة فعلا سواء التقليدية منها أو الحديثة ، وكان دور هذه التنظيمات بالنسبة للحدث هو من الدرجة الثانية والثالثة ٠

الا أن هؤلاء الضباط الشبان أنفسهم لم يكونوا مجرد عناصر عسكرية فحسب ، بل كانوا أيضا عناصر سياسية مثقفة ولها انتمآتها الحزبية خارج نطاق مهمتها العسكرية ، ضمن المنظمات والأحزاب السياسية القـــومية الجديدة بالفعل ، وبالذات فيما يتعلق بحـزب البعث العربى الاشتراكى وحركة القوميين العرب ، حيث كان لهذا البعد السياسى المنظم أثره العميق فى أنضاج موقفهم والوصول بالحدث الى نهايته ٠

هذا من جهة ومن جهة ثانية فان المتتبع للفترة الزمنية منذ بدأ الضباط الأحرار بتكوين تنظيمهم السياسى الخاص والاعداد للقيام بالثورة حتى التنفيذ الفعلى والتى لا تتجـــاوز ثمانية أشهر فقط(١٦) يستطيع أن يستنتج من خلال ذلك حقيقة موضوعية هامة تؤكد ما سبقت الاشارة اليه ، وهى أن فترة زمنية كهذه لم تكن لتكفى قط لتكوين تنظيم سياسى ابتداء من الصفر ويتمكن فى نفس الفترة من أسقاط سلطة اقطاعية ملكية وأقامة سلطـــة برجوازية وطنية جمهورية فى بلد يعانى من الأمية الأبجدية ، وان مثل هذه الفترة لم تكن لتكفى الا لاعداد خطة عسكرية قابلة للتنفيذ فى نطاق تنظيم أو بعد سياسى واجتماعى وقومى معين ، الأمر الذى كان كذلك بالفعل ، فانتمآت هؤلاء الضباط السياسية المنظمة الى حد ما من جهة ، والظروف المحلية والقومية المحيطة وقتها من جهة أخرى كانت هى الأبعاد السياسية

---

(١٦) راجع لجنة تنظيم الضباط الأحرار : أسرار ووثائق الثورة اليمنية ، دار العودة بيروت ١٩٧٨ ، ص ١٧٨ ٠

والاجتماعية الحقيقية التى كانت تكمن وراء أقدامهم على انجاز هذا الحـدث التاريخي الهام ، كما أن ضباط الثورة أنفسهم لا ينكرون هذه الحقيقة والتى سجلوها فى وثيقتهم التاريخية الجـديدة « كتاب اسرار ووثائق الثورة اليمنية » المنشور عام ١٩٧٨ ، اذ يذكرون ما نصه : وكان عدد من طـلاب المدرسة الثانوية قبل ان يلتحقوا بالكلية الحربية قد اعتنقوا مبادىء حزب البعث العربى الاشتراكى ، وفى الكلية الحربية نقلت البيئة المدرسية والفكرية نفسها دون نقصان الى الساحة العسكرية(١٧) • وبالرغم من أن الكتاب ينفى كليا فى نفس الصفحة وجود عناصر عسكرية تنتمى لحركة القوميين العرب واقتصارها على صفوف الطلاب والمدنيين ، الا ان هذا الأمر يفتقر الى الصحة ولو بحد نسبى •

وهنا قد يتساءل البعض ، اذا كان الأمر كذلك فلماذا أذن نفذ هؤلاء الضباط مهمتهم دون العودة الى انتماآتهم السياسية أو بمعزل عنها عـلى الأقل ؟ والرد على مثل هذا التساءل الموضوعى يكمن فى الآتى :

(أ) ان التنظيمات السياسية وقتها كانت ما تزال فى دور التكوين تقريبا وتعمل فى ظل ظروف سياسية قاسية ، ولم تصل بعد فى انضباطها السياسى والتنظيمى بحيث تشكل اطارا مأمونا وموثوقا به للاعداد لمثل هذه المهمة الصعبة والخطيرة فى ظل سلطة قمع اقطاعية رهيبة(١٨) •

(ب) أن الاطار القومى العربى المزدحم وقتها بأحداث ثورات الجيش وحده على الأنظمة الملكية واقامة الأنظمة الجمهورية ، كما حـدث فى مصر والعراق وسوريا ، والذى كان قد عكس ظلـه بوضوح ليس على هؤلاء الضباط الشبان وحدهم واستشعارهم بأنهم هم المسئولون وحدهم عن القيام بهذه المهمة فحسب ، بل وعلى الرأى العام نفسه ، الذى بدأ يهمس بتوقع قيام الجيش اليمنى بمهمة مماثلة بما حدث هنا أو هناك •

(جـ) أن المد القومى بصفة عامة ، والناصرى منه على وجـه التحديد ، وهو الأقوى والمتغلب وقتها فى المنطقة العربية كلها لم يكن يحبذ العمـل السياسى المنظم أو الحزبى أو يعلق عليه أى أهمية تذكر فى انجاز الأحداث السياسية الهامة ، وعلى العكس من ذلك فقد مال الى مقاومته وقمعه فى

---

(١٧) اسرار ووثائق الثورة اليمنية ، ص ١٠٠ و ١٠١ •

(١٨) المرجع السابق ، ص ١٠١ و ١٠٢ •

كثير من الأحيان ، الأمر الذى عكس نفسه على نفسية هؤلاء الضباط وتصرفهم وطموحهم ، حيث أنه بالرغم من علاقتهم التنظيمية بالأحزاب والمنظمات السياسية التى أسهمت فى تكوين وعيهم السياسى أصلا ، الا أنهم كانوا لكل الأسباب السابقة لا يطمئنون ولا يثقون بها ، وينظرون اليها باعتبار انها أقل مستوى وأهمية ، وأقل جدارة منهم فى القيـــام بالثورة وممارسة السلطة ، الأمر الذى يمكن استخلاصه بوضوح وبصورة مباشرة وغير مباشرة من خلال ما أورده ضباط الثورة فى وثيقتهم التاريخية المشار اليها سابقا بالقول : ولم يكن ضباط الجيش أيضا بمنائى عن هذه التيارات وان كان تأثرهم بالتجربة الناصرية فى مصر ، أقرب الى أفـــكارهم ، من تفصيلات الايدولوجيات المتصارعة فى العالم العربى • وذلك فى فترة كانوا يشعرون فيها بعدم قدرة التيـــارات والأحزاب عن عمـــل مؤثر يغير مجرى الحياة السياسية(١٩) • وتلك هى الظاهرة المرضية الخطيرة التى سيطرت على كل المنطقة العربية ومعظم الأقطار النامية والمتخلفة وما تزال حتى الآن ، وتتجرع بسببها هذه المجتمعات ألوانا من المشاكل والمحن الداخلية والخارجية ، من جراء طموحات المؤسسات العسكرية واصرارها المعزز بالعنف على الاستيلاء على السلطة منفردة ، بغض النظر عن تقديم صدق النوايا الحسنة والاختلاف النسبى من مجتمع لآخر •

وهكذا نستطيع أن نؤكد فى الأخير حقيقة أن ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ هى أنجاز مد أتلاف برجوازى وطنى وقومى واسع النطاق لفئة من المثقفين وأشباه المثقفين السياسيين ذوى الأصول الاجتماعية والطبقية المتباينة تمام التباين ، وأشبه ما تكون بعملية الاتلاف القومى الذى كان يتم فى مجتمعات كثيرة فى سبيل مواجهة المحتل الأجنبى ، فقد كان طول معاناتهم ومعانات الواقع الاجتماعى من حولهم الذى تمخض عن هذا الحدث التاريخى الحاسم بواسطة تلك المجموعة الطليعية من الضباط الشباب المسيسين هو بكـل مضامينه وأبعاده السياسية والاجتماعية أشبه بعملية التحرر السـياسى والحصول على الاستقلال من المحتل الأجنبى تماما اذا ما نظر اليه من الناحية الموضوعية وتجاوزنا النواحى الشكلية تماما •

أما من حيث النتائج الموضوعية فان الأمر لم يكن يختلف فى شىء • فقد كانت كل الفئات والطبقات الاجتماعية تعانى من ظلم وقهر دكتاتور

---

(١٩) اسرار ووثائق الثورة اليمنية ، ص ٤٠ •

اقطاعي واحد هو « الإمام الملك » الذى يملك كل شيء ويتصرف فى كل شيء بلا منازع ، سواء أن كانت هذه الفئات والطبقات اقطاعية أو برجوازية أو غيرها ، حتى أخوة هذا الدكتاتور المتخلف وأفراد أسرته أنفسهم كان يحل خلافاته معهم بحد السيف أكثر من مرة(٢٠) ٠

وكان الكل متفق على العمل بلا كلل فى سبيل التخلص من هـــذا الكابوس الفردى والعائلى المتهور ، والكل مختلفين تماما ـ خلاف غير معلن ـ فى تحديد صورة مستقبل ما بعد اسقاط هذا الدكتاتور الاقطاعى الـكبير المتفرد ، كل وفق مصلحته وطبيعة تفكيره وانتمــائه الطبقى ، فالاقطاع الاقتصادي والعشائرى والسياسى كان يحدد هذه الصورة فى شكل أعادة توزيع امتيازات السلطة والثروة بصورة أكثر عــدلا فيما بين أفراد هذه الطبقة ، بدلا من أحتكارها لصالح شخص واحد هو « الامام الملك » واقتصار تصيبهم على ما يحدده هو بطريقة لا تشبع كل متطلباتهم وطموحاتهم كأفراد طبقة اقطاعية ، ولا شيء أكثر من هذا ، فلقــد كان أفراد هـــذه الطبقــة ينظرون الى التغيير والثورة بنوع من الشك والريبة ويخافونه ويكرهونه أكثر مما يخافون ويكرهون البقاء على ما هم عليه ، باعتبار أن الثورة بالمفهوم الذى صار يطرح وقتها على المستوى القومى هى عملية خطرة وتتجاوز حدود طاقتهم وحدود ما يرغبون ويحرصون على الوقوف عنده ، خصوصا وأن الأحداث القومية المحيطة فى مصر وغيرها قد أقنعتهم بذلك ، ولهــذا أحجمت هـــذه الطبقة تماما عن المشاركة فى اعداد للثورة بمفهومها القومى والوطنى ، أو على الأصح عجزت عن اللحاق بهذا المفهوم والمشاركة فيه ، ومالت الى مقــاومته والوقوف منه موقفا سلبيا فى أحسن الأحوال ، وذلك على خلاف ما حدث من حركات سياسية فى عام ١٩٤٨ ، ١٩٥٥ حيث كانت عناصر هـــذه الطبقة تقوم بالدور الأساسى المباشر فيها ضد الدكتاتورية الفردية للامام الملك ، وبأفق سياسى أو اجتماعى معين يتناسب وطبيعة مصالح هذه الطبقة وفكرها٠ بل لقد وصل الأمر بهذه الفئة الاقطاعية الأصل والمذهب أنه عند ما جاء النعمان كواحد من أبرز قادة هذه الحركة الى القاهرة فى مطلع الخمسينات اتضح ان الاتحاد اليمنى وهو الاطار التنظيمى لهذه الحركة قد أحيا فكرته القديمة فى ضرورة وجود « مستبد عادل » لاصلاح الأحوال فى اليمن ، ومن

---

(٢٠) هذه الحقيقة لا تحتاج الى برهان ، ويكفى ما حدث للأمير عبد الله والعباس اخوة الامام أحمد بعد حركة ١٩٥٥ فى تعز وغيرهم ٠

جهة أخرى كانوا - لما يذكر مجموعة من ضبـــاط سبتمبر - يصورون البيعة للبدر بأنها أول مسمار يدق فى نعش أسرة حميد الدين(٢١) .

واذا كان الكثير من أبناء هذه الطبقة « المثقفين الشبان » قد شاركوا فى الحركة الوطنية وساهموا فى تفجير الثورة بأدوار فعالة ، فانهم لم يفعلوا ذلك كممثلين لفكر طبقاتهم وموقفها أبدا ، بل باعتبارهم مثقفين سياسيين وطنيين وقوميين ، ومن مواقع خلافية بارزة مع أصولهم الطبقية .

هذا فى الوقت الذى كانت فيه البرجوازية التجارية المتوسطة والكبيرة ترسم صورة أخرى لهذا المستقبل،تمثل فى رفع القيود والحواجز امام حركة الاستيراد والتوزيع التجارى الدولى واقامة المؤسسات والمرافق العامة اللازمة لذلك من بنوك وطرق وموانيء ومطارات وشوارع ... الخ .

واستصدار كل التشريعات والقوانين التى تضمن تأمين وحماية كل ذلك ، وبالتالى ضرورة اجراء بعض التعديلات الجوهرية فى طبيعة السلطة السياسية والواقع الاجتماعى نفسه بما ينسجم وهذا التوجه .

لذلك فقد كان أفراد هذه الطبقة البرجوازية الناشئة هم أكثر معاناة وحرصا على تغيير الأوضاع بالنسبة لأفراد الطبقة السابقة ، وبالتالى فقد كانوا - على خلاف أفراد الطبقة السابقة - هم أكثر وطنية وطموحا وحرصا على التغيير والثورة بكل تأكيد(٢٢) وكان طراز المد القومى الوطنى السائد فى الداخل والخارج ينسجم الى حـــد ما وطموحات أفراد هذه الطبقة فى المجتمع اليمنى بالذات ، نظرا لبعد هذه الطبقة عن السلطة من جهة وحالة النشوء الأولى التى ما تزال تعيشها من جهة ثانية ، وشدة ما تعانيه من قهر وحرمان وتحطيم لطموحاتها من قبل السلطة الامامية من جهة ثالثة . ولذلك فانها وقفت موقفا ايجابيا مع الثورة قبل قيامها والى ما بعد قيامها بسنوات قليلة فقط ، وحققت من خلالها الكثير من طموحاتها حتى الآن أكثر من أى طبقة أو فئة أخرى فى المجتمع .

أما المثقفون السياسيون الذين أفرزتهم هذه الطبقات وغيرها على نحو ما سبق ذكره ، وجسدت من خلالهم إئتلافها المؤقت والفعال لمرحلة ما قبل

---

(٢١) أسرار ووثائق الثورة اليمنية ، ص ٣٥ .

(٢٢) راجع أسرار ووثائق الثورة اليمنية ، ص ٣٦ .

اسقاط السلطة وجعلوا من أنفسهم ما يشبه رأس الحربة المتقدمة فى عملية النضال ومواجهة السلطة المستبدة حتى النهاية ، فانهم بدورهم قد قاموا برسم صورة ثالثة مغايرة للصورتين السابقتين ، صورة تخصهم أساسها الطموح القومى فى اقامة دولة وطنية حديثة ، واجراء بعض الاصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية على أساس المصلحة القومية العامة والمشتركة بين كل أفراد المجتمع ، والحد من مظاهر القهر والاستغلال الطبقى والفردى ، الى حد المناداة بتطبيق بعض الاجراءات الاشتراكية ويتعاطف معهم فى هذا التوجه غالبية الرأى العام وبعض أفراد طبقة الفلاحين المتنورين فى الريف والتجمعات العمالية المحدودة فى المدن .

الأساس الطبقى لنشأة المثقفين اليمنيين المعاصرين

وقبل ان نتحدث عن سير الأحداث التى تمت بالفعل بعد قيام الثورة فى ضوء كل المفاهيم والتصورات السابقة ، وما انتهت اليه بالفعل ، دعونا نتحدث أولا عن الاطار الاجتماعى لنشأة المثقفين اليمنيين ، نظرا لما تأكد من الأهمية البالغة لهذه المسألة وتأثيرها فى سير أحداث ما بعد قيام الثورة عام ١٩٦٢ وحتى الآن .

فبمراجعة بسيطة للبعثات اليمنية المبكرة فى الأربعينات للدراسة فى الخارج ولتى سبق لنا أن أعتبرناها البداية المعاصرة لتكوين المثقفين اليمنيين المعاصريين والثقافة والفكر المعاصر فى اليمن وكان لهم دورا حاسما فى الأحداث على نحو ما سبقت الاشارة ، نلاحظ أن اختيار أفرادها قد تم على أساس انتقائى واضح فيه الغلبة للاسرة المالكة والوسط الاقطاعى والارستقراطى القريب منها ، وان الحالات الاستثنائية التى اتيح من خلالها تسرب عناصر قليلة من الطبقة الوسطى أو الفقيرة قد تم أما فى ضوء افتراضات وفهم خاطىء من قبل السلطة الموفدة رسميا ، أو عن طريق توفير فرص التعليم لبعض أفراد الطبقة الوسطى وأبناء المهاجرين بالذات على نفقات أهلهم وبتشجيع ومساعدة الحركة السياسية المعارضة للسلطة فى عدن .

فلقد تكونت أول بعثة تعليمية عسكرية الى العراق بعد خروج الاتراك من اليمن من حوالى عشرة طلاب بغرض ايجاد نواة قيادية لتنظيم الجيش اليمنى بعد رحيل الاتراك ، وبالرغم من أن معظم أفراد هذه البعثة كان من أوساط فئات اجتماعية متوسطة فى الغالب ولم تكن لهم السبغة الارستقراطية

أو الاقطاعية الكبيرة أو العلاقة المباشرة بالاسرة المالكة والسلطة السياسية(٢٣) • الا أن هذا الاختيار لم يكن مقصودا لذاته ، بقدر ما أنه كان عبارة عن سوء فهم ونتيجة تقديرات خاطئة من قبل العقلية الاقطاعية المتسلطة والمتخلفة للامام يحيى الذى تسلم السلطة من الاتراك ، حيث كانت التقديرات والنوايا التى تكمن وراء اقتناع الامام بارسال هذه البعثة هى أسواء بكثير مما لو كان قد اختار أفرادها من بين أفراد الاسرة المالكة أو الارستقراطيات الأخرى ، ذلك أنه بتفكيره الردىء وعقليته المتخلفة قد وافق على أفراد هذه البعثة بهذا الشكل فى ضوء ثلاثة اعتبارات أساسية ، وذلك أما لأن بعضهم هو بحكم ما يفترض عادة من خرافة الصلة الدموية لانتسابهم معه الى البيت الهاشمى من جهة وكونهم ليسو قط من الطامعين فى منافسته على السلطة فى نفس الوقت من جهة أخرى ، وان البعض الآخر حتى وان لم يعترف لهم بشرف الانتماء لهذا النسب الوهمى أو لغيره من الأنساب والألقاب الاقطاعية والارستقراطية الشهيرة الا أن لديهم من وازع التشيع والتعصب المذهبى وحب الامام وخدمته وطاعته ما يجعلهم محل ثقته الى هذا الحد ، وأما أن الجيش والخدمة العسكرية وفقا للعقلية الاقطاعية ليست من اختصاص أبناء « الذوات » ولكنها من اختصاص « رعاع الناس » ومتوسطيهم على الأكثر ، باعتبار أن الجندية هى خدمة للقصر والحاشية وحراسة على الأبواب وتوفير متطلبات المنازل من الأسواق والبطش بالشعب والتنكيل به اذا خرج عن طاعة الامام أو شكا ظلمه اليه ، وليست خدمة للوطن ودفاعا عن حريته وسيادته •

فقد كانت كل هذه الاعتبارات متفرقة أو مجتمعة هى أساس تفكير الامام فى هذه المسألة وغيرها من المسائل المتصلة بهذا الشأن وبالسياسة العامة بصفة عامة ، ولكن الرياح كما يقول المثل قد سارت بما لا تشتهى السفن ، أو بما لا تشتهى سفن الامام بالنسبة لهذه البعثة وغيرها على نحو ما سنرى بعد قليل •

ولقد كانت هذه العقلية الاقطاعية المتخلفة هى نفسها التى أقرت فى منتصف الأربعينات أرسال حوالى أربعة وثلاثون طالبا للدراسة النظرية

---

(٢٣) تكونت هذه البعثة من كل من : عبد الله السلال ، حسن العمرى ، محمد حجر ، أحمد اسحاق ، أحمد الآنسى ، أحمد المرونى ، أحمد طاهر ، محمد الريدى ، محمد صالح العلفى، وبرأسة محى الدين العنسى ، وسافرت الى لعراق عام ١٩٣٦ •

بمدرسة المقاصد الاسلامية الشيعية في صيداء وفروعها بطرابلس ببيروت بنفس الطريقة ووفقا لنفس المفهوم ، مع فارق في مجال التخصص فقط ونوع الغرض على نحو ما سبقت الاشارة في مكان سابق من هذا البحث على اعتبار أن أفراد هذه البعثة سيعودون أشبه ما يكونون بالمبشرين والدعاة المختصين الطائعين لشيعة آل البيت ومن والاهم ، أو في خدمة الامام وتنفيذ أغراضه وأهدافه السياسية على الأصح ٠

ذلك أنه بالرغم من أن معظم أفراد البعثة قد جاءوا من وسط طبقي أرستقراطي واقطاعي متوسط وفقير ، الا أن الحس الطائفي والمذهبي العفن كان هو المقياس الجوهري الحاسم الذي حدد بدقة الهوية الاقطاعية والطائفية المتخلفة لعقلية الامام يحيي من خلال هذه القضية ، خصوصا اذا ما لاحظنا أن خمسة وعشرون فردا من بين الأربعة والثلاثين المكونين لمجموع البعثة هم من صنعاء وما جاورهـا ، وستة من تعز وثلاثة فقط من الحديدة(٢٤) ٠ وسافرت البعثة بالفعل من الشباب الغض الذين لم تكن أعمار غلبيتهم قد تجاوزت الخامسة عشرة ، وفي أذهانهم وتطلعاتهم والدنيا كلها من حولهم تسير في اتجاه عكسي لما أريد لهم أن يكونوا تماما ٠

حيث كانوا كما يقول اللواء عبد الله جزيلان أحد أفراد هذه البعثة معبرا عن شعورهم في تلك المرحلة ومنذ ما يزيد على خمسة وعشرين عاما : لقد كنا طاقة هائلة الكل يحرص على تحصيل العلم ، وكان كل فرد يعتقد أنه مسئول عن أخراج اليمن من ظلمات القرون الوسطى الى عصرنا هذا(٢٥) ٠ حيث تحولوا جميعا الى عناصر سياسية مناوئة للسلطة خارج الوطن ، وتركوا المدرسة التي بعثوا اليها نفسها واتجهوا الى القاهرة بعد ثورة عام ١٩٥٢ ، والتحقوا بالمجالات العسكرية والتعليم العام والجـامعي ، كما أن البعثة

---

(٢٤) تكون أفراد هذه البعثة من كـل من : على محمد عبده ، عبد الرؤوف رافع ، عبد العزيز سلام ، محمد الجنيد ، هزاع بجاشي ، حسن السقاف ، عبد الله جزيلان « من تعز » ومحسن العيني ، عبد الله الكرشمي ، على العيني ، أحمد الطل ، صالح الجمالي ، عبد اللطيف ضيف الله ، على الكهالي ، محسن السري ، احمد المعنى ، على الحيوري ، على عبد المغني ، يحى قايع ، محمد زبارة ، حسين صلاح الدين ، على المطري ، أحمد مفرح ، هاشم الحوثي ، يحى السقاف ، محمد الرعدي ، على سيف الخولاني ، عبد الكريم المقحفي ، يحيي جغمان ، محمد مانع، يحيي الديلمي ، على الخضر « من صنعاء » ومن « الحديدة »: حسن مكي ، ابراهيم صادق ، محمد الاهنومي ٠ راجع التاريخ السري للثورة لعبد الله جزيلان ص ١٧ ٠

(٢٥) عبد الله جزيلان : التاريخ السري للثورة اليمنية ، ص ١٨ ٠

العسكرية الى بغداد كانت قد تحول معظمها قبل ذلك الى عناصر سياسية ذات أفق وطني وقومي واضح بعد عودتهم وأسهموا أسهاما فعالا واستراتيجيا في حركة ١٩٤٨ ، التى أطاحت بالامام يحيى وذهب الكثير منهم ضحيتها ٠

أما الامام الجديد أحمد فقد غير سياسته اختيار المبعوثين الى الخارج على قلتهم بعد أن أدرك سوء النتائج الناجمة عن تقديرات والده في هذا الشأن ، واتجه الى التركيز على أبناء الاسرة المالكة ، من الامراء وأقاربهم من أبنـــاء الطبقة الاقطاعية والارستقراطية الحاكمة ، حيث تكونت أول بعثة في عهده الى القاهرة عام ١٩٥٤ من خمسين طالبا للتعليم العام منهم ٧٠٪ من أبناء الاسرة المالكة وحاشيتها ، والبقية من أقرب مقربي القصر وأكثرهم اخلاصا لخدمته ٠ كما أستمر بعد ذلك ارسال البعثات ببطء الى القاهرة وغيرها على نفس المنوال وفي حدود نفس المفهوم ٠

أما التيار الموازى أو شبه العكسي للمبعوثين الذى كان يأتى عن طريق الاتحاد اليمنى (حركة المعارضة السياسية في عدن) وجمعيات المهاجرين وابنائهم الذين وصل مجموعهم عام ١٩٥٥ في القاهرة وحدها الى ما يزيـد على خمسة وعشرين طالبا ، فقد كان معظمهم من أبناء التجار والمهاجرين والطبقة البرجوازية الصغيرة بصفة عامة ، التى كانت تعانى ألوان الاضطهاد والكبت السياسى والحرمان الاقتصادى من قبل السلطة الاقطاعية في الشمال والاستعمارية في الجنوب ٠

ومع ذلك وبالرغم من أهمية الأثر السياسى والاجتماعى الذى ترتب على هذه البعثات الا أن حجمها ظل محدود للغاية ولا يشـــكل ظاهرة ثقافية وتعليمية وفكرية قائمة بذاتها في المجتمع اليمنى ككل ، الا في مرحلة ما بعد الثورة ، حيث لم يتجاوز عدد المبعـــوثين في مصر على اختلاف مصادرهم السياسية والاجتماعية قبيل قيام الثورة أكثر من مئاتين طالبا معظمهم لم يتجاوز التعليم العام ، وهو أكبر تجمع للمبعوثين خـارج الوطن بالنسبة لشعب يتجاوز تعداد السكان وقتها السبعــــة مليون نسمة في الشمال والجنوب تعشعش فيه الأمية الابجدية ولا يوجد فيه أى نظام محدد للتعليم ولا أى شكل من أشكال التعليم العام والثقافة العامة ٠

نخلص من كل ما سبق الى أن المبعوثين قبل الثورة سواء قبل عودتهم أو بعد عودتهم الى الوطن قد شكلوا النواة شبه الوحيدة للمثقفين اليمنيين المعاصرين داخل الوطن وخارجه ، وإن مصادرهم الطبقية التى وفدوا منها قد كانت تقريبا على النحو الآتى ٦٠٪ منهم وفدوا من أوساط الاسرة المالكة

والطبقة الاقطاعية والارستقراطية القريبة منها والمشتركة معها فى السلطة ، وان ٢٥٪ منهم قد أتو من أوساط فئات اجتماعية وارستقراطية وسطية ذات أفق اقطاعي أيضا ، أما الـ ١٥٪ الباقين فقـد وفدو من أوساط طبقية برجوازية تجارية كبيرة وصغيرة مختلفة ، وان مجموع هذه العناصر عـلى اختلاف مصادرهم الاجتماعية والطبقية لم يخيبوا كل الظنون والآمال التى علقتها عليهم مصادرهم العائلية والطبقية وأوفدتهم من أجلها فحسب بل لقد أنفصلوا عنها اجتماعيا وكونوا فيما بينهم رابطة ثقافية وسياسية وطنيـة وقومية مشتركة لا تختلف وأصولهم الطبقية فحسب بل ومناؤة للنظام الاقطاعي القائم ، تساعدهم كل الظروف والتطورات الجارية فى المنطقـة العربية بصفة عامة على نحو ما سبقت الاشارة ، ويستثنا من ذلك غالبية أفراد الاسرة المالكة من الأمراء الذين لم يخرجو عن هذه الرابطة الثقافيـة القومية الجديدة دفاعا عن مصالح أبائهم الحاكمين فحسب بقدر ما أنهم تخلفوا عنها أيضا نتيجة فشلهم فى الدراسة والانحلال الأخلاقي الذى وقعوا فيه ، حيث لم يكمل أحد منهم تعليمه على وجه التقريب ٠

ما بعد عام ١٩٦٢

أما بالنسبة لمرحلة ما بعد الثورة ، وهى مرحلة الانطلاقة الكبرى فى نشوء وتطور فئة المثقفين اليمنيين المعاصرين على نحو ما سبقت الاشارة فى مكان سابق فان المصادر الطبقية لتكوين هؤلاء المثقفين فى هذه المرحلة قد اختلت موازينها تماما بالنسبة للمرحلة السابقة ، مع الاحتفـاظ بنفس المضامين السياسية والفكرية القومية وزيادة حدتها أكثر من ذى قبل ، فقد كشف استطلاع ميدانى قام به الباحث فى وقت لاحق خلال عام ١٩٧٩ عن نتائج هامة وعلى درجة عالية من الثقة والموضوعية من خـلال تتبع ظروف مئتين حالة من أبرز العناصر السياسية المثقفة التى برزت بعد عام ١٩٦٢ على مستوى قيادى رسمى وغير رسمى وعلى نطاق الشمال والجنوب ٠

مفاد هذه النتائج أن ٤٥٪ من بين آلاف الشباب الذين فتحت أمامهم فرص التعليم النظامى الحديث والعسكرى والتثقف فى الداخـل والخارج بلا قيود أو تحفظات سياسية أو اجتماعية أو مذهبية على أحد فى عهد الثورة، ما عدا أسرة بيت حميد الدين ، قد وفدو من أوساط طبقية اقطاعية مختلفة، وان ٣٥٪ قد قدموا من أوساط طبقية عمالية وفلاحية واجتماعية فقيرة ، اضافة الى ٢٥٪ من أوساط برجوازية متوسطة وصغيرة ، وان هؤلاء المثقفين لم يلتحقوا فى سلك التعليم المدنى والعسكرى ويمارسوا النشاط السياسى ويشاركوا فى السلطة أيضـا بعد قيام الثورة مباشرة كممثلين لطبقاتهم

وأصولهم الاجتماعية قط ، بقدر ما أنهم شأنهم شأن سابقيهم قد أنفصلوا عنها ، ولو مؤقتا مكونين فيما بينهم روابط ثقافية وسياسية وطنية وقومية مشتركة متغايرة ومختلفة فى مضامينها وأهدافها عن مضـــامين وأهداف أصولهم الاجتماعية والطبقية الى هذا الحد أو ذاك ، والتى تشكل أســـاس التركيب الحقيقى للمجتمع سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، متأثرين فى ذلك بالمد الوطنى والقومى المتصاعد وقتها على نطاق الوطن العربى كله ، والذى طغى على مشاعرهم وتصرفاتهم وأفقدهم الرؤية العلمية الحقة للواقع الاجتماعى والاقتصادى والطبقى السائد من جهة وطبيعة دورهم وحدود حجمه الصحيح كطلائع وادوات تعبيرية عن مختلف المصالح الطبقية المتفقة والمتناقضـــة فى المجتمع ككل فى هذا الواقع من جهة ثانية ، بالرغم من كل ما كانوا قـــد افترضوه فى أنفسهم وظنوا أنهم قادرون على تحقيقه بمفردهم على المستوى السياسى والاجتماعى ومن خلال مفاهيم ومنطلقات مثالية خاطئة ومضللة عن الواقع وعن أنفسهم أيضا .

ولقد كان من المفروض أن تكون أحداث الثورة فى السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ هى آخر يوم حقيقى فى الائتلاف المؤقت لمجمل الفئات والطبقات الاجتماعية ضد السلطة وفئة المثقفين منهم بالذات من جهة وأول يوم فى اندفاع كل طبقة فى البحث عن مصالحها وتنفيذ مخطط الصورة التى رسمتها لنفسها فى المرحلة السابقة من جهة أخرى .

الا أن نمط تفجير الحدث وشدة صدمته الاجتماعية والقومية قد أربك الطبقة الاقطاعية وهى أقوى الطبقات الاجتماعية الجديرة بوراثة السلطة ، وشل حركتها لبعض الوقت خلال العامين أو الثلاثة الأولى من عمر الثورة ، وساعد فى نفس الوقت على اعطاء دفعة سريعة للطبقة البرجوازية الصغيرة والمتوسطة للظهور والانتعاش السريع بصورة أكثر من ذى قبل ، أما فئة أو شريحة المثقفين فقد حصلت هى الأخرى على فرص أكثر للتوسع والانتشار والممارسة العامة من خلال اتساع فرص التعليم المدنى والعسكرى والايفاد الى الخارج ، حيث تضاعف عدد طـــلاب المدارس وكليات الشرطة والجيش والموفدين الى الخارج عشرات المرات خلال السنوات الأولى من عمر الثورة ، كما شكل كل ذلك بالنسبة للمنظمات والأحزاب السياسية التى ســبق الحديث عنها عملية قفزة نوعية كبيرة من الناحية الكمية وفى اطـــار نفس المفاهيم القومية والبرجوازية الوطنية الصغيرة المعادية للفكر العلمى على نحو ما سبقت الاشارة ، رغم أنها كانت ما تزال محظورة من الناحية الرسمية وبفعل المد القومى الناصرى المعادى للعمل السياسى المنظم ، والذى عكس

ظلة المباشر فى اليمن من خلال تأثير وجود الجيش المصرى المحارب من أجل الثورة والجمهورية ٠

موجز القول ان السنوات الأولى من عمر الثورة ببعدها القومى والبرجوازى الصغير كانت بالنسبة للطبقة الاقطاعية وهى أقوى الطبقات الاجتماعية فى المجتمع أشبه ما تكون بصدمة كهربائية قوية أصابتها بالذهول وشلت حركتها لبعض الوقت من جهة ، ومصدر أنتعاش اقتصادى واجتماعى حقيقى للطبقة البرجوازية والكمبرادورية الناشئة من جهة ثانية ، أما بالنسبة لفئة المثقفين وهو الأهم بالنسبة لموضوعنا هذا فقد شكل حدث الثورة منطلقا أكثر حيوية ونشاطا لاتساع هذه الفئة وزيادة تشبعها بالمفاهيم والأفكار القومية والبرجوازية الوطنية الصغيرة وارتفاع حدتها وفاعليتها فى الأحداث اعتقادرا منها بأنها قد أصبحت تمنك السلطة وقادرة على صنع كل شىء بلا منازع وفقا لمفاهيمها السطحية ، وذلك قبل ان يستعيد الواقع توازنة من جديد وفقا لطبيعة تركيبه الطبقى والاقتصادى الفعلى الذى يقضى جدليا قلب موازين الظروف السياسية والاجتماعية التى أسفرت عن حادث قيام الثورة واعادة تركيبها رأسا على عقب ، بحيث تكون الطبقة الاقطاعية فى قمة هرم السلطة والبرجوازية الكمبرادورية التى فرضت نفسها منذ اليوم الأول للثورة كحقيقة اجتماعية واقتصادية وسياسية تحتل منتصف هـذا الهرم وتشارك فى قمته بالاتفاق أو التحالف مع الطبقة السابقة ، واستمرار عموم طبقة العمال والفلاحين وفئات الشعب المختلفة التى لم يطرأ عليها أى تغيير حقيقى كما هى تشغل قاعدة الهرم الواقع عنيه كل أعباء ومساوء كل من يحملهم على كاهلة ، أما فئة المثقفين الذين أتسـع نشاطهم وزادت مشاغباتهم فما عليهم الا أنيعودا الى رشدهم «كأولاد» صالحين ومطيعين لابائهم ويتركوا شقاوتهم القديمة الجديدة التى تعلموها من الكتب والأفكار المستوردة والا حل بهم غضب الله وغضب الوالدين كأطفال عصاة ومنحرفين أشقياء ! ولقد صار كل هذا ممكنا وواردا فعلا بعد سنوات قليلة من قيام الثورة ٠

طالما وأن الثورة أو القائمين عليها على الأصح وغالبيتهم من هؤلاء المثقفين الأشقياء لم يحدثوا من التحولات السياسية والاجتماعية الجذرية فى صميم الواقع الاجتماعى والاقتصادى ما يحول دون ذلك ، أو حتى يضمن المحافظة على ما كان قد وجد من مكاسب قومية وطنية ، واستسلامهم لمجرد العواطف القومية وتقديم آلاف التضحيات فى الحرب والسلام فى سبيل أهداف وطنية غامضة ومثالية ، كمجرد الحفاظ على أسم الجمهورية العربية اليمنية بدلا من الملكية أو الدولة الاسلامية ، ولم تتقدم نحو حسم قضايا اجتماعية واقتصادية وسياسية جوهرية وجذرية فى الواقع الاجتماعى على غرار ما حدث فى الشطر

الجنوبى من الوطن ، لا لمجرد الدفاع والمحافظة على المصالح القومية والوطنية التى تم تحقيقها فحسب بل وللحيلولة دون أية امكانية للرجوع الى الخلف وانقلاب الأوضاع رأسا على عقب ، وذلـــك رغم كل الفرص الحقيقية التى أتاحتها ظروف الثورة لهؤلاء المثقفين السياسيين الذين قاموا بالثورة ودافعوا عنها وعن النظام الجمهورى لكى يفعلوا الكثير من خلال سلطة الثورة الجمهورية وما لقيته من الدعم الشعبى غير المحدود ٠

الا أنه اذا صح التعبير بأن فاقد الشيء لا يعطيه ، فان المثقفين اليمنيين فى سنوات الثورة الأولى بالذات لم يكونوا مجرد أناس يفتقرون الى القدرة على العطاء الوطنى والتقدمى الصحيح كطليعة ثورة لنضال طبقات العمال والفلاحين فحسب بل لقد كانوا بحكم طبيعة تكوينهم الانتقائى وروابطهم المصطنعة وثقافتهم وفكرهم القومى والبرجوازى الصغير والمشتت يقاومون بشراسة وبوعى منهم أو بدونه اجراء التحولات الثورية الجذرية فى المجتمع ونشر الأفكار العلمية الصحية حتى منتصف الستينات ٠

ولأن ذلك هو الذى كان يحدث تماما فان الأحداث قد صارت فى نفس هذا الاتجاه بالفعل ، اتجاه استعادة الطبقة الاقطاعية لمصالحها السياسية والاقتصادية وتحالفها مع الطبقةالبرجوازية الكمبرادورية الجديدة تحت حماية ورعاية القوى الامبريالية والاحتكارات العالمية من جهة ووضع حد شبه نهائى لتصرفات فئة المثقفين الاشـــقياء وحماقاتهم الطفيلية ٠ ولقد كان انقلاب الخامس من نوفمبر سنة ١٩٦٧ هو نقطة الارتـكاز الحرجة التى لم تحسم الطبقات الاقطاعية القديمة والكمبرادورية الجديدة من خلالها الموقف لصالحها فحسب بل وكشفت أيضا عن مدى الحجم الحقيقى المتواضع للأفكار القومية بصفة عامة وفئة المثقفين المتحمسين لها بصفة خاصة وقدرة هذه الأفكار على حل القضايا الاجتماعية ومسألة الصراع الطبقى داخــــل المجتمع الواحد ، وكيف تحولت هالتها وجبروتهـا العظيم فى أقل من عشر سنوات ما بين أواخر الخمسينات وبداية الستينات من هدير وأفعال تهد الجبال الراسية الى مجرد شقاوة رعناء صار يسخر منها اليوم أكثر الناس تعصبا لها بالأمس ، ليس بالنسبة للمجتمع اليمنى فحسب بـــل وبالنسبة للمنطقة العربية بصفة عامة ٠

وهنا بدأ المثقفون اليمنيون كغيرهم من مثقفى البلدان النامية والمتخلفة يكتشفون قصة اغترابهم الحقيقية ويصتدمون بهول الحقيقة الواقعية وتسحقهم مرارتها بعد أن بدأت تكشف لهم عن القيمة الحقيقية لأفـكارهم وتطلعاتهم

وطبيعة أمكانياتهم وحدود دورهم الاجتماعى والطبقى كشريحة معبرة عن المصالح المتناقضة لكل الطبقات الاجتماعية وخدمتها ، وهو الأمر المنطقى الذى صار واقعة اليوم هكذا بالفعل فى المجتمع اليمنى بالنسبة للمثقفين كمجرد أدوات لخدمة المصالح المتناقضة فى المجتمع والتعبير عنها ، وليس كفئة أو طبقة مستقلة بذاتها فوق كل الطبقات ٠

نتائج واستخلاصات عامة

وفى ضوء كل ما سبق يمكن استخلاص مجموعة من الحقائق والدلالات الهامة الآتية :

١ ـ أنه بالرغم من أن الطبقات الاقطاعية والارستقراطية قد مالت لأن تكون هى المصدر شبه الوحيد لافراز العناصر المثقفة خلال مرحلة ما قبل عام ١٩٦٢ الا أن هذا التوازن المشوهة قد اختل تماما بعد قيام الثورة ، فزاد اسهام الطبقة البرجوازية الناشئة فى تكوين هذه العناصر وبشكل ملحوظ ، حيث أرتفع من أقل من ١٠٪ الى ٢٥٪ ، وزادت نسبة المثقفين والمتعلمين القادمين من مصادر عمالية وفلاحية واجتماعية فقيرة من أقل من ٥٪ قبل الثورة الى ما يقرب من ٣٥٪ بعدها ، رغم أن الطبقات الاقطاعية والارستقراطية قد ظلت تحتفظ بمعدل التفوق قبل وبعد الثورة ، رغم انخفاض نسبتها كمصدر رئيسى للعناصر المثقفة من مالا يقل عن ٨٥٪ الى معدل ٤٠٪ فقط ٠

٢ ـ أن النشأة المعاصرة للمثقفين اليمنيين ـ شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من مثقفى البلدان النامية والمتخلفة والآسيوية منها بالذات ـ لم تتبلور كتعبير اجتماعى وطبقى داخل المجتمع وفقا لاسهام كل طبقة فى تكوين مثقفيها المعبرين عن مصالحها على نحو ما جاء فى النقطة السابقة وكما هو المفروض علميا وجدليا ، ولكنهم بدلا من ذلك قد تبلوروا كتعبير قومى لبرالى بالدرجة الأولى ، مبتعدين عن أصولهم الطبقية ولو بصورة مؤقتة ، فى ظل ظروف وأوضاع سياسية وقومية ودولية استثنائية مؤقته أيضا (ظروف مرحلة التحرر السياسى من الاستعمار الأجنبى على النطاق القومى والتحرر من بقايا الدكتاتور الرجعى ممثلا فى الامام والنظام الملكى وحماية الجمهورية على النطاق المحلى) ولم يكن للتناسب الاجتماعى السابق للمصادر الطبقية للمثقفين اليمنيين فى ظل هذه الظروف أى دلالة موضوعية وعملية حتى منتصف الستينات وبداية السبعينات ٠

٣ ـ أن المثقفين اليمنيين قد حصلوا فى ظل هذه الظروف الاستثنائية

المؤقتة وبفضلها والتى تسببت فى تشكيل نشأتهم الانتقــائية المشوهة ، حصلوا على الكثير من الامتيازات والفرص السياسية والاجتماعية حملتهم على الظن بأن فى مقدرهم - بتركيبهم المشوهه - أن يكونوا طبقــة وسلطة بمفردهم ، أو أنهم قد صاروا كذلك بالفعل ، الأمر الذى قادهم الى كثير من الاخطاء والمزالق المميته ، بمجرد أن بدأت هذه الظروف الاستثنائية بالزوال بعد سنوات قليلة من عمر الثورة فى أواخر الستينات وبداية السبعينات على مستوى اليمن والوطن العربى ككل ٠

٤ - أن هذه الظروف الاستثنائية المؤقتة قد أخذت بالزوال نهائيا فى أواخر الستينات وبداية السبعينات بالنسبة لليمن ، وبالتحديد بعد انقلاب الخامس من نوفمبر ١٩٦٧ حينما استعاد المجتمع توازنه الطبيعى وفقــا للتركيب الاجتماعى والطبقى الجديد الذى افسح فيه مكانا بارزا للطبقــة البرجوازية والكمبرادور المحلى والدولى بعـد الثورة ، مـــع بقاء الطبقة الاقطاعية فى مركز القيادة وتوسيع قاعدتها فى قمة السلطة ، ولأنها لم تكن قد أصيبت بأى أذى حقيقى من الثورة سواء بعض الخدوش والصدمــات العصبية التى أيقظت وعيها وزادت عن قدرتها على الدفاع عن نفسها وعن مصالحها وتنمية هذه المصالح بصورة أفضل مستفيدة من كل خبراتهـــا ومهارتها القديمة والجديدة ٠

٥ - أنه ما أن أخذت هذه الظروف الاستثنائية بالزوال النهائى وتبلور الأوضاع الاجتماعية بهذا الشكل حتى كان أولئك المثقفون قد أصبحوا أشبه ما يــكونوا بالمتشردين تماما على هـــامش الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد أن تداعت كل أفكارهم المثالية الهشة وتمزقت روابطهم المصطنعة (فى شمال الوطن بالذات) وصاروا امام خيارين لا ثالث لهما ، اما الانتحار حزنا على رحلة الضياع التى قضوا فيها ربع أعمارهم تقريبا واما التنازل عن كل أفكارهم وكبريائهم المزيف والقبول بالأمر الواقـــع والطبيعى ، وذلك بأعادة توزيع أنفسهم بين مختلف الطبقات السائدة فى المجتمع والتعبير عن مصالحها المتفقة والمتعارضة وربط أنفسهم بها ، أما وفقا لانتمآتهم الأصــلية وهو الأصح والأقرب الى الموضوعية ، أو وفقــا لانتمآت وقناعات شخصية وسياسية واجتماعية جديدة وهو أمر مقبول وممكن أيضا بحدود نسبية ، ولأن الخيار الأول هو أبعد ما يكون عن طبيعة الأمور والثانى هو الأقرب الى منطقها وطبيعتها فقد تم الأخذ به على نطاق واسع وما يزال جارى على قدم وساق ، (وفى شمـــال الوطن بالذات) ، رغم أن بعض الطيبين من هؤلاء المثقفين الذين أفقدتهم هول الصدمة القدرة على استعادة

توازنهم من جديد وهم كثيرون فى مجتمعنا قد فضلوا الطريقة الأولى طريقة الانتحار المباشر وغير المباشر عن طريق الاستسلام للتشرد الاجتماعي والنفسى حتى النهاية .

أما اذا تسألنا عن كيفية وأسباب حدوث كل هذا ولماذا ؟ فان كل ذلك سوف يتضح من خلال تحليلنا الأكثر عمقا لمسائلة الاغتراب فى حياة المثقفين اليمنيين فى الفصل القادم .

الفصل السادس

اغتراب المثقفــين اليمنيين

معنى الاغتراب :

نود أن نعيد الى الذاكرة الآن ما يقوله أزفلد Azveld عن الاغتراب بأنه هو الانفصال بين الأنا والآخر ، انفصال يؤدى الى العداء ، أو هو ذلك الاستلاب الذى يؤدى الى العبودية ، أو بعبارة أخرى هو فقدان الحريـــة وزوالها • أو هو — كما ترى الماركسية — حالة توجد فى ظروف تاريخية معينة وترتبط بتوفر هذه الظروف ، وان أساسها فى المجتمع المتخضر هو « أغتراب العمل » الذى ارتبط بكل نظم الملكية الخاصة ابتداء من نظام الرق حتى النظام الرأسمالى(١) •

فالاغتراب بهذا المعنى هو انفصال الانسان عن عمله وما ينتجه من خلال هذا العمل ، سواء أن كان هذا العمل ماديا أو معنويا ، ويعنى بالتالى انفصال الانسان عن واقعه وتحوله الى ظاهرة مغتربة •

مظاهر الاغتراب فى حياة المثقفين اليمنيين :

ونظرا لأننا لم نكن هنا بصدد البحث فى قضية اغتراب العمل والانتاج المادى فى ظل المجتمع الرأسمالى بقدر ما نحن بصدد البحث عن الاغتراب فى ظاهرة جزئية معنوية لا مادية ، وهى أغتراب المثقفين فى المجتمع اليمنى وفى البلدان النامية بصفة عامة ، فاننا سنقـوم بمناقشة وتتبع أبعاد هـــذه القضية بالنسبة للمثقفين اليمنيين من خلال هذه الرؤية العلمية والتاريخية نفسها ، وفى ضوء بعض الوقائع والأحداث المعاصرة التى جسد من خلالها وبسببها المثقفون اليمنيون وغير اليمنيين فى المنطقة العربية حقيقة أغترابهم الواقعى والذهنى •

---

(١) راجع مجلة عالم الفكر الكويتية عدد أبريل مايو يونية ١٩٧٩ ص ٦ ، عدد خاص عن الاغتراب •

فلو أننا قمنا بمراجعة بسيطة لما سبق وأن حللناه عن ظروف نشأة وتطور المثقفين اليمنيين المعاصرين وغيرهم فى البلدان النامية وطبيعة أصولهم وتركيبهم الطبقى لادركنا بسهولة أن مجمل الظروف التى وجد فيها المثقفون اليمنيون المعاصرون قد جعلت منهم ظاهرة مغتربة تتلخص فى جوهر النشأة الانتقائية القومية واغترابهم المحقق عن أصولهم الاجتماعية والطبقية حينما ظنوا أن فى مقدورهم أن ينفصلوا عنها أو أنهم قد أنفصلوا بالفعل ، ومحاولة أبراز أنفسهم كجماعات ليبرالية متماسكة وقائمة بذاتها قادرة على صنع كل شىء من أعلى ووفق أسس ومفاهيم مثالية ومغتربة عن الواقع الاقتصادى والاجتماعى والطبقى على نحو ما سبق تحليله فى الصفحات السابقة •

أما مجمل الأحداث والوقائع الناجمة عن تلك البداية والتى جسدت حالة اغتراب المثقفين اليمنيين منذ بداية الستينات وحتى منتصف السبعينات وما يزال أمتداداتها حتى اليوم فانها تتمثل فى عدد من القضايا الأساسيه والجوهرية والتى يأتى فى مقدمتها ، اساءة فهم المســـألة القومية وسوء استخدامها ، وفقدان الرؤية التاريخيـــة والعلمية الصحيحـــة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع ، بل ورفض هذه الرؤية من حيث المبدأ فى البداية ، والخلط المميت بين الخلافات الثانوية والتناقضات الأساسية ، سواء فيما يتعلق بعلاقاتهم مع بعضهم أو برؤيتهم للواقع والتعامل معه ، اضافة الى سوء فهمهم لطبيعة دورهم وحدود امكانياتهم وانفصالهم عن الواقع والجهل به ، وبامكانياته الى حد كبير •

ونظرا لما لهذه القضايا من الأهمية الخاصة فاننا سنتناول كل منها بشىء من التفصيل كتجسيد عملى لمظاهر الاغتراب الذى وقع فيه المثقفون اليمنيون كنموذج نجد له الكثير من القرائن على النطاق القومى وعلى نطـاق البلدان النامية والمتخلفة ككل وذلك على النحو التالى :

أولا ـ اساءة فهم المسألة القومية وسوء استخدامها :

قد يكون من الحماقة أن لم يكن من السخف الحديث عن هذه النقطـة بالنسبة للمثقفين اليمنيين بعيدا عن المثقفين العرب فى المنطقة العربية ككل ، باعتبار أن المسألة القومية بالنسبة للشعوب العربية والأمة العربية هى كل مترابط لا يتجزأ ، والحديث عن أى قطر فى هذه المسألة بالذات هو حديث عن الأمة العربية ، وهذا هو ما لا نجد أحد ولن نجد أحد يختلف معنا فيه قيد أنملة ، كما لن نجد من يختلف معنا فى أن نكبة الشعب الفلسطينى عام ١٩٤٨ وأخفاق النظم الاقطاعية السائدة وقتها فى المنطقة العربية فى

مواجهة النكبة كانت هى الجرثومة الأولى لانتعاش الفكر القومى العربى لكشف الأنظمة الاقطاعية وأدانتها من جهة والتصدى للاحتلال الأجنبى والحصول على الاستقلال من جهة ثانية ، وتبنى استراتيجية قومية فى مواجهة الاطماع الصهيونية واستعادة حقوق الشعب الفلسطينى من جهة ثالثة .

ولقد نجحت هذه الحركة القومية بقيادة عبد الناصر فى تمتين كل أواصر القرباء والروابط القومية للأمة العربية وتوطيد كيانها القومى المعاصر وبلورة أهدافها وطموحاتها فى مواجهة الخواء والضعف الذى كان قد أصاب تلك الأواصر والروابط القومية فى ظل النفوذ الاستعمارى والأنظمة الاقطاعية القديمة ، وما أعترى بعض أجزاء هذه الأمة من تهديد مباشر لهذا الكيان نفسه ، كطموحات فرنسا فى فرنسة دول المغرب العربى ، وطموحات أيران وبعض الجاليات الأجنبية فى مسخ عروبة الخليج العربى ، والتى لم تنتهى حتى اليوم ، وكذلك مأساة الشعب الفلسطينى التى تم تنفيذها بالفعل ، اضافة الى مشكلات جنوب السودان وشمال العراق ومشكلة لبنان الاحقة .

فكل هذه الأمور وما شابهها هى بقدر ما أنها تشكل صلب اهتمام المسألة القومية ومجالها الحيوى فى حياة أى أمة من الأمم ، فأنها تشكل من باب أولى الحدود التى لا يجب أن تتجاوزها والامكانية التى لا تقوى على القيام بما عداها من الأمور والقضايا الاستراتيجية فى حياة أى أمة من الأمم أو أى شعب من الشعوب ، خصوصا ما يتصل من ذلك بمسألة العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والطبقية داخل المجتمع الواحد ، حيث تبتعد مثل هذه الأمور كلية عن طبيعة الدور القومى ومفهومه العلمى الصحيح ، لتأخذ مكانها التاريخى البارز كقضايا اجتماعية واقتصادية وتاريخية محكومة بقوانين التطور الاجتماعى والاقتصادى وعلاقاته الانتاجية والطبقية المتناقضة فى كل مجتمع .

ومشكلة الحركة القومية العربية وكل حركة قومية معاصرة فى البلاد النامية بالذات هو الخلط بين المسألة القومية والمسألة الاجتماعية ، وحشر الثانية فى نطاق الأولى بصورة تعسفية لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الحديث . ذلك أن قادة ومثقفوا الحركة القومية المعاصرة قد طمحوا عبثا فى أسقاط الطبقة الاقطاعية وحل مسألة الصراع الطبقى وبناء الاشتراكية والوحدة ... الخ . من خلال هذا المفهوم القومى الذى يبدو عقيما على الدوام ازاء مثل هذه المسائل الاجتماعية ، حيث اعتقدوا بأن نجاح فرقة من

الجيش هنا أو سرب من الطائرات هناك فى اسقاط هذا الملك هنا أو قتله هناك واعلان اسم الجمهورية بدلا من الملكية يعنى القضاء على الطبقة الاقطاعية وازاحتها عن السلطة الى الأبد ، أو أن تأميم هذا المصنع هنا ، وهذه الارض هناك فى نطاق نفس المفهوم يعنى أقـــامة الاشتراكية ، أو آن النص فى الدساتير الرسمية على أن كل قطر عربى هو جزء من الأمة العربية وعمـل قيادات سياسية قطرية وقومية وقنوات اذاعية موجهة يعنى تحقيق الوحدة العربية ٠

بل غالبا ما كانت تستخدم مثل هذه الشـــعارات لمجرد المناورات السياسية الشكلية ، واستغلال عواطف الناس والتلاعب بمشاعرهم القومية والوطنية فى نطاق من التصرفات الانتهازية البحته من قبل جماعات السلطة المثقفة ونصف المثقفة وبوعى منها أو بدونه ٠

الأمر الذى لم يؤدى فى النهاية الى الفشل الذريع فى المحاولات العقيمة لحل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فحسب ، بل والى عدم القدرة على حل المسائل القومية نفسها والتى يأتى فى مقدمتها مشكلة الشعب العربى الفلسطينى ومواجهة الاطماع الصهيونية فى المنطقة مواجهة قومية صحيحة حتى الآن ، بل انه غالبا ما أسىء استغلال هذه القضية وغيرها من القضايا ذات الطابع القومى استغلالا سيئا من أجل تحقيق أغراض نفعية جزئية واقليمية وفئوية ضيقة الأفق والدلالة الاجتماعية ، ولقد لعب المثقفون السياسيون ومنظماتهم المختلفه دور البطولة دائما فى مثل هذه الأحـداث وحتى اليوم ، مع بعض الفوارق النسبية من قـطر عربى لآخر فى الوقت الحاضر ٠

والمثقفون اليمنيون لم يكونوا ليتميزوا فى شىء عن هذا الطابع القومى الشامل الذى طغى على غالبية المنطقة العربية منذ بداية الخمسينات وحتى نهاية الستينات وبداية السبعينات ، الا فى كونهم أكثر الجميع حماســة وصدقا وتضحية ، وأقلهم خبرة وأمعاننا فى التصرف الانتهازى طوال هذه المرحلة ، ربما لأنهم لم يستطيعوا الفوز بثقة الطبقة البرجوازية والاعتماد على فكرها وامكانياتها فى المناورة والامساك بالسلطة كما فعل الكثيرون فى اقطار عربية أخرى حتى اليوم ، كسوريا والعراق ، وليبيا ، ومصر ، أو لأن هذه الطبقة البرجوازية والكمبرادورية الجديدة فى اليمن هى التى رفضت ــ على الأصح ــ منحهم ثقة التعامل والتحالف معها بعد أن نجحت الطبقـة الاقطاعية فى أقصائهم نهائيا عن التأثير المباشر فى الســـلطة بعد انقلاب

الخامس من نوفمبر سنة ١٩٦٧ ، وتأكدت من سوء نواياهم والعواقب الغير مأمونة للتعامل معهم من خلال ما حدث في الشطر الجنوبي من الوطن من تحولات وطنية وثورية بعد الاستقـــلال عام ٦٧ وحتى الآن ، ووجدت أن مصلحتها الحقيقية تكمن في التحالف مع الطبقة الاقطاعية التي وضعت يدها على السلطة في شمال الوطن ، وليس في المراهنة على ما تبقى لهؤلاء المثقفين من طموحات وأفكار غامضة وغير مأمونة العواقب بالنسبة لهذه الطبقـــة نفسها ، والتي كانت قد فرضت وجودهـــا وحصـــلت على حق الاعتراف بمصالحها من قبل الطبقة الاقطاعية ومشاركتها في السلطة أيضا ، ولم تعد بحاجة الى « الشقاوة » القديمة لهؤلاء المثقفين أيام كان الجميع يعمل على اسقاط الديكتاتور الاقطاعي الأوحد ممثلا في الامام الملك ، ولم تعد حاجتها اليهم الا كموظفين وخبراء مطيعين ومخلصين لادارة الأعمال والمصالح التجارية لهذه الطبقة برواتب وامتيازات مادية مغرية اذا حجبت عنهم الطبقة الاقطاعية الحاكمة شهادات حسن السير والسلوك من أجـــل الحصـــول على الوظائف الحكومية الأقل اغراء من الناحية المادية ، بالنسبة لمن قد يتردد في استغلال هذه الوظائف في الحصول على الكسب غير المشروع •

ثانيا : فقدان الرؤية التاريخية والعلمية للعلاقات الاجتماعية والطبقية

لقد كان جدير بكل تلك المقدمات الخاطئة بكيفية النشأة الانتقائيـــة للمثقفين اليمنيين وارتباطاتهم المشوهة بأصولهم الاجتماعية والطبقية أيضا ونظرتهم وتعاملهم الخاطىء مع المسألة القومية ، كان جدير بكل هذه المقدمات أن تفقدهم القدرة على تكوين الرؤية التاريخية والجـــدلية العلمية الحسنة للواقع الاجتماعي وطراز تكوينه وعلاقاته السياسية والاقتصادية والطبقية ، وانتهاج خط سياسي وفكري يتناسب وطبيعة هذا الواقع وظروفه المتميزة منذ أول خطوة •

اذ أن الأمر لم يتوقف بالنسبة لهم طوال مرحلة الستينات عند مجرد الخلط المميت بين الخلافات الثانوية والتناقضات الرئيسية سواء فيما يتعلق بتعاملهم مع بعضهم أو مع الواقع من حولهم ، بل لقد تجاوز هذا الأمر الى حد أن معظم منظماتهم السياسية ظلت ترفض المنطق التاريخي والعـلمي نفسه في تفسير المجتمع وتقاومه بعنف طوال عقد الستينات تقريبا ، ولم يختلفوا في ذلك قط عن أعتى القلاع والبؤر الاقطاعية والكمبرادوية داخل المجتمع اليمني أو خارجه ، وما يزال البعض منهم كذلك حتى الآن •

فلقد أمعنت بعض منظماتهم السياسية في الاستقطاب الكمي لقطاعات

واسعة من أفراد الطبقة الاقطاعية والقبلية ذات الأفق الرجعي المتخلف بطبيعتها وضمها الى صفوفها ، لا لشيء الا لرغبة وهمية خاطئة منها في ترجيح كفة التوازن ازاء منظمة أو تيار سياسى آخر من خلال هذه العناصر لا من خلال تحويلها الى عناصر سياسية قوية مؤمنة بالتوجه الوطنى والقومى على الأقل الذى يتحرك الجميع فى نطاقه بلا هدف واضح ، وانما من خلال الاستفادة من ثقلهم السياسى والاجتماعى وسطوتهم الارهابية والهمجية ، وكما لو كانت مثل هذه المنظمات التى أسسها ويتزعمها المثقفون تبحث عن مأمن لأفكارها وتطلعاتها الوطنية والقومية اللبرالية فى حماية الطبقة الاقطاعية والاستفادة من ثقلها السياسى وبأسها الاجتماعى فى مواجهة قرائنهم من المنظمات المنافسة التى تقوم هى الاخرى بفعل نفس الشيء • وبذلك تحولت الخلافات الثانوية الى تناقضات رئيسية ، والتناقضات الى تحالفات ، وتلك سذاجة لم يسبق لها مثيل ، عرف الكل حقيقتها فيما بعد، بعد أن دفعوا ثمنها غاليا •

ولقد تجسدت هذه الحالة فى اليمن من خلال أشكال ونماذج عدة كان أبرزها على الاطلاق هو ما حدث للتيار القومى الناصرى مع التيار القومى لحزب البعث العربى الاشتراكى الذى تورطت منظماته الفرعية القديمة فى اليمن فى استقطاب مجاميع واسعة من الطبقة الاقطاعية والعشائرية والارستقراطية ، نتيجة لما عانته من ضغط واضطهاد التيار الآخر المعزز بوجود الجيش المصرى فى اليمن ، والذى لم تألوا سياسته الرسمية هو الآخر ممثلة فى سلطة القيادة السياسية فى الجيش المصرى عن التركيز على ذلك الوسط نفسه فى محاولة كسبه الى جانبه أو لكى يكف عن المعارضة على الأقل، عن طريق التهديد المهذب أحيانا أو الاغراء والعطايا السخية أحيانا كثيرة ، والأمر لم يكن يختلف كثيرا بالنسبة لحركة القوميين العرب فى استفحال خلافها مع البعث وتعايشها مع القيادة السياسية الناصرية فى اليمن بحذر(١) • وكذلك عناصر اليسار الماركسى التى كانت تتبادل الرفض والقيطة والكره مع كل الأطراف السابقة •

وبينما كان هؤلاءك المثقفون السياسيون الأشقياء جميعا يلعبون فيما بينهم وضد بعضهم هذه اللعبة الساذجة والمميته والتى برز فيها منطق التطور التاريخى مقلوبا على رأسه ، كانت تلك العناصر الاقطاعية والعشائرية قد أصبحت من خلال الممارسة السياسية نفسها أكثر وعيا وادراكا لمصالحها السياسية والطبقية ، وأكثر قدرة على تنمية وتطوير هذه المصالح والتعبير

(١ مكرر) راجع عبد الفتاح اسماعيل : كتابات مختارة حول الثورة الوطنية الديمقراطية ، وآفاقها الاشتراكية ، ١٩٧٩ ، ص ١٧ •

عنها ، وميلا الى السخرية بأفـــكار أولئك المثقفين (الطيبين) وطموحاتهم الساذجة أكثر من كونهم قد انصاعوا لها كما كانوا يظنون خطأ ٠

بل لقد استطاعت العناصر والبؤر الأكثر اقطاعية ورجعية خصوصا ما يتعلق منها بتلك العناصر ذات البعد الامامي والملكي الأكثر رجعية وعداء للتغيير والتقدم أن تمارس لعبة انتهازية هي أكثر ذكاء وحنكة ، حينما لم تكتفي بالبحث عن مقاعد لها في أوساط تلك المنظمات السياسية القومية للمثقفين فحسب بل لقد عمدت في بعض المراحـــل الى تأسيس منظمات سياسية خاصة بها ذات اطر خارجية ومظهرية أكثر وطنية وأكثر ثورية من سواها وذات طابع يساوى متطرف أمعاننا منها في الانتهازية وبحثا عن ظل تخفي وراءه دوافعها السياسية والطبقية الحقيقية ٠

ومنظمة « اتحاد القوى الشعبية » بكل أبعادها ودلالاتها وما انتهت اليه تقدم أبرز دليل على ذلك ، حينما بدأت كذبا بشعارات شوفينية صينية وانتهت حقيقة ملكية ورجعية اقطاعية عفنة ٠

ولقد كان انقلاب الخامس من نوفمبر سنة ١٩٦٧ هو أبرز مشاهد هذه اللعبة المميتة ، حينما حلم بعض المثقفين الطيبين بالاستيلاء على السلطـــة بالتحالف مع هذه البؤر الاقطاعية والعشائرية وبمشاركتها ، فكانت أكثر منهم ذكاء ، حيث ثبت أنها هي التي أستفادت من هؤلاء المثقفين الأشقياء في العبور على أكتافهم الى قمة السلطة والانفراد بها ، أو أن هؤلاء المثقفـون أنفسهم على الأصح قد حملوا على رؤسهم هذه الطبقة الاقطاعية الى السلطة وساهموا في أضعاف خصومها من منافسيهم الوطنيين بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، وذلك حينما تحالفوا معها ورمو بعرض الحائط بكل قوانين العلم والتطور الاجتماعي وطبيعة العلاقات الاجتماعية الطبقية في المجتمع ، بل كثيرا ما كانوا يشيرون اليها بأصابع الاتهام بسذاجة متناهية ، ناهيك عن الجهل المفرط في فهمهم لأنفسهم وطبيعة دورهم كمجرد فئة اجتماعية موزعة رأسيا بين مختلف الطبقات والمصالح المتناقضة في المجتمع وكأدوات تعبيرية ومنظرة لا أكثر عن هذه المصالح والتناقضات الاجتماعية في المجتمع ككل ٠

ثالثا : البعد عن الواقع الاجتماعي والجهل بخصوصياته وامكانياته الذاتية :

أما الظاهرة الثالثة التي جسد من خلالها المثقفون اليمنيون قصـــة اغترابهم المعاصرة فهي لم تكن مجرد اسأة فهمهم للمسألة القومية وابتعادهم المشبوهة عن أصولهم وانتمائتهم الطبقية على نحو ما سبق تحليله ، بل وفي انفصالهم الفكري والثقافي التام عن الواقع الاجتماعي برمته ، والامعان في

الجهالة المطبقة لفهم ظروفه وخصوصياته الاجتماعية والتاريخية المتميزة ، عوضا عن الانفصال التام عن معايشتها والعمل من خلالها على نحو ما يفعل عامة الشعب على الأقل ، الذين وان كان قد فرض عليهم التخلف الفكرى والثقافى فى فهمها وادراكها ، الا انهم يعيشونها كأطار عملى منظم لحياتهم ، ويجسدون من خلالها وجودهم الاجتماعى نفسه ، بينما افتقر المثقفون الى كلا الأمرين معا وصار يصدق عليهم قول « جرمين تايلور » وهو يصف أوضاع مثل هذه العناصر بأنهم أناسا مشردين حقا ، أناسا اقتلعت جذورهم من أرضها ، أناسا بؤساء مطرودين من جماعة قديمة لا يقبلونها ، ومن جماعة جديدة لا يرقى اليها مستوى حياتهم وثقافتهم(٢) .

ولقد كان من أبرز الأسباب والعوامل الحاسمة التى قادت هؤلاء المثقفين اليمنيين الى هذا الوضع المغترب عن واقعهم والجهل به الى جانب طبيعة النشأة وأثر العامل القومى ، هو نمط التعليم الرسمى الذى بدأو يتلقونه فى المدارس والمعاهد فى الداخل والخارج بعد الثورة من جهة ، ونوع اهتماماتهم الفكرية والثقافية الموازية ذات الطابع الانتقائى والعشوائى البحت المتجه كليا الى الخارج على النطاق العربى والعالمى من جهة أخرى ، اضافة الى ردود الفعل العكسية الناجمة عن شدة العزلة والكبت الثقافى والفكرى الذى كانت تفرضه السلطة الاقطاعية القديمة قبل الثورة فى الشمال والاستعمارية فى الجنوب ضد كل ما هو أت من الخارج أو خارج من الداخل .

حيث جاء رد الفعل بعد الثورة أشبه بعملية أسقاط مرضية فى البحث عن كل ما هو خارجى فى مجال التعليم والثقافة والعلم ، وترك كل ما هو ذاتى وداخلى والابتعاد عنه بأعتباره تخلفا ، ولا يحمل آية دلالة ذات أهمية فى مجال الثقافة والتعليم والفكر والتربية ، ولقد تجسد ذلك من خلال المظاهر الآتية :

(أ) التعليم

فلقد تظافرت كل العوامل والظروف الداخلية والخارجية وتعاونت فيما بينها بصورة مباشرة وغير مباشرة فى الدفع بالعملية التعليمية والثقافية والفكرية فى اليمن بالذات منذ عام ١٩٦٢ وحتى اليوم الى مسار مغترب عن الواقع الى حد كبير ، بدلا من كونها انعكاسا له وتعبيرا عن مشاكله ومتطلباته

---

(٢) موريس دوفرجيه : مدخل الى علم السياسة ، ترجمة جمال الاتاسى وسامى الدروبى ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ص ١٢٥ .

كما هو المفروض ، فا الى جانب أن كل المناهج التعليمية والتربوية ابتداء من رياض الأطفال وحتى الثانوية العامة قد نقلت على علاتها نصـــا وروحا من مصر منذ عام ١٩٦٣ وقطعت كل صلة لها بالواقع وما يزال معظمها كذلك فى شمال الوطن حتى الآن ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فان أغلا أمنية كل طالب فى التعليم العام والمتوسط كانت ولا تزال هى أن يكمل تعليمه الثانوى والجامعى على الأقل خارج الوطن وفى أى مكان من العالم ، واستطاع آلاف الطلاب وكل من حصل على الثانوية العامة تقريبا أن يحصل على فرصة السفر لاكمال تعليمه فى الخارج منذ عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٧٢ ، حينما بـدأت جامعة صنعاء وجامعة عدن تحد من هذه الظاهرة وتمتص نسبة بسيطة منها لا تتجاوز ٢٠٪ ٠

ومما زاد من توفر هذه الفرص امام الطلاب لاكمال تعليمهم الجـامعى فى الخارج هو ما حظيت به اليمن من عطف وتعاون عربى ودولى كبير فى هذه المسالة بالذات ، نظرا لما عانته اليمن من الحرمان من التعليم فى الماضى والعجز المخل فى الحاضر من جهة ، ولأن هذا الامر نفسه قد شكل عملية التزام أدبى ووطنى لا خيار فيه بالنسبة للدولة أزاء هذه القضية حتى الآن من جهة أخرى ، مع حالة غياب كامل أو شبه كامل لأى خطة مجددة يسير فى نطاقها هذا الايفاد الواسع لمراحل التعليم المتوسط والجـامعى أو حتى الاشراف الصحيح ، الأمر الذى حول العملية التعليمية الى عملية اغتراب محقق وما تزال رغم ما قد حظيت به هذه الظاهرة من اهتمام وتغير ملحوظ من الناحية الكمية وبالذات فيما يتعلق بالشطر الشمالى من الوطن ، وحتى وقت ليس بالبعيد بالنسبة للشطر الجنوبى أيضا والذى أخذ فى التحول منذ بداية السبعينات نسبيا ٠

فلقد تعلمنا الكثير الى حد التخمة ونحن تلاميذ صغار فى المدارس عن واقعة دنشواى ومظاهرة عرابى وكيف حطم نابليون أنف أبو الهول ٠٠ الخ ، لكن أحد منا لم يعرف شىء حتى الآن عن موقعة شهارة فى الحرب الوطنية ضد الاتراك وقد لا يستطيع التعرف بسهولة حتى على موقع هذه المنطقة على الخريطة الجغرافية لليمن ، كما أن الكثيرين أن لم نقل جميع جيلنا المعاصر لا يعرف شيئا عن المذابح الفردية والجماعية التى ارتكبها الائمة طوال تاريخهم ضد أفراد الشعب اليمنى ولا كيف قـاوم الشعب هذا الاضطهـــاد ، بل ولا يعرفون كيف حطم يعلى بن أمية قصر غمدان ولمـاذا ؟ ٠٠٠ الخ ٠ ولنـا عودة الى مناقشة مثل هـــذه الأمور حينما نتحدث عن المدلول الاجتماعى والتاريخى لمعنى الظروف الذاتية والموضوعية بعد قليل ٠

(ب) الثقافة :

أما الشكل الثانى للاغتراب الفكرى والثقافى فى حياة المثقفين اليمنيين، وهو الأهم فى تقديرنا ، فقد جاء عن طريق ما يعرف بالفكر الموازى أو الثقافة الموازية ، أى غير الرسمية من خلال الاهتمامات الفكرية والسياسية والثقافية والذاتية التى لعبت الدور الحاسم والمباشر فى تكوين المثقفين اليمنيين وبنائهم الفكرى والثقافى الى حد كبير ، حيث كان هذا الشكل هو أكثر اغترابا لأسباب كثيرة أهمها : أن بذور هذه الثقافة الموازية وبداياتها المعاصرة على نطاق المنظمات السياسية قد نقلت هى الأخرى الى اليمن من بيروت أو دمشق أو القاهرة بصورة أكثر أغترابا وربطا للاهتمامات السياسية والثقافية والفكرية وحتى الأدبية بالنطاق القومى فى أحسن الأحوال والنطاق العالمى فى أحيان كثيرة ، واسقاط كل اهتمام بالواقع المحلى ، لا باعتباره الأرضية الحقيقية التى سيرتكز عليها نشاط هؤلاء المثقفين حاضرا ومستقبلا ، ولا حتى باعتبار هذا الواقع جدير بالاهتمام باعتباره جزء هام وحيوى من التكوين القومى كله للوطن العربى والأمة العربية ٠

لقد كانت المنظمات السياسية والثقافية للمثقفين اليمنيين فى بداية تكوينها على الأقل وحتى وقت قريب هى أشبه ما تكون بالبعثات الدبلوماسية تماما لهذا الموقف السياسى والايدلوجى أو ذاك داخل الوطن العربى وخارجه، الأمر الذى زاد من أغتراب الثقافة والمثقفين فى بلادنا وكرس قطيعتهم بالواقع الاجتماعى وزيادة جهلهم به وعزلتهم عنه وعجزهم عن التعامل الحقيقى معه الى حد مخيف ٠

فقد زاد اهتمام المثقفين اليمنيين السياسيين بما يصدر عن ميشيل عفلق كمؤسس لحزب البعث العربى الاشتراكى فى سوريا ، ومحسن ابراهيم كمؤسس لحركة القوميين العرب فى لبنان ، وتعليقات أحمد سعيد أو خطابات عبد الناصر فى القاهرة والانصياغ النفسى والعصبى المريض لكل ما يصلهم من هذه المصادر الثقافية والسياسية بلا مناقشة مسموعا كان أو مكتوبا ، ناهيك عن بعض المقولات المتداولة الجافة لماركس ولينين وأحاديث ماوتسى تونج ، والانطلاق من خلال كل ذلك للصراع فيما بينهم ومحاولة تصفية بعضهم البعض أولا وقبل كل شىء ٠

فى الوقت الذى خلت أذهانهم تقريبا من أى تصور علمى وموضوعى صحيح لظروف الواقع الذاتى والموضوعى وتحرك القوى الطبقية الاقطاعية والكمبرادورية وأستعدادها الواسع لافراغ الثورة والنظام الجمهورى من

مضمونهما الوطني والقومي على الأقل ، والانفراد بالسلطة ، مستفيدة من خبراتها الجديدة التى اكتسبتها من خلال الأحداث ، وعمق تجربتها القديمة والضاربة فى صميم الواقع الاجتماعى والاقتصادى ، فكان لها ما أرادت وكان للمثقفين ما يكرهون ٠

ولا تفوتنا الاشارة الى الحقيقة الاجتماعية والتاريخية المعاصرة والتى لم يعد ينكرها أحد ، والتى مؤداها بأن مصادر الفكر والثقافة القومية التى أغتربت الى داخل المجتمع اليمنى أو التى أغترب اليها المثقفون والمتعلمون الى خارج المجتمع على النطاق القومى والعالمى ، هى فى ذاتها كانت ولا تزال ظاهرة مغتربة أصلا بحكم طبيعة تكوينها ومضمونها ، ليس بالنسبة لمن وصلت اليهم جاهزة فى هذا القطر العربى أو ذاك من خلال أبواق الاذاعات والصحف او الكتب والارساليات السياسية ، او المناهج الدراسية التعليمية الرسمية ، بل أنها كذلك كانت ولا تزال ظـــاهرة مغتربة أيضا بالنسبة لمصادرها ومنطلقاتها الاقليمية أيضا ، سواء كانت فى مصر أو سوريا أو العراق أو بيروت ، ومقطوعة الصلة الاجتماعية والتاريخية والجدلية العلمية الصحيحة بالواقع الاجتماعى والتاريخى لهذه المصادر الاقليمية بصفة خاصة والأمة العربية بصفة عامة ، والتى تلقتها جماهيرها الفقيرة وأسلمت لها كل مشاعرها وعواطفها الوطنية والقومية بصدق أكثر من عقدين من الزمن ابتداء من نهاية الأربعينات وحتى بداية السبعينات ، حينما أفتضح كل زيفهـــا وأغترابها عن الواقع الذاتى والموضـــوعى ليس بالنسبة للمجتمع اليمنى فحسب بل وبالنسبة للأمة العربية كلها ، والتى ما يزال الكثيرون يتسترون ويخفون هذه الحقيقة اما تحت مظلة المناورات والمزايدات السياسية البالية التى لم يعد لها اذان تسمع ولا قلوب تخشع ، لا على النطاق الاقليمى ولا على النطاق القومى ، وأما تحت وطأت العنف والتصفيات الجسدية بالجملة ٠

ونظرا لما لهذه النقطة المتعلقة بالظروف الذاتية والموضوعية لأى أمة أو مجتمع نامى أو متخلف من مفهوم خاص فى أذهان المثقفين لا ينسجم قط وطبيعة هذا المفهوم أو يعبر عنه من قريب أو بعيد ، فأننا سنقوم بمحاولة تشخيص بعض الدلائل والمؤشرات العملية والواقعية لهذا المفهوم فى صميم الواقع اليمنى والعربى ، حتى يتبين لنا بوضوح أكثر مدى الاغتراب الثقافى والفكرى لفكرنا وثقافتنا العربية وانفصالها وعزلتها المميته عن طبيعة الواقع الاجتماعى والتاريخى لكل قطر عربى على حدة وللأمة العربية بصفة عامـــة والمجتمع اليمنى بصفة خاصة ، وبالذات فى الفترة من نهاية الأربعينات وحتى بداية السبعينات ٠

وذلك من خلال بحث وتحليل المدلول الاجتماعي والتاريخي للظروف الذاتية والموضوعية للمجتمع اليمني والعربي بصفة خاصة والمجتمعات النامية والمتخلفة بصفة عامة ، والتعرف بشكل أعمق على التوازن المختل في أذهان المثقفين اليمنيين وغير اليمنيين بين حقيقة هـذه الظروف وخصوصياتهـا وأمكانياتها من جهة وكعوامل ذاتية وموضوعية داخلية ورئيسية من جهـة أخرى ، والظروف القومية والدولية كعوامل ثانوية من جهة ثالثة ، وذلك حتى لا نتوقف عند مجرد التحليلات النظريـة السابقـة التي قد لا تضيف الى معلوماتنا الا القليل ٠

المدلول الاجتماعي والتاريخي لمعنى الظروف الذاتية والثقافية الوطنية

نستطيع أن نؤكد بحزم ومنذ البداية في هذه النقطة على حقيقة أن الظروف الذاتية والموضوعية التي يرددها مثقفونا على أسماع بعضهم البعض يوميا أكثر من ترديد أسمائهم الشخصية ، لم تكن قط مجرد صيغة لفظية غير ذات مدلول على غرار مقولة « زيد ضرب عمر » ولا كلمة سر نثبت من خلالها هويتنا عند اللزوم ، كما أنها ليست تسمية لغوية أو علامة تجارية يستطيع كل من يحصل على امتياز استخدامها أن يدمغ نفسه وأشيائه بها لكى يتميز عن غيره ويبدو أكثر أغراء لمن يشاهده أو يستمع الى حديثه ٠

ان الظروف الذاتية والموضوعية هي صميم الوجود الحقيقي للمجتمع ومجموع تاريخه كله ومفتاح تحوله نحو الأفضل بغير بديل ٠

ونظرا لما تعانيه هذه القضية في البلدان النامية والمتخلفة من فقـدان المدلول الاجتماعي والتاريخي لها الى حد مخيف لدى المثقفين بصفة عامـة والوطنيين منهم على وجه التحديد ، وما نجم عن كل ذلك من عملية أختلال خطير في التقدير العلمي السليم للعوامل الموضوعية والذاتية في مقابـل العوامل الخارجية ، فاننا سنقوم في هذه الفقرة بأعطاء لمحة سريعة وعاجلة عن المدلول الصحيح لمعنى الظروف الذاتية والموضوعية في عملية النضال والتحول في واقع مجتمعنا اليمني والعربي بالذات ، مع مقارنتها بالعوامل الخارجية غير الذاتية التي طغت على العوامل الذاتية وأضعفت دورها الى حد بعيد ٠

فبينما نجد مثلا بكل وضوح أن كل وسائل الاعلام والثقافة والدراسة والبحث عن المجتمعات الاشتراكية والرأسمالية المتقدمة على السواء والحركات القومية واللبرالية التاريخية لكثير من الشعوب قد أتاحت بوفرتها وتنوعها

لمثقفى البلدان النامية والمتخلفة بعامة والوطن العربى واليمن بخاصة أن يطلعوا على الكثير والكثير من تفاصيل الحياة العامة وجزئياتها وتاريخهـــا أيضا فى المجتمعات الاشتراكية والرأسمالية معا فى الوقت الذى لا يعرفون عن ثقافتهم الوطنية وواقع شعوبهم ومجتمعاتهم الا التافه القليل والمشوهة ٠

ففى اليمن مثلا نجد الآن ـ كما يقول عبد الفتاح أسماعيل ـ أن أكثر مثقفينا ولعا بالثقافة أو الأدب يفهمون جيدا ما يدور من جديد على الصعيد الثقافى فى الوطن العربى ، ويفهمون أيضا أدبيات الاشتراكيـة العلمية ، لكنهم لا يعطون أهتماما ولا يوجهون جهودهم الثقافية لمعرفة ثقافتهم الوطنية ٠٠ فغالبيتهم ما يزالوا يعانون من فقر فى هذا الجانب ، بينما نجد كبـــار المثقفين الاقطاعيين والرجعيين ـ وهم ضد كل تطور وتقدم ثقافى ـ هم حفظة للتراث الكلاسيكى اليمنى فى التاريخ والأدب(٣) ٠

فمسرحية هاملت وتاجر البندقية لشكسبير ، ورأس بوتين والاصدقاء الثلاثة ورواية الأم لمسكسيم جوركى قد قرأها ٩٠٪ على الأقل من كل من يحسن القراءة والكتابة ويمتلك الحد الادنى من الحس الوطنى والميل الى الاطلاع والرغبة فيه من شباب ومثقفى اليمن والوطن العربى عامة ، أما القضيـــة الحقيقية للمهاجر اليمنى الذى غاب عن وطنه لمدة خمسة وعشرين عاما وعاد بعدها فى عام ١٩٦٢ لينخرط فى سلك الحرس الوطنى قبل أن يتوجه الى قريته ويلتقى بزوجته وأبنه البالغ من العمر خمسة وعشرون عاما وهو عمر هجرة أبيه والذى لا يعرفه لأنه فارقه وهو لا يزال فى بطن أمه ، وذلك حينما أستشهد جنديا فى احدى المواقع بعد عام من القتال دفاعا عن الثورة والجمهورية وأكتشف قائده الضابط الشاب من خـــلال استنطاقة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيره أنه أبوه ويكتشف الأب أن قائده الصغير الذى ظـــل يقاتل تحت أمرته مدة عام كامل هو أبنه ! ٠

هذه القصة وآلاف غيرها لم يعرف أحد عنها شىء لأنها لم تكتب بعد وقد لا تكتب ٠٠ تماما كقصة أولئك الابطال فى سن العاشرة والرابعة عشرة الذين يخشى على أمثالهم من حوادث عبور المشـــاه بمفردهم فى الشوارع المزدحمة بالسيارات والضياع وسط الزحام ، حينما دافعوا عن مدينة صنعاء فى حرب السبعين يوما فى أواخر الستينات لتظل عاصمة للثورة والجمهورية.

---

(٣) راجع كتاب : مناقشات حول الثقافة اليمنية ، دار ابن خلدون ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢٦ (عدد من المثقفين اليمنيين) ٠

دافعوا عنها بثبات فاق كل التصور حينما هرب منها الملتحون وتجار المواسم، وتخلا عنها حكام الفرص والمناسبات وجنرالات وشيوخ الميزانيات والاعتمادات .. هذه القصة التي بدأت تسير الى حيز النسيان بدلا من أن تكتب وتقرأ ليست بأقل شأنا وأهمية ودلالة في أدبيات النضال الثوري في بلد متخلف كاليمن من القصة الحقيقية الأخرى للمرأة القروية التي أنتزعت خنجر عسكري السلطة لتشق بطنها وتفارق الحياة في لمح البصر في أوائل السبعينات بمدينة صنعاء حينما كان يقتادها الى ضابط التحقيق بتهمة « الشيوعية » كواحدة من بين أكثر من خمسين أمرأة كن قد أنتزعن من بين أهلهن وأطفالهن من قرى المناطق الوسطى وأحضرن الى العاصمة تحت أسنة الرماح لنفس الغرض وبنفس التهمة ! .

واذا كان البعض منا ما يزال يتذكر بصعوبة المدلول السياسي والاجتماعي لكلمة « دستوري » التي شاعت بعد فشل حركة ١٩٤٨ الوطنية وحتى قيام الثورة عام ١٩٦٢ فان الغالبية الساحقة من المثقفين لا يعرفون قط المدلول المماثل لكلمة « ناصبي » و « رافضي » و « خباني » و « حضوري » و « قبيلي » و « شهاري » إلى غير ذلك من مفردات القاموس السياسي والفكري لتاريخ آئمة بيت حميد الدين وأشياعهم من عناصر الطبقة الاقطاعية وذيولها العفنة منذ عرفهم الشعب اليمني سواء كانوا في السلطة أو خارجها .

كما أن الكثير منا لا يعرف أيضا مدلول التشاؤم الكبير ليوم الربوع في منطقة البيضاء والمنطقة الشرقية بصفة عامة والذي يتلفظ به الأشخاص ضد بعضهم بالقول : « لك يوم الربوع » كتعبير عن أعلا درجات السخط والغضب وتمنيات الشر للطرف الآخر .

فالمعروف أن كلمة « دستوري » التي روجها بيت حميد الدين بعد فشل حركة ١٩٤٨ قد ألصق بها معنى التكفير والخسة والنذالة بالنسبة لكل من شارك في تلك الحركة الوطنية ضد الامام او تعاطف معها ، والتي سميت هي الأخرى « بالدستورية » لأنها كانت في الأساس تستهدف القضاء على الدكتاتور الاقطاعي الأكبر ممثلا بالأمام وأقامة دولة دستورية تعتمد على الدستور والنظام ، ومع ذلك فقد نجحت السلطة الاقطاعية الفردية المستبدة للامام بعد أخماد الحركة في مسخ مدلول هذه العبارة الوطني الى عبارة مقت ومذمة يتنابز بها الأشخاص العاديين فيما بينهم كتعبير عن الكراهية والذم .

هذه القصة التي ما تزال معروفة لا تختلف كثيرا من حيث الأساس والمغزى السياسي والاجتماعي والطبقي لقصص تعابير ومصطلحات شائعة أكثر

قدما ، مثل كلمة « ناصبى » و « رافضى » التى تدل على كل من كان يخالف أئمة بيت حميد الدين القداما فى مذهبهم وفكرهم أو يرفضهم ويناصبهم العداء ، كما أن ما شاع من الحاق معاني المذمة والتحقير لكلمة « خباني » التى يلقب بها كل من ينتمي لمنطقة خبان وغيرها من المناطق الوسطى وكل من يفد الى المدينة من أى منطقة فى الريف اليمنى بصفة عامة لممارسة العمل اليدوى والعضلى ، وكذلك كلمة « حضورى » نسبة الى منطقة حضور وما جاورها من المناطق الشمالية الغربية (كوكبان وشبام ومسور حجة) حيث يحمل معنى المذمة والتحقير لهذه المناطق ومن ينتمي اليهـا دلالـة تاريخية وسياسية واجتماعية بالغة الأهمية ، ذلك أنه حينما وجدت الحركة القرمطية فى اليمن منذ القرن السادس الهجرى على يد الزعيم الوطنى على بن الفضل ومنصور حوشب ، كان الأول قد أتخذ من سرو يافع القريب من مسقط رأسه فى مدينة جيشان من بلاد العود فى المناطق الوسطى منطلقا لحركته السياسية والوطنية التى كللت بالنجاح ، وأتخذ الثانى من بلاد حضور ومسور حجة وشبام وكوكبان وما جاورها المنطلق الثانى لنفس الحركـة الوطنية حتى التقوا معا فى صنعاء(٤) .

ولقد تمكن على بن الفضل من توحيد اليمن كاملة وأسقاط كل الممالك والامارات الاقطاعية المتناثرة هنا وهناك بما فى ذلك مراكز الائمة فى المناطق الشمالية وأقامة دولة وطنية ذات مبادىء اشتراكية وشعبية لمدة عشرين عاما لم يشهد اليمن مثيلا لها من قبل ولا من بعد حتى اليوم منذ ظهور الاسلام ، اذا ما أستثنينا دولة الصليحيين الى حد ما الذين جاءوا بعد حين وهم خلفاء نفس الدعوة وجناحها المعتدل المرتبط بالدولة الفاطمية(٤) .

فبسقوط دولة على بن الفضل بعد اغتياله بالسهم بفعل تدبير بعض الائمة الرسيين وغيرهم من قادة الممالك الاقطاعية والقبلية والارستقراطيـة الذين كانت الدولة قد قضت على مصالحهم ، كان من ضمن ردود فعلهم بعد ذلك الصاق كل المذمات وألوان التحقير والمقت بكل فئات الشعب الكادحـة ممن يمارسون العمل اليدوى المأجور فى المدن من أبناء الريف الذين آمنوا بتلك الدعوة ودافعوا عنهـا ، وبهاتين المنطقتين التاريخيتين وأهلهما بالذات والتى انطلقت منهما الدعوة الوطنية لتوحيـد اليمن واستقلاله عن التبعية للخلافة والأئمة الموهومين فى الخارج والممالك الاقطاعية والعشائرية فى الداخل .

---

(٤) راجع كتاب الحمادى عن القرامطة فى مكتبة دار الكتب بصنعاء .

(٤ مكرر) محمد يحيى الحداد : تاريخ اليمن السياسى ، الطبعة التالية ، ص ٦٩٤ .

وذلك ضمن ما ألحقوه من التشهير والتشويه بتـــاريخ تلك المرحلة الذهبية في حياة الشعب اليمني(٥) ٠

ولقد تركز الأمر بنفس الطريقة بعد حين بالنسبة للدولة الصليحية التي نجحت في توحيد اليمن مرة أخرى وأقامت دولـــة قوية مركزية من حضر موت حتى مشارف نجد والأراضي المقدسة في مكة والمدينة التي خضعت لاشرافهم ، حيث ما تزال تلصق بهم ألوان التهم والبشاعات الخلقية والدعاوى الكاذبة حتى اليوم(٦) ٠

وعلى النطاق القومي والعام لا يكاد يوجد مثقف واحد في أي بلد عربي لم يكن قد قرأ أو يعرف على الأقل عن أول بيان سياسي لأول حزب شيوعي في العالم وكتاب رأس المال لكارل ماركس أو قراء عنه على الأقل ، وكتاب أصل العائلة والملكية والدولة لانجلز ، أما مجموعة الدروس التثقيفية التي أعدها الحزب الشيوعي الفرنسي لتثقيف قواعده من العمال الفرنسيين في الكتاب المشهور بأسم : « أصول الفلسفة الماركسية » فقد حظي بما لم يحظ به أي مطبوع معاصر من القراءة وسعة الانتشار بين مثقفي البلدان النامية والمتخلفة على كل المستويات وبمختلف اللغات ٠

كما أن كثير من الأحداث التاريخية القديمة والحديثة خارج نطاق البلدان النامية والمتخلفة لم تعد مجهولة أو خـــافية الدلالة العـــلمية والتاريخية والاجتماعية والسياسية والموضوعية ، كـــوقائع الثورة الفرنسية وتحطيم سجن الباستيل وأقامة كومونة باريس في فرنسا ، وحادثة محاكمة وقتل عمال شيكاغو في أمريكا ، وثورة ١٩١٧ في روسيا ، وحرب الأنصار في الصين ، وهزيمة الحركة النازية في الحرب العالمية الثانية ، وانتصار الشعب الفيتنامي البطل ٠٠٠ الخ ٠ فكل هذه الأحداث والوقائع التاريخية وغيرها من وقائع وأحداث التحولات التاريخية في النضال البشري في المجتمعات الاشتراكية والرأسمالية على السواء تحتفظ اليوم بكل مضامينها ودلالاتهـا التاريخية والموضوعية السليمة ، ولها مكانتها وأثرهـا في نفوس ومشاعر

---

(٥) راجع حمود العودي : نحو رؤية وقرآة جديدة للتاريخ والتراث ، دراسة في مجلة الغد اليمنية عدد مارس — ابريل ١٩٧٨ ٠ وكذلك كتاب الحمـادي عن القرامطة في اليمن ، دار الكتب بصنعاء ٠

(٦) راجع المرجع السابق للحمادي بصفة عامة ، وكذلك تاريخ زبارة ٠

وأفكار كل المناضلين من أجل الحرية والتقدم فى العالم وتقرأ باستفاضة ويحتفل بها فى كل عام ٠

هذا فى الوقت الذى لا يستطيع الغالبية العظمى من المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية وفى المنطقة العربية مثلا أدراك الدلالات الاجتماعية والسياسية والطبقية والتاريخية لواقعة أبتلاع هند أم معاوية لكبد العباس بعد مقتله ، ومقتل سعد بن أبى عبادة فى أحد المناطق النائية من شعاب مكة بعد خلاف السقيفة ، وبث « أشاعة » بأن جماعة من الجن قد أعتدت عليه وقتلته ، ولا نفى أبن ذر الغفارى الى الصحراء حتى مات فيها بلا كفن ، ولا مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ودلالالة ما فعله على بن الفضل فى اليمن وأبى سعيد الجنابى فى البحرين ، وأحتفال الخليفة المتوكل فى القاهرة بحرق وأتلاف أثمن وأهم ما كتبه ابن رشد والامام الغزالى يقف الى جواره فى منصة الاحتفال وهو يعلن عن العطايا السخية لكل من يحضر كتابا أو كلمة مكتوبة لابن رشد لكى تحرق فى مثل هذا الحفل المهيب ، الأمر الذى فعله أسلافه العباسيين والفاطميين بالتراث الانسانى والفكرى الذى لا يقدر بثمن للمعتزلة والقرامطة والخوارج وغيرهم من دعاة الحرية والعقل فى مقابل أصحاب التقليد والنقل ، والذى لا يقل عما فعله المغول فى دمشق وبغداد(٧) ٠

فمثقفونا لا يجهلون كل الدلالات التاريخية والسياسية والاجتماعية والطبقية لمثل هذه الأحداث الهامة فحسب بل أن مثقفينا الوطنيين يجهلون أيضا الدلالات الاجتماعية والتاريخية والسياسية لضرب الناس لأنفسهم بالسياط والحدائد المسننة حتى الموت فى النجف وكربلاء فى العراق وغيرها من المناطق داخل الوطن العربى وخارجه ، وحج ألوف الناس يوميا الى ضريح السيد البدوى والسيد الحسين وغيرهما من أماكن دفن الموتى فى مصر ، تحت رعاية ومباركة رجال السلطة ومشاركتهم أيضا ٠

كما أننا فى اليمن أيضا نجهل تماما لماذا أرتد الأسود العنسى أو كفر على نحو ما تروى الأساطير كما لا نستطيع أن نتذكر قط أو نستنتج دلالة هدم « يعلى بن أمية » حاكم اليمن فى عهد عثمان لقصر غمدان وملحقاته فى صنعاء بأمر من الخليفة ، مثل ما يجهل الكثيرون منا دلالة تحطيم نابليون لانف أبو الهول فى تبة الجيزة فى مصر بمدفعية القرن التاسع عشر ٠

---

(٧) د٠ محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام ، ص ١٢٥ ٠

فكل مثل هذه الأمور والوقائع هى التى يتكون منها بناء التاريخ كله بالنسبة للوطن العربى وغيره من المجتمعات النامية والمتخلفة ومجمل ظروفه الذاتية والموضوعية ، ويستدل من خــــلالها وبهـــا على حركته وصيرورته التاريخية والجدلية التى لا تتوقف ، وتقرأ فى ضوئها حقيقة الماضى والحاضر وتحدد بمقتضاها والاسترشاد بها صورة المستقبل ، والعــوامل الذاتية والموضوعية المؤدية اليه ، كل هذه الأمور والقضايا هى من القصور والأهمال والتناسى حتى الآن بالنسبة للمثقفين بصفة عامة وطــلائع النضال الوطنى والتحررى فى المجتمعات التى نحن بصددها بصفة خاصة ، بحيث لا يحتل الاهتمام بها الا مقعدا من الدرجة الثالثة أو الرابعة .

بل غالبا ما تبدوا بعض الاهتمامات الفردية والعشـــوائية السطحية لبعض المثقفين بمثل هذه الأمور والقضايا مجرد تعبير عن الازدراء والسخرية والتهكم من جهة أو مجرد العداء الشكلى والمحاكمة السطحية الساذجة من جهة ثانية ، على نحو ما سبق القول فى مكان سابق من هذه الدراسة ، أو لا يعرفون عنها أو يتذكرون منها فى أحسن الأحوال أكثر مما يعرفه أو يتذكره أو يردده رواد التقليد والنقل المحرف والمشـــوه من حملة أفكار وأيدولوجية الطبقات الاقطاعية والارستقراطيات المسيطرة القديمة المتخمة بالتضليل والخرافة والمسخ العقلى للتفكير السليم الذى ما نزال نقرأ من خلاله كل تاريخنا ، ويلقن به أطفالنا وشبابنا فى المدارس والجامعات ودور العلم والعبادة ومقابر الموتى ، وعند قارئى الكف والطالع وضاربى الودع والمداحين على رصفة الشوارع وبالشكل والمفهوم المشوهة الذى تريده هذه الطبقــات الاقطاعية والرجعية المتخلفة ويضمن بقاء واستمرار مصالحها المرتبطة بحالة التخلف القائم لا وفقا لما يقضى به المفهوم الحقيقى لطبيعة الواقع وأبعاده التاريخية والاجتماعية والتراثية(٧) .

خصوصاً وان هذه الطبقات الاقطاعية المتخلفة قد نجحت الى حد كبير فى المحافظة على حق الوصاية على هذا التراث والتحدث بأسمه دون سواها منذ زمن بعيد وحتى اليوم ، وجعله جزء لا يتجزأ من مليكتها الخاصة التى يورثها الأباء لأبنائهم ولا يجوز للآخرين حتى مجـــرد التفكير فى المشاركة فيها ، تطبيقا لأوامر السماء على الأرض ، اذ يجب أن لا يغيب عن الذهن

(٧ مكرر) راجع حمود العودى : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، وبالذات الفصل الثالث بصفة عامة ، مركز الدراســـات اليمنية ، ١٩٨٠ .

المدلول السياسى والاجتماعى والطبقى والذى نجهله ضمن ما تجهل للحكمة الاقطاعية والارستقراطية القاضية بأن الحياة لا تستقيم أمورها الا بوجود أمام « هاشمى » معصوم من الخطأ فى قمة السلطة ، وأن صـــلاة الجماعة لا تصح الا بوجوده ولا تساق الزكاة الا الى خزائنه ، وتفسد كل الحقـوق والمعاملات اذا غاب بشخصه أو غاب من ينوب عنه من نفس السلالة الوهمية أو الوسط الاقطاعى والارستقراطى على الأصح ، والذى رغب فى تكريس مصالحه الطبقية سياسيا واقتصاديا وأيديولوجيا عن طريق نشر وتعميـق مثل هذه الاشاعات والأكاذيب فى أذهان بسطاء الناس زمنا طويلا فى بلادنا، والتى تتميز بها العقلية الاقطاعية عبر التاريخ فى كل المجتمعات ، ونحن نشاركهم كل ذلك بوعى منا أو بدونه ٠

وهكذا تتأكد حقيقة أن الظروف الذاتية والموضوعية وأدبياتها الثقافية والفكرية التى يرددها مثقفونا على أسمـــاع بعضهم البعض يوميا أكثر من ترديد أسمائهم الشخصية لم تكن مجرد صيغة للمنطق المثالى اللفظى ولا كلمة سر نثبت بها هويتنا عند اللزوم ، كما أنها ليست تسمية لغوية أو علامـة تجارية يستطيع أى شخص أن يدمغ نفسه وأشيائه بها لكى يتميز عن غيره ، ولكنها صميم الوجود الحقيقى للمجتمع وتاريخه كله ومفتاح تحوله نحـــو الأفضل بغير بديل ، كما أننا لا نستطيع أن نتصـــور ومن وجهة النظر الاشتراكية العلمية - كما يقول عبد الفتاح اسماعيل - بصـــدد المثقفين اليمنيين الوطنيين - أن تكون هناك ثقافة أممية بدون أن يكون لهـا أساس ثقافى وطنى ٠٠ فلكى يطل المثقف اليمنى على رحـاب الثقافـــة الأممية والانسانية عليه أن ينطلق من ثقافته الوطنية ٠٠ فالمثقف الوطنى الجيد هو المثقف الأممى الجيد»[٨] ٠

وفى ختام هذه الفقرة التى قد تطول فيها أحـــاديث الشجون وحتى لا نذهب فيه أكثر مما يسمح به أطار الموضوع الجوهرى والشـــامل لهذا البحث ، دعونى أقول كلمة أخيرة كفرد قدر له أو يفترض فى نفسه على الأقل أنه واحدا من هؤلاء المثقفين المتشردين ، نسى العيش فى قريته القديمة ومهارة الخبرة والممارسة فى التعامل مع ثوره ومحراثه وأغنامه الأليفة الطيبة منذ أكثر من خمسة عشر عاما وأصبح يجيد حفظ بعض الكلمات ويحسن صياغتها

---

(٨) راجع كتاب : مناقشات حول الثقافة اليمنية ، ص ٣٦ (عدد من المثقفين اليمنيين) دار ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٧٥ ٠

على هذا النحو ، دعونى أقول كمثقف بشكل ما بأننى لا أريد أن أظلم نفسى وأظلم أمثالى من المثقفين الوطنيين بالقول بأننا لا نملك مفهوما محددا لدور العوامل الذاتية وأهميتها فى عملية النضال وأحداث التحولات التاريخية أو نجهل هذه القضية كليا وجزئيا ، فالكثير منها صار يدرك كل ذلك أدراكا حسنا كقضية مبدئية ونظرية منهجية لا أكثر ، أما الكيفيات والممارسات العملية والاستيعاب الحقيقى السليم لهذه القضية فأنه ما يزال هو التحدى الذى نجهله ولا نحسب له حسابا ، والثغرة المميتة فى حياتنا والتى تطل منها الافاعى والحشرات السامة ما بين عشية وضحاها لتفسد كل ما نعمله وتقضى على كل ما نحلم به حتى مجرد بقائنا على قيد الحياة ، فهل نقبل مواجهة هذا التحدى حتى من أجل المحافظة على البقاء ؟! ٠

نهاية الاغتراب والعودة الى الأصل

أود أن أعيد الى الذاكرة ما سبق وأن أشرت اليه عرضا فى مكان سابق من هذا البحث من أنه ما أن بدأ الواقع الاجتماعى للمجتمع اليمنى يستعيد توازنه الطبقى والاجتماعى التقليدى بعد سنوات قليلة من قيام ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ ويكشف عن أغتراب المثقفين فى هذا الواقع على نحو ما سبق حتى وجد المثقفون أنفسهم فجأة أشبه بالأناس المتشردين الذين لم تنقطع صلاتهم بكل شىء من حولهم فحسب بل صار معاديا لهم ويشير اليهم بأصابع الاتهام ويقوم بتصفيتهم بلا تردد ، وفى هذه المرحلة بدأ المثقفون اليمنيون ككل الدخول فى مرحلة جديدة من الصراع والمعاناة لا مع الواقع السياسى والاجتماعى المحيط الذى سحب أعترافه بهم كأوصياء وكشف لهم عن المقاييس الهشة والساذجة التى أنبنت عليها حياتهم وثقافتهم ووجودهم نفسه ، بل ومع أنفسهم أيضا التى ما عادت لتقوى على المغالطة بعد الآن ٠

وهنا نستطيع القول أنه رغم كل المعاناة الشاقة والتمزق والتشرد الرهيب الذى أصاب هذه الفئة الاجتماعية فى اليمن منذ أواخر الستينات وحتى اليوم على مستوى الساحة اليمنية ككل وما جد فى حياتهم وفكرهم من تطور وتحول كبير ، الا أن الوقائع قد جرت أحداثها بمقاييس مختلفة نسبيا فى الشطر الشمالى من الوطن بالنسبة للشطر الجنوبى منه ، الأمر الذى أدا الى اختلاف النتائج نسبيا أيضا حتى هذه اللحظة ، وفى حدود العلاقة بالسلطة السياسية على الأقل ، حيث ستتضح هذه الفروق النسبية حينما نتحدث فى مكان لاحق من هذه الدراسة عن الأوضاع الراهنة فى الشطر الجنوبى من الوطن مقارنة بما هو جار فى الشمال ، حيث ما زال حديثنا فى هذه الفقرة هو عن الأسس والمفاهيم الشاملة للمثقفين اليمنيين

ككل ومن زواية المفهوم الاجتماعى والطبقى والتاريخى لهــذه الفئة وليس المفهوم السياسى البحت الذى سنرجىء الحديث عنه قليلا .

قلت أنه بالرغم من كل المعاناة والتمزق وهول الحقائق المرة التى فوجىء بها المثقفون اليمنيون فى منتصف وأواخر الستينات عن أنفسهم وعن الواقع من حولهم ، الا أنه من واقع هذه المعاناة نفسها ومن خلالها بدأت الأمور تتحول جذريا شيئا فشيئا وتتحرك فى الاتجاه التاريخى والواقعى العلمى الصحيح ، وتضع النهاية المحتومة لقصة الاغتراب الطويل .

فلقد بدأء المثقفون اليمنيون يكتشفون لأول مرة أنهم لم يكونو قط فئة اجتماعية مستقلة ومتجانسة قادرة على قيادة كل الفئات والطبقات فى المجتمع أو أنهم طبقة فوق كل الطبقات ، وأنهم عبارة عن لفيف اجتماعى متناقض الأفكار والمصالح والأهداف والتطلعات يعبر عن طبيعة الواقع الاقتصادى والسياسى والاجتماعى المتناقض أكثر مما يعبر عن نفسه وأنهم أقل وأضعف بكثير من أن يقوو على أن يكونوا سلطة بمفردهم ، أو حتى طليعة متماسكة تدافع وتناضل عن مصالح اجتماعية وطبقية معينة فى صميم الواقع الاجتماعى بمعزل عن هذه الطبقات وعن الواقع الاجتماعى نفسه ، كما بدأوا يكتشفون ببطىء حجم الدور الحقيقى للمسألة القومية وحدود أمكانياتها التى تتوقف عند الأسس الجوهرية الشاملة لوجود المجتمع نفسه ، وثقافته وحضارتــه وتاريخه ولغته ورقعته الجغرافية وانتمائه الوطنى ، ولا تتعداء ذلك قط الى أن تصبح مدخلا لحل المســـألة الاجتماعية وتنظيم العـــلاقات الاقتصــادية والاجتماعية والطبقية والسياسية داخل المجتمع الواحد ، والتى تخضع بصفة مطلقة لقانون التطور الاجتماعى ومســاره الجــدلى والديالكتيكى المتناقض والمتطور على الدوام .

كما بداء هؤلاء المثقفون أيضا يكتشفون بتأثر أكثر بطـــأ وصعوبة فداحة التجهيل والعزلة المخيفة عن الواقع الذاتى والموضوعى التى ألحقتها بهم الظروف والحقوها بأنفسهم بسبب هذه الظروف أيضا ، وكيف بدأوا يجدون أنفسهم أكثر تعاسه وأمية من الأميين أنفسهم فى هذا الواقع ، حينما تهاوت كل القشور التى بنو عليها حياتهم السابقة ولا ذو بهذا الواقع للبحث عن مأوا يمنحهم مجرد الاحتفاظ بالبقاء على الأقل ، كل بطريقته الخاصة وبما يضمن تحقيق مصالحه أو أمنه وبقائه ، متحللا من كل التزاماته القديمــة بصورة مباشرة وغير مباشرة ، حيث لجأ كل منهم الى أقرب مكان يعرفه أو تربطه به صلة قرباء قديمة أو مودة وصداقة جديدة .

حيث بدأ كل منهم يسترجع أفكاره بصعوبة لكى يتذكر نقطة البداية التى بداء منها لكى يعود اليها بصفة عامة أو يبحث عن نقطة جديدة يرسو عليها بشراعه المهشم اذا استحالت عليه العودة الى نقطة البدء أو وجد ما هو أفضل منها ٠

وبتعبير أوضح فان المثقفين اليمنيين حينما بدأوا يتعلمون من الوقائع والأحداث العملية ما أجبرهم على مراجعة كل مواقفهم ومفاهيمهم القديمة ومغادرتها الى هذا الحد أو ذاك فانهم بذلك قد اقتربوا من صنع النهاية لقصة اغترابهم وبداؤا فى الوقت نفسه رحلة العودة الى أصولهم الاجتماعية والطبقية وتبنى مصالحها بصورة مباشرة وغير مباشرة من أقصى اليمين وحتى أقصى اليسار ، وتحديد منطلقاتهم الجديدة فى ضوئها ومن خلالها ، والقيام بتطوير هذه المصالح والدفاع عنها بطريقة واقعية وصحيحة ، وسط ظروف سياسية واجتماعية ونفسية بالغة الصعوبة أنتهيت بالكثير منهم الى حالة من التأزم والضياع المحقق قبل أن يقووا على التخلص من كل ما تشبعوا به من رواسب قديمة ويظفروا بهويتهم الجديدة ويتكيفوا معها بسهولة ٠

ولقد كان المثقفون ذوى الأصول الاقطاعية والبرجوازية والكمبرادورية هم أقل الجميع معاناة وقدرة على التكيف بسهولة مع الظروف الجديدة مع وسطهم الطبقى الأصلى الذى صار يملك السلطة والمال معا بعد الخامس من نوفمبر عام ١٩٦٧ فى الشطر الشمالى من الوطن ، ويقدم لهم مختلف الأغرآت لكى يوظفوا قدراتهم ومهاراتهم السياسية والوظيفية فى خدمته ، ويتخلصوا بسرعة من كل رواسبهم وشقاوتهم القديمة ، الأمر الذى سهل لأكثريتهم الغالبة أنقاذ أنفسهم من الضياع بسرعة والتكيف المغرى والمريح مع أوضاعهم الطبقية القديمة الجديدة ، التى أغتربوا عنها لبعض الوقت . والقليل منهم جدا هم الذين لقيوا الكثير من المعاناة والمتاعب فى سبيل البحث عن هوية طبقية جديدة تتناسب ولو بحد أدنى مع ما تشبعوا به من أفكار ومفاهيم قومية ووطنية فى سن الطفول والشباب ، يشاركهم فى ذلك الغالبية العظمى من المثقفين ذوى الأصول البرجوازية الصغيرة والعمالية والفلاحية ممن توفرت لهم فرص التعليم والثقافة بعد قيام الثورة على نحو ما سبقت الاشارة فى مكان سابق من هذه الدراسة ٠

فلقد ثبت من خلال مسح اجتماعى خاص قام به الباحث مؤخرا وحصل من خلاله على نتائج ذات دلالة واقعية وعلى درجة جيدة من الثقة والصدق العلمى فيما يتعلق بهذا الموضوع ، اتضح من خلالها أن ٦٥٪ من المثقفين

اليمنيين ذوى الأصول الاقطاعية والارستقراطيات العشائرية والقبلية الذين لا تقل نسبتهم عن ٤٥٪ من مجموع المثقفين اليمنيين المعاصرين الذين أتيحت لهم فرص التعليم والتثقف ككل وممن قاموا بعزل أنفسهم عزلا مشوها عن أصولهم الطبقية الاقطاعية وتبنوا الفكر القومى والليبرالى والبعض منهم تبنا الاتجاهات اليسارية المتطرفة منذ بداية الستينات وما قبلها ، هؤلاء جميعا قد رجعوا قلبا وقالبا الى أصولهم الطبقية الاقطاعية القـديمة منذ أواخر الستينات وأوائل السبعينات ٠

وانما ما يزيـد عن ٢٥٪ من النسبة المتبقيـة منهم قد تبنوا الفكر البرجوازى والكمبرادورى الجديد ، وأن ١٢٪ منهم قد تأزموا وأنقطعت بهم السبل بعد أن عجزوا عن تكييف أنفسهم مع أى موقف جديد وبطريقـة صحيحة ، وأن ٨٪ منهم على الأكثر هم الذين احتفظوا بتوازنهم ضمن الخط الليبرالى القومى الذى بداءوا به وطوروا أنفسهم من خلاله فى الاتجاه الوطنى والتقدمى ٠

كما أن نسبة ٥٢٪ من المثقفين ذوى الأصول البرجوازية والكمبرادورية التجارية والذين يشكلون ٢٥٪ على الأقل من مجموع المثقفين اليمنيين قد عادوا بدورهم الى أصولهم الطبقية التى أصبحت أكثر تطورا وأغراء فى امتيازاتها ومكاسبها المادية ، وأن أقل من ٢٠٪ هم الذين نجحوا فى المحافظة على الخط الوطنى الليبرالى والتطور من خلاله ، ومال حوالى ٨٪ منهم الى تبنى فكر ومواقف الطبقة الاقطاعية والارتباط بها ، بينما تأزم أكثر من ٢٠٪ منهم وعجز عن التكييف السليم من جديد مع أى من المواقف السابقة وانقطعت بهم سبل العمل السياسى والفكرى الصحيح بصورة مباشرة وغير مباشرة ٠

أما مجموعة المثقفين ذوى الأصـول العمالية والفـلاحية والأوساط الاجتماعية الفقيرة والذين تصل نسبتهم الى ما يقرب من ٣٥٪ من مجموع المثقفين المعاصرين والذين زادت نسبتهم بهذا الشكل نتيجة قيام الثورة فى الشمال عام ١٩٦٢ والحصول على الاستقلال فى الجنوب عام ١٩٦٧ فقد كانوا هم أتعس الجميع وأكثرهم معاناة بصفة عامة فى هذا الموقف ، ذلك أن أوساطهم الطبقية العمالية والفلاحية والاجتماعية الفقـيرة والمضطهدة لم تستطع أن تقدم لهم أى امتيازات مادية أو معنوية مغرية للعودة اليها بسهولة وتبنى فكرها ومصالحها ، نظرا لما كانوا قد اعتادوه من نمط معيشة حيـاة البرجوازية الصغيرة وعاداتها ومزاجها الاجتماعى المشوه والمنحرف (آكل - شرب - ملبس - مسكن بطريقة معينة) من جهة وما تشبعت به عقولهم

من أسس تربوية برجوازية وارستقراطية معينة أساسها الحرص على التخلص من أوساطهم الاجتماعية والطبقية الأصلية وعدم التفكير فى العودة اليها فى يوم من الأيام، رغم استعدادهم أو اعتقادهم الواهم على الأصح أنهم يستطيعون العمل من أجلها من خلال توجيه النصائح والارشادات النظرية لما يجب أن تكون عليه الأمور من أماكن متعالية ، أو أعلان الندم والاستياء المصحوب بدموع التماسيح لما قد لحق ويلحق بها من ظلم وأذاء من قبل الطبقات المسيطرة ، والاكتفاء بمجرد النقد الكلامى لما هو موجود والتنظير المثالى لما ينبغى أن يكون فى أحسن الأحوال ·

كما أن الطبقات الاقطاعية والبرجوازية قد أبدت الكثير من المحاذير ازاء قبول عضويتهم فيها ، الا وفق شروط مشددة يثبتون من خلالها حسن النية ، ولذلك فقد جاءت نسب توزيع هؤلاء المثقفين لأنفسهم فى الأونة الأخيرة توزيعا طبقيا مختلفا بشكل ملحوظ بالقياس الى سابقيهم من ذوى الأصول الاقطاعية والبرجوازية ، فبينما بلغت نسبة المثقفين ذوى الأصول الاقطاعية والبرجوازية الذين عادوا الى أصولهم الطبقية وتبنوا فكرها ومصالحها ٦٤٪ و ٥٢٪ على التوالى ، فان نسبة المثقفين ذوى الأصول العمالية والفلاحية والفئات الاجتماعية الفقيرة الذين حافظوا على خطهم الوطنى وطوروه وعادوا للارتباط بأصولهم الطبقية وتبنى مصالحها وفكرها التقدمى الصحيح وقاموا بتطويره لم تتجاوز ٣٧٪ بينما نجحت الطبقات الاقطاعية فى أمتصاص ١٦٪ منهم و ٢١٪ أمتصتهم الطبقة البرجوازية الكمبرادورية الجديدة ، وصاروا جزء لا يتجزاء من هذه الطبقات ومدافعين أقوياء عن مصالحها ·

أما النسبة الباقية وهى لا تقل عن ٢٦٪ فقد أعترتهم حالة من التأزم السياسى والنفسى من هول ما فاجأتهم به الأحداث وعجزوا معها عن التكيف السليم مع أى موقف طبقى أو سياسى محدد فى الواقع الاجتماعى ، الأمر الذى أنتهى بأكثريتهم الى الجنون والتشرد أو الانتحار المباشر والبطىء من خلال أدمان شرب المواد الكحولية وتعاطى القات وفقدان الاستقرار النفسى والاجتماعى والعائلى ، والامعان فى الا مبالاة والثرثرة والاستسلام لحالة التشرد الحياتى المخيف هروبا من واقع يرفضونه الى عالم فشلوا فى تحقيقه·

وبذلك نستطيع القول بأن المثقفين اليمنيين المعاصرين قد بدأوا مغادرة مواقعهم القديمة أو التقليدية فعلا منذ منتصف الستينات وما بعدها ، وسط أحداث مريرة ودامية كان أولها أحداث لحج والشيخ عثمان فى عدن عشية الاستقلال عام ١٩٦٧ ، وربما يكون آخرها هى أحداث ١٥ أكتوبر سنة

١٩٧٩ فى صنعاء ، حيث قاموا بتقسيم أنفسهم تقسيما طبقيا الى ثلاثة أقسام رئيسية ، القسم الأول التحق بالطبقات الاقطاعية والبرجوازية الكمبرادورية بحكم الانتماء الأصلى أو القناعات السياسية والمصلحية وانقطعوا لخدمة مصالحها ، بعد أن تنازلوا عن كل ما تبقى لهم من الاهتمامات القومية والليبرالية القديمة كدليل على حسن نواياهم تجاه هذه الطبقات .

أما القسم الثانى فقد سار فى الاتجاه العكسى أى العودة الى أوساط الطبقات العمالية والفلاحية بحكم انتمائهم اليها أو اقتناعاتهم السياسية الناجزة بهذه الطبقات وتبنى مصالحها وأيدولوجيتها بطريقة أكثر علمية وموضوعية ، وقامت بتنميتها وتطويرها نظريا وعمليا بشكل ملحوظ، رغم كل المشقات والمتاعب التى عانوا منها ولا يزالون .

أما القسم الثالث من هؤلاء المثقفين فقد شكلوا بقطاعهم الواسع الظاهرة الأكثر استثناءا وتميزا ، والتى قد تخص المجتمع اليمنى أكثر من غيره من المجتمعات النامية والمتخلفة ، فهم أولئك الذين لم يطيقوا قط العودة الى حظيرة الطبقة الاقطاعية والبرجوازية والقبول بشروطها المهينة من جهة ، وعجزوا فى الوقت نفسه عن اختيار المواقف المضادة لذلك بطريقة صحيحة بحكم ما تشبعوا به من تربية سياسية وفكرية خاطئة ، ومالوا الى الرفض والمقاومة السلبية لكل شيء من حولهم والتعامل معه بطريقة مرضية .فانقطعت بهم السبل وأنتهت بهم الممرات الى نهايات مأساوية محزنة حقا .

ونستطيع أن نستدل من خلال هذه الدلالات الاحصائية على بعض الحقائق الأخرى الأكثر أهمية منها :

(أ) اثبات حقيقة أن فئة المثقفين (أى مثقفين) ليسوا فئة مستقلة أو طبقة فوق الطبقات ولكنهم يمثلون شريحة اجتماعية مقسمة رأسيا بين كل الطبقات الرئيسية فى المجتمع ، ليقوموا بدور التعبير عن مصالحها السياسية والاقتصادية المتناقضة وخدمة هذه المصالح دون أن يكونوا مفوضين أو قادرين على الدفاع عنها أو المحافظة عليها بمفردهم وبمعزل عن هذه الطبقات نفسها التى لا تمنحهم هذا الحق مهما بلغت درجة ثقتها بهم وأخلاصهم لها . لأنهم لا يعجزون عن الوفاء به فحسب بل ولأنه حق غير شرعى بالدرجة الأولى .

(ب) ان الانتماء الطبقى وأصوله الاجتماعية هو الأساس الجوهرى الذى تحدد فى ضوئه الهوية الاجتماعية والطبقية للأفراد كقاعدة عامة ، وان

تحول بعض الأفراد المثقفين وانتقالهم من طبقة لأخرى هو الاستثناء الذى بالرغم من أهميته الا أنه يظل استثناء وليس قاعدة عامة يجب الحذر من التورط فيه أكثر مما ينبغى أو المبالغة فى دوره أكثر من اللزم سلبا أو ايجابا ٠

(جـ) ان القطـاع الواسع والملحوظ من أولئك المثقفين الذين تأزموا وطنيا ونفسيا وغالبيتهم ينتمون الى أوساط عمالية وفلاحية وبرجوازيـــة صغيرة ووطنية ويشكلون بحالتهم تلك الاستثناء غير العادى قد كانوا هم الفدية أو الضريبة التى كان لا بد وان تدفع ثمنا لقصة ذلك الاغتراب الطويل التى عانت منها هذه الفئة وما تزال فى كثير من المجتمعات النامية والمتخلفة، والتى جسدت أعظم دلالاتها وحدة بروزها فى مجتمعنا اليمنى بكل تأكيد من خلال هذا النمط من المثقفين ذوى النهايات التعيسة ٠

الفصل السابع

الدلالات الواقعيـــة

الا يبدو أن الطابع النظرى قد طغى على حديثنا فى الفصل السابق فى هذه النقطة الخاصة ببدء عودة المثقفين اليمنيين من رحلة الاغتراب المشوهـة التى شبوا وترعرعوا فى ظلها ، الى أصولهم الاجتماعية والطبقية وأقامـــة علاقات طبيعية معها ؟ وأننا نفتقر الى بعض الدلالات الواقعيـــة للأحداث والتطورات الفعلية فى هذا الشأن التى تؤكد كل ذلك ، رغم ما سبق الاستناد اليه من بعض المؤشرات الاحصائية التى يتحمـــل الباحث وحده مسئولية صدقها وموضوعيتها ؟

هذا بالضبط هو ما أحس به وما أجدنى مضطرا لاستيفائه فى هذا الفصل حتى يكون الكل فى الصورة ، ولا أتحمل عبء الحكم على هذه النتائج الهامة بمفردى ، خصوصا وأننا بصدد موضوع شديد الحساسية والأهمية معا ولا يحتمل التناول النظرى والشكلى العابر ، ولا مجرد الاشارة الى نسب احصائية مليئة بالمخاطر اذا ما قدمت كدالة وحيدة الجانب ٠

كيف نشأ المثقفون اليمنيون ، ومن أى المصادر الطبقية وفدوا ، وفى ظل أى ظروف سياسية واجتماعية وقومية كونوا ثقافتهم ورؤيتهم لأنفسهم وللواقع من حولهم ؟ كل تلك قضايا سبق طرحها بوضوح ومن خلال بعض الوقائع أيضا ٠ أما كيف أنفرط عقدهم وتحطمت سفينة اغترابهم وتفرقت بهم سبل أصولهم وواقعهم الاجتماعى الصحيح ، فذلك ما حللناه من الناحية النظرية وبعض الدلالات الاحصائية فى الفصل السابق ونستوفيه هنا من خلال استعراض أهم الأحداث والتطورات الواقعية التى تمت من خلالها كل تلك التحولات فيما يلى :

فى الشطر الجنوبى من الوطن

قد يظن البعض أو يفترض خطأ بن البيان الذى صـــدر عن مؤتمر « حمر » فى ١٩٦٦/١١/٢٥ الذى نجم عنه انفصال الجبهة القومية عن جبهة

التحرير واعـادة تقييم أوضاعهـا سياسيا وعسـكريا وأيدولوجيا ، لأن الانقسام الحقيقى قد بداء قبل ذلـك بثلاث سنوات تقريبا حينما طرحت مسألة الثورة والنضال المسلح ضد الاستعمار البريطانى كبديل سـياسى واستراتيجى حاسم من قبل الجبهة القومية وقطـاعات واسعة من جمـاهير الشعب فى الريف للحصول على الاستقلال ، بدلا من الدوران حول أحلام المفاوضات والمطالبات والاضرابات والاستجـداء المهين للاستقلال الذى لن يأتى بهذه الطريقة من برطانيا والذى كانت تمارسه عناصر جبهة التحرير الذين كانوا ما يزالون وقتها يعملون فى اطار ما عرف بحزب الشعب الاشتراكى والمؤتمر العمالى ، والذين رفضوا وقاوموا مبداء الثورة المسلحة بوضوح ، وبمفهوم سياسى وأيديولوجى غامض ومفعهم بالسذاجة وضيق الأفق وسوء الرؤية التى يتميز بها أسواء مثقفى البرجوازية الصغيرة فى بلد متخلف وما يزال تحت السيطرة المباشرة للادارة الاستعمارية كجنوب الوطن وقتها وبوعى منهم أو بدونه ٠

ذلك أن العناصر القيادية لحزب الشعب الاشتراكى والمؤتمر العمالى كانت قد نجحت منذ أوائل الخمسينات وحتى بداية الستينات تحت تأثير المد القومى الخارجى فى اثارة المشاعر القومية لقطاعات واسعة من الجماهير والعمال فى مدينة عدن بالذات والدفـع بها نحو مواقف مطلبية عادية ، وممارسات قومية وسياسية غامضة وغير محددة المعالم ، بما فى ذلك فكرة المطالبة بالاستقلال ٠

واذا كانت الجماهير العمالية والطلابية والتجار الصغار الذين حركوا تلك الأحداث لم يكونوا يدركوا من أبعادها ومراميها أكثر من كونها ممارسة وطنية وقومية وتحررية حقا ضد الاستعمار ومن أجـل القومية العربية والوحدة العربية فانه على خلاف ذلك كانت العناصر القياديـة والسياسية المثقفة والمحركة لتلك الأحداث والمطالب تعى جيدا ما الذى تريد وتخطط لأجله ، ومن ورائها البرجوازية والكمبرادور التجارى فى المدينة وضواحيها ٠

فلقد كانوا بحكم طبيعة تكوينهم الاجتماعى والفكرى يشكلون ائتلاف سياسى وطبقى لعناصر البرجوازية الصغيرة والكمبرادورية التجارية الكبيرة والعناصر الوظيفية المنتفعة مع النظام الاستعمارى والمتكاملة معه منذ زمن طويل ، وحينما كانوا يصرون على المطالبة بالاستقلال من خلال المفاوضـة والمطالبة والمظاهرة كحد أقصى ويرفضـون جملـة وتفصيلا فكرة الثورة المسلحة ، فأنهم بذلك كانوا يعبرون بدقة وبوعى منهم أو بدونه عن طموحات الطبقة البرجوازية والتجارية الكمبرادورية فى مدينة عدن وحدها ، وصولا الى ضرورة اعادة النظر جذريا فى مبدأ تقاسم المصالح السياسية والاقتصادية

مع الادارة الاستعمارية ، بما يضمن لهذه الطبقة أو لهذا الائتلاف المشوهة مصالح وامتيازات جديدة باسم الاستقلال ، مع الاحتفاظ بكل أسس الارتباط والتكامل بين المصالح المشتركة لكـــلا الطرفين (هـــذه الطبقات من جهة

فلقد كان بحثهم عن استقلال أكثر لمصـــالح الطبقة البرجوازيـة والكمبرادورية والعناصر المنتفعة سياسيا ووظيفيـا فى نطــاق السيطرة والتبعية الاستعمارية ، وليس بحثا عن استقلال وتحرر سياسى واقتصادى حقيقى للشعب بأسره ، مع الامعان فى التلاعب بعواطف ومشاعر الجماهير والدفع بها الى مواقف وممارسات سياسية فى ظاهرها الرحمة وباطنهـا العذاب ٠

ولقد كان الذعر والهلع الذى أصيبت به تلك العناصر المثقفة من مسألة الثورة المسلحة هو أعظم دليل على هذه الحقيقة ، لأن مبداء الثورة المسلحة من شأنه أن يؤدى فى النهاية الى دخول أطراف طبقية وسياسية جديدة قد تشمل الشعب بأسره (عمال وفلاحين ومثقفين وطنيين وبرجوازية صغيرة ٠٠٠٠ الخ) ذات أبعاد ومضامين وأهداف سياسية واقتصادية تحرص عـلى تحقيقها من خلال مبدأ الاستقلال وتتعارض جزئيا وكليا مع أهداف الطبقة التجارية والكمبرادورية السابقة التى تعبر عنها تلك العناصر السياسية المثقفة وتناضل من خلالها بوعى منها أو بدونه ٠

وفى ضوء هذه الدلالات الطبقيـــة والتاريخية لم تقف تلك العناصر طويلا أمام مفترق الطرق حيث أختارت طريقها وموقفها الى جانب الطبقـــة البرجوازية الكمبرادورية بحكم مصالحها المرتبطـــة بها من جهة ومحدوديـة رؤيتها السياسية والاجتماعية والتاريخية لتطور الواقع من جهة أخرى ، حيث لم تكن تقوى على أن تتصور أن ثورة مسلحة يمكنها طرد الاستعمار بالقوة مهما كانت مقوماتها وأمكانياتها ٠ وبينما ايدت الثورة « معنويا » ـ كما يقول عبد الفتاح اسماعيل ـ منظمة شبيبة السلفى (الاتحاد الشعبى الديمقراطى) فان حزب الشعب الاشتراكى وقف موقفا مستهينا بها ، بل اعتبرها ثورة « دراويش عرب » كما وصفها زعيم الحزب آن ذاك ٠ أما حزب البعث فقد كان موقفه حينها ـ بشكل غير مباشر ـ هو نفس الموقف الذى اتخذه حزب الشعب[1] ٠

---

(١) عبد الفتاح اسماعيل : كتابات مختارة حول الثـــورة الوطنية الديمقراطية وآفاقها الاشتراكية ، دار الفارابى ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٩ ٠

ولقد تجسد هذا الموقف من خلال ما أعلنته ومارسته هذه العناصر القيادية من تصريحات ومواقف وممارسات مختلفة كان أبرزها ما جاء في « الكتيب » الذي صدر عن مكتب التوجيه والنشر لحزب الشعب الاشتراكي بعنوان « هذا موقفنا » في عام ١٩٦٣ والذي مما جاء فيه : ان حزب الشعب الاشتراكي مع أيمانه الآكيد بأن اجلاء المستعمر عن بلادنا واجب مقدس فهو : لا يؤمن بسفك الدماء حيث يمكن حقنها ، ولا يوافق على تخريب الارض حيث يمكن بناؤها وزرعها ، ويعتبر العمل المسلح وسيلة للضغط على الاستعمار من أجل الوصول الى حلول سياسية أفضل ، وليس لاحراز انتصار عسكرى حاسم على غرار انتصار دولة على دولة ، ورفض الوصول الى المجد الحربى الرخيص على حساب دماء وأرواح الاحرار من القبائل في ردفان ويافع والضالع ودثينة والحواشب ·· في حرب أقلاق لا حرب تحرير(١) ·

أما حزب رابطة أبناء الجنوب « وهي رابطة سياسية لأبناء السلاطين وعناصر الطبقة الاقطاعية ككل » فانه بالرغم من بعض الخلافات العلنية بينها، وبين قيادات حزب الشعب الاشتراكي كممثل للبرجوازية والكمبرادور حول بعض القضايا ، الا أن غزلا سياسيا غير مباشر كان يتم وجدانيا على الأقل وعلى الصعيد العملي بصورة أوضح بين الطرفين بحكم ترابط المصالح وتداخلها بين الاقطاع السلاطيني والكمبرادور من جهة والادارة الاستعمارية الراعية والمهيمنة من جهة أخرى ، حيث كانت هذه الرابطة الاقطاعية ذات النزعة الانفصالية والاقليمية والارستقراطية العفنة تشجب العمل المسلح وتعتبره نذيرا بالخراب والدمار يهدد المنطقة ، وكان هذا المنطق ـ كما يقول الصحفي المصرى عادل رضا ـ وان اختلف من حيث الشكل عن منطق حزب الشعب الاشتراكي الا أنه من حيث المحتوى يؤدى الى طريق واحد · وذلك في كتابة ثورة الجنوب تجربة النضال وقضايا المستقبل ، الذى حاول من خلاله أن ينظر لهذه المجاميع السياسية ويلبسها بعد منتصف الستينات ثوبا غير ثوبها الذى ولدت وترعرعت فيه زمننا طويلا ، ومن منطلق صحفي وسياسى

(١ مكرر) راجع كتيب : هذا موقفنا الذى آصدره عبدالله الأصنج باسم « حزب الشعب الاشتراكي » عام ١٩٦٣ ·

معين يعكس حالة التردى السياسى والفكرى الذى كان يسيطر على النطاق القومى بصفة عامة وعلى موقف القيادة السياسية للجيش المصرى فى شمال الوطن والحكومة المصرية نفسها ، وطريقة تعاملها مع المتغيرات الجديدة لثورة شعبنا فى الجنوب بطريقة خاطئة ٠

فلقد أكد عادل رضا حقيقة هذا الموقف الصريح فى بداية الستينات لهذه الأحزاب السياسية التقليدية من الثورة المسلحة - والحق ما شهدت به الاعداء - بقوله : « كانت الأحزاب تتخذ « طابع الهروب » من الدعوة الى النضال المسلح وعدم التخلى عن موقفها فى المناداة بأساليب السياسة التقليدية والاصرار على رفض أسلوب النضال المسلح ٠٠٠ ويضيف : لقد تصورت الأحزاب السياسية التقليدية أن الثورة لن تستمر شأنها فى ذلك شأن أى انتفاضات قبلية سابقة ، وصدرت منشورات وتصريحات من هذه الأحزاب (تخطىء) أسلوب النضال المسلح وتعتبره وبالا ودمارا على شعب الجنوب[٢] ٠

وهو فى الوقت الذى يقرر فيه هذه الحقيقة يعجز كليا عن تفسيرها وفهم أبعادها الطبقية والتاريخية ، ويكتفى بالقول فى نفس الصفحة : ان المنطق الذى خرج من هذه الاحزاب وحدد هويتها كان غريبا علينا وعلى كل المراقبين المتابعين للقضية ، وكذلك على الشعب العربى كله ؟![٣] ٠

وهو لا يعكس بهذا الفهم موقفه الشخصى كصحفى فحسب ولكنه كان يعكس من باب أولى فهم السياسة العربية القومية المتردى وقتها بصفة عامة ، والمصرية منها على وجهة التحديد والتى كانت تفرض نفسها على الأحداث بقوة داخل المنطقة ، وهو ما يقصده بالضبط من عبارة « كان غريبا علينا وعلى كل المراقبين المتابعين للقضية وكذلك على الشعب العربى كله ؟! » ٠ وهو الأمر الذى جعلنا نهتم بما جاء فى هذا الكتاب ونستدل به على بعض الوقائع فى هذا الجزء من هذه الدراسة ٠

ولقد كان هذا الفهم المغترب للسياسة المصرية وقتها والعربية بصفة عامة للأحداث والمتغيرات العربية والدولية الذى كان يرى بعين واحدة ويلمس

---

(٢) عادل رضا : ثورة الجنوب تجربة النضال وقضايا المستقبل ، دار المعارف المصرية ، ١٩ م ، ص ٥٦ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٦ ٠

ولا يميز هو نفسه الذى تبنى هذه العناصر بعد ثلاث سنوات كاملة من حرب التحرير التى أوشكت على الانتهاء من طرد المستعمر والاستيلاء على السلطة وتحقيق الاستقلال الحقيقى والكامل ٠ فحينما بدأت تلك العناصر والتجمعات السياسية الاقطاعية والبرجوازية الأصل والموقف تشتم رائحة السلطة بعد اقتراب رحيل الاستعمار البريطانى تحت ضربات النضال المسلح ، بادرت بروح انتهازية الى الاعتراف بالثورة المسلحة وطرح مبدأ التوحيد ، لا لكى تشارك بصدق فى المراحل النهائية للثورة ضد الاستعمار وتشارك فى استلام السلطة بعد رحيله المرتقب ، وانما لكى تتسلل الى مواقع استراق ثمـــرة الكفاح الوطنى المسلح طوال أربع سنوات ممثلا فى الاستقلال وتنفرد بـــه وتطوعه لخدمة مصالحها الطبقية التى سبقت الاشارة اليها والمرتبطة بمصالح الاستعمار نفسه ، سواء أن كان موجودا أو غير موجــــود ، وحتى لا تفقد مصالحها التقليدية على الأقل فى حالة عدم استيلائها على السلطة أو التأثير فى مسارها بالكامل ٠ فلقد كان الأعلان المفاجىء — كما يقول عبد الفتاح اسماعيل — عن الأيمان بالثورة الشعبية المسلحة من قبل الذين رفضوها فى البداية ووقفوا موقفا معاديا لها وادانوها فى تصريحاتهم السياسية هو أعلان عن مخطط ضمنى بغرض لوى عنق الثورة وتطويقها(٣) ٠

ولقد اعتمدت فى ذلك على ثلاثة عوامل أو ثلاثة منطلقات رئيسية ، الأول : مهارتها فى البدء بالمناورة فى الضغط على وتر النغمـــة القـومية والوحدوية الغامضة واقناع القيادة الســـياسية للجيش المصرى والسلطة السياسية فى صنعاء — حيث تكمن الارضية الواسعة لانطلاق ودعم الحرب المسلحة ضد الاستعمار — بحسن نيتها أو تضليلهم على الأصح ، رغم أن قياداتها البرجوازية والكمبرادورية والسلاطينية المثقفة لم تكن فى حقيقتها تؤمن حتى بوحدة الممالك والامارات الاقطاعية التى صنعها الاستعمار وظل يغذيها طوال ما يزيد على مائة وثلاثين عاما داخل الجنوب ، عوضا عن زيف أيمانها بالوحدة اليمنية والعربية أو حتى الخط اللبرالى للفكر القومى نفسه ، ذلك أنه لم تسقط بعد من أسماعنا الشعارات سيئة الذكر والسمعة لهذه العناصر الاقطاعية والكمبرادورية المنتفعة عن « عدن للعدنيين » أولا ، ودولة « الجنوب العربى » ثانيا ، وان وحدة التراب اليمنى نظرية خرافية(٤) ٠

(٣ مكرر) عبد الفتاح اسماعيل : كتابات مختارة حول الثورة الوطنية الديمقراطية وآفاقها الاشتراكية ، دار الفارابى ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٢٢ ٠

(٤) عادل رضا : ثورة الجنوب ، تجربة النضال وقضايا المستقبل ، ص ٥٨ ٠

كما أن القيادة المصرية في صنعاء قد اندفعت رغم كل ذلك بسذاجة ومن واقع فهمها وتوجهها العام والغامض بصفة عامة الى المراهنة على هذا الخط الواهي والمنحرف ، وبدوافع ونوايا لا تخلوا من السوء والخبث المقرون بحسن التصرف الشكلي حينما ضغطت في اتجاه التوحيد ، لا لأنها كانت ترغب عن حسن نية في اصلاح ما فسد من تلك العناصر عن طريق ضمها الى مسار العمل الوطني ، بقدر ما كانت تهدف الى استخدام هذه العناصر نفسها كصمام أمن في يدها للحد من الطموحات الوطنية والتقدمية التي بدأت رائحتها تشتم من أوساط الجبهة القومية وقيادات النضال الشعبي المسلح بالنسبة لمستقبل الشطر الجنوبي من الوطن والوطن اليمني ككل ، والتي بدأت تتجاوز بأشكالها ومضامينها حدود أهداف وطموحات قيادة عبد الناصر نفسها ، ممثلة في القيادة العربية للجيش المصري في صنعاء ، ويتم الترتيب لها بمعزل عن وصاية الزعامة القومية المباشرة لعبد الناصر .

وقد استجابت بعض عناصر الجبهة القومية بدورهـا لهذا الضغط ، لا لمجرد كونه ضغطا سياسيا أو أدبيا فحسب ولكنها هي نفسها أيضا كانت ما تزال مهتمة بكفرة الاستقطاب السياسي أيضا بحكم تربيتها وأفقها القومي والبرجوازي الصغير ، غير مدركة لكل المحاذير المترتبة على ذلك ، الا أنه ما أن بدأت آجراس هذه المحاذير تدق منذ اليوم الأول للتوحيد المصطنع وتلوح مخاطرها في الأفق بينما يقترب موعد استلام السلطة من المستعمر حتى أدركت غالبية القيادات والقواعد العريضة في الجبهة التي حملت على عاتقها كل أعباء وتضحيات النضال السياسي والعسكري مغبة الاخطار المترتبة على ترك الأمور تجري على نحو ما قد وصلت اليه ، فبادرت بحسم الأمر بجرءة وطنية حاسمة برفض عملية الدمج والتوحيد المصطنع مع جبهة التحرير من جهة ، وازاحة تلك العناصر المتواطئة في الجبهة القومية نفسها من خلال مقررات مؤتمر « حمر » في ١٩٦٦/١١/٢٥ ، مستفيدة من خبرتها النضالية سياسيا وعسكريا واحتفظت بالخط الوطني للجبهة القومية سياسيا وعسكريا أيضا ، قابلة بكل الاعباء والمشقات التي ترتبت على ذلك من قبل القيادة المصرية وحصارها السياسي والعسكري للجبهة القومية وهي في أدق مراحل نضالها وعلى مقربة من نقطة الحسم مع السلطات الاستعمارية وانتزاع الاستقلال الناجز منها بالقوة ، ورغم ذلك فقد استمرت وكسبت الموقف بالاستيلاء على السلطة وازاحة كل العناصر الاقطاعية والكمبرادورية وكشفت زيفها وتصرفاتها الانتهازية .

وبذلك فانها لم تشكل أول انقسام حقيقي ذي مغراء طبقي بين اليمين

واليسار فى حياة المثقفين اليمنيين المعـــاصرين فحسب بل والبداية الأولى لبلورة الاتجاهين وزيادة وعى كل منهما بمصالحة الطبقية وخطة الايدولوجى وتطويره أكثر فأكثر .

فقد ظل يتسع نطاق استقطاب اليمين بعد ذلــك وامتصاصه لمعظم عناصره الطبقية بشكل أكثر وضوحا ، ليس من أوساط الطبقة الاقطاعية السلاطنية والبؤر الكمبرادورية والبرجوازية فحسب بل ومن داخل مؤسسات السلطة القديمة التى خلفها الاستعمار فى الجيش والأمن ، ومن داخل تنظيم الجبهة القومية نفسها ، تحت مختلف المسميات والأشكال السياسية المعادية لثورة الشعب اليمنى وطموحاته الجديدة ، بداء بجبهة التحرير وانتهاء بما يسمى بالجبهة الوطنية لتحرير جنوب اليمن تحت رعاية ومباركة القـــوى الاستعمارية والامبريالية والرجعية العربية التى تواصل قيامها بدور كلب الحراسة ، انطلاقا من حقيقة أن القوى الرجعية والكمبرادورية المحلية فى اليمن أو أى مجتمع نامى ومتخلف هى فى التحليل الأخير جزء لا يتجزاء من القوى الأمبريالية والرجعية فى العالم(٥) .

كما اتسع فى المقابل نطاق استقطاب الخط الوطنى للجبهة القومية لجماهير الشعب وطبقاته الكادحة من خلال انتهاج السياسة الوطنية والتقدمية وتنفيذ اجرآت التحول الثورى على المستوى الاقتصادى ، والاجتماعى ، ضمن توجه اشتراكى علمى واضح ، ذلك أنه بالرغم من كل المعاناة والاعباء السياسية والنضالية الشاقة التى تحملتها العناصر السياسية والوطنية المثقفة التى طرحت هذا التوجه غداة الاستقلال وبدأت ممـــارسته وتنفيذه من واقع تواجدها فى السلطة ، الا أن معاناتها لم تكن فقط من جراء تحالف وتكالب القوى الاقطاعية والكمبرادورية المعادية للثورة منذ البداية والتى كانت قد وجهت لها ضربات قاضية ، بل ومن خلال تيار اليمين البرجوازى المتذبذب داخل السلطة الجديدة نفسها وداخل التنظيم السياسى نفسه بزعامة قحطان الشعبى رئيس الجمهورية .

حيث حدث ما يمكن اعتباره بداية الانقسام الثانى فى صفوف المثقفين ذوى الأفق القومى والبرجوازى الوطنى الصغير داخل الجبهة القومية نفسها

---

(٥) كتاب الثورة الوطنية الديمقراطية فى اليمن « سلسلة وثائق » : دار ابن خلدون بيروت . الطبعة الأولى ١٩٧٢ . ص ١٥ .

بعد وصولها الى السلطة ، والذى بنيت على أساسه منذ البداية بصفة عامة ، أدى الى وجود قسمين رئيسيين : القسم الأول بقيادة اليسار التقدمي الذى أراد أن يعطي للاستقلال والثورة كل أبعادهما الاقتصادية والسياسية من خلال ضرورة تطهير الجيش والبوليس من العناصر المعادية للثورة وتكوين الجيش الشعبي « الميليشا » من جيش التحرير وتشكيلات الفدائيين والبدء بتطهير مماثل لأجهزة الدولة واعادة تنظيمها جذريا ، وأحداث انقلاب جذري في الملكية الزراعية في الريف عن طريق مصادرة كافـــة أراضي الاقطاع وتوزيعها على الاجراء من الفلاحين وتأميم كافة المؤسسات المالية والبرجوازية الكبيرة الأجنبية والمحلية ، وصولا الى تحقيق اقامة دولة العمال والفلاحين الفقراء ... الخ ، حيث تجسد كل ذلك من خلال مقررات المؤتمر الرابع للجبهة القومية التي رفضتها جماعة قحطان في قمة السلطة(٦) . أما القسم الثاني وهو بزعامة قحطان رئيس الجمهورية وعناصر السلطة العليا فهو أنه ان لم يكن قد قصد التراجع الى الخلف وتبني مواقف سياسية أكثر برجوازية ويمينية فانه قد أراد حقيقة أن يقف بالأوضاع حيث هي عند حدود تنفيذ بعض الاصلاحات الشكلية وتأميم بعض أراضي وممتلكات السلاطين وذلك تقربا ومماﻷة لـــكل عناصر ومراكز القـــوى القديمة في الجيش والشرطة والمنظمات السياسية العميلة ، كجبهة التحرير والرابطة وغيرها ، في محاولة الامساك بالعصاء من النصف ، في الوقت الذى تزايدت فيه حدة هذا الجناح اليمني وحماسة ضد الجناح اليساري التقدمي ومباشرة تصفيته بكل الوسائل بالمطاردة والعنف المسلح ، والتشهير المغرض والمضلل ، حيث يمكن الاستدلال والتعرف على فهم وتوجه هذا الجناح اليمني من خلال ما جاء في بيان مؤتمر صحفي لعبد الملك اسماعيل في القاهرة في ١٩٦٨/٥/١٧ والذى كان يشغل وقتها وزيرا للاقتصاد جاء فيه : « أن هؤلاء الأشخاص الذين قضت الحكومة على حركة التمرد التي قادوها قد رفعوا شعارات لا تتفق مع المجتمع العربي ، كما حرضوا الطلبة على قتل أحد ضباط الجيش ، وأنهم قدمو برنامجا للعمل السياسي يرتكز على نظرية طبقية تضمن اعتبار الماركسية اللينينية منهجا للتطبيق ونبذ سياسة التعايش السلمي وعدم الأخذ بالتجارب النضالية التحررية في الدول العربية(٧) . وهكذا جاء المؤتمر الرابع للجبهة القومية — كما يقول عبد الفتاح اسماعيل — ليميط اللثام عن وجود تيارين متناقضين

---

(٦) راجع مقررات المؤتمر الرابع للجبهة القومية ، مارس سنة ١٩٦٨م .

(٧) عادل رضا : ثورة الجنوب تجربة النضال وقضايا المستقبل ، ص ٣٩٩ .

داخل الجبهة القومية في مفهومهما للثورة بعد الحصول على الاستقلال الوطني، تيار يمني متخلف يرى في الثورة علما ونشيدا .. وآخر يرى فيها السير نحو تحولات جديدة لصالح الكادحين اليمنيين وازدهار حياتهم(٧) .

فهذا الخط البرجوازي اليميني الذي بالرغم من كل ثقله ودوره الفعال في حرب التحرير وداخل التنظيم والسلطة الا أنه كان وما يزال مشبعا بخليط لا حد له من المفاهيم الاقطاعية والبرجوازية والقومية الغامضة ، اما بحكم أصالة الانتماء الطبقي أو نوع التربية السياسية البرجوازية التي شبو عليها منذ الصغر والتي خانهم الحظ في القدرة على تجاوزها ، أو عز عليهم مغادرتها بعد أن صاروا يحكمون وتلوح لهم الكثير من المصالح والطموحات والزعامات الشخصية المبنية على بحر من رمال ، رامية عرض الحائط بكل الأسس والمبادىء الثورية والديمقراطية التنظيمية بين رفاق السلاح على الأقل .

حيث باشر قحطان أجرآته الشخصية كرئيس جمهورية وحسب في ساذجة للقيام بلعبة التحالفات والتوازنات البليدة ، بين المتناقضات ، والتي في حرب التحرير أو قادة سلاح حرب التحرير على الأصح ، واستبدالهم بمراكز قوى تقليدية موروثة في الجيش والشرطة ، والتي كانت ما تزال مؤسسات مشبعة بالتربية الاستعمارية التي أوجدتها ، ان لم تكن ما تزال مرتبطة بها فعلا وتشكل احتياطيها الضروري بالفعل ، وذلك في محاولة ساذجة للقيام بلعبة التحالفات والتوازنات البليدة ، بين المتناقضات ، والتي غالبا ما تلجأ اليها بغباء الفئات السياسية المثقفة في البلدان النامية والمتخلفة — حينما تكون في السلطة أو على مقربة منها — وحينما يعيشون بلا رؤية علمية للواقع وبلا حس أو انتماء طبقي صحيح ، ويظنون بدلا من ذلك أنهم بذاتهم قد صاروا سلطة أو طبقة بذاتها قادرة على ممارسة هذه اللعبة المميتة بالنسبة لهم ، وكسب نتيجتها الوهمية .

الا أن الخط الوطني التقدمي في أوساط المثقفين اليمنيين في الشطر الجنوبي من الوطن قد استطاع أن يتلمس خطواته الأولى على طريق الرؤية العلمية الصحيحة للواقع بكل أبعادها النظرية والعملية ، وادرك بوضوح كل

(٧ مكرر) عبد الفتاح اسماعيل : كتابات مختارة حول الثورة الوطنية الديمقراطيه ، وآفاقها الاشتراكية ، دار الفارابي ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٣٥ .

المخاطر الفادحة لتلك اللعبة البرجوازية الغبية لقطـــاع معين من المثقفين السياسيين المنظمين داخل الجبهة برياسة قحطان ، ليس بالنسبة لمصيرهم كخط أكثر وطنية وتقدمية داخـــل التنظيم والسلطة فحسب بل وبالنسبة لمستقبل الاستقلال الوطنى للشرط الجنوبى من الوطن برمته بما فيه ذلك القطاع البرجوازى الصغير والابله ، ممن بداوًا ينفذون الحلقات الاولى من لعبة الموت ، برفضهم مقررات المؤتمر الرابع للجبهة وتعطيلها ، ومطاردة اليسار التقدمى والتحالف من المؤسسات الاستعمارية الموروثة فى الجيش والشرطة، والتى وجدت فى هذه اللعبة لا مجرد الاحتفاظ ببقائهـــا كرصيد احتياطى لحماية المصالح الاستعمارية واستمرارها فحسب ، بل لقد أغرتها بالاستعداد للاستيلاء على السلطة أيضا ، والذى تجسد من خلال محاولة انقلاب ٢٠ مارس سنة ١٩٦٨ الفاشلة(٧) .

ولذلك فقد تصدى الخط الوطنى التقدمى لهذا الانحراف بالعودة الى مواقعهم النضالية الاولى فى الكهوف والجبال وبين جماهير الفلاحين فى الريف والعمال فى المدن ، هناك حيث استلهموا منذ البداية وعيهم الطبقى ورؤيتهم الصحيحة للحاضر والمستقبل ، وحيث كان المنطلق الاول للدخول فى مواجهة شاملة سياسية وعسكرية للخط المريض والمنحرف داخل السلطة والتنظيم وحسم الموقف لصالح هذا الخط التقدمى فى الثانى والعشرين من يونية سنة ١٩٦٨ ، بحكم خبرتهم النضالية واكتسابهم لثقة أوسع قطاعات جماهير العمال والفلاحين فى الريف والمدن والذين قادوا حرب التحرير من جهة ، ولامتلاكهم كل البديهيات الضرورية لرؤية الواقـــع الاجتماعى والطبقى والتاريخى رؤية علمية صحيحة والتحرك فى ضوئها من جهة أخرى ، ولان نفس تلك اللعبة كانت ما تزال نتائجها الخاسرة ماثلة للعيان فى الشطر الشمالى من الوطن بعد انقلاب الخامس من نوفمبر سنة ١٩٦٧ من جهة ثالثة، حينما أرادت بعض المنظمات السياسية المثقفة بأفقها الوطنى والبرجوازى الصغير ، وتربيتها الشوفينية الخاطئة أن تتسلل الى السلطة وتنفرد بها من خلال التحالف مـــع قطاع وأسع من ممثلى الطبقة الاقطاعية والعشائرية والكمبرادور ، وأقصى خصومهم ومنافسيهم فى المنظمات السياسية الوطنية الأخرى ، والذين لم يكونوا أسعد حظا منهم فى الفهم والرؤية الصحيحـــة الا بفروق نسبية ، فقادوا الطبقة الاقطاعية الى السلطة وسهلوا مهمتها الى حد كبير على الأقل ، أرادوا ذلك أم لم يريدوا وخرجو من اللعبة بخفى حنين . ولذلك فقـــد كانت طليعة اليسار التقـــدمى فى الجنوب تعى جيدا أهمية

(٧ مكرر) راجع بصفة عامة فردهولايد : الصراع السياسى فى الجزيرة العربيـــة ، ترجمة حازم صاغيه وسعد محيو ، دار ابن خلدون ، بيروت ، طبعة ١٩٧٨ ، ص ١٦٩ الى ١٧٣

الصراعات والانقسامات الايدولوجية بعد الاستقلال ، الأمر الذى تؤكده احدى وثائق الثورة الوطنية الديمقراطية فى اليمن بالقول : ولم يكن الصراع بعد الاستقلال مشروعا وعادلا فحسب ، ولكنه كان ضروريا من أجل تطور الثورة وتقدمها وبدون ذلك فقد كان الاستقلال الذى انتزعناه سيتحول الى جسر للاستعمار الجديد(٨) ٠

وبذلك نستطيع القول بالنسبة للشطر الجنوبى من الوطن أن تانى وأهم أنقسام تاريخى بين أفراد شريحة المثقفين اليمنيين المعاصرين ومنظماتهم السياسية ، قد بداء قبيل وأثناء المؤتمر الرابع للجبهة القومية فى مارس ١٩٦٨ ، وحسم لصالح الخط التقدمى فى الثانى والعشرين من يونية من نفس العام حيث تمكن الخط التقدمى بعد ذلك من انضاج مواقفه ونضالاته أكثر فأكثر وبحزم وجدية لم يعرفها النضال الوطنى فى اليمن من قبل ، من خلال تعميق الاجراءات الثورية وخلق التحالف الطبقى القوى بين طبقات العمال والفلاحين وبينهم،لا بجرد كونهم سلطةسياسية وطنية تحكم بأشخاصها ولكن كطليعة سياسية مناضلة لهذه الطبقات نفسهـــا ومرتبطة بها أشد الارتباط سياسيا واجتماعيا وايديولوجيا ٠ فلقـد حرصت الثورة فعلا بعد صدور قانون الاصلاح الزراعى — كما تشير الوثائق السياسية — على أن لا يتم تنفيذه بالطرق التقليدية ، حيث تستخدم فيه ادوات السلطة القمعية من أجل ضرب الاقطاعيين ونزع الأراضى الزائدة عن الحد الأعلى فى القانون ٠٠ فقد هيأت الظروف السياسية والتنظيمية بحيث كانت مبادرات وانتفاضات الفلاحين المعدمين والفقراء ، وكذلك الصيادين ضد مستغليهم الطبقيين(٩) ، فحققت بفضل ذلك أعظم الانتصارات الوطنية فى تاريخ شعبنا المعاصر على الصعيدين السياسى والاجتماعى ٠

والى جانب تحقيق أفضل المنجزات الثورية والوطنية فى مجال التطبيق الاشتراكى العلمى من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، فقد حققت انتصارات لا تقل أهمية على الصعيد السياسى والتنظيمى ، ابتداء بالقدرة على التصدى لكل القوى التى استماتت فى عدائها لثورة شعبنا فى الجنوب والشمال وتهورها فى الانقضاض على مكاسبه الثورية والوطنية ، وحماية الاستقلال والسيادة الوطنية ، مرورا بتجاوز الأشكال التنظيمية البرجوازية القومية

---

(٨) الثورة الوطنية الديمقراطية فى اليمن « سلسلة وثائق » ، دار ابن خلدون للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٢ ، ص ١٣ ٠

(٩) كتاب الثورة الوطنية الديمقراطية « سلسلة وثائق » الطبعة الاولى ، دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٢ ، ص ٨٥ الى ٩٠ ٠

القائمة للجبهة القومية وغيرها من المنظمات الموازيـــة الى التنظيم السياسى الموحد لكل فصائل العمل الوطنى والتقدمى ، وانتهاء باقامة الحزب الطليعى الواحد « الحزب الاشتراكى اليمنى » الذى يشكل اليوم أعظم نقاط التحول التاريخى لمسيرة الثورة اليمنية ككل ٠

هذا فى الوقت الذى انقطعت السبل بمســار الخــط الآخر « خط قحطان » الذى اذا لم يكن قد عمق انحرافه الى الخط المضـــاد فقد اعترته السلبية والتأزم النفسى والسياسى الحاد ومال الى الترف الذهنى العقيم ، وهذا لا ينفى قط أن قطاعات واسعة من العناصر الوطنية لهذا الخط ممن كانوا يجهلون اصلا حقيقة ما هم بصدد فعله واستطاعت الأحداث والتطورات اللاحقة أن تقنعهم بذلك ، قد عادوا للمساهمة الجادة فى المســـار الوطنى والتقدمى الجديد ، خصوصا وأن كل المؤسســات العســكرية والسياسية والاقتصادية البرجوازية والكمبرادورية والاقطاعية القديمة كانت الثورة قد قامت بتصفيتها تماما ولم تعد تشكل مراكز جذب واغراء لمثل تلك العناصر السياسية المثقفة ثقافة برجوازية هشة ، وغير مسلحة تسليحا جيداً بموقف نظرى علمى واضح وانتماء طبقى ثورى صحيح ، اضافة الى حقيقة كون أن الثورة قد تجاوزت وضعها كمجرد سلطـــة سياسية أو تنظيم سياسى الى تجسيد نفسها كواقع اقتصادى واجتماعى وثقافى فى وجدان المجتمع وأعماق حياته كلها ٠

وخلاصة ما نستطيع أن نستخلصه من كـــل ما سبق بالنسبة لفئة المثقفين فى الشطر الجنوبى من الوطن هو انهم قد انقسموا اصوليا وايدولوجيا منذ حوالى منتصف الستينات الى ثلاثة أقسام رئيسية على النحو التالى :

(أ) القسم الأول وهو ذلك الطراز من العنــاصر المثقفة ذات الأصول والأنتمآت الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة والكمبرادور التجارى العريق فى مدينة عدن كان قد بدأء فى مجاراة المد القومى العربى فى المنطقة والتحمس له منذ وقت مبكر نسبيا من خلال بعض التجمعات السياسية كحزب الشعب الاشتراكى ورابطة أبناء الجنوب ، ووصلت الى حد المناورة والمداعبة المباشرة للنقابات العمالية وجماهيرها الواسعة فى عدن من خـــلال المؤتمر العمالى وسيطرتها عليه لبعض الوقت ، والمناورة السياسية من خلاله على طريــق مطالبة بريطانيا بالاستقلال الذى يتيح لها الحصول على امتيازات سياسية واقتصادية أكثر فائدة وأوسع نطاقا وربحا فى حماية الاستعمار بصورة مباشرة وغير مباشرة واستجدائه الاستقلال من خلال رفع الافتات والمسيرات

والاعتصامات والاضرابات المهذبة على الطريقة البوذية •

ولذلك فانه ما أن بدأت بوادر حرب التحرير الشعبية من أجل الحصول على الاستقلال الوطني الصحيح والكامل ، حتى عجزت تلك العناصر بحكم طبيعتها عن استيعاب هذا الموقف ومجاراته على غرار ما فعلته من قبل في مجاراة الشعارات القومية العربية التي غطت المنطقة وأجادت المناورة الزائفة من خلالها ، ولذلك فقد عارضت العمل المسلح ضد الاستعمار كما هو معروف من أول لحظة وناصبته العداء بلا حدود ، لكنها ما أن أدركت في الأخير أنه قد فرض نفسه من خلال جماهير الشعب من العمال والفلاحين والبرجوازية الوطنية وأصبح يشكل جسر العبور الوحيد الى الاستقلال الكامل وان الوقت يقترب ، حتى بادرت الى ممارسة لعبتها الخاسرة والأخيرة على نحو ما سبقت الاشارة ، والتي لم تودع بعدها مواقفها الانتهازية فحسب بل وكل مصالحها ووجودها الطبقي نفسه الى الأبد في الشطر الجنوبي من الوطن ، ومعها كل مصالح وطموحات القوى الاستعمارية والامبريالية العالمية • وذلك هو الطراز الأول من مثقفي الطبقة الاقطاعية والسلاطنية وحلفائها الكمبرادوريين الكبار •

(ب) أما الطراز الثاني من المثقفين الذي يتبنى أصوليا أو أيدولوجيا مواقف البرجوازية الوطنية الصغيرة في المدن ، والملاكين العقاريين المتوسطين في الريف فقد كانوا أكثر أخلاصا وصدقا في تبني الفكر الوطني القومي الذي انبثقت من خلاله حرب التحرير ومساهمة فيه ، ضد محور الاحتلال الأجنبي من جهة وتحالف الاقطاع والكمبرادور من جهة ثانية حتى النهاية ، الا انها قد أخفقت بحكم طبيعتها عن تبني الحلول الثورية الجزئية والجذرية لمرحلة ما بعد الاستقلال وانجاز مهام مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي من خلال أفاق نظرية وعملية علمية واضحة وناجزة ، ومالت بحكم طبيعتها وتربيتها السياسية القديمة أيضا وهي في قمة السلطة غداة الاستقلال الى التذبذب والتردد الجبان والميل الى ممارسة لعبة التوازن المميته بعد الاستقلال على نحو ما سبقت الاشارة أيضا ، والتي منيت بالفشل والاخفاق الشديد ، وذلك هو الطراز الثاني من مثقفي الطبقات البرجوازية المتوسطة والملاكين العقاريين الصغار الذين تضألت مواقفهم ومالت الى الانزواء والتأزم بتضاؤل مصالح تلك الطبقات نفسها وتأزم فكرها ، رغم أن الكثير منهم وبحكم طبيعتهم الشديدة المرونة أيضا قد استطاعوا انتشال أنفسهم والالحاق بمسار الخط الوطني التقدمي الراهن والمساهمة في حمل اعبائه ومسئولياته بصدق•

(ج) أما الطراز الثالث من المثقفين اليمنيين المعاصرين في الشطر

الجنوبى من الوطن ممن ينتمون الى الطبقـــات العمالية والفلاحية والفئات الاجتماعية الكادحة والفقيرة فى المجتمع بحكم أصولهم الاجتماعية أو قناعاتهم السياسية والايدولوجية الصادقة ، فانه بالرغم من أنهم لم يكونوا يختلفون عن غيرهم من الطرازين السابقين في شيء من حيث طبيعـة النشأة ونوع التربية السياسية الأولى والظروف المحيطة ، الا أن طول ممارسة النضال الوطنى سياسيا وعسكريا فى صميم الواقع الاجتماعى وحسها الطبقى نفسه قد علمها وكشف لها من الحقائق الاجتماعية والتاريخية عن نفسها وعـن الواقع ما حجبته عنها كل الظروف والعوامل السابقة التى أنصاعت لها زمنا طويلا ، وبدأت بناء على ذلك توطد صلاتها وارتباطهـــا القوى بأصولهـا الاجتماعية والطبقية وتتبنى فكرها ومصالحها بلا رجعة ، وتعمل على تنميتها وبلورتها فى نفسها وفى الواقع الاجتماعى بصفة عـامة ، الأمر الذى سهل لها امتلاك رؤية نظرية علمية صحيحة من جهة وموقف اجتماعى نضالى صلب وعميق الجذور من جهة أخرى ، مكنها من مواجهة كل العوائق والتحديات التى ورثها الماضى واقامها الحاضر حتى هذه اللحظة ، وما يزال عليهم الكثير الذى يتوجب انجازه ومواجهته ، وذلك رغم عمرها اليافع وتجربتها الفتية الناشئة ، وهذا هو الطراز الثالث من مثقفى الطبقات العمالية والفلاحية وتحالف قوى الشعب المنتج ٠

(د) واذا كانت لا تزال لنـا بقية لا نجد بدا من الاشـارة اليها فيما يتعلق بالمثقفين اليمنيين فى الشطر الجنوبى من الوطن فهى آخر الأحداث فى شهر يونيو ١٩٧٨ والتى انتهت بنهاية مصير سـالم ربيع ، والتى لا نريد ان ندخـل فى تفاصيل أكثر فى موضوعها أكثر من الاشـارة الى الحقيقـة التاريخية والعلمية التي تؤكـــد بأنه اذا كان لليمنى البرجوازى طفولته ومراهقته الفكرية ، فان اليسار التقدمى لا يخلو من نفس الصفة والتى مثل « سالمين » بكل أبعاد خطه السياسى والفكرى المتهور داخل اليسار الوطنى نموذجا لمراهقة اليسار الطفولى فى بلادنا والذى تحدث عنه لينين وحذر منه ، بدءا بالتطرف اليسارى الفوضوى فى بداية السبعينات ، وانتهاء بالانحراف اليمينى وممارسة الانتهازية البرجوازية والخروج عـــلى مبدأ الديمقراطية الثورية نهائيا فى أواخر السبعينات ٠ ونحن ندرك - كما يقول عبد الفتاح اسماعيل تعليقا على الأحداث - أن كل ثورة تصاب بخطرين رئيسيين قائلين ٠٠ خطر الانتهازية اليمينية ، وخطر الانتهازية اليسارية وقد نجونا منهما ،

ولكن حتى لا تتكرر المآسى لا بد من الدراسة الكافية للتجربة الماضية ، وهذه هى القضية الأولى(٩) ٠

فى الشطر الشمالى من الوطن

قد يظن البعض بوجود فوارق جوهرية بين الدلالات الواقعية لتغير أوضاع المثقفين اليمنيين المعاصرين وتطورها ما بين الشمال والجنوب ، والحقيقة أن مثل هذه الفروق – ان وجدت – هى فروق نسبية وجزئية الى حد كبير يدور معظمها حول شكل علاقة المثقفين بالسلطة السياسية الحـــاكمة هنا وهناك لا أكثر ، وهى دالة اذا كانت لها أهميتها السياسية البحته الا انها غير ذات موضوع جوهرى بالنسبة لتحليـــل الواقـــع الاجتماعى والطبقى للمجتمع اليمنى بصفة عامة ، والذى يعنينا بالدرجة الأولى فى هذا البحث الذى نركز فيه على فئة أو شريحة المثقفين اليمنيين المعاصرين فى هذا الاطار الطبقى والاجتماعى ومن خلاله مفهومه نفسه ، عوضا عن أنه بالرغم من وجود التباين فى شكل السلطة السياسية بين الشمال والجنوب الا أن ذلك لم يترك بعد أية أثار متمايزة وجوهرية بين شطرى المجتمع على أى مستوى من المستويات الاجتماعية والوطنية المختلفة ، خصوصا فيما يتعلق بفئة المثقفين السياسيين التى لا يمكن الحصول على سمات مميزة لها بين الشمال والجنوب، وعلى العكس من ذلك فانها قد مالت حقيقة ومنذ رحيل الاستعمار وانتهـاء الملكية الى مزيد من الترابط والتكامل والتداخل العميق رغم كل الظروف والمصاعب التى تعترض طريقها ، الأمر الذى نرجو أن نقوى على تأكيد حقيقته من خلال الأحداث والوقائع التى جرت فى حياة المثقفين وواقعهم فى شمال الوطن ، ووجدت أبعادها وامتداداتها المباشرة فى الجنـــوب منذ قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر وحتى اليوم ٠

فاذا ما تذكرنا أن معظم المنظمات السياسية الموجودة فى الشمال بعد الثورة هى نفسها الموجودة فى الجنوب قبل وأثناء حرب التحرير وما بعد الاستقلال وتحت قيادات مركزية موحدة موجـــودة فى الشمال أو الجنوب حسب طبيعة الأحوال والظروف السياسية هنا أو هناك ٠ فماذا حدث اذن فى الشمال منذ منتصف الستينات من أحداث وتطورات أجبرت المثقفين

(٩ مكرر) عبد الفتاح اسماعيل : كتابات مختارة حول الثـــورة الوطنية الديمقراطية وآفاقها الاشتراكية ، دار الفارابى بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٤٢٩ ٠

اليمنيين فى الشمال أو اقنعتهم بالضرورة على مراجعة مواقفهم وأفكارهم القديمة والبحث عن أبعاد اجتماعية وطبقية جديدة يأوون اليها بعد غربتهم الطويلة ؟

لقد حدث أنه فى الوقت الذى كانت فيه الجبهة القومية الملتزمة بالفكر البرجوازى القومى لحركة القوميين العرب تنقسم على نفسها وتبلور مواقفها النضالية التقدمية الخاصة من خلال العمل السياسى والعسكرى بعد انفصالها عن قيادة تلك الحركة فى بيروت شكلا ومضمونا ، وبعيدا عن الوصاية المباشرة للقيادة العسكرية المصرية فى صنعاء استعدادا للمعركة الفاصلة مع الاستعمار والاستيلاء على السلطة فى منتصف الستينات حدث فى نفس الفترة وبالتحديد فى عام ١٩٦٦ أن انقسم الجناح الآخر لهذه الحركة نفسها فى الشمال وأقدمت غالبيتها العظمى على أعلان تبنى الفكر الاشتراكى العلمى كأساس نظرى لنضالها وتجاوز كل المواقف والأفكار القديمة فى اطار تنظيم سياسى مستقل عن القيادة المركزية للحركة فى بيروت هو « الحزب الديمقراطى الثورى اليمنى » ومهما كانت الحدود والفاعلية المتواضعة لذلك الاعلان فى تبنى الأفكار والمواقف العلمية الجديدة بين مثقفى الحركة الذين ظلوا يناصبونها العداء لسنوات طويلة ، الا أنه كان بحق أول مؤشر حقيقى لتجاوز الأفكار البرجوازية الصغيرة والخروج على الأفكار والمفاهيم القومية الخاطئة ، رغم أن كل الرواسب القديمة ظلت تسحب نفسها على التنظيم الجديد لعدة سنوات لاحقة من الناحية العملية على الأقل ، نظرا لعدم وجود محكات نضالية عملية فى صميم الواقع تساعد أولئك المثقفين على بلورة توجههم الجديد واعطائه الأبعاد الاجتماعية والطبقية الصحيحة على غرار ما حدث فى الجنوب ، حيث كانت الوقائع اليومية لحرب التحرير تقدم المحك العملى لكل المفاهيم النظرية المتطورة أكثر فأكثر .

كما أن منظمات سياسية يسارية جديدة بدأت تظهر فى حدود معينة (حزب العمل) ،اضافة الى العناصر اليسارية الماركسية القديمة (الشبيبة) التى بالرغم من سبقها فى تبنى الاتجاه العلمى الا أنه ظل بالنسبة لها أشبه بمقولات نظرية وثقافية بحته على المستوى الفردى فى أحسن الأحوال ، أما التحول الأساسى الثانى فقد حدث بالنسبة لمنظمة حزب البعث العربى الاشتراكى فى اليمن التى بدأت بعد فترة وجيزة بالانقسام على نفسها عموديا وليس أفقيا كما حدث بالنسبة لحركة القوميين العرب ، أى أن المنظمة أنقسمت الى منظمتين فى اطار نفس الفكر البرجوازى القومى كصدى مباشر لانقسام القيادة المركزية للحزب فى دمشق الى محورين ، محور دمشق ومحور

بغداد ، ثم ما لبث محور دمشق الذى امتص أفضل العناصر والكوادر الوطنية الشابة أن وصل الى نفس النتيجة التى كانت قد وصلت اليها حركة القوميين العرب من قبل من حيث تبنى نظرية الاشتراكية العلمية من جهة والاستقلال عن القيادة المركزية القومية لحزب البعث فى دمشق من جهة ثانية فى اطار تنظيم جديد هو « حزب الطليعة الشعبية » ، والتى ظلت تعانى من نفس الرواسب بحكم التربية القديمة وانعدام المحكات العملية أيضا ·

أما محور بغداد الذى تميز بأستقطاب قطاع واسع من العناصر الاقطاعية والقبلية العشائرية التى دأب حزب البعث على استقطابها منذ وقت مبكر بحكم عدائها أو خلافها مع القيادة العسكرية المصرية فى اليمن وتحت تأثير الخلاف المستحكم بين البعث وعبد الناصر على مستوى الوطن العربى ، فقد مال الى التفسخ من الناحية التنظيمية التى لم تكن بالنسبة له أكثر من ارتباط شكلى وتصرف انتهازى ، وتوجه بحزم الى الارتباط بمصالحه الطبقية والعمل على تطويرها من خلال الاستيلاء على مراكز السلطة العسكرية والمدنية، وتحول الى أدوات قمع شديدة بيد السلطة ضد كل العناصر الوطنية بصفة عامة ، كما أحتفظت لنفسها بخيوط واهية للمناورة السياسية على المستوى الداخلى والخارجى والتى ما تزال بعض الدول العربية وفى مقدمتها بغداد نفسها تراهن على هذه الخيوط الواهية حتى الآن ، مستفيدة فى ذلك من الخبرات السياسية التى تعلمتها وعرفتها من خلال احتكاكها بالمنظمات السياسية القومية والوطنية السابقة والاطلاع على شئونها فى الماضى ·

وبالرغم من أن حزب البعث بتوجهه البرجوازى القومى الغامض قد استقطب هذا الطراز من المثقفين وأشباه المتعلمين ممن لم يفارقوا هويتهم الاقطاعية والعشائرية أكثر من مسافة سنتيمترات محدودة تحت تأثير العداء والخلاف المستحكم بين هذه العناصر والوجود المصرى فى اليمن من جهة والنشاط البعثى بصفة عامة ، الا أنه لم يكن هو المحور السياسى الوحيد الذى مارس هذه الظاهرة المشوهة للاستقطاب السياسى بعد عام ١٩٦٢ ، بل لقد شاركته كل المنظمات السياسية البرجوازية والقومية الوطنية الأخرى ، بما فى ذلك دوائر اليسار الماركسى المحدودة نفسها حين ذاك التى فعلت ذلك ، ووصل الجميع مع مثل تلك العناصر الى نفس النتيجة مع بعض الفوارق النسبية لا أكثر ، سواء من حيث المقدمات أو النتائج ، حيث كان انقسام الناس من خلال الأحداث الجارية فى الشمال أنقساما عموديا الى جمهوريين وملكيين وليس أفقيا على أساس طبقى على غرار ما حدث فى الجنوب هو احدى الأسباب الرئيسية التى سهلت عملية

الاستقطاب وتسترت على مخاطرها ، الى جانب كل الظروف المحلية والقومية المحيطة التى كانت كلها تدفع بالسير فى هذا الاتجاه المغترب ٠

ولذلك فان الأحداث الكبيرة التى ظلت تجرى على مسرح الواقع بعد عام ١٩٦٢ طوال سبع سنوات وبالرغم من حيويتها السياسية والعسكرية الا أنها ظلت تفتقر الى البعد الاجتماعى والطبقى السليم وتتركز حول بعد واحد وهو المحافظة على اسم النظام الجمهورى واسم الجمهورية بغض النظر عن المضمون السياسى والاجتماعى والاقتصادى لهذا النظام الجمهورى المشكل من ائتلاف اقطاعى وبرجوازى وطنى واسع النطاق ولا تربطه سواء خيوط واهية كانت تتمزق وتنقطع من وقت لآخر ولا تجد لها رابطة مشتركة الا فى المواجه العسكرية مع المحور الملكى فى أحسن الأحوال ٠

وكان الخط الوطنى الذى يمثله أولئك المثقفون على اختلاف نزعاتهم هو أضعف حلقات ذلك الائتلاف رغم ما كان يدعى لنفسه من بريق وهدير زائف على سطح الحياة السياسية والاجتماعية غداة الثورة مباشرة ، أما الثقل الاجتماعى والطبقى الأكثر تماسكا وانسجاما وخبرة فهو الاقطاع والارستقراطيات القبلية والعشائرية القديمة من جهة والبرجوازية التجارية والكمبرادورية الجديدة من جهة أخرى ٠

ولذلك فانه ما أن لاح فى الأفق بوادر نهاية الحرب الجمهورية الملكية لصالح الخط الجمهورى الذى خاضه الشعب بصدق وطنى وتضحيات غير محدودة ، حتى كان أولئك المثقفون هم الضحية الأولى أو فدية الائتلاف بين المصالح الاقطاعية والبرجوازية والكمبرادور المشتركة بين الجانب الملكى والجمهورى على السواء ، والذين لم يكن يوجد بينهم تناقض حقيقى سوى فكرة الجمهورية كتسمية واطار سياسى ، واعادة توزيع الانصبة والمصالح المشتركة سياسيا واقتصاديا ، حيث قبل الجانب الملكى بالتنازل عن أسم الملكية والقبول بالنظام الجمهورى كأطار شكلى لنظام الدولة فى مقابل قبول الجانب الجمهورى بأعادة توزيع المصالح السياسية والاقتصادية بين الطرفين بصورة أكثر عدلا ، وكان التناقض الحقيقى الغير معلن هو بين هذه الفئات والطبقات معا وبين جماهير الشعب الكادحة وفئاته الوطنية التى ناضلت من أجل الثورة والجمهورية بمضمونهما السياسى والاجتماعى معا ، وليس مجرد الشكل ، وكان فى المقدمة المثقفون الوطنيون والتقدميون بالذات(١٠) ٠

---

(١٠) حمود العودى : المنظور العلمى للثقافة ، طبعة القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٢٤ الى ٢٢٨ ٠

ونسطيع القول بان انقلاب الخامس من نوفمبر الرجعي ١٩٦٧ قد شكل مفترق الطرق الحقيقي والصخرة التي تحطمت عليها آخر الهياكل المهشمة لسفن اغتراب المثقفين اليمنيين ليس بالنسبة للشـــطر الشمالي من الوطن فحسب ، بل وبالنسبة للشطر الجنوبي أيضا ، حيث وجـــد الخط الوطني التقدمي في تلك النكسة خير موعظة له في كل تصرفاته المقبلة في الجنوب ، كما أن نفس هذا الخط الوطني التقدمي في الشمال بكل أبعاده ومنطلقاته لم يكتشف أنه قد خسر بذلك أخر ورقة في ممارسة لعبة التوازن المميته التي ظل يمارسها منذ قيام الثورة على مسرح الأحداث فحسب بل لقد اكتشف أن هذا المسرح نفسه قد قفلت أبوابه جميعا في وجوههم سواء من شارك منهم في القاء آخر تلك الأوراق الخاسرة التي صنعت الحدث نفسه أو من وقف يتفرج ويعد أوراقا أخرى ، وما عاد يطيق احتمال شقاوتهم وثرثراتهم القديمة الجديدة أو حتى وجودهم نفسه ٠

فعـــاد كل الى حيث بدأ وبدأ يتلمس طريقه وهويته الســـياسية والاجتماعية الصحيحة التي تنسجم وأصوله الطبقية أو طموحاته الشخصية أو موقفه السياسي والأيديولوجي الصـــادق وسط ظروف شديدة البؤس ومثقلة بالمرارة ٠

وهنا نستطيع أن نلاحظ ثلاث مسارات رئيسية قام مجموع المثقفون في شمال الوطن بتوزيع أنفسهم عليها أصوليا بالدرجة الأولى واختياريا بالدرجة الثانية وهي : المسار الاقطاعي القديم ، والبرجوازي الكمبرادوري الجديد ، ثم المسار الوطني التقدمي الناجز ، مع الاشارة الى القطـــاع الواسع ممن سحقتهم الأحداث والتطورات غير المتوقعة تلك وتأزمـوا سياسيا ونفسيا ، وذلـك على نحو ما سبقت اليه الاشـارة من خـــلال الحديث عن الدلالات الاحصائية ومضامينها الاجتماعية والاقتصادية والطبقية المتعلقة بهذه الثلاثة أو الأربعة مسارات في الفصل السابق والتي انتهى اليها المثقفون الوطنيين بصفة عامة ، والمعبرة عن حقيقتهم الذاتية والموضوعية والتي لا نجدنا بحاجة الى تكرار الحديث عن ذلك هنا مرة أخرى ٠

نتـــائج وملاحظات عامة

ومن كل ما سبق نخلص الى مجموعة من الحقـــائق الأساسية عن المثقفين اليمنيين بصفة عامة نوجزها في الآتي :

١ ــ ان المثقفـــين اليمنيين منـــذ بداية الخمسينات وحتى منتصف

الستينات - وهي مرحلة النشأة أيضا - قد تميزوا بالانفصال المشوه عن أصولهم الاجتماعية والطبقية ، واستسلموا بعمق للعواطف والمشاعر القومية المقرونة بالاتجاهات اللبرالية والوطنية الغامضة مكونين فيما بينهم في ضوء كل ذلـــك ومن خلاله بعض الروابط الركيكة والمؤقتة والتي لا تستند الى أي بعد اجتماعي وطبقي محدد *.

٢ - ان الفترة من بداية الستينات وحتى منتصفهـا تقريبا بما أنها قد شكلت أهم قفزة سريعة في التكوين الكمي الحديث للمثقفين ، فقد كانت في الوقت نفسه فترة التجريب العملي لكل المفاهيم والأفكار التي انبنى عليها تكوينهم وتشبعوا بها زمنـــا طويلا ، وبالرغم من أن مجمل تلك الممارسات التجريبية قد أدت بحكم طبيعتها الى نتائج سلبية بصفة عامة الا أنها لا تخلو من بعض الايجابيات غير المباشرة على الأقل .

٣ - ان الفترة ما بعد منتصف الستينات بقليل وحتى الآن هي المرحلة التي شكلت بحق مفترق الطرق التي انتهت عنـدها مجمل الأفكار القديمة ذات البعـد الواحد بالنسبة لهؤلاء المثقفين وبدأت منها المرحلة الجديدة ذات الأبعاد والانتمآت الطبقية المختلفة والمرتبطة بالواقـــع والمعبرة عنه تعبيرا طبقيا وعلميا صحيحا الى حد ما ، والذي ما يزال هذا التعبير يتضح ويتعمق أكثر فأكثر .

٤ - ان ظروف المثقفين في شمال الوطن ومن وفد اليهم من الجنوب منذ بداية الستينات وحتى منتصفها كان أسعد حـالا وحظـا من الناحية الشكلية والنفسية على الأقل ، وأسوأ حظا بكثير من الناحية العملية ، حينما كانوا يعيشون زهو انتصار الثورة وانهاء الملكية وقيام الجمهورية ، بينما كان القطـــاع الآخر منهم في جنـوب الوطن ومن انضم اليهم من الشمال يعيشون نفس الاحساس أيضـــا مع فارق جوهري هو أن المعاناة الواقعية من خلال حرب التحرير ضد الاستعمار والاقطاع السلاطيني ، كتعبير ممتد للثورة في الشمال ، والذي كان ما يزال في بداية الطـريق ، حيث كانت تشكل تلك المعـــاناة ما يشبه صمام الأمان وفرملة الآلة الشديدة الحركة والانطلاق بالنسبة لمن هم في الجنوب ، الأمر الـذي كان يفتقر اليه غيرهم ممن هم في الشمال .

٥ - ان تلك المعـــاناة التي كونت تلك الفرملة القوية وصمام الأمان المؤكد عنـــد الاقتضاء قد مكنت قطاعا واسـعا من المثقفين اليمنيين المقيمين في الجنوب والمشاركين في حرب التحرير مكنتهم من تحقيق رؤية أفضل

للواقع ومجرياته وأقنعتهم منذ أول لحظة تقريبا بضرورة النضال السياسى والعسكرى فى محورين لا محور واحد ، محور الاستعمار الأجنبى الوافد من الخارج ومحور الاقطاع السلاطيني والكمبرادورى فى الداخل باعتبارهما كل لا يتجزأ ، الأمر الذى افتقر اليه كلية المثقفون المقيمون فى الشمال فى صراعهم ضد الملكية والقوى الرجعية ٠

٦ ـ ان هذه المقدمات قد ظهرت نتائجها وثمارها بعد منتصف الستينات بشكل حاد حينما وجد الكل أنفسهم أمام مفترق الطرق عندما أثبتت طلائع حرب التحرير من المثقفين السياسيين الوطنيين فى الجنوب أنهم أكثر حنكة وتماسكا وقدرة على التقاط زمام المبادرة فى الأحداث والتطورات وانتزاع نتائجها السياسية والعسكرية فى صالح الخط الوطنى والتقدمى ومصلحة جماهير الشعب الذى ضحى معهم فى سبيل التحرر والنصر الوطنى ، والعكس صحيح بالنسبة للشمال حيث برزت مثل تلك العناصر وهى أقل حنكة وأكثر تمزقا وضعفا ، الأمر الذى أدى بطبيعة الحال الى تناسب شبه عكسى لكل نتائج وتطورات أحداث هذه المرحلة فى الشمال بالنسبة للجنوب منذ منتصف الستينات وحتى أوائل السبعينات ٠

٧ ـ ان الثورة فى الجنوب حينما تمكنت فى ضوء ما سبق من القضاء نهائيا على الطبقة الاقطاعية والسلاطينية والكمبرادورية ومصالحهما وضيقت الى حد كبير من النشوء البرجوازى المستغل فانها بذلك قد خدمت وساعدت قطاعا واسعا من المثقفين البرجوازيين الصغار على التزام الخط الوطنى والمشاركة فيه وحالت دون عودة معظمهم الى الارتباط بأصولهم الطبقية الاقطاعية والكمبرادورية القديمة بشكل ملحوظ بقضائها على تلك المصالح نفسها ٠

٨ ـ والعكس بالنسبة لما حدث فى الشمال حيث شكل انفراد الطبقة الاقطاعية بالسلطة بعد انقلاب الخامس من نوفمبر بالتحالف مع الكمبرادور والنشوء البرجوازى وحده بدلا من الائتلاف الوطنى الجمهورى ، شكل ظاهرة تهديد وترغيب بالنسبة لقطاعات واسعة من المثقفين ذوى الأصول الاقطاعية والبرجوازية ، تهديد بالمطاردة والتصفية والتشويه اذا استمروا فى اثارة القلاقل والمتاعب السياسية والاصرار على الممارسات « الشقية » ، والترغيب فى الأمن والأمان والحصول على امتيازات سياسية واقتصادية وشخصية كبيرة اذا ما عادوا الى أصولهم الاجتماعية والطبقية وتبنوا مصالحها والدفاع عنها باخلاص ، الأمر الذى لم ييسر للطبقات الاقطاعية والبرجوازية

امتصاص الغالبية العظمى من عناصرها المثقفة « أصوليا » فحسب ، بل وأتاح لها فرصة الحصـــول على نصيب وافر من المثقفين الـذين لا ينتمون اليها أصوليا من ذوى الأصــول الفلاحية والعمـالية والاجتماعية الفقيرة ، الذين أغرتهم امتيازاتها فتبنوا مواقفها وفكرها ودافعوا عنها بشراسة منقطعة النظير فى أكثر من واقعة وأكثر من موقف حتى الآن ٠

٩ ـ ان الخط الذى استطاع الاحتفاظ بالسير فى الاتجـــاه الوطنى فى الشمال والذى يمثل مصـــالح قوى الشعب الكادحة والمنتجة وارادتها الوطنية والثورية الحقة قد عانا فى بداية هذه المرحلة عند منتصف الستينات وحتى بداية السبعينات ، عانا من الشلل والتمزق السياسى والنفسى والمعنوى من هول ما جرى ويجرى ضده ومن حوله ، مما أفقده توازنه لبعض الوقت وأودى بالكثير من عناصره القوية والصلبة الى التأزم النفسى الشديد وسـوء التكيف مع أنفسهم ومع مجريات الأحداث من حولهم تماما ، الا أن الجانب الآخر قد استطاع الصمود والتقاط الأنفاس والخطوات الأولى بصعوبة على الطـريق الصحيح الذى ما لبث أن اتسع وتطور بسرعة كما وكيفا ، وبدأ هذا الخط الذى يشكل البديل الشرعى والتاريخى للحاضر وصـاحب كل المستقبل ، بدأ يعد العد التصاعدى منذ بداية السبعينات وما يزال ، بدلا من العد التنازلى الذى ظل يمارسه منذ بداية الستينات بوعى منه أو بدونه ، وفى اتجاه شبه متوازى مع ما يحدث فى جنوب الوطن فى الوقت الحاضر ، وصولا الى نقطة تلاقى محـــددة ما تزال بعيـــدة عن متناول كلا الاتجاهين وما يزال عليهما مسئوليات وتضحيات جسام ليصلوا اليها معـا من أقرب الطرق وبأقل التكاليف وفى أسرع وقت ممكن ٠

والملحوظة الأخيرة التى نحرص على الاشارة اليها فى نهاية هذا الفصل هى أننا سوف نولى اهتماما خاصا فيما تبقى من صفحات هذا البحث لبحث وتحليل هذا الطراز من المثقفين التقدميين فى بلادنا بصفة خاصة وكل البلدان النامية والمتخلفة بصفة عامة،وهو الطراز الذى أصبحفى مقدورنا الآن أن نتخيله بوضوح من واقع كل التحليلات الســابقة فى هـــذا البحث وهم المثقفون الوطنيون والتقدميون ، طلائع وحلفاء الطبقات الثورية المناضلة ضد القهر والتخلف ، وصــــولا الى المزيد من تحليل طبيعة تركيبهم ودورهم الطبقى والتاريخى فى الوقت الحاضر وما يعترضهم من عوائق ومصاعب ، أو ينقصهم من الامكانيات الذاتية والموضوعية اللازمة لاستكمال قدرتهم على أداء مهمتهم الوطنية والتقدمية فى الحاضر والمستقبل ، اضافة الى تحليل كل الأبعـاد والمضامين التاريخية والجدلية لتحالف المثقفين الوطنيين والثوريين من جهة وطبقات العمال والفلاحين من جهة أخرى ٠

القسم الثالث

أبعاد التحالف الطبقي بين المثقفين الوطنيين والعمال والفلاحين

الفصل الثامن

اصـالة وثورية الطبقات المنتجة وهامشية الطبقات المستغلة

مدخل :

بالرغم من أن مبـدأ علاقة وارتبـاط المثقفين الوطنيين والثوريين بالطبقات الكادحة في المجتمع هي علاقة وارتباط صميمي وقضية أصبحت بديهية في اطار النضال الوطني والعمل السياسي على الأقل ، الا أن الأمر يحتاج في تقديرنا الى تحليل أبعاد هذه العلاقة برؤية تاريخية وطبقية أكثر عمقا ، وبعدا اجتماعيا أكثر شمولا ، وذلك حتى نتجاوز بفهم هذه القضية الأساسية مجرد كونها مفهوما سياسيا يباح استخدامه للمناورات والتكتيكات السياسية لكل من يحتاج الى ذلك عند الاقتضاء فقط ، أو مجرد كونها موقفا شخصيا يستطيع أن يتقمصه أى شخص متى شاء ويتخلى عنه متى يشاء ، بغض النظر عن صفته الاجتماعية أو بعده الطبقى ، ويتجاوز بها الى حقيقة كونهـا قضـية تاريخية وطبقية فى الأسـاس ، ولم تكن هواية شخصية فى التفكير أو مهارة فى التصرف الدبلوماسى والسياسى عادة ٠

اذ لابد وأن نتسـاءل بحزم وجدية عن الأسباب التى تجعلنـا نقبل بالافتراض الشائع والقـائل : بأن كل مثقف وطني وثورى هو بالضرورة حليف للطبقات العاملة من فلاحين وعمال وبرجوازية وطنية صغيرة،وهل هذا التحالف والارتباط الجدلى يستمد حقيقة وجوده من واقع كون هؤلاء المثقفين الوطنيين والثوريين هم هـكذا بحكم طبيعتهم « ثوريين » ويأتى تحالفهم مع الطبقات الكادحة نتية تقديرهم لاحتياج هـذه الطبقات لجهودهم وآرائهم فى نضالها وحل مشاكلها ، باعتبار أن الطريق الوطني والثورى هو أنسب الطرق وأجداها لتحرير هذه الطبقات وازالة الظلم والاستغلال عنها ؟ أم أن العكس هو الصحيح ، حيث يكمن المد الوطنى والثورى فى جوهر التكوين الاجتماعى والتاريخى لهذه الطبقات العاملة ؟ ويقتصر دور المثقفين الوطنيين والثوريين باعتبارهم جزء لا يتجزأ من هذه الطبقات نفسها على القيام ببلورة هذا المد الوطنى والثورى والتعبير عنه والقيـام بدور الطليعة فى مسيرته النضالية ؟٠

واذا كنا لا نجد كبير عناء في ضوء كل ما سبق من تحليلات وتفاصيل في هذا البحث أن نفترض خطأ التساؤل الأول وسلامة التساؤل الثاني ، فان الشيء الذي سيبقى علينا تحليله هنا هو الرد على هذا التساؤل : ما هو الأساس الاجتماعي والتاريخي الذي نجزم من خلاله بوطنية وثورية الطبقات الشعبية العاملة والمنتجة في المجتمع واعتبارها التجسيد الحقيقي لوجوده ، ومن خلالهم تتحقق حركة الواقع وتطوره في الطبيعة والمجتمع أكثر فأكثر ، كمسألة تاريخية وجدلية ، وارتباط المثقفين الوطنيين بهذه الطبقات كأدوات تعبيرية وطليعة نضالية لا أكثر ، وذلك حتى لا تضل هذه المسألة كما يظن الكثيرون من الانتهازيين ممن لا صلة لهم بها الا كمجرد هواية للاستعراض الشخصي أو مهارة في التصرف الدبلوماسي عند الاقتضاء كما سبقت الاشارة •

ولنبدأ في هذا الفصل البحث في البعد الاجتماعي والجدلي لوطنية وثورية الطبقات العاملة والمنتجة وأساسه التاريخي ، ثم نناقش بعد ذلك وطنية وثورية المثقفين الوطنيين وعلاقتهم الجدلية بهذه الطبقات في الفصل التالي والأخير من هذا البحث •

الأسس الاجتماعية والتاريخية لثورية الطبقات المنتجة

ان الطبقات القاعدية والوسطى التي تشكل الغالبية العظمى من أفراد أي مجتمع قد دللت كل حقائق التاريخ والتطور وطبيعة الوقائع المعاشة أنها ذات مصالح مادية واقتصادية مترابطة ، وأبعاد فكرية وأيديولوجية ثورية مشتركة ، بل وتشكل المصدر والأرضية التاريخية الحقة التي لا نجد في تاريخ البشرية كلها أية فكرة ثورية أو تحول ثوري في تاريخ الطبيعة والمجتمع قد تمت بمعزل عن هذه الطبقات أو بعضها ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، والعكس بالعكس صحيح بالنسبة للأقليات الطبقية المسيطرة التي تقف دائما ضد حركة التاريخ وتتميز دائما باستراتيجية فكرية وأيدولوجية محافظة ورجعية وذات طبيعة إنتهازية واستغلالية متسلطة دائما ، كما أن الفئات والطبقات الشعبية عموما « الجماهير الشعبية المنتجة » هي دائما بما تعيشه من ظروف وأوضاع اجتماعية واقتصادية مختلفة تقدم بلا أدنى شك أو غموض التفسير الحقيقي والعلمي للواقع الاجتماعي القائم ، وتأكيد كينونته من جهة ، وهي من جهة أخرى قد قدمت بما مرت به من مراحل التطور التاريخي المختلفة للمجتمع البشري منذ المشاعية وحتى عهد الاشتراكية والامبريالية في الوقت الحاضر ، قدمت التفسير الحقيقي للتاريخ ، بل لقد صنعت بذلك التاريخ الانساني نفسه على هذا الكوكب

ابتداء من اكتشاف النار والتقاط الثمار حتى سفن الفضاء وارتياد الكواكب الأخرى ٠

وهى بذلك لم تكن قد صنعته وفسرته بطريقة صحيحة من خلال وجودها وفاعليتها فيه وحسب ، ولكنها ما تزال كذلك هى التعبير الجدلى الصحيح لمساره المتطور فى الحاضر والمستقبل ، بلا توقف ، وتعبر عن أشد جوانبه ثورية وتقدمية بلا كلل وبغير مواربة ، ومن خلالها فحسب يتحقق قانون الجدل والتطور التاريخى نفسه وفاعليته الحتمية فى الطبيعة والمجتمع أكثر فأكثر ٠

انها أيضا بنمط علاقاتها الانتاجية والاجتماعية ومضمون أيدولوجيتها التقدمية والمتحررة تشكل التجسيد الفعلى للوجود الحقيقى للمجتمع الذى ينسجم مع قوانين التحول والتطور الايجابى فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والطبقى أيضا أزاء أيدولوجيات الأقليات الطبقية المستغلة والمنحطة ٠ فحيال أيدولوجيات الانحطاط — كما يقول روجيه جارودى — تصعد هذه الطبقات لأنها دائما تقبل الواقع حكما لأفكارها كلها ، ابتداء من ديكارت الى ديدرو فى مواجهة الاقطاعية المتعفنة ، ومن ماركس وانجلز الى لينين وستالين ، فى مواجهة الرأسمالية السائرة خلال قرن نحو مرحلتها « المتعفنة »(١) ٠

الطبقات المستغلة كظاهرة عرضية خاطئة

ومن هنا تتأكد حقيقة تاريخية واجتماعية أخرى لا تقل أهمية عن الحقائق السابقة وهى أن كل أشكال الوجود الطبقى والاجتماعى الأخرى التى تلاحظ دائما خارج اطار الطبقات الشعبية العاملة والمنتجة بصورة مباشرة وغير مباشرة هى : اما فئات اجتماعية هامشية ملحقة ومكملة لها ، كالمثقفين الوطنيين والثوريين أو الموظفين والاداريين والجنود والفنانين والصحفيين ممن ينتمون أساسا لهذه الطبقات العاملة ويتبنون أيديولوجيتها بقناعة ويدافعون عنها بصدق من خلال منظماتها السياسية والجماهيرية المختلفة ، أو متحالفة معها الى هذا الحد أو ذاك كالبرجوازية الوطنية الصغيرة غير المستغلة ٠ أما ما عدا ذلك من الفئات والطبقات الأخرى التى عرفت فى تاريخ المجتمعات وحتى اليوم من اقطاع وبرجوازية مستغلة ورأسمالية

---

(١) روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، مرجع سابق ، ص ٤٣٦ و ٤٣٧ ٠

وغيرها من الجماعات الأولجاركية العسكرية والدكتاتوريات المستبدة والأرستقراطيات السياسية والاجتماعية والعشائرية بمختلف أشكالها وأيدولوجياتها المثالية والأسطورية المعادية للعلم والتاريخ من جهة والمغرقة في الرجعية والتخلف والاستغلال للطبقات المنتجة الأخرى من جهة ثانية ، فانها جميعا لم تكن وفقا لهذا التفسير الجدلى مجرد أشياء خارج التاريخ والوجود الحقيقى للمجتمع وزائدة عليه فحسب ، ولكنها تشكل التجسيد الفعلى لواحد من أهم أخطاء المجتمع البشرى فى نضاله عبر التاريخ ضد قهر الطبيعة وصولا الى تحقيق حريته وسيادته ورفاهيته وتقدمه عليها أكثر فأكثر ، الأمر الذى اضطره منذ وقت مبكر فى النضال ضد شكلين رئيسيين من أشكال القهر وهما قهر الطبيعة من جهة وقهر المجتمع الناجم عن ذلك الخطأ من جهة ثانية حتى اليوم ٠

فلقد برز نظام تعدد الطبقات فى بعض المراحل التاريخية وكما لو كان هو ممر العبور الأساسى الذى لا مناص من اجتيازه ، والضريبة المرهقة التى توجب على المجتمع الانسانى أن يدفعها من أجل الظفر بأعظم الانتصارات التاريخية الحاسمة فى نضاله ضد الطبيعة ، الأمر الذى دفع هذه الفئات والطبقات الطفيلية المستفيدة من هذا الخطأ الفادح والتى هى ثمرته الى تكريس وجوده وتقديمه باعتباره الحقيقة المثلى والوحيدة الصالحة لتنظيم هذا العالم وتدبير شئونه وتفسير وجوده بغير بديل ، رغم أن كل الانتصارات التقدمية التى حققها المجتمع الانسانى حتى اليوم فى ظل ادعاء الملكية الخاصة للثروة والسلطة والقوة وبسبب هذا الادعاء نفسه قد اقترنت بالعديد من الكوارث الاقتصادية والاجتماعية والانسانية من حروب واستعمار وغيره ، الأمر الذى كاد يجعل من انتصارات المجتمع الانسانى ضد الطبيعة تتحول الى أدوات قهر واستغلال اجتماعى وطبقى ضد المجتمع نفسه هى أكثر خطورة من قهر الطبيعة نفسها ٠

ففى جميع الأنظمة التى سبقت الاشتراكية - كما يقول روجيه جارودى - حدثت التنمية من خلال نظام الطبقات العاملة ، فى شكل كوارث اقتصادية وسياسية ، لأن وسائل الانتاج كانت ملكية فردية ، سواء فى النظام العبودى أو الاقطاعى أو البرجوازى(٢) ٠ كما أن نظام الطبقات برمته لم يكن فى حقيقته ودلالته العلمية والتاريخية أكثر من كونه - كما

---

(٢) روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، مرجع سابق ، ص ٤٤٦ ٠

يقول لينين - هو ما يتيح لقسم من المجتمع أن يستأثر بعمل الآخرين(٣) . فمن خلال تملك بعض الأفراد لفائض الانتاج - كما يقول الدكتور الجوهرى أيضا - ظهرت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وظهر معها استغلال الانسان للانسان . لذلك يمثل تملك وسائل الانتاج ، وما يتبعه من استغلال يمثل الأساس الموضوعى لقيام الطبقات والصراع الطبقي(٤) .

فالنظام الطبقي يستمد وجوده في الأساس من وجود الملكية الخاصة والاستيلاء على فائض الانتاج ويزول بزوالها ، أكثر مما يستمد وجوده أو عدم وجوده من شروط تطور قوى الانتاج وتتالى المراحل التاريخية ، أو مشروط وجوده بوجود المجتمع نفسه كنظام العمل والانتاج والأسرة والسلطة واللغة ... الخ . الأمر الذى أخطأ فيه ماركس حينما افترض بحماس وتشدد بأن زوال النظام الطبقي وقيام الاشتراكية لن يتم الا فى ظل المجتمع الصناعي واتساع نطاق طبقة العمال البروليتارية تحت سيطرة الطبقة الرأسمالية ، وأن على كل المجتمعات التى ما تزال تعيش ما قبل مرحلة الرأسمالية من اقطاعية وشبه اقطاعية أن تناضل أولا من أجل القضاء على الطبقة الاقطاعية وخلق طبقة برجوازية ينجم عنها فيما بعد طبقة بروليتارية من جهة ورأسمالية من جهة أخرى يختل معها التوازن لصالح الأولى وضد الثانية التى هى آخر الطبقات ، وقد حان قطافها .

فلقد جاءت كل الوقائع اللاحقة لعهد ماركس وما بعده وحتى الآن فى غير صالح هذه المقولة تماما ، وأعظم دليل على ذلك هو قيام أول نظام اشتراكي فى الاتحاد السوفيتي وهى دولة غير صناعية وشبه اقطاعية . ولقد حسم لينين هذه القضية بوضوح فى التأكيد على امكانية قيام الاشتراكية فى بلد واحد وبتحالف العمال والفلاحين فى بناء الدولة والمجتمع الاشتراكى .

فنظام الطبقات الناجم عن نظام الملكية الخاصة والاستحواذ على فائض انتاج الآخرين هو نظام زائد وعرضى فى وجوده ، سلبى معوق ومضر فى دوره ووظيفته وليس مشروط قط بأية حالة من حالات التطور الاجتماعى ومراحله التاريخية لأن المجتمع الانسانى قد عاش آلاف السنين فى مراحله المبكرة

---

(٣) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(٤) د. محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ص ٢١٨ .

وما يزال بعضها كذلك حتى الآن دون ملكية خاصة وبالتالي بلا طبقات(٥) • كما أن أكثر من ثلثي سكان الكرة الأرضية يقيمون اليوم أبهى الحضارات وأكثرها استقرارا وتحقيقا لسعادة الانسان وتقدمه بفعل نفس الشيء من خلال التنظيم الاشتراكي العلمي دون أن تكون كلها قد اضطرت للقبول بالنظام الرأسمالي الكبير واقامة المجتمع الصناعي الرأسمالي أولا كشرط جدلي لتحقيق الاشتراكية في مجتمع لا طبقي •

ففي أي لحظة يستطيع فيها أي مجتمع من المجتمعات التي ما تزال ترزح تحت نير هذا النظام العرضي المعوق أن يتخلص منه نهائيا سواء كان هذا المجتمع اقطاعيا أو شبه اقطاعي أو رأسمالي ، فانه بذلك يكون قد استعاد توازن حركة تطوره التاريخي المنسجم وطبيعة وجوده من جهة وصحح أعظم خطأ عرفه تاريخ الممارسة البشرية في نطاق الطبيعة والمجتمع من جهة ثانية ، وحقق أعظم انتصاراته التاريخية الحاسمة ضد أعظم تحدى ما يزال يهدد حاضره ومستقبله من جهة ثالثة •

الخطأ الأول

فلقد ارتكب أول خطأ اجتماعي فادح في التاريخ بعد اكتشاف الزراعة والنار واستئناس الحيوان بادعاء الملكية الفردية الخاصة أو العائلية للأرض وموارد الطبيعة الأخرى ، ورغبت كل جماعة في الاستحواذ على أكبر كمية ممكنة من ذلك دون غيرها مما قاد الى حروب ابادة واسعة من قبل الجماعات المنتصرة للجماعات المنهزمة ظنا منها بأن ابادة الجماعات المغلوبة هو الضمان الوحيد لحصولها على موارد الأرض والطبيعة التي يعيشون عليها ، لأنهم لو أبقوا على حياتهم فان ذلك يعني ضرورة اطعامهم مما يعني أيضا استمرارهم في استهلاك موارد الأرض والطبيعة بصورة أو بأخرى ، وهذا هو أول مفهوم منحرف في التاريخ للعلاقات الاقتصادية بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وفي مرحلة لاحقة أدرك المجتمع أو اكتشفت الجماعات المنتصرة امكانية ابقاء الجماعة المنهزمة على قيد الحياة مقابل تسخيرها للعمل والانتاج بلا مقابل سوى ما يقيم الأود ويحافظ على البقاء من أجل استمرار العمل

---

(٥) راجع الفصل الثالث من هذا البحث خصوصا فيما يتعلق بأساس التركيب الاجتماعي والاقتصادي للمجتمعات التقليدية المعاصرة في افريقيا غرب وجنوب الصحراء ، وبقايا المجتمعات الهندية القديمة في أمريكا اللاتينية والتي ما تزال جميعها تعيش علاقات اجتماعية واقتصادية مشاعية بلا طبقات حقيقية الى حد ما •

لصالح الجماعة المنتصرة التي تحصل على الجزء الأكبر من الانتاج بلا عمل ، ضمن اطار من التنظيم الاجتماعي العبودي البحت بين الجماعات المنتصرة والجماعات المنهزمة .

ولقد قبل الطرفان بهذا التنظيم الجديد كخطوة أفضل مما قبلها بكل تأييد ، حيث ما لبثت الملكية الخاصة أن اتسع نطاقها الفردى داخل الجماعات المنتصرة نفسها ، واتسع بالمقابل أيضا النظام العبودى وصارت الملكية الخاصة للأرض وللبشر هي التعبير السياسى والاقتصادى لوجود طبقة جديدة محدودة تملك وتسود ، في مقابل طبقة اجتماعية واسعة مستعبدة تنتج ولا تملك حتى نفسها ، وقبل المجتمع بهذا التنظيم الاقتصادى والاجتماعى والعبودى .

ولم يكن هذا القبول من المجتمع ليشكل الحل النهائي لواقعة بقدر ما أنه قد شكل الخطوة الأخيرة في تجاوز المرحلة السابقة الأكثر سوءا والبداية الأولى فى النضال ضد هذا التنظيم الخاطىء نفسه ، وبنفس الطريقة والوتيرة الجدلية المستمرة ، كان قبول المجتمع بعد ذلك لنظام الاقطاع والقنانة هو آخر خطوة في النضال ضد العبودية والحصول على حق الفرد فى امتلاكه لنفسه وجهده على الأقل ، والبداية الأولى فى النضال ضد الطبقة الاقطاعية ووجودها العرضى الخاطىء ، وكان أيضا قبول المجتمع الانسانى الحديث بنظام الطبقة البرجوازية فى أوربا وامتداداتها الدولية ، هو نقطة الحسم فى القضاء على الطبقة الاقطاعية ونقطة البدء فى النضال الحاسم ضد هذه البرجوازية والرأسمالية نفسها كنظام عرضى وخاطىء ومعوق أيضا لحركة التاريخ والتقدم الاجتماعى والاقتصادى الحق وغير منسجم معها ، وصولا الى المجتمع الاشتراكى اللاطبقى الذى تتحقق فيه لأول مرة درجة عالية جدا من التوافق والانسجام بين قوانين حركة التاريخ والتطور التاريخى الحقيقى فى وضع المجتمع من جهة ، وبين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج من جهة ثانية . وهو الأمر الذى تجهد هذه الطبقات الطفيلية نفسها لأن تجعل من هذه الوتيرة الخاطئة قاعدة عامة لتطور الحاضر والمستقبل الرأسمالى ، أو طريقا ملزما وثابت الأيقاع بالنسبة لمجتمعات ما قبل الرأسمالية فى الوقت الحاضر على الأقل ، الأمر الذى لم يعد القبول به ممكنا ، ويجب رفضه .

الطبقات المستغلة تؤمن بالمادية من أجل الحصول على الثروة والسلطة ، وبالمثالية من أجل المحافظة عليهما

فلقد كان العامل الحاسم والجوهرى فى كل هذه الحركة التاريخية وتطورها الثورى بفعل السواد الأعظم من الناس فى المجتمع وانجازاتهم المادية والاقتصادية فى كل مراحل التاريخ ، سواء كانوا عبيدا أو أقنانا فى الأرض أو عمالا فى المصانع أو متخصصين فى المعامل وليس بفعل طبقة الملاك الاقطاعيين أو البرجوازية أو الحاكمين منهم ، فقد كان الصراع الذى لا ينفك — كما يقول بوتومورو — بين الطبقة الحاكمة والطبقة أو الطبقات الخاضعة ، هو أن طبيعة هذا الصراع ومجراه يتأثران أساسا بتطور القوى الانتاجية أو التغير الذى يطرأ على التكنولوجيا(٦) · ولقد كانت هذه الأقليات الطبقية التى اختلست لنفسها حق الملكية والسلطة هى العامل السلبى والمعوق الأول والأساسى للأداء المثالى المتناسق والمنسجم لهذا الانجاز والتطور التاريخى المستمر من خلال دعوى الملكية والانفراد بالسلطة والقوة والعيش على ممارسة القهر والاستغلال ومحاولة تثبيت الواقع حيث هو وجعل حركة التطور لا تتحرك الا فى الاتجاه الذى ينسجم وطبيعة هذه الدعاوى الفاسدة والممارسات المشوهة لحياة الانسان وتاريخه والمحافظة عليها فى اطار نزعة رجعية متخلفة حتى الآن ·

وكأن هذه الأقليات الطبقية المتطفلة تريد عبثا من حركة التاريخ والتطور أن تتحرك ضد نفسها أو ضد قوانينها على الأصح ، ذلك أن هذه الفئات والطبقات البرجوازية والرأسمالية المتطفلة لا تؤمن بالتقدم والعلم ولا تستعمله الا بصفته « ربحا » ذلك أن حدود الانتاج الاجتماعى الاجتماعى فى المجتمع الرأسمالى المعاصر — كما يقول بليخانوف — تعينها امكانية انفاق مربح للرأسمالية لا الحجم المطلق للقوى الانتاجية(٧) ·

بل انها ترفض حقائق العلم والتاريخ وتجاربها وتنضم الى صف الشعوذات والخرافة وتدافع عنها اذا ما لاح لها أن فى استخدام هذه مزيدا من الربح وفى تلك عائقا أو تهديدا لهذا الربح ولوجودها الطفيلى الغريب نفسه فى مسار التقدم والتطور التاريخى الحق ، فمنذ الآن — كما يقول

---

(٦) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ٤٣ ·

(٧) جورج بليخانوف : العامل الاقتصادى فى التاريخ ، ترجمة جورج طرابيشى ، دار الطليعة — بيروت — الطبعة الاولى ١٩٧٨ ، ص ٦٤ ·

كارل ماركس - بدأت الأمور تسير لا على أن هـذه النظرية أو تلك صحيحة أم خاطئة ، بل على أنها مفيدة أم مضرة للرأسمال ، مناسبة أم غير مناسبة ، اتتفق مع العقل البوليسى أم لا(٨) ٠

فلكى تهـاجم البرجوازية الصـاعدة فى القـرن الثامن عشر المفهوم الاقطاعى للحق الالهى كانت تتسلح بالمـادية ، وتطالب أن يتمسـك الناس بالحقيقة العارية « دون أية اضـافة غريبة » ٠ فالبرجوازية اذن فى عصر شبابها لا تخـاف الواقع ، ففلاسفتها الذين كانوا يمثلونها ، من أمثـال « ديدرو » و « فيور باخ » و « هلفسيوس » ماديون مادية عميقة وعمـل مفكريهـا نشيد مجـد على شرف العـلم والتقدم والآلية الناشئة المبشرة بمزيد من الربح ، الا أن هذه الطبقة ذاتها بعـد أن أنجزت ثورتها صارت طبقة هرمة بسبب جرائمها وأخطائها الفـادحة والتى صـار فى مقدمتها استمرار وجود هذه الطبقة نفسها ، وعجزت عن حل المشكلات التى طرحها التقـدم العلمى والتقنى الذى أنجزته الطبقـات المنتجة فى صميم الواقع الاجتماعى والتاريخى والناجم عن انتصارها ذاته(٩) ٠

وفى هذه المرحلة التى لم يعد فى مقدور العلم أن يعكس الواقع عكسا صادقا دون أن يلوح بأخطار كثيرة على النظام القـائم وينبىء عن نهايته ، أصبح منطق البرجوازية والرأسمالية - كما يقـول جارودى - يقضى بأن يقـذف رويدا رويدا بجميع أشكال الفـكر العقلانى والموضوعية العلمية باعتبارها شهودا مزعجين(١٠) ٠ فالبرجوازية منذ الآن تفقد ثقتها بالعـلم وتعين للفلسفة مهمة اظهار أن العلم يمكننا من معرفة غور الأشياء وأن ليس للعـلم سـوى مغزى تقنى ، فليقـدم العلم تعبيرا عن هـذا المنطـق المشـوه ما يتيح القيام بتطبيقات تقنية ، هـذا أمر حسن ، لأن الصناعة تطلب ذلك ، لكن يجب أن لا يسمح له بالاجـابة على الأسئلة المتعلقـة بالانسان ومصيره ، وخاصة يجب أن لا يتسلل الى أرض التاريخ ، وبكلمة واحـدة يجب أن لا يمس الواقع الاجتماعى والعـالم الواقعى ، فلم تعـد الرأسمالية بحـاجة الى الفلسفة من أجل تنميتها بل من أجل الدفاع عنها

---

(٨) س٠ى٠بوبوف : نقد علم الاجتماع البرجوازى ، ترجمة نزار عيون السود ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٧٢ ، ص ١٦٧ ٠

(٩) راجع روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، ص ٣٩٨ الى ٤٠٠ ٠

(١٠) المرجع السابق ، ص ٣٩٦ ٠

وحسب(١١) • وما دامت ثقة البرجوازية والرأسمالية بالعلم وحقائق الواقع والتطور التاريخي قد انتهت للأسباب السابقة ، فهي لابد وأن تفسح المجال بدلا من ذلك لفلسفات الخرافة والشعوذات والأساطير الوجودية والبرجماتية والوظيفية وغيرها من الفلسفات المعاصرة التى تساعد على تثبيت الواقع حيث هو •

وعندما تهتم الفلسفة - كما يقول جارودى أيضا - بـ « اثبات » عجز الفكر البشرى وعدم قدرته على معرفة العالم الواقعى واستحالة تبديل الواقع فتلك أبلغ دلالة على انحطاطها ، وذلك لأنها صارت خادمة طبقة لم تعد تقبل الواقع حكما لأفكارها • ومثل هذه الطبقة التى حكم عليها التاريخ بالموت لا تستطيع أن تحاول تخليد النظام القائم الا بمنعها للفكر من أن يعى فوضى الواقع العميق والتناقضات الداخلية التي تقودها الى حتفها(١٢) •

هذا فى الوقت الذى كان المجتمع الانسانى دائما ممثلا بأوسع قواعده من الطبقات والفئات العاملة والمنتجة يتحرك دائما فى الاتجاه المضاد الذى ينسجم وطبيعة التطور التاريخى ، فيتصارع مع هذه الأقليات الطبقية اجتماعيا وسياسيا بلا هوادة بصورة مباشرة وغير مباشرة من جهة ويحقق من الانجازات الاقتصادية والتكنولوجية تحت سيطرتها ما يجعل من استمرار بقائها كما هى وكما ترغب دائما أمرا مستحيلا ، بينما تتيح هذه الانجازات للمجتمع وقطاعاته المنتجة فى الوقت نفسه أسلحة أكثر قوة وحسما فى مواجهة هذه الأقليات الطبقية وأهدافها غير المشروعة والمعيقة للتقدم وصولا الى القضاء على وجودها من خلال القضاء على الملكية والسلطة الرأسمالية ، وتحقيق الاشتراكية والمجتمع اللاطبقى الأكثر انسجاما وطبيعة التطور الانسانى والتاريخى بعامة(١٣) •

فصراع الطبقات داخل المجتمع الرأسمالى اليوم - كما يقول بوتومورو - سينتهى حتما بانتصار الطبقة العاملة ، وسيتبع هذا انتصار اقامة مجتمع لا طبقى • وهناك عدد من المبررات تستبعد توقع حدوث المجتمع اللا طبقى ،

---

(١١) راجع المرجع السابق ، ص ٤٠١ •

(١٢) المرجع السابق ، ص ٤٣٦ •

(١٣) يمكن ملاحظة الأمثلة على ذلك من خلال ما حدث للطبقات الاجتماعية فى أوربا التى تهاوت تحت ضربات طلائع البرجوازية الثورية وقتها ، والبرجوازية نفسها حينما تضاءلت حتى العدم تقريبا فى الوقت الحاضر تحت ظل أوسع الاحتكارات الدولية •

أما المبرر الأول فهـو أن الرأسمالية الحديثة تميل الى خلق طبقة عاملة متجانسة قوية بحيث يصعب أن تظهـر من خلالها فى المستقبل تقسيمات اجتماعية جديدة ، والمبرر الثانى هو أن الكفاح الثورى للعمال يخلق بينهم تعاونا قويا وعاطفة أخوية شديدة ، وأن مثل هـذه العاطفة تتدعم وتقوى من خلال المذاهب الأخلاقية والاجتماعية التى تتبناها الحركة الثورية ، وهى مذاهب واضحة تماما فى فكر ماركس • أما المبرر الثالث فهو أن الرأسمالية ذاتهـا تخلق ظروفا مادية وثقافية مهيئة للمجتمع اللاطبقى ، فالظروف المادية تتمثل فيما تقـدمه الرأسمالية من انتـاج هائل يجعل من الممكن اشباع الحاجات الانسانية لـكل الناس وما يترتب على ذلـك من ازالة حدة الكفاح من أجل البقاء ، أما الظروف الثقافية فتتمثل فيما تسهم به الرأسمالية من نهوض للحيـاة الريفية وعلى الأخص فى مجـال التعليم وانتشار المعرفة العلمية واهتمام الجماهير بالحياة السياسية(١٤) •

مع ملاحظة أن صيغة كلمات بوتومورو تنسب الى الرأسمالية الحديثـة فعل الأشياء وانجازها ، وربمـا كانت الصيغة الأقرب الى الموضوعية هى أن المجتمع نفسه تحت قيـادة السلطة الرأسمالية وفى ظلهـا هو الذى يقوم بانجاز هذه الأشياء فى نطـاق الطبيعة والمجتمع ، والتى يتحقق من خلالها عدد من النتائج الايجابية بالنسبة للمجتمع وحركة التطور والتقدم التاريخى للانسان بصفة عامة وعـدد آخر من النتـائج السلبية بالنسبة للرأسمالية كظاهرة اجتماعية « باثيولوجية » وتنظيم اقتصـادى خاطىء • واذا ما جاز القول بأن الرأسمالية هى التى تخلق هـذه الأشياء فهى لا تخلقها بمحض ارادتها ، لأنها على العكس من ذلك تقاوم الخلق والتقـدم والتطور الحقيقى ما استطاعت الى ذلـك سبيلا ، ولا يعقـل أن تخـلق شىء برغبتهـا سيكون هو سبب فنائها حتما •

كما أننا غالبـا ما نسمع ـ كما يقول لينين ـ أن الملاكين العقـاريين والتجـار « يعطون » الشعب « عملا » ، « يعطون الفقراء موردا للرزق » ،

---

(١٤) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ٤٤ •

يقال مثلا ، ان فلاحي تلك المحلة « يعتاشون » من المصنع المجاور ، أو من الاستثمارة الزراعية المجاورة • غير أن العمال هم الذين ، في الواقع ، يعتاشون من عملهم ، ويعيشون جميع الذين لا يشتغلون ، الا أنه لقاء الاذن بالعمل في أرض السيد أو في المصنع أو في السكة الحديد يقوم العامل باعطاء المالك مجانا كل ما يصنع ، بينما لا يتلقى هو سوى أجر زهيد • وهكذا نرى في الواقع أن ليس الملاكون العقاريون ولا التجار هم الذين يعطون العمال عملا ، وانما هم العمال الذين يعيلون بعملهم الجميع ، مقدمين مجانا قسما كبيرا من كدحهم(١٤) • وهذا هو ما يؤكد بأن الطبقات العاملة والمنتجة هي التي تصنع الحياة والتقدم ، وليس العكس •

وهنا لا تتأكد الحقيقة العلمية والتاريخية التي صاغها كارل ماركس بأن كل شكل من أشكال التطور والتنظيم الطبقي في المجتمع ما كان ليبدأ بالظهور حتى كان قد تضمن في تكوينه أيضا بذور افنائه وحسب بل وبصفته أيضا وجودا زائدا واستثنائيا شاذا خارج التاريخ والواقع الاجتماعي الحق ، ومجرد نموذج للخطأ النسبي الذى ظل يلازم الممارسة والفعل التاريخي للمجتمع الانساني عبر تاريخه الطويل ، والذى كان وما يزال يناضل من أجل ازالة هذا الخطأ وتخفيف حدته أولا بأول حتى الآن ، شأنه شأن غيره من الأخطاء والعوائق والصعاب الأخرى في الطبيعة والمجتمع ، التي كان الانسان وما يزال يناضل ضدها بغير كلل وتتعاظم انتصاراته عليها كل يوم أكثر وأكثر •

فالطبقات هي بأبسط دلالاتها ومحتواها استأثار فئة معينة في المجتمع بالثروة والأرض دون الغالبية العظمى فيه وممارسة مختلف أشكال التسلط السياسي والقهر الاجتماعي لفرض هذه القضية والمحافظة عليها ، ان الطبقات بوجه عام - كما يقول لينين - هي ما يتيح لقسم من المجتمع أن يستأثر بعمل الآخرين ، فاذا استأثر قسم من المجتمع بكل الارض كانت طبقة الملاكين العقاريين وطبقة الفلاحين ، واذا امتلك قسم من المجتمع المصانع والمعامل والأسهم والرأسمال بينما القسم الآخر يشتغل في هذه المصانع كانت طبقة

(١٤ مكرر) لينين : الى الفلاحين الفقراء ، دار التقدم ، موسكو ، ص ١٥ •

الرأسماليين وطبقة العمال والبروليتاريا(١٥) ٠

النظام الطبقي كظاهرة مغتربة

ان نظـــام الطبقات المستغلة لم يكن كما سبقت الاشارة مجرد خطـأ شائع في تاريخ الممارسة البشرية ، وأنه يكفر بالعلم ويعيق التقدم فحسب ، بل ان في هذا النظام ومن خلاله تتجســـد قصة اغتراب المجتمع الانساني القديم والجـديد ، فالنظـام الطبقي - من وجهـة النظـر العلمية أيضـا - هو أعظم تجسيد لحالة الاغتراب التي وقع فيها المجتمع الانساني منذ فجر تاريخه الحضاري وحتى اليـوم ، وان هــذه الحالة قد وجدت في ظروف تاريخية معينة وترتبط بتوفر هــذه الظروف ، وأن أساسها هو اغتراب العمل الذي يميز كل نظم الملكية الخاصة ابتداء من نظام الرق حتى النظـام الرأسمالي(١٦) ٠

ومن هنا فقد اغترب - كما يقول الدكتور مراد وهبه - كل من العامل والرأسمالي في العملية الرأسمالية للانتاج ، على الرغم من أن كل منهما نقيض الآخر ٠٠ فالرأسمالي مضطر الى المحافظة على وجوده وبالتـــالي المحافظة على وجود العامل ، أما العامل فهو مضطر الى ازالة وجوده وبالتالي ازالة وجود نقيضه الذي هو شرط وجوده كعامل « أي الرأسمالي » والفارق بين اغتراب كل منهما أن الرأسمالي يجد في اغترابه الذاتي قوته وخيره ، ويجد العامل في اغترابه الذاتي أنه لا حول له ولا قوة وأن وجوده لا انساني ، ومن ثم يحافظ الرأسمالي على هذا التناقض في حين يرغب العامل في تدميره(١٧) ٠

ومن هنا أيضا لا تتأكد حقيقة أن النظام الطبقي الناجم عن نظام الملكية الخاصة هو أساس أغتراب المجتمع الانساني فحسب بل واعتباره أيضـا ظاهرة معوقة للتقدم في مقابل حقيقة المفهوم التقدمي والثوري للطبقـــات المنتجة الرامية الى مكافحة هذا الاغتراب والقضاء عليه ٠

وهكذا فان الفرض الذي أصبح حقيقة واقعية حول امكانية اقامـــة

---

(١٥) لينين : في الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم موسكو ، ص ١٣١ ٠

(١٦) راجع مجلة عالم الفكر : المجلد العاشر ، العدد الأول ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٩ عدد خاص عن الاغتراب ، ص ٦ ٠

(١٧) د٠ مراد وهبه : المرجع السابق ، ص ١٠٣ و ١٠٤ ٠

مجتمع اشتراكي ولا طبقي لم يكن ذلك قط خروجا على قوانين الطبيعة والمجتمع ونذيرا بخروج الارض على طاعة السماء كما تروج لذلك كل الفلسفات البرجوازية والرأسمالية القديمة والأفكار الرجعية والمتخلفة ، بقدر ما هو يمثل التوصل الى تحقيق الانسجام الكامل بين قوانين التطور التاريخي للمجتمع والمجتمع نفسه ، الانسجام بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج فى مجتمع لا طبقي يخلو تماما من الظلم والاغتراب وعوائق التقدم واستغلال الانسان لأخيه الانسان ، وهو من جهة أخرى يشكل نقطة الحسم النهائية فى تمكين المجتمع الانساني من استأصال جذور اغترابه الناجم عن ارتكاب أول خطأ فى تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والذى ظل يتكرر زمنا طويلا بصور وأشكال مختلفة وهو النظام الطبقي نفسه ، والذى برز فى بعض مراحل التطور التاريخي وكما لو كان هو الممر الذى يتوجب المرور من خلاله وصولا الى أكثر المراحل تطورا ونضجا فى الوقت الحاضر والتى صار النظام الطبقي معها مسألة زائدة وغير ذات مدلول ايجابى على الاطلاق ، بل صار ذا مدلول معوق يجب تجاوزه •

ومسألة الوصول الى امكانية هذا الحسم التاريخي لنظام الطبقات فى الوقت الحاضر لم تكن لتتاتى امكانيته من خلال عمليات مبارزة فروسية بين المجتمع والطبقات المستغلة والمسيطرة فيه فى الماضى حينما كانت تسقط الطبقة فتظهر طبقة غيرها من العبودية الى الاقطاع فالبرجوازية ثم الرأسمالية والامبريالية العالمية التى تبدو الآن وكما لو كانت بالفعل هى آخر من يتقدم الى ساحة المبارزة ، أبدا ليست المسألة بهذه البساطة أو السذاجة على الأصح كما يظن البعض ، ولكن عملية الحسم هذه كانت تتم فى الواقع المادى والاقتصادى أصلا وما يطرأ عليه من تحول جذرى فى قوى الانتاج الذى يستلزم بالضرورة تحول موازى فى علاقات الانتاج بحيث يتحقق الحد الأدنى على الأقل من التوافق والانسجام ، حتى اذا ما فشلت هذه العلاقات فى مرحلة لاحقة تكون أكثر تقدما وتطورا فى قوى الانتاج من خلال استمرار تنامى كدح وفعالية الطبقات المنتجة وحدها فى المجتمع ، استلزم بالضرورة التخلى عن العلاقات القديمة واستبدالها بعلاقات جديدة أكثر تلاؤما مع تطور قوى الانتاج فى الطبيعة والمجتمع على السواء •

ان نظام الملكية الذى ولد النظام الطبقي فى المجتمع قد ظل يشكل ظاهرة اختلال بارزة فى توازن وتطابق هذه العلاقة بين قوى الانتاج وتطورها الذى يحققها المجتمع الانسانى على نطاق الطبيعة والمجتمع بصفة مستمرة ، وبين علاقات الانتاج الاجتماعية فى النطاق السياسى والاقتصادى ، خصوصا

وان كل المحاولات التى ظلت تبذلها هذه الطبقات من أجل تحقيق الحد الأدنى على الأقل من هذا التوافق هى محاولات يائسة للتوفيق عبثا بين وجودها هى كعامل سلبى معوق من جهة وبين قوى الانتاج الأخذة بالتطور والتقدم الأيجابى من جهة أخرى حيث كانت تنتهى كل هذه المحاولات « العبثية » الى عرقلة نسبية وحقيقية أحيانا لآلية وجدلية التطور والتقدم التاريخى لقوى الانتاج من جهة والدفاع عن مصالح ووجود هذه الطبقات نفسها لبعض الوقت من جهة أخرى ، حتى يحين موعد سقوطها حتما واحتلال طبقات جديدة محلها ، هى أقل تخلفا واعاقة لتطور قوى الانتاج بحدود نسبية على نحو ما تسمح المقارنة مثلا بين الطبقة الاقطاعية فى العصور الوسطى فى أوربا كطبقة منتهية بعد أن استنفذت كل أسباب الدفاع عن وجودها والطبقة البرجوازية فى القرن التاسع عشر كطبقة مبتدئة .

الا أن أى من هذه الطبقات لم يستطع ولم يستطيع تقديم الحل النهائى والحاسم الذى يوفق بين نظام الملكية والطبقات المستغلة من جهة ، والطبقات الشعبية المستغلة (بفتح الغين) أو المجتمع على الأصح الذى يجسد قوى الانتاج وحتمية تطورها المضطرد من جهة أخرى . ذلك أن أساس الحل التاريخى الحاسم لهذه المشكلة والذى تؤكد عليه النظرية العلمية من أجل تحقيق التوافق والتطابق التام والمضطرد بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج لا يتمثل فى أزالة النظام الطبقى القديم بصفته خطاء وأحلال نظام طبقى جديد أقل خطأ منه على نحو ما حدث بالنسبة للاقطاع والبرجوازية فى أوربا ، بل ان الحل يتمثل فى أجتثات الخطأ من أساسه والمتمثل فى وجود أدعاء الملكية الخاصة ونظم الطبقات نفسها ، بوصفها كما سبقت الاشارة لم تكن مجرد أشياء معوقة خارج التاريخ والوجود الحقيقى للمجتمع وزائدة عليه فحسب بل أنها تشكل أيضا التجسيد الفعلى لواحد من أهم أخطاء المجتمع البشرى فى نضاله الطويل وتقدمه التاريخى حتى الآن ، حيث لم يعد المجتمع الانسانى اليوم بفضل ما حققه من انتصارات حاسمة فى نطاق العلم والطبيعة والمجتمع ليعجز عن أدراك هذا الخطأ ولا يملك القدرة على أزالته ، بل لقد صار الادراك حقيقة علمية واجتماعية ، والازالة واقعا مطبقا بالنسبة لأكثر من ثلثى سكان الكرة الارضية فى المجتمعات الاشتراكية من جهة ، وحتميا بلا بديل بالنسبة لمن لا يزالون يعانون من وطئة هذا الخطأ فى المجتمعات الرأسمالية وتوابيعها فى البلدان النامية والمتخلفة .

الطبقات الشعبية المنتجة هي دائما التعبير الثوري المنسجم بين قوانين الطبيعة والمجتمع

ان الغاء نظام الملكية الخاصة بأعتباره أول خطأ تاريخي بارز في علاقات أفراد المجتمع الانساني سيؤدي جدليا الى الغاء نظام الطبقات المستغلة كخطأ ثاني متطفل وزائد عن المتطلبات الموضوعية للتطور الاجتماعي والتاريخي الحق للمجتمع الانساني ، بل أنه يقوم بحكم كونه خطأ بأعاقة وتعطيل مقاييس أدائه المطلوب والمنسجم ، وتشويهه الى أبعد الحدود ، كما أن وجود ما نسميه اليوم بالطبقات الشعبية أو المنتجة الحقيقية على الأصح من عمال وفلاحين ومهنيين في ظل علاقات جماعية متطابقة وما وصل اليه التقدم من انماط الانتاج الجماعي سيصبح وجودها بعد ذلك وجودا لا طبقي ، أي بلا أخطاء استراتيجية في التنظيم والعلاقات الاجتماعية للانتاج وتطوره ، ووجودا ثوريا على الدوام بلا عوائق طبقية أو اجتماعية مقصودة لذاتها .

ويتحقق بذلك أعظم انتصار ثوري في حياة المجتمع الانساني وتاريخه المتمثل في وجود هذه الطبقات المنتجة وتاريخها فقط ، باعتبار أن وجود المجتمع الانساني ممثلا في وجود هذه الطبقات العاملة والمنتجة ، هو الوجود المنسجم بطبيعته مع قوانين الطبيعة والتطور الشامل من جهة والذى لا يعيق أو يعرقل فاعليتها الثورية في التطور والنمو والتحول ، على نطاق الطبيعة والمجتمع معا فحسب ، ولكنه يرتبط جدليا بهذه الفاعلية الثورية على الدوام، ويناضل بلا كلل من أجل زيادة هذه الفاعلية وتطورها أكثر فأكثر ، وضد كل الاخطاء والصعوبات والعراقيل التي تعيق مسار هذا التطور التاريخي وفاعليته الثورية لصالح الانسان وتقدمه ويزيحها أولا بأول سواء كانت في الطبيعة أو المجتمع ، ففي مثل هذا النظام - كما يقول جارودي - لا توجد طبقة مهتمة بالمحافظة على ما هو قديم ، ولأول مرة في التاريخ تتوافق مصالح كل فرد مع مصالح المجموع(١٨) . والذي يعتبر اليوم العمل على ازالة أقدم وأخطر خطاء تاريخي في المجتمع والمتمثل في نظام الملكية الخاصة والطبقات المستغلة وتحقيق مجتمع اشتراكي لا طبقي هو أعظم تحد معاصر للمجتمع الانساني في هذه المرحلة بالذات .

ولقد أكد ماركس اضافة الى ما سبق بعدا آخر أكثر أهمية ، هو أن

---

(١٨) روجيه جارودي : النظرية المادية في المعرفة ، ص ٤٤٧ .

المجتمع الا طبقي الذى سيتحقق ، لن يشهد تناقضا صارخا بين الخصائص الشخصية للفرد وظروف حياتة الاجتماعية ، بل سيتمكن فيه كل فرد من تنمية قدراته الى أبعد مدى • ولن يواجه الفرد حينئذ حدودا أو قيودا الا تلك التى تفرضها عليه كينونته الطبيعية(١٩) فتصور ماركس ـ كما يقول بوتومورو ـ يعرض لنا قضية المساواة بشكل يلقا قبولا واسعا فى عالمنا المعاصر(٢٠) •

الطبقات الشعبية المنتجة هى دائما التعبير الصحيح عن وجود المجتمع وتطوره التاريخى

ومن هنا وفى ضوء كل ما سبق تتأكد حقيقة أن الطبقات الشعبية العاملة والمنتجة فى ظل المجتمع الرأسمالى أو الاقطاعى هى دائما طبقات ثورية بطبيعتها وبحكم وجودها وفاعليتها المنسجمة على الدوام مع قوانين التطور فى الطبيعة والمجتمع وان وجودها هو التجسيد الحقيقى لوجود المجتمع الانسانى نفسه وتاريخها هو تاريخه تماما ، وما عدا ذلك من التركيبات الاجتماعية المختلفة التى عرفها تاريخ المجتمع الانسانى حتى اليوم هى اما أشكال اجتماعية مكملة لهذه الطبقات وملحقة بها ، كالسلطة السياسية للدولة والجيش والفئات الاجتماعية المختلفة بما فى ذلك المثقفين الوطنيين والثوريين أنفسهم ، واما أشكال طفيلية وزائدة فرضت نفسها لبعض الوقت فى ظل ظروف اجتماعية واقتصادية وتاريخية معينة لم يعد لها ما يبررها فى الوقت الحاضر على الاطلاق كالطبقات الاقطاعية والرأسمالية والبرجوازية المستغلة وفئات السماسرة والوسطاء المحليين والدوليين •• الخ • والتى صار المنتهى منها كالعبودية والاقطاع يذكرنا بأفدح خطأ تم ارتكابه فى تاريخ المجتمع الانسانى ، الذى مضا وما تبقى منها من البرجوازية والرأسمالية والامبريالية ما يزال يذكرنا بأعظم الاخطاء والعوائق المهددة لحاضر المجتمع الانسانى ومستقبله ما لم يبادر الى استأصال جذورها المحتضرة بسرعة •

وهكذا تتأكد أيضا حقيقة التناسب العكسى أو التناقض العكسى على الأصح بين الطبقات الشعبية المنتجة ببعدها الثورى والتقدمى والطبقات الطفيلية المستغلة ببعدها الانتهازى والرجعى المتخلف ، فكلما آزداد وعى هذه الطبقات الشعبية المنتجة وانجازها المادى والمعنوى فى الواقع أزدادت ثوريتها وايمانها بالعلم والتقدم واستجابتها لحركة التاريخ وقوانين تطوره

---

(١٩) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ١٤٦ •

(٢٠) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٣ :

أكثر فأكثر ، والعكس صحيح بالنسبة للطبقات الاقطاعية والبرجوازية والرأسمالية التى ما تكاد تبداء بجنى ثمار أنتصارها حتى تجد نفسها مضطورة بحكم وجودها الى الوقوف فى وجه حركة التاريخ وقوانين التطور التى تسحقها بسرعة غير عابئة بصراخها • والعلة فى كل ذلك أن الطبقات الأولى وهى أوسع طبقات المجتمع المنتجة هى التى تشكل الامتداد والتجسيد الحقيقى لوجود المجتمع المنسجم مع حركة التاريخ وقوانين التطور ، أما الثانية فبحكم أقليتها فهى مجرد نشاز عارض وأشبه بالميكروب الغريب الذى يلفظه الجسم ولا يستطيع التعايش معه مهما طال الوقت ورغم ما قد يسببه من أذا كبيرا لهذا الجسم حتى يتخلص منه •

فالهوية الثورية والتقدمية للطبقات العاملة والمنتجة هى قضية تاريخية وجدلية تستمد حقيقتها من عمق الطبيعة وقوانين المجتمع وليست مجرد مفهوم سياسى كما قد يظن البعض خطاء • ومن هنا أيضا ينبع التفسير العلمي والتاريخى لمدلول المثقفين الوطنيين والثوريين كحلفاء أوفياء وطلائع قيادية لهذه الطبقات من منظور جدلى وليس سياسى فحسب •

نتائج واستخلاصات :

ومن خلال كل ما سبق نخلص الى مجموعة الحقائق التالية :

١ — أن الطبقات الشعبية المنتجة من عمال وفلاحين فى ظل المجتمع الاقطاعى القديم والرأسمالى الحديث هى التى تشكل دائما بعلاقاتها وفاعليتها المادية والمعنوية العامل المستقل والثابت لوجود المجتمع الحقيقى وتاريخه ومقاييس أداء حركته الجدلية والتاريخية والثورية المنسجمة مع قوانين التطور والتقدم والنمو أكثر فأكثر فى الطبيعة والمجتمع ، بينما تمثل كل الأشكال الاقتصادية والاجتماعية الأخرى المرافقة أو الموازية عوامل ثانوية تابعة فى الأساس ، وهى تكون عادة اما ذات دلالة مساعدة ومكملة لدور العامل الأساسى الأول ، كالمنظمات والاحزاب السياسية التقدمية والمؤسسات العلمية والمنجزات التكنولوجية والصناعية ، وأما ذات دلالة عرضية ومعوقة بطبيعتها ، كالملكية العقارية والرأسمالية الخاصة وما ينجم عنها من وجود فئات وأقليات طبقية طفيلية مستغلة وغير منتجة وزائدة على الوجود الطبيعى للمجتمع نفسه ، وأما ذات دلالة وظيفية مزدوجة يمكنها أن تعمل لصالح أى من الاتجاهين السابقين وفقا لقدرة أى منهما على فرض سيطرته السياسية والاقتصادية ، وذلك كجهاز السلطة السياسية والادارية والقضاء والتشريع، والتعليم والثقافة والصحافة ••• الخ •

٢ — أن كل الأشكال الاقتصادية والاجتماعية ذات الدلالة العرضية

والسلبية المعوقة بطبيعتها لآلية التحو الجدلى والتاريخى المنسجم فى المجتمع والزائدة على مكونات وجوده الطبيعى الحق كنظام الملكية والطبقات المستغلة وما ينجم عنها من أفكار وايديولوجيات وأدوات للاستغلال والقمع ، هى دائما وفى كل مراحل تطور المجتمع البشرى تشكل مقاييس الاخطاء الممكن حدوثها دائما فى مسار الممارسة العملية والفعل الانسانى فى الطبيعة والمجتمع على حد سواء ، والتى يقوم هذا المجتمع بازاحتها والتخلص منها أولا بأول بمجرد أدراكه لها من خلال عملية الممارسة نفسها ، وهى لا تشكل قط شرطا من شروط وجود هذا المجتمع فى أى مرحلة تاريخية أو أداة انتقاله « بالضرورة » من مرحلة تاريخية لأخرى ، الا بأعتبارها خـطأ نسبى قد يضطر المجتمع للقبول به لبعض الوقت ضمن ممارسته التاريخية . الا أن مثل هذه الاخطاء ذات الطابع الاجتماعى غالبا ما تميل بعد ذلك الى فرض نفسها على المجتمع بصفة دائمة بالقوة المباشرة وغير المباشرة ، وتحرص على ايقاف التحـول التاريخى حرصها على وجودها نفسه المشروط كليا بعملية هذا التوقف الذى تستميت فى سبيل جعل الاستثناء قاعدة.والخطأ حقيقة مطلقة ، وهى قـد تنجح فى أعاقة وتعطيل الأداء المثالى المنسجم للتطـور الجـدلى والتاريخى وتشويهه ، الا أنها لا تستطيع أن تثنيه أو تحل محله أو حتى تضمن بقائه المشوهة والمنحط باعتبارها مقياسا للخطـأ فى تاريخ الممارسة البشرية للمجتمع الانسانى .

٣ - ان تجاوز النظام الطبقى الناجم عن نظـام الملكية الاقطـاعية والرأسمالية والاستحواذ على فائض قيمة عمل الآخرين بأعتباره أكثر الاخطاء شيوعا فى تاريخ الممارسة الاجتماعية حتى الآن ، لم يكن هـذا التجاوز مشروطا قط بظرف تاريخى واجتماعى واقتصادى محدد ، كظروف المجتمع الرأسمالى ونضج التطور الصناعى فى أى مجتمع كما يظن الكثيرون ، بقدر ما أن أمكانية تجاوز مثل هذا الخطأ مرتهنة أساسا بأكتشاف وادراك أى مجتمع لهذا الخطأ نفسه الذى يكون قد وقع فيه ومباشرة النضال ضده بطريقة صحيحة ، مهما كانت طبيعة الظروف والمراحل التاريخية التى يمر بها . كما أنه لا يستلزم بالضرورة أن تقع كل المجتمعات أثناء تطورها فى مثل هذا الخطأ الفادح وتمر من خلاله بالضرورة أيضا ، أو تكرره فى حياتها على الأقل بعد أن يكون قد ثبت خطأوه فى مجتمع آخر . فالمجتمع الانسانى فى ظل النظام العبودى والاقطاعى والرأسمالى يملك فى كل الحالات فرصـا شبه متكافئة لامكانية تجاوز هذا الخطأ نهائيا فى كل الحالات السابقة اذا ما استطاع اكتشافه وباشر النضال الحازم ضده ، لأن المقولة الخاطئة التى تنزع عن العبيد والاقنان والفلاحين فى المجتمع العبودى والاقطاعى امكانية

القدرة على تجاوز هذا الخطأ وصولا الى المجتمع الاشتراكى الا طبقى ، هذه المقولة نفسها لا تقوى مطلقا على وقف هذه الامكانية وحصرها على الطبقة العاملة فى ظل المجتمع الرأسمالى فقط ولا حتى ضمان تحقيقها من خلال الوجود الفعلى لهذه الطبقة بصفة آلية ، الأمر الذى تؤكده وقائع التاريخ المعاصر • كما أن المجتمعات المشاعية القديمة التى ما تزال دلالاتها قائمة فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية والتى لم تعرف نظام الملكية الخاصة والطبقات بعد ليس مشروطا عليها قط فى تطورها القادم أن تمر بهذا الخطأ أو تكرره فى حياتها بوعيها واختيارها المحض ، ما لم يفرض عليها فرضا بقوة القهر السياسى والاستعمارى القادم من الخارج والذى لم يكتفى بممارسة هذه العملية فى هذه المجتمعات من خلال وجوده المباشر فى القرون الماضية ولكنه يجتهد حتى الآن فى سبيل توليدها محليا من خلال خلق طبقات وشرائح مستغلة على النمط الرأسمالى •

٤ ــ أن الطبقات الشعبية المنتجة من عمال وفلاحين لا تميل الى تأكيد نفسها كطبقات حقيقية فى التكوين الاجتماعى والاقتصادى الا فى حالة اندارجها تحت سيطرة الاقليات الطبقبة الطفيلية والزائدة على التكوين الاجتماعى والاقتصادى السليم للمجتمع من الاقطاع والبرجوازية والرأسمالية الغير منتجة فى الأساس ، والتى تعيش دائما على سرقة واغتصاب فائض القيمة والعمل المنتج لمجموع أفراد المجتمع المنتجين من عمال وفلاحين وغيرهم بدعوى حق الملكية العقارية والرأسمالية الخاصة ، وتستمد وجودها نفسه من خلال ذلك ، وأنه بمجرد أن يكتشف المجتمع وطبقاته الشعبية المنتجة ويدرك أمر هذا الادعاء الكاذب والسرقة المكشوفة ويناضل ضده بحزم فى أى لحظة من لحظات تطوره أو يحول دون وقوعه منذ البداية ، فانه بذلك لا يكون قد قام بتصحيح أفدح خطأ اجتماعى فى تاريخ الممارسة البشرية بالقضاء على النظام الطبقى فحسب ولكنه يكون بذلك قد حقق أعلى درجات الانسجام والتطابق بين قوانين الطبيعة والمجتمع وبناء المجتمع الاشتراكى الا طبقى الذى تتحقق فيه أعلا مقاييس الأداء الايجابى للتقدم الانسانى بلا عوائق ، وتزول معه كل أشكال الظلم واستغلال الانسان لأخيه الانسان•

٥ ــ ان الحقيقة الموضوعية التى غالبا ما غابت عن تقديرات معظم الدارسين والمحللين هى أن الحجم الفعلى لأفراد الطبقة الاقطاعية فى مجتمع تقليدى أو الرأسمالية والبرجوازية فى مجتمع صناعى لا يتجاوز عادة الـ ٥٪ الى ١٠٪ فى أحسن الأحوال ، انهم ــ كما يقول لينين ــ آلاف ضد ملايين(٢٠) • وان هذه النسبة اذا ما قورنت بالحجم الحقيقى

(٢٠ مكرر) راجع لينين : الى الفلاحين الفقراء ، دار القدم ، موسكو ، ص ١٨ •

للوجود الاجتماعي فانها تصبح غير ذات دلالة موضوعية يبنى عليها فى تفسير المجتمع وتطوره وتكوينه الحقيقى الا باعتبارها شـــذوذا واستثناء سلبيا لا يختلف فى حقيقته وكمه وكيفه وتأثيره عن بقية الشواذ الاجتماعية الأخرى فى حياة أى مجتمع ، كجماعات اللصـــوص ومحترفى التزوير والسطو والجريمة .. الخ أو حتى المعتوهين والمصابين بالأمراض العقلية والنفسية ، والتى لا يبنى عليها أى اعتبار منطقى أو علمى فى تفسير حقائق التاريخ والتطور وقوانينه الاجتماعية الا باعتبارها كذلك شواذا اجتماعية منحرفة وظواهر عرضية وباثيولـــوجية مؤقته ومشروط وجودهـــا بوجود ظروف اقتصادية واجتماعية معينة وتزول بزوالها . ولو جاز لنا ان نحكم خطاء بضرورة قرأة التاريخ والتطور وننتظر استمرار صنعه وتقدمه من خلال هذه الجماعات الاقطاعية والبرجوازية والرأسمالية فان الأمر يستلزم وبالضرورة أن نضع فى نفس المستوى جماعات الانحراف والنصب والسطو والقرصنة العادية .. الخ والتى لا تختلف عن جماعات المرابين والمضاربين والاحتكاريين الذين تتكون منهم الجماعات الاقطاعية والبرجـــوازية والرأسمالية فى شىء الا من حيث ان هذه الأخيرة قد استطاعت أن تتفوق على غيرها وتفرض نفسها وفكرها وسلطتها وسلوكها المنحرف على غيرها من الجماعات وعلى الحياة العامة بأسرها وارادات أن تجعل من كل ذلك قانونا للطبيعة وشريعة للمجتمع وتوقف كل حركة فى الطبيعة والمجتمع عند هذا الانحراف المشوه والاكذوبة السافرة بلا خجل .

٦ — أن فئة المثقفين الوطنيين والثوريين فى ضوء كل ما سبق لا يمنحون المجتمع وطبقاته الشعبية المنتجة فكرها وأيديولوجيتها الثورية المنسجمة وقوانين الجدل والتطور التاريخى فى الطبيعة والمجتمع ولكنهم على العكس من ذلك يستمدون هذا الفكر والايدولوجية الثورية من هذه الطبقات نفسهـا باعتباره سمة تاريخية ملازمة لها وجزء لا يتجزء من وجودها الحقيقى الحر ، ويعبرون عن هذا الفكر الثورى ويعكسونه بصورة أكثر تنظيما وارتقاءا وميلا الى التجريد النظرى ، باعتبارهم طليعة مرتبطة بهذه الطبقات وجزء لا يتجزء منها ، لا بأعتبارهم صفوة أو طبقة مستقلة عنها ، فوجود مثل هذه الفئة الثورية المثقفة مرتهن ومشروط بقائه واستمراره بوجود هذه الطبقات وارتباطه بها وليس العكس أبدا . وكـــل ذلك من أجـــل تحقيق المجتمع الاشتراكى الا طبقى الذى تتحقق فيه أعلا درجات التطابق والانسجام بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج من جهة ويزول معه ظلم واستغلال الانسان لأخيه الانسان كما سبقت الاشارة من جهة أخرى .

وبعد : الا يكون من الواضح الآن أننا قد أخـــذنا من الاستطرادات والتفاصيل في توضيح الهوية التاريخية الايجابية للطبقات الشعبية العاملة والمنتجة وعلاقاتها بالطبقات الأخرى أكثر مما ينبغي بالنسبة لهذه الدراسة التي تتركز أساسا حول فئة المثقفين في البلدان النامية والمتخلفة والمثقفين الوطنيين والثوريين منهم بالذات والذين يشكلون الطليعة والحليف الأول للطبقات الشعبية العاملة والمنتجة من عمال وفلاحين والمعبرين عن مصالحها ، بل والجزء الذى لا يتجزء منها كما سبق وأن أوضحت ؟

أنا لا أخفى ذلك بل ولا أخفى أنني قد قصدت اليه قصدا رغم المشقــة المضنية في الحديث عنه ، الا أن دافعي في ذلك وعزائي فيه أيضا هو أنني حرصت بلا حدود بأن لا أكتفي باطلاق الحكم والبديهة التاريخية وحدها بالنسبة للطبقات الشعبية العاملة والمنتجة باعتبارها المقياس الحقيقي لفاعلية التاريخ والتطور الايجابي فيه ورمز الوجود الفعلي للمجتمع نفســه ، وان ما عداها من التشكيلات الاجتماعية الأخرى التي عرفتها المجتمعات البشرية حتى الآن هي اما كيانات هامشية ملحقة بها ومكملة لنشاطها ، واما أنهــا أشكال خارج التاريخ والتطور وزائدة عليه ، وعامل أعاقة وتعطيل تسبى لمقاييس أدائه الفعال ٠

الفصل التاسع

المثقفون الوطنيون : تركيبهم وطبيعة دورهم الطبقي

مدخـــل :

قد يتساءل البعض هنـا عن سبب اختيارنا لهـذا الطراز من المثقفين الوطنيين بالذات للحديث عنهم وعن طبيعة الأسس والمفاهيم الموضوعيـــة والعلمية التى يرتكز عليها وجودهم فى المجتمع ؟ ولماذا لم نتحدث بتفصيل أكثر عن أسس ومفاهيم المثقفين الرأسماليين أو الاقطاعيين أو الرجعيين مادام الواقع يؤكد بأن لكل طبقة من الطبقـــات الرئيسية فى المجتمع مثقفيها ومنظريها المعبرين عن مصالحها والدفاع عنها ؟؟

والرد على هذا التساؤل يمكن الحصـول عليه باختصار ومن خـــلال الملاحظات الآتية :

١ ـ أن المفهوم الذى كان وما يزال شائعا حول كلمـــة « مثقف » أو مثقفين فى البلدان المتخلفة والتى نحن بصدد البحث عنها قد حظيت عـلى الدوام بهالة من الاحترام والتقدير واقترنت فى أذهان الناس بالأمل فى التغيير نحو الأفضل بلا نقاش ، بل لقد مالت كلمة « مثقف » أو متعلم حسب المفهوم الشائع لأن تكون مرادفة لكلمة « مرشد » أو منقذ أو مصلح تماما بصفة مطلقة ودونما أى تمييز بين مثقف وآخر أو متعلم وآخر ·

٢ ـ أن كل المتعلمين والمثقفين فى هذه المجتمعات بصفة عامة ومنذ نشأتهم الحديثة وحتى وقت قريب قد افترضوا فى أنفسهم جميعا المفهوم السابق وساهموا بحدة فى تكوينه لدى الرأى العـــام فى مجتمعاتهم رغم تناقضاتهم الطبقية وانتمائهم الفكرية والسياسية المختلفة ، وذلك على نحو ما سبق تحليله فى أماكن سابقة من هذا البحث ·

٣ ـ أن أهمية الحديث عن المثقفين الوطنيين والتقدميين تنبع من واقع كونهم يختلفون جذريا عن غيرهم من مثقفى الطبقات الاقطاعية والاوليجاركية

المسيطرة والذين ما يزالون بنوع من التصرف والسلوك الانتهازى يصرون على اخفاء هويتهم الحقيقية تحت مظلة الشعارات الوطنية المألوفة ، مستفيدين بالمفهوم التقليدى الشائع في الأوساط العامة لمعنى « المثقف أو المتعلم » ويقفون منهم على طرفى نقيض ٠

٤ — أن الحديث عن هذه الفئة بالذات من المثقفين الوطنيين ومحاولة تحديد ماهيتها ودورها هو اضافة الى كونه تصحيح لكل الاخطاء السابقة يشكل التزاما أدبيا وعلميا بمبدأ البحث والعلم فى خدمة المجتمع وتقدمه وحل مشاكله بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، باعتبار أنهم هم الحلفاء الحقيقيون لحركة التحديث والتقدم الحقيقى للطبقات الشعبية والفقيرة فى البلدان النامية في نضالها ضد القهر والظلم والاستغلال الطبقى فى الداخل والتبعية الاقتصادية والسياسية للخارج من جهة ، وبناء مجتمع انسانى حر ومتقدم خالى من الظلم واستغلال الانسان لأخيه الانسان من جهة أخرى ٠

ذلك أن أحدث المناقشات فى حقل علم الاجتماع المعاصر قد أثبتت — كما يقول الدكتور محمد الجوهرى — أن دارس المجتمع لا يستطيع اليوم أن يتصدى لمعالجة أى جانب من جوانب الحياة فى مجتمعه دون أن يتسلح بموقف نظرى واضح يهديه ويرشده ويحفظه من الوقوع فريسة الزيف والتضليل الذى يمكن أن توقعه فيه نظريات أو مواقف سابقة فى دراسة المجتمع(١) ٠

الأسس والمفاهيم الموضوعية للمثقفين الوطنيين

نحن لا ندعى هنا بأننا نبدع مفاهيم ومضامين جديدة أو نخلقها من العدم بالنسبة لفئة أو شريحة المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة، كما أننا لسنا هنا بصدد اصدار تعاليم ونصائح أو مواعظ أدبية وأخلاقية لما يجب أن يتحلا به المثقف الوطنى من صفات ومميزات شخصية وأخلاقية على غرار ما يفعله المتصوفون فى التعامل مع اتباعهم ومريديهم ، وأرباب العائلات فى التعامل مع صغارهم ٠٠٠ الخ ٠ بقدر ما أننا نحرص فى فقرات هذا الفصل على بلورة الخصوصيات والمميزات الاجتماعية والموضوعية البحته للمثقفين الوطنيين على وجه التحديد ، وطبيعة المهام التاريخية والاجتماعية

---

١) د٠ محمد الجوهرى ، علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، مرجع سابق ، ص ٢٠٩ ٠

المنوطة بهم فى نطاق المجتمع الذى ينتمون اليه على أسس علمية وفي ضوء كل التحليلات السابقة ومن خلال مجريات الأحداث ووقائعها العملية ٠

حيث يمكن تلخيص أهم هذه الأسس والمضامين المرتبطة جوهريا بالمدلول العلمى لمعنى المثقفين الوطنيين كأدوات تعبيرية وطليعية تقدمية واعية في نضال الطبقات الشعبية المؤمنة بالتحول نحو الأفضل ، وتتمثل فى أهمية الوعى بالذات وتقدير حدود مهامهم ودورهم فى سياق النضال الطبقى والتحولات الاجتماعية والتاريخية في مجتمع متخلف وصولا الى مجتمع متطور ومتقدم من جهة ، وفى العمل بالآخرين ومعهم بصدق وتواضع وليس العمل من أجلهم بغرور من جهة ثانية ، وفى الاختيار الوطنى والثورى الناجز بغير تسويف أو مغالطة من جهة ثالثة ، ثم الاعتماد على الواقع وخصوصياته وامكانياته الذاتية كعامل حاسم واستراتيجى بالدرجة الأولى من جهة رابعة ، وأخيرا التركيز على « ثقافة الوعى » بدلا من « وعى الثقافة » ونظرا لما لهذه الأسس والمفاهيم من أهمية بالغة فى تقديرنا فسنقوم بتناول كل منها بشىء من التفصيل والتحليل فى مجمل الصفحات التالية من هذا الفصل ٠

أولا : أهمية الوعى بالذات وطبيعة المهام

أقصد بأهمية الوعى بالذات بالنسبة للمثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة هو ضرورة توفر الوعى بوضوح وموضوعية بطبيعة مهمتهم الاجتماعية والطبقية وحدودها تجاه الواقع المتخلف من جهة وتبلور الوعى والادراك الذاتى لهذه المهمة في نفوسهم من جهة أخرى ٠ فمهمة الوعى بالذات تتمثل بالنسبة للمثقفين الوطنيين فى أهمية أدراك كونهم مجرد فئة أو شريحة اجتماعية لا يتجاوز دورها ولا يختلف تركيبها عن أى فئة اجتماعية أخرى فى المجتمع ، بما فى ذلك فئات المثقفين غير الوطنيين ، الا من حيث طبيعة الدور ونوع المهمة التى سنتحدث عنها بعد قليل ، فهم ليسوا فئة مستقلة عن الطبقات ، وليسوا طبقة فوق كل الطبقات ، ولا يملكون تفويضا مطلقا للتحدث عن الطبقات والدفاع عنها أو الهجوم على طبقات أخرى بمفردهم ، كما أنهم عاجزون بطبيعتهم عن القيام بذلك مهما ظنوا فى أنفسهم أو خدعتهم الظروف المحيطة أحيانا ، وهم كذلك أيضا شأنهم شأن غيرهم من الفئات والجماعات الهامشية الأخرى لا يتجاوز حقيقة تكوينهم الذاتى كمجرد تعبير أولى واعى ومنظم الى هذا الحد أو ذاك عن مصالح اجتماعية وطبقية محددة هم جزء لا يتجزاء منها ، أما بحكم أصولهم الاجتماعية والطبقية ، أو انتمآتهم وقناعاتهم الفكرية والسياسية الصادقة ، أو بكلا الأمرين معا ، بل أنهم

شأنهم شأن غيرهم من الفئات الأخرى وبالرغم مما يعلنونه من تشيعهم القوى لأصولهم وانتمائتهم الطبقية والسياسية والفكرية المعبرة عنها ، فأنهم هم أقل أجزاء هذه الطبقات التى ينتمون اليها ويعبرون عن مصالحها استقرارا وثباتا فى مواقعهم وأكثر تعرضا للتغير والانحراف السريـــع الى مواقف وانتمآت طبقية وسياسية أخرى هامشية أو موازية بل ومضادة فى كثير من الأحيان ٠

هذا من حيث الاطار النظرى والاجتماعى الشامل لتكوينهم الذاتى الذى لا يختلف فيه واقعهم ودورهم عن أية فئة أو جماعة هـــامشية أخرى فى المجتمع ، الا من حيث النسبة ودرجة الفاعلية والتأثير الذى يتمتعون به أكثر من غيرهم ٠ أما من حيث نوعية وكيفية الدور والمهمة المنوطة بوجودهم كمثقفين وطنيين ، والذى يتميزون به دون غـــيرهم من الفئات والجماعات الأخرى ، فهى تنبع من طبيعة انتمائهم للطبقات القاعدية فى المجتمع ، من فلاحين وعمال وبرجوازية وطنية صغيرة ، وتمثلهم لمصالحها الطبقية ومفاهيمها الوطنية والايديولوجية فى مواجهة الطبقات المسيطرة من الاقطاع والكمبرادور المحلى والدولى فى المجتمعات النامية والمتخلفة ، ويشكلون طليعتها المتقدمة ونقاط التماس والتصادم الأولى بين هذه الطبقات القاعدية الوطنية والثورية التقدمية بطبيعتها مع غيرها من الطبقات الاقطـــاعية والرجعية القـديمة أو البرجوازية والكمبرادورية المستغلة المعاصرة ٠

أما وقد أعطينا لهذه الحقيقة التاريخية والعلمية كل أبعادها ومضامينها الضرورية اللازمة سلفا ، فان ما يتبقى لنا فى هذه النقطة بالذات بالنسبة للمثقفين الوطنيين والثوريين وطبيعة مهمتهم ودورهم بالنسبة لتلك الطبقات الشعبية العاملة والمنتجة والتي تملك وحدها مفاتيح حركة التاريخ والتطور باعتبارهم يشكلون دائما طليعة نضالها التاريخي وأدوات التعبير عن مصالحها السياسية والاقتصـــادية ، فهو التأكيد على مجمـــل الحقـــائق التاريخية والاجتماعية الآتية :

١ ـ ان المهمة الأســاسية والمبــاشرة للمثقفين الوطنيين والثــوريين بالنسبة للطبقات الشعبية من عمال وفلاحين ومنتجين والتى ينتمون اليهـا بحكم وجودهم الاجتماعى أو قناعاتهم الفكرية والسياسية الصادقة تتمثل فى العمل على بلورة وعيها التاريخى بحقيقة وجودها وطبيعة دورها وما تملكه من أمكانيات هائلة فى صنع التطور دون سواها فى ضوء ما سبق تحليله ، وتبصيرها بكل التفسيرات والمفاهيم الفاسدة والمضللـة الأخرى التى غالبا

ما تستغل ضد المصالح الحقيقية لهذه الطبقـــات واحباط دورها التاريخى وعرقلته ، وصولا الى المزيد من قهرها واستغلال جهدها لصالح القلة من الطبقات والفئات الاقطاعية والرأسمالية الطفيلية القادمة من خارج التاريخ ، والتى كانت وما تزال فى جزء كبير من العالم تفرض نفسها عليه وتحاول أجباره على السير فى الاتجاه المضاد لحركته الطبيعية •

ومسئلة الترابط بين دور المثقفين الثوريين بالنسبة لطبقات الشغيلة والمنتجين على هذا النحـــو لم يكن مسئلة خيارية ، ولكنه ترابـط جدلى بالضرورة • فالوعى الاشتراكى الديمقراطى ـ كما يقول لينين ـ لا يمكن للعمال أن يحصلوا عليه الا من خارجهم ولنا فى تاريخ جميع البلدان شاهد على أن الطبقة العاملة لا تستطيع أن تكتسب بقـــواها الخاصة غير الوعى « التردبونيونى » أى الاقتناع بضرورة الانضمام فى نقابات والنضال ضد أصحاب الأعمال ومطالبة الحكومة بأصدار هذه أو تلك من القوانين الضرورية للعمال ••• الخ • أما التعـاليم الاشتراكية فقـــد أنبثقت عن النظريات الفلسفية والتاريخية التى وضعها المتعلمون من ممثلى الطبقات المالكة ،وضعها المثقفون(٢) •

٢ ـ أن الطبقـات الشـعبية العاملة والمنتجـة فى عموميتها قد فرض عليها عبر مراحل التاريخ ألوان من القهر والاستغلال السياسى والاقتصادى من جهة ، وأجبرت على تذوق آفكار ومفاهيم خرافية واسطورية وعنصريـة وميتافيزيقية فاسدة منذ زمن طويل من قبل الفئات والطبقات المسيطرة من جهة أخرى ، أدت مجتمعة الى الانحطاط بقيمها الانسانية ودورها التاريخى ، وأفسدت وعيها المادى والعقلى وتماسكها الاجتماعى ووحدتها الطبقية الى هذا الحد أو ذاك •

فهذه الطبقات الشعبية فى المجتمعات الرأسمالية وتوابعها فى البلدان النامية والمتخلفة على وجه التحديد هى اليوم فى أمس الحاجة الى ادراك كل هذه الحقائق والوعى الكامل بها ، كمدخل ضرورى لا بديل عنه فى نضالها الحالى ضد الفئات والطبقات المستغلة لها وضد كل أشكال التخلف القائم ، ويجب أن لا نأخذ بوجهة النظر الطوباوية ـ كما يقول لينين ـ والتى تزعم أن الجماهير الكادحـــة مهيئة للمجتمع الاشتراكى(٣) • لأن طليعة المثقفين

---

(٢) لينين ـ ماركس ـ انجلز : الماركسية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١٦٢ و ١٦٣ •

(٣) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، ص ١٥٢ •

الوطنيين والثوريين هى المخولة جدليا وتاريخيا للقيام بهذا الدور المهيء للجماهير الكادحة لكى تقوم ببناء المجتمع الاشتراكى ٠

كما أن لينين قد أشار أيضا الى كلمات « كاوتسكى » التى قالها بصدد مشروع البرنامج الجديد للحزب الاشتراكى الديمقراطى النمسوى فى هذا الصدد وصفها بالعمق والصدق والتى جاء فيها : ان العلم الاقتصادى الحديث هو شرط من شروط الانتاج الاشتراكى ، شأنه مثلا ، شأن التكتيك الحديث سواء بسواء ، وان البروليتاريا بالرغم من كل رغبتها ، لا تستطيع أن تخلق لا هذا ولا ذاك ، فكلاهما ينشأ عن التطور الاجتماعى الحديث ، فالعلم ليس بيد البزوليتاريا بل بيد المثقفين البرجوازيين ، فالاشتراكية الحديثة نفسها قد أنبثقت هى أيضا فى رؤوس بعض أعضاء هذه الفئة ، وقد نقلها هؤلاء الى أكثر البروليتاريين تطورا من الناحية الفكرية ، الذين أخذو بعد ذلك يدخلونها فى نضال البروليتاريا الطبقى حيث تسمح الظروف ٠ وعلى ذلك كان الوعى الاشتراكى عنصرا يؤخذ من الخارج وينقل الى نضال البروليتاريا الطبقى ، لا شيئا ينبثق منه بصورة عفوية(٤) ٠

وبالرغم من وضوح هذا الطرح من قبل « كاوتسكى » واهتمام لينين به الى هذا الحد الا أن نمط التحليل لا يخلو فى تقديرنا من نزعة برجوازية صغيرة لدى « كاوتسكى » ، وسوء فهم للعلاقة الجدلية بين الفكر والواقع الى حد ما ، ففكرة أن البروليتاريا لا تستطيع أن تخلق العلم الاقتصادى ولا التكنيك الحديث وان من يملكون ذلك هم المثقفون البرجوازيون فقط ، بما فى ذلك الاشتراكية نفسها والذين يقومون بتقديم كل ذلك لنضال البروليتاريا فيما يشبه « الهبات أو العطايا » فان هذا هو الفهم البرجوازى الكبير والخاطىء لدى كاوتسكى، ذلك أنه اذا كان كاوتسكى يعترف فى نفس النص بأن التكنيك الحديث والعلم الاقتصادى قد نشأ عن التطور الاجتماعى الحديث ، فمن الذى أنجز هذا التطور نفسه ؟ هل هم المثقفون البرجوازيون أم البروليتاريا ؟ ، فالبروليتاريين وكل الشغيلة هم الذين ينفذون التحول والتطور الحقيقى فى الواقع ، ومن واقع هذا التحول وممارساته وانجازاته اليومية ينبثق العلم الاقتصادى والتكنولوجى وكل المفاهيم النظرية ، والتى يضطلع بها المثقفون سواء أن كانوا رأسماليين أو برجوازيين أو ثوريين كشراح ومنظرين وموجهين ، كل وما يتناسب وخدمة مصالح طبقته التى ينتمى اليها ، واذا

---

(٤) لينين ـ ماركس ، انجلز : الماركسية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١٧٣ و ١٧٤ ٠

كان البروليتاريون لا يستطيعون أن يتمتعون بمثل هـــذا الوعى أو الفهم النظرى فذلك أمر لا يجردهم قط من حقهم فى صنعة ومن كونهم وما يعملون هم الواقع الاجتماعي والمادى الذى يعكس كل الأفكار النظرية ويشـــكل مصدرها الأول بما فيها كل أفكار المثقفين على اختلاف مذاهبهم • وعلى ذلك فان الوعى الاشتراكى لم يكن عنصرا مأخوذا من الخارج وينقل الى نضـــال البروليتاريا الطبقى كما يقول كاوتسكى ، ولكنه انعكاسا له وتعبيرا عنه ، عن طريق المثقفين الثوريين والتقدميين الذين هم حلفاء لـــكل البروليتاريين والكادحين والجزء الذى لا يتجزأ من وجـــودهم الطبقى والتاريخى ، وليس المثقفين البرجوازيين والرأسماليين والاقطاعيين الذين يقومون بمهام معادية للبروليتاريا تعبيرا عن مصالح طبقاتهم القائمة على استغلال الطبقات المنتجة•

٣ — ان المثقفين الوطنيين والثوريين هم المخولون وحدهم تاريخيا للقيام بهذه المهمة الحيوية ، مهمة بلورة وتعميق الوعى الطبقى والتاريخى فى الواقع الاجتماعى حتى يتسلح به ويناضل هو بالدرجة الأولى من خلاله وفى ضوئه ضد كل أشكال قهره وتخلفه السائد • وليس مجرد العلم به وتداول المفاهيم النظرية المجردة والمشوهة أحيانا بمعزل تام عن الواقع والطبقات الاجتماعية صاحبة الشأن وذات المصلحة الحقيقية فى الوعى به ، وتلك هى النقطـــة الأساسية فيما قصدنا اليه فى بداية هذه الفقرة من أهمية الوعى بالذات بالنسبة للمثقفين الثوريين وطبيعة مهمتهم الاجتماعية والتاريخية فى نطاق الطبقات التى ينتمون اليها بحكم النشأة والقناعة ، والتى يمكن تلخيصها أيضا فى عبارة العمل بالآخرين ومعهم أساسا وليس من أجلهم وبمعزل عنهم من خلال المقولات النظرية المجردة للاشتراكية •

ذلك أن الثقافة البروليتارية — كما يقول لينين — لم تنبثق من مكان مجهول ولم يخترعها الناس الذين يقولون عن أنفسهم أنهم اختصاصيون فى ميدان الثقافة البروليتارية ، كل ذلك سخف وهراء ، ينبغى أن تكون الثقافة البروليتارية هى التطور المنطقى لمجمل المعارف التى صاغتها الانسانية تحت نير المجتمع الرأسمالى ومجتمع الملاكين العقاريين ، والمجتمع الدواوينى(٥) •

اضافة الى كون هؤلاء المثقفين ليســـوا طبقة فوق الطبقات ولا هم مفوضون أو قادرون على القيام بأى مهمة بمفردهم نيابة عنها ، ولا هم بأقدر

---

(٥) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١٢٢ •

منها على الصمود والنضال الحقيقي من أجل انتصارها الحاسم ، ذلك أنهم بالرغم من أهمية دورهم الطليعي الهام بالنسبة لهذه الطبقات فانهم لا يعدو كونهم مجرد التعبير الهامشي عنها فحسب ، بل وأكثر حلقات تكوينها ضعفا وعرضة للخطأ والانحراف دائما ٠

ثانيا : الاختيارات الثورية الناجزة

اذا كنا قد أوضحنا فى الفقرة السابقة طبيعة المهمـــة المنوطة بفئة المثقفين الوطنيين داخل طبقاتهم الاجتماعية ، والمتمثلة فى بلورة وتعميق الوعى الطبقى والتاريخى بين صفوفها حتى تتسلح به وتناضل هى من خلاله وفى ضوئه ضد كل أشكال قهرها وتخلفها السائد ، وان تناضل بالآخرين ومعهم أساسا وليس من أجلهم فحسب ، الا اننا نود أن نتطرق فى هـذه الفقرة الى « الكيفيات » التى ينبغى أن يتم من خلالها أداء هذه المهمة من قبل المثقفين الثوريين تجاه واقعهم الاجتماعى والطبقى فى البلدان الناميـة والمتخلفة بالذات فى الوقت الحاضر ، والى أى مدى هى منسجمة ومتطابقة موقفهم ونضالهم مع ما يتيحـــه الواقـــع الاجتماعى والتاريخى الراهن من الامكانيات الحقيقية للنضال والتطور ٠

وحتى نتمكن من تحقيق رؤية حسنة وموضوعية لهذه القضية الهامة لا بد من العودة قليلا الى مرحلة تاريخية معينة ، وهى مرحلة بداية ونشوء هذه الشريحة الجديدة من المثقفين الوطنيين والثوريين فى البلدان الناميـــة والمتخلفة وهى ما تزال قريبة العهد جدا وربما أنها لم تغادر وقتنا الحاضر بعد ، وهو الأمر الذى سبقت الاشارة اليه فى مكان سابق من هذه الدراسة٠ وعلى ذلك فانه بالرغم من صدق التوجهات المبدئية والنظرية لدى هذه الفئة من المثقفين الوطنيين والثوريين واختيارها الطبقى والثورى الناجز كأطـار عام لمهمتها النظرية الا أن الكيفيات والمواقف العملية لأداء هذه المهمة والتى لا مكان فيها للخيارات الشخصية والحلول الجزئية الوسيطة ، ما تزال عرضة لمثل هذه المحاكمات والخيارات الشخصية أو السياسية الجزئية والمراهنة على بعض الحلول الوسطية والتكتيكية المريضة ٠

(أ) حذر الاستقطاب السياسى

فكثير من المثقفين الصـــادقين يتهيبون ــ بحـــكم خبرتهم التاريخية والنضالية المحدودة ــ الاختيار الثورى الناجـــز ويراهنون عادة على بعض الحلول الجزئية والهامشية للواقع الاجتماعى ، لا بأعتبار ذلك أجراء تكتيكى

مشروع فى سبيل الاختيار الثورى الناجز بل بأعتبارها مداخل استراتيجية في نظرهم للوصول الى الحل النهائي ، وذلك على نحو ما يحدث مثلا من عمليات الأستقطاب الاجتماعي والسياسي الواسع النطاق في صفوف الحركة الوطنية المنظمة لعناصر وفئات اجتماعية ذات مصـــالح وانتماءات وأصول طبقية واجتماعية مختلفة بل ومتناقضة ومعادية بطبيعتها للخط الوطني ، لا كمجرد تكتيك مشروع بل كمدخل استراتيجي للوصول الى الحل الاجتماعي المطلوب من خلال هذه العناصر ، وذلك تحت وطئة بعض المشاعر التربوية الخاطئة أحيانا والمبالغة في دور قانون التحول أحيانا كثيرة ، كالتبرير الخاطىء مثلا لمحدودية وضعف الوعي الطبقي المطـــلوب في مجتمع متخلف لـدى الفئات والطبقات الشعبية من أجل أنجاز حل اجتماعي وسياسي عاجل من جهـــة والمبالغة المسرفة لقانون التحول الاجتماعي لبعض العناصر الاجتماعية ذات المصالح والأصول الطبقية اللاوطنية واللاثورية ، والمراهنة من خلال هـــذه المبررات الخاطئة في التصور والمبالغات المسرفة في التحول على ورقة خاسرة من أجل تحقيق الحل الثورى الناجز .

فلقد حذر لينين من المراهنة على تحول مثقفي الاقطاع والبرجوازية الرأسمالية القدامى حتى فى عهد الاشتراكية ، وأشـــار الى امكانية الاستفادة منهم وليس الاعتماد عليهم، مؤكدا على حقيقة أن هؤلاء المثقفين ليسوا اشتراكيي الميل ولن يكونوا أبدا شيوعي الميل ، وان سير الأحداث هو الذى يحملهم على التزام موقف الحياد والمراوغة ، كما يؤكد قائلا : أننا لن نستند أبدا الى المثقفين بل سنستند فقط الى طليعة البروليتاريا التى تجر ورائهـــا جميع البروليتاريين وجميع الفلاحين الفقراء(٦) .

فاذا صح الافتراض الأول القـــائل بمحدودية وضعف الوعي الطبقي المطلوب في مجتمع متخلف لانجاز حل سياسي واجتماعي عاجل ، وهو ما لا تختلف عليه كثيرا ، الا أن معالجة هذه القضية وحلهـــا يتركز أساسا في النضال والكدح المضني داخل صفوف الطبقات العاملة والمنتجة نفسها لتنمية وعيها والبحث عن عناصر طليعية ثورية صلبة من أوساطها مباشرة لمواجهـــة ذلك الضعف والمحدودية في الوعي الطبقي وسد نقصه كما وكيفا ، وليس في البحث عن محامين وأدعياء للقيام بهذه المهمة من أوساط طبقات وفئات معادية أخرى كقضية استراتيجية ، لأن ذلك لن يسهم قط في تنمية الوعي

---

(٦) لينين : في الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم بموسكو ، ص ٣١ .

الطبقى والحل الاجتماعي الناجز ، بقدر ما سيسهم فى تنمية وعى وثقافة الطبقات والفئات الا وطنية القديمة والمعادية ، ويمكننا من الاطلاع على خطط وطموحات القوى الثورية الجديدة وييسر لها ضربهـا وعرقلة مسيرتها التاريخية ، والدلائل الواقعية على هذا الأمر لا تخفى فى كل المجتمعات(٧) .

كما أن المبالغة المسرفة فى قانون التحول على نحو ما سبق تحت أى مبرر هو انحراف واضح بالقانون التاريخى والاجتماعى لتفسير الطبقات وعلاقاتها ببعضها ويحول القاعدة فى هذا القانون الى استثناء والاستثناء الى قاعدة ،الأمر الذى تطبل له النظريات الامبريالية والرجعية فى تفسير الطبقات على نحو ما ذكرنا فى مكان سابق من هذه الدراسة ، مع اختلاف الصيغة لا أكثر .

(ب) العمل فى نطاق الطبقات المقهورة وليس المسيطرة

هذا من جهة ومن جهة أخرى فان القوى الوطنية والثورية وبدافع من سوء فهمها للاختيار الثورى الناجز أيضا غالبا ما تميل الى تحديد مهامها النضالية وأهدافها الوطنية والتقدمية على أسس غير تاريخية وغير طبقية ناجزة ، حيث تقوم بدلا من ذلك بتحديد مهامها وأهدافها فى ضوء الموازنات السياسية والدبلوماسية البحته فى الواقع الاجتماعى المتخلف ، وتبدوا وكما لو كانت مجرد طرف من الأطراف السياسية القـائمة يتميز بوجهة نظر خاصة قد تختلف أو تتفق الى هذا الحد أو ذاك مع بقية الأطراف السياسية الأخرى ، حيث تبدو وهى أشبه ما تكون بأقلية سياسية أو طائفية داخـل برلمان برجوازى متقدم أو على هامش مجتمع اقطاعى متخلف ، قانعة بمجرد الاعتراف بوجودها كأفراد يجوز لهم التفكير تجاه أنفسهم فقط كما يشاؤن ولا دخل لهم بمجريات الواقع اطلاقا ما داموا أقلية سياسية أو طائفيـة بمعنى ما ، وما داموا يحرصون على مجرد الابقاء على حياتهم كأشخاص ، خصوصا وأن الكثير من العناصر الوطنية والمثقفين الثوريين يقبلون بمثل هذا الاختيار الخاطىء تحت تأثير قناعات خاطئة أيضا ، قوامها أنهم ما يزالون أقلية وطنية بالفعل فى مقابل أغلبية رجعية من جهة ولانهم ما يزالون فى دور التكوين وفى مرحلة البداية من جهة أخرى ، وان الحصـول على مثل تلك

---

(٧) ان انقلاب الخامس من نوفمبر فى شمال الوطن ومحاولة انقلاب الـ ٢٠ من مارس فى جنوب الوطن خلال عامى ١٩٦٧ و ١٩٦٨ كما سبقت الاشارة فى مكان سابق من هذا البحث يعدان أبرز دليل على ذلك .

المطالب المحدودة من الطبقات المسيطرة في مجتمع برجوازي أو اقطاعى متخلف هو الخطوة الأولى نحو خطوات أكثر على هذا الطريق حتى النهاية ·

وهم فى سبيل ذلك يقبلـــون كثيرا ببعض الاجراءات الاصلاحية والتغييرات البرجوازية الشـــكلية التى تقدم عليها السلطة الاقطاعية أو البرجوازية من أجل تطوير مصالحها هى ، باعتبارها جزء من الانجاز الوطنى الموهوم الذى يراهنون عليه ويدافعون عنه بحرارة ، ويكونون فى هذه الحالة أشبه بمن يريد الوصول الى سطح القمة بالهبوط من أعلى بدلا من الصعود من أسفل ، وتبدوا مسئلة اختيار الحل الثورى الناجز بالنسبة لهم وكما لو كانت غير ممكنة فى الوقت الحاضر ولم يحن وقتها بعد ، بل ولا يدرون أو يتصورون متى سيحين وقتها بالضبط ، وانما يتركون كل ذلك للظروف ، ان لم يـكن لعـلم الغيب ، مكتفين بالتضخيم والنفخ فى بعض الاجـــراءات والاصلاحات الشكلية التى قد تتخذها الطبقات المستغلة المسيطرة من وقت لآخر دفاعا عن نفسها ومصالحها التى تتعرض للانهيار من وقت لآخر وليس حبا فى ايجاد تحول حقيقى فى المجتمع كما يتصور بعض أولئك المثقفين الطيبين خطاء ·

مأساة هذا الفهم والاختيار الوطنى الخاطىء للمثقفين الوطنيين والثوريين فى نضالهم هو أنه أولا : يفصلهم عن أبعادهم الاجتماعية والطبقية الشعبية فى صميم الواقع الاجتماعى ، ويعزلهم عنها كلية ، باعتبار إنها هى الأرضية الاجتماعية والتاريخية التى لا يستمدون منها كل مقومات نضالهم وقوتهم فحسب بل ووجودهم نفســـه ، كمثقفين وطنيين وثوريين · وهو ثانيا : يجعلهم – بدلا من ذلك – يناضلون كأفراد أو كأقلية سياسية داخل الطبقات المسيطرة التى يسهل عليها محاصرتهم وابتلاع فاعليتهم الحقيقية جماعات وأفرادا خلال وقت قصير ، حيث يصيرون فى أحسن الأحوال مجرد طرف سياسى لبرالى متشدد ومحدود على هامش الحياة السياسية والاجتماعيـــة القائمة ، تستفيد منه أكثر مما تخشاه ، لأنها (أى الطبقات البرجوازيـة والاقطاعية المسيطرة) تجد فى وجوده ورقة رابحة فى المناورات السياسية ، ومسحوق رائج لتجميل وجهها القبيح من وقت لآخر ، وذلك على نحو ما يفعل « سايس الأسود » حينما يستعرض مهارته وشطارته فى القدرة على كسب مودتها وصداقتها له وهو يضع يده أو رأسه بين فكيها دون أن تتوقع به أى اذى أمام جميع المشاهدين الذين لا يعلمون أنه قد قام باقتلاع أظافرها وخلع أسنانها قبل ذلك ، وقام بترويضها على القيام ببعض الحركات البهلوانية بوعى منها أو بدونه ·

(ج) الفهم الدقيق للتناقضات الأولية والثانوية

وهناك نمط ثالث من الخيارات الخاطئة التى يقع فيها المثقفون الوطنيون في نضالهم الوطني والذى لم يكن هو الخيار الأخير من هذا النوع الذى يضاف الى ما قبله ، بقدر ما أنه آخر نموذج نستدل به على نوع الخيارات الخاطئة فى نضال المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة بالذات ، وهو نموذج أكثر سوءا وأسواء حظا من مجرد الاستقطاب الكمى للمثقفين الوطنيين من خارج الطبقات العاملة والمنتجة ، أو مجرد النضال السياسى والدبلوماسى البحت للمثقفين الوطنيين وحدهم داخل الطبقات البرجوازية والاقطاعية المسيطرة بمعزل عن الواقع الاجتماعى والتاريخى على نحو ما سبق الحديث عنه ، لأن هذا النموذج يقتصر غالبا على بعض الفصائل السياسية للمثقفين الوطنيين وشبه الوطنيين ممن لا يزال تكوينهم الفكرى والثقافى يطفح بالروح البرجوازية الصغيرة ومجرد الحماس القومى الفج ٠

حيث أنه بالرغم مما يتحلا به مثل هؤلاء المثقفين من تمثل أفضل للواقع الاجتماعى والتعامل معه عن قرب ، الا أنهم أسواء حظا من غيرهم فى القدرة على فهمه على أسس جدلية وتاريخية صحيحة ، حيث لا يختارون أهدافهم وأسلوب نضالهم نتيجة لذلك على أسس مثالية فحسب بل أنهم يسيئون فهم التناقضات الطبقية والاجتماعية القائمة اسآت قاتلة ، ويخلطون بينها خلطا مميتا الى حد العجز الصارخ عن تصور الشكل الهرمى للمجتمع المتخلف وعلاقاته الطبقية والتمييز بين ما هو أولى وثانوى فيها وما هو استراتيجى وتكتيكى فى صراعاتها وتناقضاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية أيضا ٠

الأمر الذى يجعلهم فى كثير من الأحيان يظنون بل ويعتقدون بحزم بأن الطريق الى تحقيق الحل الاجتماعى الناجز — والمصاب لديهم هو أيضا بكثير من التشوهات البرجوازية — لا يأتى بالضرورة من خلال تقوية التحالف الاجتماعى والسياسى بين الطبقات والفئات ذات المصلحة الحقيقية فى أنجاز مثل هذا الحل مجتمعة ، بل يكفى وجود اختلاف جزئى أو ثانوى داخل هذا التحالف فى الاجتهادات أو وجهات النظر التفصيلية ليجيزوا لأنفسهم لا مجرد العمل بمفردهم والحكم الأحمق المشبع بالجهالة على مثل هذا الاختلاف الاجرائى بأنه تناقض تاريخى لا رجعة فيه ويتوجب عليهم تصفية الحساب معه أولا فحسب ، بل أن هذا الفهم يدفعهم الى المراهنة الساذجة على اقامة تحالفات مع قوى متخلفة وشبه متخلفة من أجل الوصول الى ما يريدون بمفردهم ، فيما يشبه عملية اللعب بالورق أو تحريك قطع الشطرنج ، بين

طرفين غير متكافئين تماما ، يشكلون هم دائما الطرف الأضعف الذى يخسر النتيجة دائما وحتما ، والواقع العربى يستطيع أن يقدم لنا الكثير من الوقائع والأمثلة الخاصة بهذا الطراز من الاختيار الخاطىء لنضـــال بعض المثقفين الوطنيين وشبه الوطنيين(٨) .

وفى ضوء كل ما سبق نستطيع أن نستخلص أو نؤكد على ثلاث نقاط رئيسية وهى :

١ — أن الاختيار الثورى والجذرى الناجز لحل المشكلة الاجتماعيـة والاقتصادية برمتها فى مجتمع متخلف كان وما يزال وسيظل حتما هـــو القضية التى لا خيار فيها ولا تقبل التجزئة أو المساومة أطـــلاقا بالنسبة للطبقات الشعبية العاملة والمنتجة فى مواجهة الطبقات المسيطرة والمستغلة وكل أشكال القهر والتخـــلف السائد ، وان المثقفين الوطنيين والثوريين باعتبارهم طليعة قيادية فى نضال هذه الطبقات والمعبرين عن لسان حالها لا بد وأن يدركوا أبعاد هذه القضية التاريخية أساسا ولا يخرجوا عنها ، لأنهم هم أيضا لا يملكون الخيار فى ذلك ما داموا صـــادقين وجاديين فى الانتماء لهذه الطبقات ومشاركتها فى الدفاع عن مصالحها ، وانه بمقدار ما يتعمق وعيهم فى ادراك هذه القضية وغيرها من القضايا الجوهرية فى النضال الوطنى ويلتزمون بها بمقدار ما يقوون على المحافظة على وجودهم نفسه كمثقفين ثوريين منتمين لطبقات ثورية وتقدمية بطبيعتها ، وبقدر ما يقوون أيضا على تخليص أنفسهم من كل المفاهيم والرواسب المثالية والبرجوازية والاقطاعية القديمة التى ما تزال تسحب نفسها على الـكثير من تصرفاتهم ومواقفهم بالطرق المباشرة وغير المباشرة ، وبوعى منهم أو بدونه على نحو ما سبقت الاشارة اليه • فاذا جاز اعتبار الحل الثورى الناجز مسئلة خيار ممكنة بالنسبة للمثقفين كشريحة طبقية هامشية ، الا أن مسألة القبول به من عدمه هو أمر مشروط جوهريا بمسألة وجودهم نفسه كمثقفين ثوريين أو العكس تماما ولا توسط فى ذلك ، أما بالنسبة للطبقات الشعبية العاملة والمنتجـة فان هذه القضية هى جزء لا يتجزأ من وجودها وتاريخها الذى لا خيار فيه على الاطلاق •

٢ — أما النقطة الثانية وهى مرتبطة بما قبلها ولا تقل أهمية عنها فانها

---

(٨) والحركة الناصرية فى السنوات الأخيرة فى اليمن وخارج اليمن تقدم بكل مفاهيمها وطموحاتها وتصرفاتها أبرز دليل على ذلك •

تتعلق بالكيفيات الموصلة الى انجاز الحل الثورى للمشكلة الاجتماعية وتحقيقه، ذلك أن اختيار الحل الثورى الناجز والالتزام به هو بالنسبة للمثقفين الثوريين قضية نظرية وأيديولوجية ومسألة ادراك وفهم علمى لقوانين الطبيعة والمجتمع في المقام الأول ، أما مسألة تطبيقها والتوصل الى استنفاذ أقصى حدود فاعليتها الايجابية في تحويل الواقع وتطويره تطويرا ثوريا فأنها تصبح مسألة نضال كيفية بحته تخضع لمختلف الظروف والأوضاع وتتشكل بتشكلها من مجتمع لآخر ومن مرحلة تاريخية لأخرى •

وبناء على ذلك فان كل الامكانيات والوسائل بل والخصوصيات المتاحة في الواقع والتى من شأنها أن تخدم الحل الاجتماعى الناجز وتقرب منه بصورة أو بأخرى لا يصبح من صميم الشرعية الثورية استخدامها والأخذ بها فحسب بل أنها ومهما كانت محدودة أو قليلة العائد السريع تشكل المدخل التاريخى الوحيد والحاسم لتحريك الواقع المتخلف ضد نفسه ، وفى ذلك يكمن جوهر التحول الاجتماعى وعوامل الانتصار التاريخى الحاسم بغير بديل •

٣ - وهنا وفى هذه النقطة بالذات تكمن أهمية الادراك الدقيق للخيط الرفيع والشفاف الذى يفصل دائما في مثل هذه الأمور بين القضايا النظرية العامة والخصوصيات الذاتية من جهة والقضايا المرحلية التكتيكية من جهة ثانية والقضايا الاستراتيجية من جهة ثالثة ، والذى ما يزال هذا الخيط الرفع الشفاف بالنسبة لطلائع النظام الوطنى والثورى من منقفى البلدان النامية والمتخلفة بالذات اما متضخما بحجم الحائط السميك المعتم الذى يحجب الرؤية الحسنة تماما ، أو أنه غير موجود البته ، وحتى لو وجد كمفهوم نظرى الا أنه يكون من الصعوبة بمكان أن يتمكن المثقفون الوطنيون فى بلد متخلف حتى الآن من تحديد موقعه الصحيح بالضبط وكيفية استخدامه من وقت لآخر ومن مرحلة لأخرى • وتلك هى أولى المهام الاستراتيجية العاجلة فى الوقت الحاضر والتى تقتضى منهم ادراك أن كل أدوات وكيفيات النضال ضد كل أشكال القهر والتخلف فى أوطانهم وصولا الى تحقيق الحل الثورى والتاريخى الناجز ، هى خصوصيات وسمات محلية ووطنية فى ٨٠٪ من مجموعها ويجب استقراؤها من الواقع الاجتماعى وطبيعة تكوينه من خلال التعامل معه والعيش فى صميمه والوعى الناضج به ، كما أن القدرة على ترتيب أولويات أدوات النضال وكيفياته التى يفرزها الواقع وحسن استخدامها والتميز بين ما هو أولى وثانوى منها واستراتيجى وتكتيكى فيها ، فى ضوء رؤية جدلية وتاريخية ناضجة وبعيدة المدى ،

لهو أصعب ما فى الأمر كله ، ومع ذلك فانه لا مفر منه ولا بديل غيره ٠

ثالثا : الاعتماد على الواقع وخصوصياته الذاتية

ربما يقودنا آخر تعبير فى الفقرة السابقة والخاص بأن ٨٠٪ من أدوات وكيفيات النضال هى ذات سمات وخصوصيات محلية ووطنية ويجب استقراؤها من الواقع الاجتماعى وطبيعة تكوينه ، وبما يقود هذا التعبير الى الحديث عن قضية بكاملها ، وهى ليست القدرة على ترتيب الأولويات المحلية فى النضال وحسن استخدامها تكتيكا واستراتيجية فحسب بل والقدرة على التعرف بدقة على هذه الأولويات نفسها فى صميم الواقع الذاتى والموضوعى، واستخراج الحسابات الدقيقة لفاعلية العوامل والخصوصيات الذاتية والوطنية البحته فى النضال من جهة ، وبقية العوامل الخارجية والدولية بل والاممية بصفة عامة من جهة أخرى ٠ فهذه الحسبة أو المعادلة التاريخية الهامة قد كانت وما تزال حتى الآن تعيسة الحظ فى فهم وتصور طلائع المثقفين الوطنيين فى البلدان المتخلفة ، والتى بالرغم من تذكرهم لها جيدا فى الأدبيات النظرية البحته الا أنه لا يوجد لها موضع قدم حقيقى تقريبا من الناحية العملية والموضوعية الا فيما ندر حتى الآن ، والنادر لا حكم له كما يقال ٠

نحن هنا لا نريد أن نقلل أو نتجاهل الحقائق التاريخية والاقتصادية والتكنولوجية الراهنة والتى تسير بخطى سريعة نحو تكامل المجتمعات الحديثة واخضاعها لتنظيم وتكامل دولى وأممى لا مفر منه كظاهرة تاريخية ومادية ، الا أن الأمر يجب أن لا يكون مجرد قضية تبسيطية هكذا الى حد السذاجة ، وليس مجرد امتداد سياسى واقتصادى ورغبة البعض فى التسلط على البعض الآخر ، على غرار ما كان يحدث فى الامبراطوريات القديمة ٠ كما يجب ألا نغفل الحقيقة السياسية التى تدور من خلالها الصراعات المحلية والدولية بين القوى الامبريالية والاستعمارية الجديدة فى المجتمع الرأسمالى وحلفائها من الكمبرادوريين والاقطاعيين وكل القوى الرجعية المتخلفة فى الشعوب النامية من جهة ، والقوى الوطنية والتقدمية فى هذه الشعوب وحلفائها التاريخيين فى المنظومة الاشتراكية من الجهة الأخرى ، وأنه اذا كان من المستحيل العثور على صيغة للتوفيق أو التعايش بين المصالح الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية لكلا الطرفين فان نفس المصالح لكل طرف على حدة هى غير قابلة للتجزئة أو الانفصال تحت مختلف الظروف ، فتلك بديهيات اجتماعية وتاريخية عامة مفروغ منها وهى تؤكد نفسها بمرور الوقت أكثر فأكثر ٠

وما نحرص على تأكيده هنا هو أن هــذه العموميات النظرية لم تكن لتكتسب أهميتها وصدقها العلمي والموضوعي الا من خـلال تراكم جزئياتها العملية ، وأن هــذه الجزئيات التي تتعــدد وتختلف أشكالها ومميزاتها وخصوصياتها من مجتمع لآخر ومن مرحلة تاريخية لأخرى ، لهي المقياس الحقيقي لصدق الرؤية النظرية الشاملة ومصدر قوتها الأول وتجدد حيويتها بلا انقطــاع • فالممارســات العمــلية المؤدية الى ادراك العوامل الذاتية والخصوصيات الاجتماعية والتاريخية لأي مجتمع ، لم تكن هي المنظار الذي يجب أن نقرأ من خلاله.وفي ضوئه كل المفاهيم النظرية العامة فحسب بل ان فيهــا تكمن العوامل الجوهرية والاستراتيجية في التغيـير ، وعلى أساسها يتوقف الانتصــار الحاسم لارادة التحول التــاريخي والثوري قبل أي شيء آخر ، ومن خلالها أيضا تستمد المفاهيم النظرية مضامين وأبعاد جديدة أكثر شمولا ونقاوة وحيوية بلا انقطاع ، اننــا نقرأ النظرية ونصيغها في ضوء الوقائع والخصوصيات الجزئية المتراكمة ومن خلالها وليس العكس ، وأن من يطمح في حل ثوري ناجـز دون الانطلاق من المميزات والخصــوصيات والعوامل الذاتية والاعتماد عليها بالدرجة الأولى هو أشبه بمن يحلم بقطف ثمار طيبة من شجرة ميتة لا جذور لها في الأرض ، وأنه اذا كان صدق المقولة التاريخية القائلة بأنه لا حــركة ثورية بدون نظرية ثورية ما يزال حتميا فاننا نستطيع أن نضيف أيضا بأنه لا انتصــار ثوري بدون منطلقات ذاتية وموضوعية •

ولهذا كان من فادح الخطأ ـ كما يقول لينين ـ الاقتصار على استيعاب ما هو وارد في الكتب ••• فبدون عمل ، بدون نضال ليست ثمة أية قيمة للمعرفة التي تستقي عن الشـــيوعية والاشتراكية في الكتب والمؤلفات ، اذ أنها ليست ســـوى استمرار للقطيعة السابقة بين النظـرية والتطبيق العملي ، هــذه القطيعة التي هي أكره سمة من سمات المجتمع البرجوازي القديم(٩) • واذا كانت مثل هــذه القضية هي من الأمور التي قد لا نجد من يختلف عليها معنــا في أوســاط المثقفين الوطنيين من الناحية النظرية على الأقل ، الا أننا لا نذيع سرا ولا نتعدى محذورا اذا قلنا بأن هؤلاء المثقفين الوطنيين أيضا في البلدان النــامية والمتخلفة ـ وهم قليلون ـ لا يتجاوز قبولهم وتأكيدهم على أهمية الممارسة العملية والعوامل والخصوصيات الذاتية في نضال مجتمعاتهم حدود الاقرار والفهم النظري وحده ، ولا يتعدى مكان

---

(٩) لينين : في الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١١٨ •

هذه القضية فى حياتهم فى معظم الأحيـان حدود المقولات والصيغ الأدبية أو المفاهيم المدرسية الساذجة ، وذلـك على غرار ما لاحظناه بوضوح أكثر بالنسـبة للمثقفين اليمنيين في فصل سابق من هـذه الدراسة ، حيث لا يتجاوز فهم هـذه القضية التاريخية والجدلية فى أذهان الكثير منهم أو غيرهم في البلاد النامية بصفة عامة أكثر من القول أو العلم بأن الجزر البريطانية تقع فى القارة الأوربية ، أو أن الارض تدور حول نفسها مرة كل أربعة وعشرون ساعة أو أن النار تحرق الحطب، أو أن زيد ضرب عمرو ٠٠الخ٠

رغم أن هذه القضية الهامة هي زاد الحيـاة النضالية ومنحها وطعامها اليومي الذى لا يتجزأ ولا ينفصل عن حياة الناس وهمومهم اليومية أيضا ، وهي من باب أولى لا بد وأن تكون كذلك بالنسبة لكل مثقف وطني وثوري ، لأن المثقف الوطني الجيـد - كما يقول عبد الفتاح اسماعيل - هو المثقف الأممي الجيد(٩) ٠ وذلك بدلا من التعامل معهـا كما يتعامل تلاميذ المدارس الأولية مع واجباتهم اليومية المقررة على نحو ما أشرنا آنفا ، حيث ما تزال هذه الثغرة الخطرة تتجسد فى حياة هؤلاء المثقفين من خلال مظاهر عدة وتستمد وجودها ومقوماتها فى حياتهم من خلال عوامل وأسباب اجتماعية وتاريخية مختلفة ما تزال تفرض نفسها عليهم بالطرق المباشرة وغير المباشرة ، والتى سنتناولها فى فقرة لاحقة من هذا البحث ٠

رابعا - التأكيد على ثقـافة الوعي بدلا من وعى الثقافة

والقضية الرابعة والأخيرة التى نود مناقشتها هنـا كأداة من أدوات اكتساب المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة لمضامين وأبعاد أكثر علمية وموضوعية وثورية هى ضرورة اهتمامهم وتركيزهم على ما نطلق عليه هنا أو نعرفه - ربما لأول مرة - « بثقافة الوعي » بدلا من « وعى الثقافة » ، وحتى نتمكن من مناقشة هذين المصطلحين عن ثقافة الوعى ووعى الثقـافة وأهمية المصطلح الأول بالنسـبة للمثقفين الوطنيين وعمليـات التحـول الاجتماعي بصفة عامة ، بصورة أكثر وضوحا وموضوعية ، دعونا أولا نحدد ماهية واطار كل من هذين المصطلحين ومضمونه وعلاقة كل منهمـا بالآخـر وذلك على النحو الآتى :

(٩ مكرر) عبدالفتاح اسماعيل : كتابات مختـارة حول الثورة الوطنية الديمقراطية وآفاقها الاشتراكية ، دار الفارابى بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٧٥ ٠

أ - الفرق بين ثقافة الوعى ووعى الثقافة

نستطيع القول بأن وعى الثقافة يتمثل فيما يكتسبه الفرد المتعلم والمثقف بالذات من مدارك ومعارف ثقافية مختلفة عن الحياة العامة فى المجتمع سواء ما ينسجم منها مع حقيقة موقفه الاجتماعى والطبقى الخاص ويخدم هذا الموقف أم لا ، فالمام ومعرفة المثقف الوطنى والثورى بثقافة الطبقة الاقطاعية والعناصر الرجعية وغيرها من النماذج المختلفة لثقافة المجتمع القومى الى جانب ادراكه لثقافته الوطنية أساسا يمكن تصور هذه العملية باعتبار أنها تشكل بالضبط « وعى الثقافة » ، أى تمكن الفرد المتعلم أو المثقف من معرفة وادراك مجمل عناصر الثقافة السائدة فى المجتمع والوعى بها على اختلاف مضامينها وبحدود نسبية على الاقل ، الى جانب نموذجه الثقافى الخاص بحكم انتمائه الطبقى والأيديولوجى .

وهنا لابد وأن نلاحظ أن وعى الثقافة هو خاصية من خواص المثقفين على مختلف انتمآتهم السياسية والطبقية ولم يكن خاصية طبقية شاملة فى المجتمع ، وعلى العكس من ذلك فيما يتعلق بمفهوم « ثقافة الوعى » الذى يتمثل فى ادراك الطبقة الاجتماعية (أى طبقة فى المجتمع) ووعيها بثقافتها الخاصة المعبرة عن مصالحها وهمومها وطموحاتها وعلاقاتها الاجتماعية ، دون أن تتعداها كثيرا الى الالمام بثقافة الطبقات الأخرى الا فى حدود لا تذكر . ذلك أن وجود الطبقة ليس مشروطا حتى بوجود وعيها وثقافتها الخاصة ولا مقترنا به ، عوضا عن المامها بثقافة الطبقات الأخرى . فكثير من الطبقات قد توجد على نطاق واسع فى كل مجتمع ، ووجود أى مجتمع مشروط بوجودها أصلا ، الا أنها قد لا تتمتع الا بحدود دنيا من الوعى بوجودها ، أو وعيها الطبقى على الأصح ، عوضا عن عدم تبلور وازدهار ثقافة هذا الوعى نفسه داخل هذه الطبقة وتعرضه للانحطاط الشديد فى كثير من الأحيان ، خصوصا فيما يتعلق بالطبقات الشعبية المسحوقة من عمال وفلاحين ومستخدمين وغيرهم فى المجتمعات الاقطاعية المتخلفة ، حيث يحول وضع الطبقة الاقطاعية المسيطرة القائم على أسس ومفاهيم ميتافيزيقية متخلفة دون تبلور الوعى الطبقى والثقافة الطبقية بصفة عامة على أسس منطقية وعقلية صحيحة ، بل ان هذه الطبقة تعمل بوعى تام على الحيلولة دون حدوث مثل هذا التبلور لثقافة الوعى الطبقى السليم وفرض ثقافتها ووعيها المشوه دائما .

وحتى فى ظل المجتمعات البرجوازية وشبه البرجوازية حيث تقوم هذه الطبقات المسيطرة بوعى كامل لمصالحها وثقافتها على الحيلولة دون تبلور

الوعي الطبقي لدى الطبقات الدنيا والخوف منه ، ولا تسمح بازدهار ثقافتها الطبقية أيضا ، الا ما يتم رغم ارادتها . فوعي الثقافة مسألة نظرية وجزئية تخص المثقفين وحدهم أما ثقافة الوعي فهي مسألة اجتماعية وطبقية شاملة .

ب ـ ضمان التحول يكمن في ثقافة الوعي وليس في وعي الثقافة

ومن هنا تتأكد الأهمية المطلقة لبلورة وتنمية ثقافة الوعي الطبقي في أوساط الطبقات العمالية والفلاحية في البلدان النامية والمتخلفة وحلفائهم من برجوازية صغيرة وجنود ومستخدمين وصغار المواطنين والطلبة ... الخ. ذلك أن تبلور الوعي الطبقي أيضا لدى طبقات أوسع الجماهير في المجتمع لهو أعظم دلالات التحول وأفضل ضمانات الانتصار التاريخي الحاسم لقضيتها من جهة ، وهو أعظم ما يخيف ويزعج الطبقات والفئات المعادية أكثر من أي شيء آخر . ذلك أن تخلف الوعي الطبقي لدى البروليتاريا الزراعية ـ كما يقول مجموعة من الباحثين السوفييت المحدثين ـ يلقي مسئولية ضخمة على عاتق القوى التقدمية المناضلة في سبيل التحولات الديمقراطية في البلدان النامية ، وتطرح أمام الطليعة الثورية مهمة بالغة الصعوبة والأهمية ـ مهمة تسليح الفئات الريفية البروليتارية بالوعي الطبقي الثوري ـ ذلك لأن هذه الفئات تشكل أكبر قاعدة جماهيرية لاعادة بناء المجتمع اجتماعيا واقتصاديا على أسس غير رأسمالية(١٠) .

فالطبقات الرجعية والبرجوازية الكمبرادورية في البلدان النامية والمتخلفة لا يخيفها وجود جماعات من المثقفين الوطنيين والثوريين وحتى المتطرفين الذين يعون ويدركون ما تفعله هذه الطبقات من استغلال وتفريط بالسيادة الوطنية لصالح الاحتكارات الدولية والامبريالية واعلان معارضتها لذلك في نطاق التعبير السياسي وأدبيات الثقافة النظرية العامة والخاصة ، بقدر ما يخيفها ويقلقها جدا أن يتحول هذا الفعل الى ظاهرة اجتماعية ووعي وثقافة طبقية شاملة يتجاوز حدود الجماعات المثقفة المحدودة الى أوساط الطبقات الشعبية المستغلة (بفتح الغين) نفسها والقادرة وحدها على ايجاد التحول الجذري والثوري العميق اذا ما امتلكت وعيها المعبر عن واقعها الطبقي والاجتماعي بطريقة صحيحة .

فثقافة الوعي بهذا المعنى لا تشكل الضمان التاريخي الحاسم لتحقيق التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التقدمية الناجزة فحسب

---

(١٠) عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقي في البلدان النامية ، ص ٤٩٦ .

فى أى مجتمع ، ولكنها تشكل من باب أولى التجسيد المادى والعملى لتطابق المفاهيم النظرية مع الممارسات العملية وترابط حركة الفكر بحركة الواقع بالمعنى الجدلى الواسع لهذه القضية فيما يتعلق بمسألة الصراعات والتناقضات الطبقية فى المجتمع وتصعيد أدائها وفاعليتها أكثر فأكثر كمدخل استراتيجى لتصعيد حركة التغيير والتطور الشامل ٠

أما وعى الثقافة بالمعنى الذى سبقت الاشارة اليه قبل قليل باعتباره خاصية فردية أو فئوية مكتسبة فى الغالب ولم يكن خاصية طبقية شاملة وأصيلة ، فهو وان كان من مهمته حقا أن يلعب دور المهىء والمنشط والمثير الحقيقى لثقافة الوعى الطبقى وتبلوره الا أنه لا يقوى مطلقا بمفرده على القيام بمهمته كاملة أو تقديم نفسه كبديل عنه ٠ وهنا تكمن أهمية ادراك المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة بالذات لهذه المعادلة العلمية الصعبة ومعرفة دورهم فيها ، باعتبار أن وجودهم يشكل تجسيدا لوعى الثقافة وليس لثقافة الوعى ، من جهة وأن نضالهم الثورى لا يتجسد من خلال وعيهم الثقافى بقدر ما يتجسد من خلال بلورتهم واثارتهم لثقافة الوعى الطبقى بين أوسع الجماهير الشعبية وتسليحها به وقيادتها من خلاله من جهة أخرى ٠

أسباب عجز المثقفين الوطنيين عن القيام بمهامهم السابقة حتى الآن

كانت تلك هى مجموعة الأسس والمبادىء العامة المتعلقة بأهمية الوعى بالذات ، والاختيار الثورى الناجز ، والاعتماد على الواقع وخصوصياته وامكانياته الذاتية ثم الاعتماد على ثقافة الوعى بدلا من وعى الثقافة لهى الأبعاد الاجتماعية والسياسية التى تحدد بدقة المهام التاريخية لفئة المثقفين الوطنيين والتقدميين فى المجتمعات النامية والمتخلفة،وكيف أن عدم قدرة هؤلاء المثقفين على القيام بهذه المهام حتى الآن ، ما يزال يشكل نقطة ضعف خطيرة ومميتة فى بعض الأحيان ، لا بالنسبة لهؤلاء المثقفين فحسب ، بل وبالنسبة لمسألة النضال الطبقى والتحرر الاجتماعى والاقتصادى بالنسبة لجماهير الشعب فى هذه المجتمعات بصفة عامة ، والذى ما يزال متعثرا وعاجزا عن الوقوف على قدميه لنفس السبب ولنفس العلة ، (عجز المثقفين عن ادراك مهامهم التاريخية وأدائها بطريقة صحيحة) ٠

وهنا سيتوجب علينا البحث عن الأسباب الكامنة وراء هذه القضية والكشف عنها حتى يمكننا تحديد امكانية التغلب عليها وتجاوزها كضرورة تاريخية ومسألة مصيرية لا محيد عنها ، حيث تتمثل أهم هذه الأسباب فى مجموعة من العوامل التى يأتى فى مقدمتها :

١ – قلة الخبرة النضالية والمراس العملى

اذا ما تذكرنا ما سبقت الاشارة اليه فى مكان سابق من هذه الدراسة حول النشأة المتأخرة جدا لفئة المثقفين الوطنيين والثوريين فى البلدان النامية والتى ما تـزال كذلك فى طور التكوين لأدركنا جيـدا أن خبرة النضـال والممارسة الثورية التقـدمية الحقة ذات البعد الجدلى والتاريخى الناضج ما تزال متواضعة حقـا بالقياس الى موروثهم الـكبير من الأفكار والممارسات اللبرالية والبرجوازية الصغيرة والمثالية والقومية ، والتى ما تزال تسحب نفسها عليهم بطريقة غير مباشرة ، بالرغم من صدق توجههم الجديد ورغبتهم فى التخلص من كل الأفكار المعلقة القديمة .

فهذا الموروث المتراكم من الأفكار السياسية والاقتصادية المغتربة عن الواقع لا يلغيها مجرد الاعلان عن صدق التوجه والفهم الجديـد والرغبة فى التخلص من القديم ، لأن المثقفين الوطنيين والثوريين سوف لن يتمكنوا من تخليص أنفسهم منها نهائيا الا عن طريق تصعيد النضال اليومى وتكثيف الممارسة العملية فى صميم الواقع وتنمية الخبرات النضـالية والتقـدمية البديلة من خلال كل ذلك .

فتكثيف النضـال الوطنى فى صميم الواقع وتراكمه من خلاله على أسس علمية وبصبر وتواضع وبلا غرور سوف لن يكون هو الحل الحاسم لتجاوز كل ما نرغب فى تجاوزه من أفكار ومواقف تقليدية وتنمية مواقف وخبرات ثورية جديدة أكثر تقدما فحسب ، بل ان ذلك هو المدخل الأساسى لاكتشاف العوامل الذاتيـة والموضـوعية فى الواقع وامكانياتهـا الرهيبة والحاسمة المتـاحة ، ويقضى الى الأبد على حالة الاغتراب والانفصـام الدائم والخطير بين المفاهيم النظرية العامة والواقع العملىوخصوصياته ، الذى يعانى منه المثقفون الوطنيون والثوريون فى البلدان النامية والمتخلفـة وتفصل بينهم وبينه سحب كثيفة من الجهل المخيف للواقع والمقـرون بالغـرور والأنانية ازاءه أحيانا ، والافتقار الى صدق التضحية الوطنية والثورية الحقة من أجله أحيانا كثيرة ، مكتفين بدلا من ذلك باجادة الصيغ والأدبيات النظرية العـامة والدوران فى محيطها ، الأمر الذى ينتهى بهم فى كثير من الأحيـان الى تصـور المشـاكل والحلول وكما لو كانت أمور نظرية بحتة وسياسية ودبلوماسية فى أحسن الأحوال ، ولم تكن قضـايا تاريخية واجتمـاعية فى الأساس .

فلو كانت دراسة الاشتراكية والشيوعية ـ كما يقول لينين ـ تنحصر

فى استيعاب ما هو وارد فى الكتب والكراريس والمؤلفات الشيوعية لأنتجنا بفسائق السهولة شراحا سطحيين شيوعيين أو مدعين مغرورين شيوعيين ، الأمر الذى يسىء الينا فى غالب الأحيان ويلحق بنا الأذى ، لأن هؤلاء القوم الذين تعلموا وقرأوا ما فى الكتب والكراريس الشيوعية يظهرون عاجزين عن تنبيق جميع هــذه المعارف ولا يستطيعون التصرف والعمل كما تقتضيه الشيوعية فعلا(١١) .

وهذه الثغرة الخطرة هي التى — فى تقديرنا — جعلت من جهود كثير من المثقفين التقدميين البارزين بل وبعض الأحزاب والمنظمات التقدمية أيضا فى البلدان النامية تتحول الى مجرد قوالب وأدبيات نظرية جامدة ، لم تؤثر فى واقعها الاجتماعى والقومى أو تغير منه شيئا ، رغم تقادمها الطويل بالنسبة لكثير من الحركات القومية والليبرالية التى ظلت تحـرك الواقع ، بمفاهيمها وأبعادها الخاصة وتنتقل به من مرحلة لأخرى ، كما تنتقـل بنفسها أيضـا الى مواقع أكثر نضجا وتقدما فى كثير من الحالات ، بينما ظلت جهود المثقفين اليســاريين الأوائل وتنظيماتهم وأحزابهم وما زالت فى البلدان الناميــة والمتخلفة مجرد دوائر سياسية ضيقة وحلقـــات مغلقة للقـراءة والتـداول النظرى ، وتبـــدو كما لو كانت غير ذات ارتبـاط حقيقى يذكر بواقعهـا الاجتماعى ، أو ذات مسئولية محددة من أى نوع .

والأمثلة التى تؤكد هذه الوقائع كثيرة وماثلة للعيان فى أكثر من مكان من العالم النامى والمتخلف ، فالحزب الشيوعى الهندى مثلا يعتبر من أقدم الأحزاب اليسارية والتقدمية ،ولكن الحركة الليبرالية القومية «للمهاتما غاندى» وجواهر لال نهرو لم تترك موضع قدم يذكر فى الواقــع الاجتماعى لتيـار اليسار التقدمى السابق ، أو أن هذا التيار — على الأصح — لم يستطع أن ينتزع لنفســه موضع قدم يذكر فى واقع الحيـــاة الاجتماعية والسياسية فى المجتمع الهندى حتى الآن للأسباب الآنفة الذكر ، رغم اخفاق الخط القومى اللبرالى السابق فى حل المسألة الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع الهندى ، بل وعجزه حتى عن المحافظة على السلطة السياسية التى ظل يمارسها بزهو واعتداد قومى ومثالى بعـــد رحيل الاستعمار لفترة غير قصيرة ليجد نفسه فى الأخير مجبرا بطريقة أو بأخرى على مغـادرة السلطة السياسية ليفسح المجـــال أمام الطبقات والفئات الرأسمالية والاقطـــاعية والأرستقراطيات

---

(١١) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١١٧ .

الاجتماعية والدينية التى تشكل الاطار السياسى المناسب للواقع الاقتصادى والاجتماعى والمتطابق معه فى الوقت الحاضر ٠

حيث صار « كلب ديسـاى » فوق سيارته هو التعبـير الصحيح عن الواقع بدلا من « معزة غاندى » تحت الشجرة(١٢). كل هذا يحدث وما يزال بينما لم يكن يتجـاوز دور اليسار التقدمي أو « الحزب الشيوعى الهنـدى على الأصح » أكثر من مجرد البحث عن الاعتراف به كطرف سياسى ومذهبى فى بعض الولايات الهنـــدية ، ضمن مئـــات الأطراف والمذاهب السياسية والاجتماعية والدينية التى تشتهر بها الهند منذ القدم وحتى الآن ٠

واذا راجعنا الصورة مرة أخـرى فى مصر فسنجدها تتكرر بشـكل أوضح منذ بداية الخمسينات وحتى اليـــوم ، حيث أنه بالرغم من عراقة التنظيمات اليسارية فى مصر وعمق ثقافة أفرادها الا أنها قد ظلت تسـير فى تناسب شبه عكسى مع مجريات الأحداث القومية والبرجوازية الصغيرة التى شهدتهـا مصر فى ظل قيـادة عبدالناصر وعكست نفسها على الوطن العربى وكثـير من المجتمعات الافريقية والآسيوية الأخـرى ، حيث تحول الشيوعيون فى مصر من منظمات سياسية الى مجرد أفراد مثقفين جيدا على المستوى النظرى ٠

وفى اليمن وجد نموذج من نماذج الامتداد القومى لمصر والوطن العربى ككل ، ووجدت عناصر يسارية وشيوعية منظمة ومحدودة فى نطـاق بعض المثقفين منـــذ وقت مبكر فى بداية الأربعينات ، وهو زمن سـباق بالنسبة للمنظمات القومية والليبرالية اللاحقة كحركة القوميين العـرب وحزب البعث العـــربى الاشتراكى وتنظيم الضباط الأحـرار الذى فجر أحـــداث ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ ، والحركة الناصرية التى تبلورت أكثر بعـــد وفاة عبدالناصر ، وغير ذلك من المنظمات السرية ، حيث نجد أن كل هذه المنظمات القـــومية والليبرالية والبرجوازية الصـغيرة كانت تقف وراء كل الأحداث والتطورات الهامة التى شهدتها اليمن شمالا وجنوبا منذ أواخر الخمسينات

---

(١٢) ديساى هو رئيس حزب « جاناتا » الائتلاف اليمينى المتطرف للاقطاع والبرجوازية الهندية ، والذى استولى على السلطة فى الخمس سنوات الأخيرة بعد اقصاء انديرا غاندى رئيسة حزب المؤتمر الليبرالى القومى الذى استعاد السلطة مرة أخرى فى الانتخابات الاخيرة فى يناير ١٩٨٠ وسط صراع سياسى دموى حاد ٠

وحتى اليوم وتجر معها أوسع القطاعات الشعبية والنقـابية والجماهيرية ، كما أنها قد تعرضت لتغيرات وتحولات جوهرية ايجابية فى تكوينها السياسى والأيدولوجى الى حد كبير ، انتقل بالكثير منها من الموقف البرجوازى الصغير الى الموقف الوطنى والتقدمى الصريح ، فى الوقت الـــذى لم يطرأ أى تغيير يذكر على العنـاصر التقدمية والشيوعية التقليدية لا كمـا ولا كيفا ، ولم تستطع أن تشارك فى أى حدث من الأحداث التى شهدتها الساحة اليمنية حتى الآن بصورة مباشرة الا فى حدود ضيقة جدا وغير مباشرة(١٣) ٠ ومع ذلك فان مجموع هذه العناصر فى اليمن وغير اليمن لا يمكن أن ينتزع منها حقها فى السبق التاريخى الأول فى تبنى الأفكار العلمية والتبشير بها ٠

ومن هنا تتأكد حقيقة النشأة المتأخرة للمثقفين التقدميين فى اليمن والبـلاد النامية بصفة عـامة كطليعة جمـاهيرية مناضلة ، وكافراز وتطور جـديد لمنظمـات وحـركات لبرالية وقومية قديمة ، بغض النظـر عن كل النـــواقص التى ما تـــزال تـــلازم العنـــاصر التقـــدمية من المثقفـــين الوطنيين فى الوطن العربى والبلدان النامية بصفة عامة وما يزالون يعانون من قلة الخبرة وعمق التجربة فى النضـــال الوطنى والممارسة العملية على أسس علمية وتاريخية صحيحة ، سواء منهم من تبنى التوجه اليسارى منذ البـــداية أو من تطور نحو هـــذا التوجه عبر الاتجاهات القومية واللبرالية والبرجوازية الصغيرة ٠

٢ ـ نوع الثقـافة والتعليم التقليدى

لم تكن مسألة الحداثة فى التوجه الثـــورى للمثقفين الوطنيين ـ على قلتهم حتى الآن ـ فى البلدان النامية والمتخلفة وتواضع خبراتهم ومراسهم النضالى فى هذا الصدد على أساس هـــذا التوجه هو السبب الوحيد الذى يجعل منهم عرضة لأخطاء كثيرة ، والتى منها الانفصال عن الواقع الاجتماعى والجهل الملحوظ بخصوصياته وشئونه الجزئية والكلية الى حد كبير ، الأمر الذى ما يزال ينتهى بهم من الناحية العملية على الأقل الى سوء تقدير مخيف لحجم وامكانيات هـــذا العامل وأولوياته الاستراتيجية الحاسمة فى عملية النضال الوطنى ٠

فنوع الثقافية الاقطـاعية القديمة والبرجوازية الجديدة التى تجرعتها

---

(١٣) راجع الفصل السابع من هذه الدراسة بصفة عامة ٠

هذه المجتمعات منذ زمن طويل وعبر أجيال متلاحقة والمثقفون منهم بالذات من خلال البرامج التعليمية التقليدية ووسائل الدعاية والاعلام المختلفة ، قد أسهمت الى حد كبير وما تزال فى تكريس هذا الفهم الاغترابى والقطيعة بين المفاهيم النظرية والواقع العملى ، ليس بالنسبة لهذه الفئة الجديدة من المثقفين الوطنيين فحسب بل بالنسبة للمجتمع بأسره كجزء من عملية تكريس الفوارق بين الطبقات من جهة والتمكن من صياغة كل الأفكار والمفاهيم الاقطاعية والبرجوازية الخاطئة والمضللة التى تنسجم دائما ومصالح هذه الطبقات والدفاع عنها بمعزل تام عن كل حقائق الواقع والتاريخ وقوانينه ، والتى تقف دائما على النقيض من ذلك تماما ٠

فأساس المبدأ الجوهرى والفكرة المبدئية التى تقوم عليها برامج التعليم والثقافة الاقطاعية والبرجوازية والارستقراطية فى أى مجتمع متخلف هو النظر الى برامج التعليم باعتبارها عملية كسب لامتيازات جديدة وعملية ارتقاء اجتماعى وطبقى من أسفل الى أعلى ، وتحرر من الفعل والممارسة العملية للأعمال والمهن اليدوية والحرفية ٠٠٠ الخ ٠

كما أن التعليم والثقافة الاقطاعية والأرستقراطية فى البلدان النامية والمتخلفة كانت منذ زمن طويل وما تزال تعشعش فيها حتى اليوم هذه المفاهيم التى لا تشكل فى جوهرها عملية اغتراب وارتحال محقق من عالم العقل والواقع الى عالم الوهم والخرافة فحسب بل انها بطبيعتها تميل الى احتقار الفعل والواقع نفسه ، وتعادى منطقه العلمى بلا حدود ٠ فقد وجدت فى كل المجتمعات الطبقية التى ظهرت فى التاريخ - كما يقول على باذيب - منذ العبودية وحتى الرأسمالية مرورا بالاقطاع ، ثقافتان لا ثقافة واحدة : ثقافة الطبقات المسيطرة وثقافة الطبقات المضطهدة (بفتح الهاء) ثقافة الطبقات المسيطرة لمصلحة النظام السائد : التعليم لمصلحة الطبقة الحاكمة ، والأفكار تمجد النظام القائم ، والفنون والأدب سخرة لخدمة القيم التى يزرعها النظام الحاكم وتنتشر الفلسفات والأفكار الرجعية المعادية للتطور والتقدم ، وفى المقابل فى ظل الصراع الطبقى تتكون ثقافة الطبقات المضطهدة بأفكارها الثورية وآدابها وفنونها الشعبية ، والقيم الثورية والانسانية الجديدة(١٤) ٠

---

(١٤) على باذيب : فى كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ، دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٨ ، ص ١٠٦ ٠

وبهذه الطريقة بالذات ومن خلال هذه القنوات الثقافية والأيديولوجية تتمكن الطبقات الاقطاعية والأرستقراطية والبرجوازية من افســاد واضعاف الوعى الطبقى والتاريخى فى المجتمع بين المتعلمين وأشباه المتعلمين أو أنصاف المتعلمين بطريقة أسوأ مما هى عليه بين أوسع الجماهير من العمال والفلاحين ممن تسيطر عليهم الأمية الأبجدية ولا يجيدون القراءة والكتابة ، لأن العامل أو الفلاح أو الحرفى الأمى ، هو الأكثر ارتبــاطا بواقعه الاقتصادى والطبقى ولا يلتزم الا بحدود دنيا وهامشية جدا ببعض الأفكار الاقطاعية والميتافيزيقية الشائعة ، وبطريقة ملؤها السذاجة والسطحية ، والذى بالرغم من تخلف وعيه الطبقى وقدرته على تحديد مصالحه الطبقية بدقة ، الا أنه رغم كل ذلك يظل أحسن حالا من المتعلمين وأنصاف المتعلمين فى ظل النظم الأرستقراطية والاقطاعية ، لأن ذلك العامل أو الفلاح لا يحتاج الا مرة واحدة لمحو أميته الأبجدية والاجتماعية وذلك بتعليمهم القراءة والكتابة وبلورة وعيهم الطبقى والنتيجة مضمونة ، بينما يحتاج مثل أولئك المتعلمين وأشباه المتعلمين الى محو أميتهم مرتين ، لأنهم يحتاجون أولا : الا التخلص مما لصق فى أذهانهم من أفكار ومفــاهيم خاطئة ومشوهة يلتزمون بهــا الى درجة التقديس ، ويتعصبون لها الى حد الموت ، ويمارسونها بصــورة مباشرة وغير مباشرة وشعورية ولا شعورية حتى حينما يعتقدون بأنهم قد تخلصوا منها شكليا ، وهم يحتاجون ثانيا : الى اســتعادة وعيهم بواقعهم الطبقى المفقود والنتيجــة غير مضمونة ٠

ومن خلال هذا المحو المزدوج للأمية بين صفوف المتعلمين والكتبة تنبثق فئة المثقفين الوطنيين والثوريين فى مجتمع اقطاعى وشبه برجوازى متخلف ، وهم الاستثناء الصعب الذى لا تحصى متاعبه ومعاناته فى الوقت الحــاضر داخل البلدان النــامية والمتخلفة ، بالرغم من أنهم باعتبارهم طليعة ثورية لطبقات ثورية أيضا يشكلون المدخل الوحيد الى تغيير كل الحاضر وصنع المستقبل ، ولهذا السبب تزداد متاعب المثقفين الوطنيين ومعاناتهم فى القدرة على فهم الواقع وخصوصياته المادية والتاريخية وسوء تقديرهم لدوره والرؤية الموضوعية اليه ، الأمر الذى يتحتم عليهم مواجهة هذه القضية الهامة بجدية وصبر وادراك دورهم فيها بوضوح وتواضع بلا غرور ٠

٣ ـ اختلال التوازن الحركى بين العوامل الذاتية والعوامل الخارجية

وهناك سببا آخر يأتى فى مقدمة الأسباب الرئيسية المؤدية الى سوء فهم المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة للواقع الذى يعيشون فيه والاخفاق فى تقدير امكانياته بدقة والاعتماد عليها كأساس جوهرى لعملية

التحول ، وبالتالى العجز عن الوفاء بمهامهم التاريخية والطبقية الصحيحة ، ويتمثل فى حالة التوازن المختل للمسار المتصاعد للثورة والفكر التقدمى فى العالم بصفة عامة ، والذى لا تساهم فيه مجموعة الشعوب النامية والمتخلفة الا بنصيب متواضع جدا ، لا يتناسب مطلقا وحجمها البشرى وامتدادها الجغرافى ونوع مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والقومية المتميزة •

حيث لم تدرس كل هذه القضايا والمشاكل وتبحث جيدا حتى الآن ، بما يتناسب وحجمها وطبيعتها وظروفها المتميزة وعلى أسس علمية لا من جانب الباحثين الوطنيين والمثقفين الثوريين من أبناء هذه المجتمعات ولا من غيرهم من المتخصصين فى المجتمعات الاشتراكية ذات النهج والتجارب الثورية الناجحة والمتقدمة والتى يأتى الاتحاد السوفيتى فى طليعتها ، والذين أغنو تجاربهم الثورية بكل ما تحتاج اليه من الأبحاث والدراسات والأبعاد النظرية والعملية المختلفة ، ونقلوها بكثافة وغزارة الى غيرهم من أبناء الشعوب الأوربية والرأسمالية وأبناء الشعوب النامية والمتخلفة على السواء ، والذين هم حقيقة فى أمس الحاجة اليها لكى يسترشدوا بها فى نضالهم ضد ألوان القهر الاجتماعى والطبقى من جهة وكل مظاهر التخلف الاجتماعى من جهة أخرى •

ان المد الغزير والنشط لمفاهيم الاشتراكية العلمية وتجاربها الثورية الناجحة فى مجموعة البلدان الاشتراكية المتقدمة وبعض الدول المحدودة فى آسيا وأمريكا اللاتينية كالفيتنام وكوبا قد أمد المفاهيم والأبعاد النظرية للاشتراكية العلمية وتطبيقاتها الناجحة والغنية بألوان التجارب والخصوصيات الذاتية المتمايزة من بلد لآخر ، وزادها غنا وعمقا وخصوبة على كل المستويات النظرية والعملية والشمول •

وأمام كل هذا كان على المثقفين الوطنيين فى كل بلدان آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية أن يجيدوا الامساك بدقة ومهارة بين خيارين اثنين لا ينفصل أحدهما عن الآخر أو يقوى على الاستمرار بدونه ، وهما خيار البحث فى عمق الواقع الاقتصادى والاجتماعى والحضارى الذى يعيشون فيه بصبر وتواضع للكشف عن خصوصياته وامكانياته الذاتية فى عملية النضال والتحول والانطلاق منها كبعد استراتيجى وذلك هو الخيار الأساسى الأول ، أما الخيار الثانى فهو يتمثل فى الاستيعاب الجيد لكل المفاهيم العامة والأساسية والشمولية للنظرية الاشتراكية العلمية وتجاربها التطبيقية

الناجحة والاسترشاد بها بذكاء وحسن تصرف كتقريب ثاني ، وبما يخدم في الأساس قضية الخيـــار الأول وييسر مهمته من أقرب الطـرق وبأقل التكاليف وفي أسرع وقت ممكن وبغير ضجيج ٠

لأن المثقفين الثـــوريين ـ كما يقـــول بوتومورو ـ يكتسبون مزيداً من القـــوة عن طريق تبني الماركسية كعقيدة ســـياسية وتكوين الأحزاب الشيوعية والمنظمات المشابهة التي تجعلهم على صلة وثيقة بالعمال الصناعيين وفقراء الفلاحين بصفة عامة(١٥) ٠

لقد كان ذلك وما يزال هو المفروض الا أننـــا اذا ما أردنا أن نراجع ما حدث وما يزال يحـدث بالفعل في موقف المثقفين الوطنيين في البـــلدان النامية والمتخلفة ازاء هذه القضية الهـــامة لوجدنا من الوقائع والممارسات ما لا يبعث على التفاؤل تجاه هذه القضية حتى الآن ، فاذا ما تذكرنا أن عهد المثقفين الوطنيين والثوريين بالفكر العلمي والنظرية العلمية والتزامهم الناجز والحاسم بها كطريق للنضال والتحول نحو الأفضل ما يزال جديدا وغضا ولم يتجاوز في كثير من الحالات حدود التوجه الجاد واعلان الرغبة الصادقة ، وذلك هو أحد الخيارين السابق ذكرهما ، الا أن اقتـدار هؤلاء المثقفين على استيعاب واقعهم الاجتماعي والتاريخي والقومي والثقـافي على أسس علمية والكشف عن خصوصياته وامكانياته الذاتية في عملية النضـــال والتحول ـ وهو الخيار الأساسي الأول المشار اليه سابقا ـ ما يزال أمرا بعيد المنال ومن اختصاص المستقبل القريب في أحسن الأحوال ، بالرغم من أن هـــذا الأمر هو مسألة مصيرية لا بديل عنها ولا خيار في سواها ٠

فلقد أكد لينين منذ البداية أن المسألة ليست هي « أن نخترع ثقافة بروليتارية جديدة » بل هي أن ننمي ونطور أبهى النماذج والتقاليد وحصيلة الثقـــافة الموجودة من وجهة النظر الماركسية عن العـــالم وأوضاع حيـــاة البروليتاريا ونضالها(١٦) ٠

ذلك أن المثقفين الوطنيين في البلدان النامية والمتخلفة وهم يناضلون ويتحركون بجـــدية من أجل اثبـات وتأكيد توجههم العلمي الجديد فانهم

---

(١٥) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ١١٣ ٠

(١٦) راجع علي باذيب : ثقافتنا الوطنية وآفاق تطورها : في كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ، مرجع سابق ، ص ١١٧ ٠

يحاولون اثبات وتأكيد كل ذلـــك من خلال اختيار بعـــد أحادى النزعة ، وهو التركيز على استيعاب المفاهيم النظرية العــلمية العامة والالمـام الجيد بتطبيقاتها العملية الناجحة هنا وهناك وحسب ، فيما يشبه عملية التعــلم وتوسيع المدارك الثقافية والشخصية البحتة أو الجماعية الصغيرة (تجمعات سياسية صغيرة متعددة)، واكتساب أدبيات ثقافية معينة فى الفكر لا تختلف كثـــيرا فى تأثيرها وفاعليتها فى المجتمع عن أى أدبيـــات لغوية أو فنيـــة أو أخلاقية أخرى ، فى المجتمع الا من حيث المجال فحسب ،

وهم — أى هـــؤلاء المثقفون الوطنيون فى هـــــذه المرحلة بالذات — لا يديرون ظهورهم تجاه الواقع والعدول عن تحمل أعباء ومشاق البحث فيه باعتباره البعد الحقيقى والحاسم لصدق توجههم الجديد فحسب بل غالبـــا ما يميلون الى ازدرائه بالفعل واصـــدار أحكام مسبقة وسطحية جدا ومثقلة بالجهالة والأنانية حينا ، وسوء الرؤية والمراهقة الذهنية أحيـــانا كثيرة ، كالقول مثلا بأن الواقع المتخلف بـكل أبعاده قضية سلبية ينبغى تجاوزها فورا بعمـــلية ثورية ناجزة ، وأن اللجوء الى مداراته حتى يتجـاوز نفسه بنفسه ، هو نوع من السلبية وتضييع الوقت فى ما لا طائل منه ، أو القول مثـلا بأن الحـــاضر والمـاضى برمته هو تركيب رجعى متخلف بالكامل وأن التعامل معه أو البحث عن عوامل ايجابية فيه هو نوع من التراجع والخضوع له ، ان لم يكن سلوك رجعى فى حد ذاته ··· الخ · متجاهلين أن المثقف الثورى — كما يقول لينين — يصبح مجرد دعى سخيف إذا لم يتمثل وجدانه جميع المعارف التى كدسها العـــلم البشر ··· والتى لا يمكن للمرء بدون معرفتها أن يكون انسانا مثقفا(١٧) ·

وحتى يقنع مثل هؤلاء المثقفين أنفسهم على الأقل بمثل تلك المقولات الشوهاء والأحكام المتعسفة ، فانهم يضيفون القول : بأنه ما دامت قد توفرت لدينا من المفاهيم والأبعاد النظرية والتجارب العملية الكثيرة لقوانين التحول الاجتماعى التى أثبتت نجاحها هنـــا وهناك ، فلماذا نضيع الوقت ونهدر الامكانيات فى تجريب المجرب من باب تحصيل حاصل ·

والحقيقة أن مثل هؤلاء المثقفين رغم صدق وطنيتهم لا يبحثون من خلال مثل هذه المبررات والتفسيرات اللاثورية واللاعلمية عن حقيقة معينة بقـــدر

---

(١٧) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١٢٣ ·

ما أنهم يبحثون من خلالهـا عن مبرر سخيف لعجزهم عن استيعاب واقعهم وظروفه الذاتية والموضوعية والتضحية الفعلية فى سبيله ، ولقد كان لينين يحذر المثقفين الوطنيين والثوريين من مثل هذا الفهم والتصرف البرجوازى المشوب بالمثـالية بالقول : انكم تقترفون خطـأ جسيما اذا ما شئتم أن تستنتجوا أنه بالامكان أن يصبح المرء شيوعيا دون استيعاب المعارف التى كدسها العلم البشرى ، ومن الخطـأ التفكير بأنه يكفى استيعاب الشعارات الشيوعية(١٨) ٠

وعلى العكس من ذلك ففى معظم البلدان النامية — كما يقول بوتومورو — قد تكون الأفكار التقليدية أكثر قوة وأشد انسجاما مع الماركسية ٠٠ لكن تأثير المثقفين الثوريين قد يظل ضعيفا ، أما لوجود سلطات حاكمة فعالة تقيم سياستها على المذاهب القومية أو اللبرالية ، واما لأن المثقفين معزولين عن بقية السكان نتيجة ثقافتهم الغربية ٠ وقد لا يمثل المثقفون فى بعض المواقف جماعة سياسية فعـالة على الاطلاق(١٩) ٠ وهكذا تنقلب المقاييس العلمية والنضالية الحقة فى أذهان مثل هؤلاء المثقفين رأسا على عقب رغم صـدق توجههم الوطنى ونواياهم الطيبة الى نزعة شوفينية خطيرة ، وتشوه اجتماعى وسياسى واضح ، ينتهى بكل قضيتهم وما يحلمون به الى ما يشبه الميكروب الغريب فى الجسم الذى تعمل كل أعضاؤه على محاصرته والتخلص منه تلقائيا ٠

وهناك أكثر من سبب وأكثر من عامل حقيقى يكمن وراء هذا الموقف أو التقدير الخاطىء للواقع من قبل معظم المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة وعدم قدرتهم على الوفاء بالتزاماتهم ازاء هـذا الواقع حتى الآن ، يأتى فى مقدمتها تعدد المصاعب والمشقات الحقيقية التى يصطدمون بها عند أول خطوة فى التعامل مع واقعهم الاجتماعى والتاريخى والقومى وما يتطلبه منهم من صبر ومثابرة وتضحية غير محدودة فى التنقيب والبحث والدراسة المستفيضة لواقعهم وخصوصياته وصـولا الى فهمه فهما علميا وتاريخيـا ناضجا وتأكيد توجههم الثورى والتقدمي الجديد من خلال ذلـك ، حيث ما تزال مثل هـذه المهمة هي أكبر من حدود طاقتهم وامكانياتهم الحقيقية واستعداداتهم الذاتية فى الوقت الحـاضر على الأقل ، رغم أن الوفاء بمثل

---

(١٨) المرجع السابق ، ص ١٢٠ ٠

(١٩) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ١١٥ ٠

هـــذه المهمة لا يشكل المهرجان الحقيقي على تأكيد وجودهم كطلائع ثورية جديدة لطبقات ثورية فحسب بل ان توفر مثل هـــذا الأمر يشـــكل المدخل التاريخي الأو ل والحاسم فى عملية احداث تحول اقتصادى واجتماعى ثورى وتاريخي حاسم بغير بديل .

فلقد أكد لينين على هذه الحقيقة في المؤتمر الأول للمجالس الاقتصادية قائلا : يجب أن نفهم كياننا الإقتصادي خلال عملية العمل ذاتها مجربين للنظم المتنوعة مراقبين لعملها ، مختبرين اياها بالخبرة الجماعية العـامة للشعب العامل ، وفوق ذلك كله بنتائج العمل ، يجب أن نفعل ذلـــك خلال عملية العمل ذاتها(٢٠) وفى كل مرة كانت الثورة تتقدم خطوة الى الأمام كان لينين يصرخ بفرح وتواضع : لقد بدأنا نتعلم أيها الرفاق وما يزال علينا أن نتعلم الكثير لأن تجربتنا هى الأولى من نوعها فى التاريخ(٢١) .

الا أن المثقفين الوطنيين فى المجتمعات المتخلفـــة يلجأون بدلا من ذلك وبدافع من العجز والشح فى التضحية وانعـــدام الصبر والمثابرة المصيرية ومغالطة الذات أحيـــانا فى محاولة اثبـات هويتهم الاجتماعية والسياسية كتقدميين ثوريين ، يلجأون الى الاسراف فى التشيع لبعض العوامل الثانوية فى النضال الوطنى والتضخيم من حجمها أكثر من اللازم والتورط فى طرحها وكما لو كانت هى جوهر المشكلة وجوهر الحل فى الوقت نفسه ، كالجدل العميق حول بعض القضايا النظرية البحتة ووجهات النظر الفردية والجماعية المتباينة الى هذا الحد أو ذاك ... الخ .

ذلك أن قراءة كتابا معقدا فى السياسة والفلسفة أو غير ذلك والمجادلة فيه ومن خلاله فى قضايا نظرية بحتـــة بلا كلل ما يزال بالنسبة للمثقف الوطنى فى بلد متخلف هو أيسر عليـــه وأقرب الى نفسه ألف مرة من أجل اثبات وطنيته من أن يقوى على مغادرة المدينة والوظيفة الناعمة والعودة الى أسرته وقريته من جديد والبحث فيما اذا كانت هناك عادة شعبية ما حسنة فى حياة الفلاحين يمكن تطويرها والانطلاق منها فى خدمة النضال والتحول ، وأخرى سيئة يمكن محاصرتها والتغلب عليها من خلال الناس أنفسهم والعمل

---

(٢٠) راجع مجلة الطليعة المصرية عدد ابريل ١٩٧٠ ص ٧٢ (عدد خاص عن لينين فى الذكرى الخمسين لوفاته) .

(٢١) حمود العودى : المنظور العلمى للثقافة ، طبعة القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٨٧ و ٨٨ .

معهم وبهم ؛ بصبر وتواضع وبعيدا عن الغرور والأنانية وفى هدوء بغير ضجيج وبلا ترف ذهني ٠

ذلك أن الماركسية ـ كما يقول لينين لم تطرح جانبا على الاطلاق أثمن مكتسبات العهد البرجوازى ، بل بالعكس ، استوعبته وأعادت صياغة كل ما كان ذا قيمة في تطور الفكر البشرى والثقافة البشرية خلال أكثر من ألف عام ٠٠ ويضيف مؤكدا : لا اختلاق لثقافة بروليتارية جديدة ، بل تطوير خبرة نماذج وتقاليد ونتائج الثقافة الموجودة(٢٢) ٠

فوسائل التثقيف والاعلام والنشر والدراسات المكثفة عن المفاهيم النظرية العلمية والتجارب الاشتراكية والتقدمية الناجحة جملة وتفصيلا فى المعسكر الاشتراكى بصفة عامة ، وفى مقابل الندرة ، ان لم يكن الانعدام شبه التام لمثل هذه الدراسات والوسائل بالنسبة لمجموعة الشعوب النامية والمتخلفة ـ على نحو ما سبقت الاشارة فى مكان سابق من هذا البحث ـ قد ساعد الى حد كبير على اختلال التوازن بين العوامل الداخلية والذاتية والعوامل الخارجية بصفة عامة ، وبين ما هو رئيسى وثانوى فى تركيب أولويات النظام الوطنى فى هذه الشعوب وبين مثقفيها الوطنيين على وجه التحديد ٠ حيث صارت كثير من القضايا الجوهرية تبدو وكأنها مقلوبة على رأسها ، وتحل القضايا التكتيكية محل القضايا الرئيسية والعوامل الثانوية محل العوامل الرئيسية فى كثير من الأمور على نحو ما سبقت الاشارة ، ففى اليمن مثلا نجد الآن ـ كما يقول عبدالفتاح اسماعيل ـ أن أكثر مثقفينا ولعا بالثقافة والأدب يفهمون جيدا ما يدور من جديد على الصعيد الثقافى فى الوطن العربى والخارجى ، ويفهمون أيضا أدبيات الاشتراكية العلمية ، لكنهم لا يعطون اهتماما ولا يوجهون جهودهم الثقافية لمعرفة ثقافتهم الوطنية ٠٠ فغالبيتهم ما يزالوا يعانوا من فقر فى هذا الجانب ، بينما نجد أن كبار

---

(٢٢) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، ص ١٤٧ و ١٤٨ ٠

المثقفين الاقطاعيين والرجعيين ـ وهم ضد كل تطور وتقدم ثقافى ـ هم حفظة للتراث الكلاسيكي اليمنى فى التاريخ والأدب(٢٣) ·

وبعد ، فان البعض قد ينتظر منا أن نبــدأ بتعداد أسباب النجــاح وتحليلها كما فعلنا فى تحليل أسباب العجز والتعثر ، ونحن لا نرى ضرورة لذلك بأى حال لأن ادراك الخطــأ والوعى به هو نصف الطريق الى الحل والنجاح ان لم يكن هو النجاح الحقيقى نفسه ، لأن ما بعد معرفة الطريق الصحيح وتحديد معــالمه بدقة هو أمر يهم السائرين عليه أكثر من غيرهم والألف ميل يبدأ بخطوة واشعال شمعة خير من لعن الظلام ·

---

(٢٣) عبد الفتاح اسماعيل : فى كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ، دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢٦ ·

المراجع

- لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم ، موسكو .
- حمود العودى : المنظور العلمي للثقافة ، دراسة خاصة عن المجتمع اليمنى ، طبعة القاهرة ١٩٧٧ .
- د. محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
- عدد من المثقفين اليمنيين : مناقشات حول الثقافة اليمنية ، دار ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٧٥ .
- د. محمد على محمد وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ .
- د. دورسون : نظريات فى الفولكلور المعاصر ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى والدكتور حسن الشامى ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ١٩٧٢ .
- د. محمد نبيل السمالوطى : علم اجتماع التنمية ، دراسة فى اجتماعيات العالم الثالث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .
- حمود العودى : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية . دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية ، ١٩٨٠ .
- مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ترجمة الدكتور داود حيدو ومصطفى الدباس ، الطبعة الثانية ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٤ .
- بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ .
- لينين : المؤلفات ، المجلد السابع .

- روجيه جارودي : النظرية المادية في المعرفة ، تعريب ابراهيم قريط ، دار دمشق للطباعة والنشر .

- نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع نشأتها وتطورها ، ترجمة الدكتور محمود عودة وزملاؤه ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة ١٩٧٨ .

- س. ى. بوبوف : نقد علم الاجتماع البرجوازى المعاصر ، ترجمة نزار عيون السود ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٧٣ .

- موريس دوفرجيه : مدخل الى علم السياسة ، ترجمة جمال الأتاسى وسامي الدروبى ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٦٧ .

- لينين : كتاب ما العمل ، دار التقدم ، موسكو .

- رودلفو استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، نقله الى العربية ناجى أبو خليل ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٢ .

- بول بايروك : مأزق العالم الثالث ، ترجمة ونشر دار الحقيقة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ .

- د. محمود الكردى : التخلف ومشكلات المجتمع المصرى ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ .

- د. أحمد شلبى : الديانة الهندية واليهودية والمسيحية والاسلام ، سلسلة مقارنة الأديان من أربعة أجزاء ، دار نهضة مصر ، طبعة ١٩٧٧ .

- سلطان أحمد عمر : نظرة فى تطور المجتمع اليمنى ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ .

- عبد الفتاح اسماعيل : كتابات مختارة حول الثورة الوطنية الديمقراطية وآفاقها الاشتراكية ، دار الفارابى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ .

- الثورة الوطنية الديمقراطية فى اليمن : سلسلة وثائق : دار بن خلدون بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢ .

ـ د. سيد عويس ، حديث عن الثقافة ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، ١٩٧٠ .

ـ فردهولايد : الصراع السياسى فى الجزيرة العربية (اليمن ـ السعودية ـ عمان) دار ابن خلدون ، بيروت ، ترجمة حازم صاغيه وسعد محيو ، ١٩٧٨ .

ـ حمود العودى : التنمية وتجربة العمل التعاونى فى اليمن ، طبعة القاهرة ، ١٩٧٧ .

ـ لجنة من تنظيم الضباط الأحرار : أسرار ووثائق الثورة اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ .

ـ هارولد انجرمان : اليمن الحكام والثورات ، طبع فى بريطانيا بالعربية ، عام ١٩٦٢ .

ـ عبد الله جزيلان : التاريخ السرى للثورة اليمنية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ .

ـ الجهاز المركزى للتخطيط صنعاء : كتاب الاحصاء لعام ١٩٧٦ .

ـ مجلة عالم الفكر الكويتية : عدد ابريل ـ مايو ١٩٧٩ (عن الاغتراب)

ـ محمد يحى الحداد : تاريخ اليمن السياسى ، عالم الكتب المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٦ .

ـ عبد الله الكميم : مؤشرات المستقبل التعليمى واختلال توازنه فى الجمهورية العربية اليمنية ، مقال فى مجلة الغد اليمنية ، عدد يناير ـ فبراير ١٩٧٨ .

ـ حمود العودى : نحو رؤية وقراءة جديدة للتاريخ والتراث ، دراسة فى مجلة الغد اليمنية ، عدد مارس ـ ابريل ١٩٧٨ .

ـ د. محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام ، مؤسسة روزاليوسف بمصر .

ـ عبد الله الأصنج : كتيب هذا موقفنا ، الصادر عن حزب الشعب الاشتراكى فى عدن عام ١٩٦٣ .

ـ عادل رضا : ثورة الجنوب تجربة النضال وقضايا المستقبل ، دار المعارف المصرية ١٩٦٩ .

- مقررات المؤتمر الرابع للجبهة القومية ، مارس ١٩٦٨ ·

- لينين : الى الفلاحين الفقراء ، دار التقدم ، موسكو ·

- لينين - ماركس - انجلز : الماركسية ، دار التقدم ، موسكو ·

- مجلة الطليعة المصرية عــدد ابريل ١٩٧٠ (عــدد خاص عن لينين فى الذكرى الخمسين لوفاته) ·

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

بطاقة المؤلف :

* من مواليد اليمن عام ١٩٤٦ ، حصل على الثانوية العامة من صنعاء عام ١٩٦٦ وعلى درجة الليسانس فى الآداب من قسم الدراسات الاجتماعية بجامعة القاهرة عام ١٩٧٠ • اشتغل فى مجال الشباب والشئون الاجتماعية ما بين عامى ١٩٧١ الى ١٩٧٤ ، وشغل منصب وكيل وزارة الشئون الاجتماعية والعمل خلال عامى ١٩٧٥ و ١٩٧٦ •

* ترك العمل بالوزارة والتحق بهيئة التدريس بجامعة صنعاء ، وحصل على درجة الماجستير فى الاجتماع بامتياز عام ١٩٧٩ من جامعة القاهرة ، ويعد لرسالة الدكتوراه •

* صدرت له مجموعة دراسات ومقالات فى التراث والتنمية كان أولها كتاب المنظور العلمي للثقافة دراسة عن المجتمع اليمني ، عام ١٩٧٣ ، ثم كتيب عن التراث وعلاقته بالتنمية عام ١٩٧٦ ، ثم دراسة عن التنمية وتجربة العمل التعاوني فى اليمن عام ١٩٧٧ وبحث صغير عن الديمقراطية والديمقراطية التعاونية فى نفس العام •

* وصدر له أول عمل أكاديمي علمي متكامل عام ١٩٨٠ وهو كتاب التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى وهو البحث الذى حصل به على درجة الماجستير ، ثم هذا البحث الذى بين أيدينا ، وله بحث آخر تحت الطبع عن المدخل الاجتماعى فى دراسة التاريخ والتراث العربى •

* تولى اصدار مجلة (الغد) وهى مجلة يمنية متخصصة ، فى الفترة ما بين عام ١٩٧٥ و ١٩٧٨ وله فيها عدة مقالات وأبحاث مختلفة فى التنمية وعلم الاجتماع • وصدرت عن هذه المجلة مجموعة كتب باسم سلسلة كتاب الغد رغم توقف المجلة عن الصدور مؤقتا ولأسباب غير عادية •

الناشر : عالم الكتب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٠/٣٣٨٥

مطبعة أطلس
١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية
تليفون : ٧٤٧٧٩٧ ـ القاهرة

* فى مرحلة الانعطاف الاجتماعى الشديد الذى يجرى فى عدد من البلدان المتحررة فى آسيا وافريقيا ، على المثقفين أن يختاروا ، اما الوقوف مع الشعب فى سبيل الاشتراكية واما مناهضة المستقبل الاشتراكى ·

عدد من الباحثين السوفيت

* ان سندنا مكين ، ونحن لم يخامرنا الشك يوما فى ميوعتكم ورخاوتكم ، أما أننا بحاجة اليكم فهذا ما لا ننكره ، لأنكم كنتم العنصر المثقف الوحيد ·

لينين

* اننا لا نستطيع أن نتصور بصدد المثقفين اليمنيين الوطنيين أن تكون هناك ثقافة أممية بدون أن يكون لها أساس ثقافى وطنى ·· فلكى يطل المثقف اليمنى على رحاب الثقافة الأممية والانسانية عليه أن ينطلق من ثقافته الوطنية ·· فالمثقف الوطنى الجيد هو المثقف الأممى الجيد ·

عبد الفتاح اسماعيل